

أحياء العلماء الذين

تصنيف

الإمام ميرزا أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغنى عن حمل الأسياف في الأسياف

في تخرج ما في الإحياء من الأخبار

للمعلمة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسن العارفي

المتوفى في سنة ٨٠٦ هـ

٥٠٦

وتماما للثمن المحققا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول : تعريف الأحياء بمضائل الإحياء للمعلمة غيد القادر بن شيخ بن عبد الله
ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي :

الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء للإمام الغزالي ، وذهب اعتراضات
أوردتها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء .

الثالث : عوارف المعارف : للعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

الجزء الرابع

المكتبة التجارية الكبرى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب التوبة

وهو الكتاب الأول من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبجمده يتنعم أهل النعم في دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب ، ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب ، أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

ونصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تتقدنا من هول المطلع يوم العرض والحساب . وتمهد لنا عند الله زلنى وحسن مأب .

أما بعد ؛ فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر بالأولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم ، فهي شذشنة نعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ولكن الآب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النقي والإلبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سن الندم ، وتندم على ماسبق منه وتقدم . فمن اتخذ قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافي بحجة الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين ؛ فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والتجرد للشر شيطان ، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ؛ فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان ، واضطحب فيه بجيتان . وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ؛ فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان ، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ؛ فإما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد

لمحض الخير فخرج عن حيز الإمكان ؛ فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين : نار الندم أو نار جهنم ، فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار. إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربيع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها ، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : (الركن الأول) في نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة . (الركن الثاني) : فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر . (الركن الثالث) : في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ماضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة . (الركن الرابع) : في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين . ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل .

الركن الأول : في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتزم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل . فالعلم الأول والحال الثاني ، والفعل الثالث . والأول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه إطراد سنة الله في الملك والمملوك . أما العلم ، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محقة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال ، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنوب الذي كان ملائماً ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب المفوت للمحسوب إلى آخر العمر ، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر ، فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيشمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرق على الهلاك فتشعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته للالتهاض للتدارك ، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة ^(١) » ، إذ لا يخلو الندم عن علم

(١) حديث « الندم توبة » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أسد وفان صحيح على شرط الشيخين .

أوجبه وأثمه ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ؛ فيكون الندم محفوفاً بطرفيه أعنى ثمرته ومثمره ؛ وبهذا الاعتبار قيل في حدّ التوبة إنه ذو بان الحشا لما سبق من الخطأ ؛ فإن هذا يعرض لمجرد الألم ، ولذلك قيل : هو نار في القلب تلهب ، وصدع في الكبد لا ينشعب ، وباعتبار معنى الترك قيل في حدّ التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل ابن عبد الله التستري : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة ، والآويل في حدود التوبة لا تنحصر ؛ وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها ، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار (١) والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدرت على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه ، وإما بصير يهdy إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام ، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتحير ؛ فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده يختصر وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان ، وهو لشدة نور باطنه يجتزئ بأدنى بيان ، فكأنه يكاد زيتته يضيء ولو لم تمسه نار ؛ فإذا مسته نار فهو نور على نور يهdy الله لنوره من يشاء ، وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة ، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي ، ثم إلى الوجوب ما معناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها ، وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لو لا تعاقب السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى . وقول القائل : صار واجباً بالإيجاب ؛ حديث يحض فإن مالا غرض لنا آجلاً وعاجلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به ، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه ؟ فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهى محترق بنار الفراق ونار الجحيم . وعلم أنه لا مبعث عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالسكينة على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره والمحبته له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب ، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم ، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد ، وما لم يتوجع فلا يرجع ، ومعنى الرجوع الترك والعزم ، فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة : أخرج مسلم من حديث الأغر المزني « يا أيها الناس توبوا إلى الله ... الحديث » وابن ماجه من حديث جابر « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا ... الحديث » وسنده ضعيف .

إلى المحبوب ، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة ، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ... ﴾ الآية ومعنى النصوح : الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذاً من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ وقال عليه السلام « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له »^(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ؛ فالتفت إلى الله تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته^(٢) . وفي بعض الألفاظ « قال من شدة فرحه إذ أراد شكر الله : أنار بك وأنت عبيدي » ويروى عن الحسن قال : لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا : يا آدم قوت عينك بتوبة الله عليك ، فقال آدم عليه السلام : يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي ؟ فأوحى الله إليه : يا آدم ورثت ذوبك التعب والنصب وورثتهم التوبة ، فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك ، ومن سألتني المغفرة لم أبخل عليه لأنني قريب بحبيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب . والاختبار والآثار في ذلك لا تحصى ، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها ؛ إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى ، وهذا داخل في وجوب الإيمان ، ولكن قد تدهش الغفلة عنه ، فعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ، ولا خلاف في وجوبها . ومن معانيها : ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ماسبق من التقصير في سابق الأحوال ، وذلك لا يشك في وجوبه . وأما التندم على ماسبق والتحزن عليه فواجب ، وهو روح التوبة ، وبه تمام التلافي ، فكيف لا يكون واجباً ، بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بمافات من العمر وضاع في سخط الله .

فإن قلت : تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار ، فكيف يوصف بالوجوب ؟ فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه ، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإن ذلك محال ، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ هذا هو الحق عند ذوى الأبصار وما سوى هذا ضلال .

« فإن قلت : أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك ؟ قلنا : نعم وذلك لا يناقض قولنا : إن الكل من خلق الله تعالى ، بل الاختيار أيضاً من خلق الله ، والعبد مضطر في الاختيار الذي له ، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة

(١) حديث « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشرط الثاني دون الأول ، وأما الشرط الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف « أن الله يحب الشاب التائب » ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث علي « أن الله يحب العبد المؤمن المفلح التواب » (٢) حديث « لله أفرح بتوبه عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس . زاد مسلم في حديث أنس « ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبيدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصراً .

وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة ، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجز الإرادة الباعثة على التناول ؛ فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ، ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه ؛ فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة ، إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا ، فتحصل الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ، وهما أيضا من خلق الله ، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع ، وهما أيضا من خلق الله تعالى ، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة مجزومة ، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس ، ولا يذبح هذا الميل انبعثا تاما ما لم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المسأل ، ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم ؛ فالعلم والميل الطبيعي أبدا يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبدا تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب في كل فعل ، والكل من اختراع الله تعالى ، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض ، فذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم ؛ فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ، ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لأن العلم يتولد من الحياة ، ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة لأن العلم يولد الإرادة ، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم ، ولا يدخل في الوجود إلا يمكن ، والإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال ، فهما وجد شرط الوصف استعداد المحل به لقبول الوصف لحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ، ولما كان الاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب ، والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة ؛ وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كالمصير ترتيبا كليا لا يتغير ، وظهرها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وعن القضاء السكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ، ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة ، وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة ، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملوكوت ، وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ، ونودي من وراء حجاب الغيب وسراقات الملكوت : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وما قتلت إذ قتلت . ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم . وعند هذا تهجير عقول القاعدين في بحبوخة عالم الشهادة ؛ فن قائل إنه جبر محض ، ومن قائل إنه اختراع صرف ، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملوكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه ، وأن القصور شامل لجميعهم . فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحيط عليه بجوانبه ، وتسام عليه ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب ، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول . وقد يطلع على الشهادة

من لم يدخل في حيز الارتضاء ، ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه .

• فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض ، فكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟ فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه ، فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفة باللس الذي نقدر عليه ، فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه فوق يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه ، فقالوا قد عرفنا انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم ، فقال الذي لمس الرجل : إن الفيل ماهو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها ، وقال الذي لمس الناب : ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلط الأسطوانة أصلا بل هو مثل عمود ، وقال الذي لمس الأذن : لعمرى هو لين وفيه خشونة ، فصدق أحدهما فيه ولكن قال : ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ، ولكنهم يحملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل ، فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر ما يختلف الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا ، فلنرجع إلى ما كنا بصده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة : العلم والندم والترك ، وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقعا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمل .

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه ، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور المتقضى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه ، فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل ، بل هى من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التقصى عن عهده ما لم يصر باعثا عليه ؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا لتركها ، فمن لم يتركها فهو فاقده لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله عليه السلام « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »^(١) ، وما أراد به نفي الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي ، وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للقتل ، كما إذا قال الطيب : هذا سم فلا تتناوله ، فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطيب وكونه طيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك ؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا ، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمالة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الإنسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إمالة الأذى عن البشرية بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نقي البشرة عن

(١) حديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسله الملوثة بأروائها المستكرهه الصور بطول مخالها وأظلالها ، وهذا مثال مطابق ، فالإيمان كالإنسان وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالسكينة كفقده الروح ، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كالإنسان مقطوع الأطراف مفقوع العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لأصل الروح ، وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها ؛ فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده ؛ فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعها لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة لا ما يسقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت . وقول العاصي للطبع إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر : أنا شجرة وأنت شجرة ، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار :

سوف ترى إذا انجلى الغبار * أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة ، وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون ؛ فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالبا لا يقع فجأة ، فيقال له : الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض يخاف الموت ، وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار ؛ فالعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكذلك المعاصي ، فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك ، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة لتلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر ، فإن الخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم ، وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تتصرم أعمار الدنيا دون عشر عشر مدته ، إذ ليس لمدته آخر ألبتة ؛ فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجح بعد ذلك نصيح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ، ويدخل تحت عموم قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقحمون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ولا يغترنك لفظ الإيمان ، فنقول : المراد بالآية الكافر ، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزاني لا يرزى حين يرزى وهو مؤمن ، فالحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل ، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل ؛ فلا بقاء للأصل دون الفرع ،

ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد : وهو أن وجود الفرع وبقائه جميعا يستدعى وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع ، فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع ، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها ، فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ، ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر ، كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبته

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه ، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان ، ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان . إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين ، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ ، ومبادئه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لا يثبت أحدهما الآخر لأنهما ضدان ، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة ، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المسكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدريج ، فإن لم يقو ولم يكمل سلبت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال ﴿ لاحتسكن ذريته إلا قليلا ﴾ وإن كمل العقل وقوي كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات ، ولا معنى للتوبة إلا هذا ، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيه الشيطان ، إلى طريق الله تعالى ، وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة ، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبيا كان أو غيبيا ، فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام ، وقد قيل :

فلا تحسبن هذا لها الغدر وحدها سجية نفس ، كل غانية هند

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تبدل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها ، فإذا بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره ، فإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام ، فإنه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والانفساك والاسترسال ، وهو من أشتق أبواب التوبة ، وفيه هلك الآكثرون إذ عجزوا عنه ، وكل هذا رجوع وتوبة ، فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم ، مخلقة الولد لا تنسع لما لم يتسع له خلقه الوالد أصلا . وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو

أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه ، إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم ، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب ؟ فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون في المقادير ، فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال عليه السلام : إنه لينان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة (١) ، الحديث ، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟ .

فإن قلت : لا ينبغي أن ما يطرأ على القلب من المعلوم والخواطر نقض ، وأن السكال في الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وإنه كلما ازدادت المعرفة زاد السكال ، وأن الانتقال إلى السكال من أسباب نقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لأفرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال ، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة ، إذ إدراك السكال غير واجب في الشرع : فما المراد بقولك : التوبة واجبة في كل حال ؟ فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدل خلقته من اتباع الشهوات أصلا ، وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ماضى ، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة ، فإن تراكت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثا ، كما قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) فإذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه ، كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ، ولا يمكن في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل ، بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب ، كما لا يمكن في ظهور الصور في المرأة قطع الانفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الأريان ، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات ، فتتمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : أتبع السيئة الحسنة تمحها (٢) ، فإذا لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات ؛ هذا في قلب حصل أولا صفاءه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة ؛ فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل ؛ إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصل عن المرأة كشغله في عمل أصل المرأة ؛ فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلا ، وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك : إن هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال ، فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته وتركوا المعاش ورفضوا الدنيا بالكلية ، ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية ، فإنه مهما فسدت المعاش لم يتفرغ أحد للتقوى ، بل شغل الحياة

(١) حديث : إنه لينان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة . أخرجه مسلم من حديث الأفرامزني ، إلا أنه قال : في اليوم مائة مرة . وكذا عند أبي داود ، والبخاري من حديث أبي هريرة : (أني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة) . ورواية البيهقي في الذهب : سبعين . لم يقل : أكثر . وتقدم في الأذكار والبدعوات (٢) حديث : أتبع السيئة الحسنة تمحها . أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر زيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح ، وقد تقدم في رياضة النفس .

والحرارة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه ، لجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار ، والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين ، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال : الطهارة واجبة في صلاة التطوع أى لمن يريد بها ، فإنه لا يتوصل إليه إلا بها . فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها ، كما يقال : العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان ، يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا ، فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كالحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل ، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة ، وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنهى الحياة يجرى بجرى الأعضاء والآلات التى بها تنهى الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم للأدب الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجراً في منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال: نعم، وما الذى حدث فقال : توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض ، وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم ، أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً في فتاوى العامة؟ أفترى أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذى كان عليه علم في صلاته حتى نزعه ^(١) وشغله شراك نعله الذى جتده حتى أعاد الشراك الخلق ^(٢) لم يعلم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذى شرعه لسكافة عباده ، فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثراً في قلبه أثراً يمنع عن بلوغ المقام المحمود الذى قد وعد به؟ أفترى أن الصديق رضى الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر؟ وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجه؟ فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ، فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله ، وإياك مرة واحدة أن تغترك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغترك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استنشق مبادئ روائعها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهر نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة ، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكأوه منها أشد ، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهر نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد ، وأى جواهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيتاً ، وإن صرفتها إلى معصية

(١) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم الثوب الذى كان عليه في الصلاة : تقدم في الصلاة أيضاً (٢) حديث نزعه الصراك الجديده وإعادة الصراك الخلق : تقدم في الصلاة أيضاً .

فقد هلكت هلاكا فاحشا . فإن كنت لا تبكي على هذه المعصية فذلك لجهلك ، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة ، فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته ، وقد رفع الناس عن التدارك .

قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه بقي من عمره ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بخلافها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعقب فيها ويتدارك تضييعه فلا يجد إليه سبيلا ، وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ﴾ فقليل : الأجل القريب الذي يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يا ملك الموت أخرني يوما أعتمر فيه إلى ربي وأتوب وأترود صالحا لنفسي ، فيقول : فنيت الأيام فلا يوم ، فيقول : فأخرني ساعة فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، فيعلق عليه باب التوبة فيتفرغ روحه وتردد أنفاسه في شرايفه ، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال ، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ، ولكل هذا يقال ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ وقوله ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يقتدم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، ولذلك قال لقمان لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين (أحدهما) أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعها فلا يقبل المحو (الثاني) أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر : إن أكثر صياح أهل النار من التسوية^(١) ، فما هلك من هلك إلا بالتسوية ، فيكون تسويده القاب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة ، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيائته فأمره مخطر .

قال بعض العارفين : إن الله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام : (أحدهما) إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبيدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وأتممتك عاياه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني . (والثاني) عند خروج روحه يقول : عبيدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فالتاك على الوفاء ، أو أضعتها فالتاك بالمطالبة والعقاب . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ أو فوا بعهدى أوف بعهديكم ﴾ وبقوله تعالى ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ .

(١) حديث « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية » لم أجد له أصلا .

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة ، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما في الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الحسنة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة ، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويظهره ويذكره ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول ، فإنما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فبدول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له ، وهو المسمى فلاحا في قوله ﴿ قد أفلح من زكاه ﴾ ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ، ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما ، فكأنه لم يتلق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كفيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفاته نفسه ، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى به قلبه ، إذ بقلبه يعرف غير قلبه ، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه ، فمثال ذلك أن تراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان ثبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به ، فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية ، فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ، ولكننا نعصد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به ، وقد قال تعالى ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ وقال تعالى ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « الله أفرح بتوبة أحدكم ... الحديث » ، والفرح وراء القبول ، فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ^(١) » ، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ولا طاب إلا وهو قابل . وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ^(٢) » ، وقال أيضا « إن العبد ليذنب

(١) حديث « إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ... الحديث » رواه مسلم من حديث أبي موسى بالفظ « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ... الحديث » وفي رواية للطبراني « لمسيء الليل أن يتوب بالنهار . الحديث » (٢) - حديث « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة واسناده حسن بالفظ « لو أخطأتم » وقال « ثم تبتهم » .

الذنب فيدخل به الجنة ، فقيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يكون نصب عينه تائباً منه فإذا حتى يدخل الجنة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : كفارة الذنب الندامة ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

ويروى : أن حبشياً قال : يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة ؟ قال : نعم ، فولى ثم رجع فقال : يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها ؟ قال : نعم ، فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه ^(٣) .

ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة ، فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا حجت عنه التوبة ما دام الروح فيه ^(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ ^(٥) ، والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى (إنه كان الآوابين غفورا) في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم ، وحذر الصديقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبته .

وقال طاق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب . ويروى أن نبيا من أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه : وعزتي لئن عدت لأعذبك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تعصني لأعودن فعصمه الله تعالى .

وقال بعضهم : إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول إبليس : ليتني لم أوقعه في الذنب . وقال حبيب بن ثابت : تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول : أما إني قد كنت مشفقا منه ، : فيغفر له .

ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان ؛ فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم : تذكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى (إن يذنبوا

(١) حديث « إن العبد يذنب الذنب فيدخل به الجنة ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسل ، ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة « إن العبد يذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه ، فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له .. الحديث » وفيه صالح المري ، وهو رجل صالح لكنه مضطرب في الحديث . وابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر « إذا الله لينفع العبد بالذنب يذنبه » والحديث غير محفوظ ، قاله العقيلي . (٢) حديث « كفارة الذنب الندامة » أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس ، وفيه يحيى بن عمرو بن مالك الشكري ضعيف .

(٣) حديث : أن حبشياً قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال « نعم » الحديث لم أجده أسلا . (٤) حديث « إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح .. الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال : وعزتك يارب لا أزال أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم ، فقالة : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني ، أورده المصنف بصيغة : ويروى كذا ولم ينزه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرته احتياطا . (٥) حديث « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » لم أجده بهذا اللفظ ، وهو صحيح المعنى ، وهو يعني « أتبع السيئة الحسنة تمحها » رواه الترمذي وتقدم قريبها .

يغفر لهم ما قد سلف) فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا ، واقد بلغني أن توبة المسلم كما سلام بعد إسلام .

وقال عبد الله بن سلام : لا أحدنكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب ، نزل ، إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين .

قال عمر رضي الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة .

وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لي . قيل : ومتى ؟ قال : إذا تاب على .

وقال آخر : أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة ، أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة .

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر في المرأة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال : إلهي أطعك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة ، فإن رجعت إليك أتقبلني ؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا : أحببتنا فأحببناك ، وتركنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلتناك ، وإن رجعت إلينا قبلناك .

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب ، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا ، فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عى ولا بكى ، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولعت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للعالم واستلنا خشونة المضجع حتى ظفروا بجبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم وغاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة ، فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة .

فإن قلت : أفنتقول ما قالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله ؟ فأقول : لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله : إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ ، وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش ، وأنه إذا منع الماء مدة وجب العطش ، وأنه إذا دام العطش وجب الموت ، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى ، بل أقول : خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلًا للعطش ، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالى ، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة .

فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شك في قبول توبته ، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه ؟ فأقول شك في القبول كشك في وجود شرائط الصحة ، فإن للتوبة أركانًا وشروطًا دقيقة كإسباتي ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للإسهال فإنه هل يسهل وذلك لشك في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبيعته وجودة عقاقيره وأدويته ، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى ،

الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أن التوبة ترك الذنب ، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته ، وإذا كانت التوبة واجبة كان مالا يتوصل إليها إلا به واجبا ، فعرفة الذنوب إذن واجبة ، والذنوب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكاليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا ، ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها ، والله الموفق للصواب برحمته .

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أن للإنسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ، ولكن تنحصر مشاركات الذنوب في أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلط مختلفه ، فاقترض كل واحد من الأخلط في المعجون منه أثرا من الآثار كما يقتضى السكر والخل والزعفران في السكنجين آثارا مختلفة ، فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول : أنا ربكم الأعلى ، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يمدوها ذنوبا وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لاكثر المعاصي كما استقصيناه في ربيع المهلكات (الثانية) هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال . (الثالثة) الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكذب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنه يتشعب الزنا واللوط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات . (الرابعة) الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشم والقتل واستهلاك الأموال ، ويتفرع عنها جل من الذنوب ، وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة ، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق . فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضرار السوء للناس ، وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح .

قسمة ثانية : أعلم أن الذنوب تقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد . فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة وقبلة النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير ، فأما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه ، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهيج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب ، وقد جاء في الخبر ، الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر ، وديوان لا يترك : فالديوان الذي يغفر : ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى : وأما الديوان الذي لا يغفر : فالشرك

بالله تعالى . وأما الديوان الذي لا يترك : فظالم العباد ^(١) ، أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعنى عنها .
 قسمة ثالثة : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد كثر اختلاف الناس فيها ، فقال قائلون :
 لا صغيرة ولا كبيرة ، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة ، وهذا ضعيف ، إذ قال تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون
 عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش
 إلا اللثم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرون ما بينهن إن اجتنبت الكبائر ^(٢) » ،
 وفي لفظ آخر « كفارات لما بينهن إلا الكبائر » ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص
 « الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس ^(٣) » ، واختلف الصحابة والتابعون في عدد
 الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك ، فقال ابن مسعود : هن أربع . وقال ابن عمر :
 هن سبع . وقال عبد الله بن عمرو : هن تسع . وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر : الكبائر سبع ، يقول : هن إلى
 سبعين أقرب منها إلى سبع ، وقال مرة : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة : وقال غيره : كل ما أوعده الله عليه بالنار فهو
 من الكبائر . وقال بعض السلف : كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة ، وقيل : إنها مهمة لا يعرف عددها
 كليلة القدر وساعة يوم الجمعة : وقال ابن مسعود لما سئل عنها : اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها
 عند قوله ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب
 المكي : الكبائر سبع عشر جمعتها من جملة الأخبار ^(٤) ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر

(١) حديث « الدواوين ثلاثة : ديوان ينفر... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة ، وفيه صدقة بن موسى
 الدبقي ضعفه ابن معين وغيره ، وله شاهد من حديث سلمان ، رواه الطبراني . (٢) حديث « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة
 تكفرون ما بينهن إن اجتنبت الكبائر » رواه مسلم من حديث أبي هريرة . (٣) حديث عبد الله بن عمرو « الكبائر الإشراف
 بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس » رواه البخاري .

(٤) الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف من أبي طالب المكي أنه قال : الكبائر سبع عشرة جميعها من جملة الأخبار ،
 وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم . الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمة ،
 والأمن من مكروه ، وشهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس ، والسحر ، وشرب الخمر والمسكر ، وأكل مال اليتيم ظلما
 وأكل الربا ، والزنا ، والواط ، والقتل ، والسرقه ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين . انتهى . وسأذكر ما ورد منها
 مرفوعا ، وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات »
 قالوا : يا رسول الله وما هي ؟ قال « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم
 واليتيم يوم الزحف . وقذف المحصنات المؤمنات » ولهما من حديث أبي بكر « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال « الشرك بالله ،
 وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور - أو قال قول الزور - » ولهما من حديث أنس : سئل عن الكبائر قل « الشرك بالله ، وقتل
 النفس ، وعقوق الوالدين » وقال « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : قوله الزور ، أو قال شهادة الزور » ولهما من حديث
 ابن مسعود : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم : قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت ثم أي ؟ قال « أن
 تقتل ولدك مخافة أن يعلم منك » قلت ثم أي ؟ قال « أن تزاني حيلة جارك » . والطبراني من حديث سلمة بن قيس : « لما هي
 أربع : لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تنفلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنا ، ولا تسرقوا » وفي الصحيحين من حديث
 عبادة بن الصامت : « يا أيها الناس على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنا ، ولا تسرقوا » وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس
 « الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر » وفيه موقفا على عبد الله بن عمرو « أعظم الكبائر شرب الخمر » وكلاهما ضعيف . ولابن
 من حديث ابن عباس بإسناد حسن : أن رجلا قال يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال « الشرك بالله ، والإياس من روح الله ، والقنوط
 من رحمة الله » وله من حديث بريدة « أكبر الكبائر الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، ومنع فضل الماء ومنع الفضل » وفيه صالح
 ابن حبان ضعفه ابن معين واللساني وغيرهما ، وله من حديث أبي هريرة « الكبائر أولهن الإشراف بالله » وفيه « والانتقال إلى
 الأعراب بعد هجرته » وفيه خالد بن يوسف السدي ضعيف والطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حنيفة في الكبائر « والتعرب
 بعد الهجرة » وفيه ابن لهيعة ، وله في الأوسط من حديث أبي بصير الحضري « الكبائر سبع » وفيه « والرجوع إلى الأعرابية بعد
 الهجرة » وفيه أبو بلال الأشمري ضعفه الدارقطني ، ولما تم من حديث غنيد بن عمير عن أبيه « الكبائر تسع » فذكر منها
 (٣ - - - - - أحياء علوم الدين - - - - -)

وغيرهم : أربعة في القلب وهي الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره . وأربع في اللسان ، وهي : شهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس - وهي التي يحق بها باطلاً أربطل بها حقاً ، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلاً ولو سواك من أراك . وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار . والسحر : وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة . وثلاث في البطن : وهي شرب الخمر والسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنان في الفرج وهما : الزنا واللواط . واثنان في اليدين وهما : القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين : وهي الفرار من الزحف الواحد من اثنتين والعشرة من العشرين . وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين ، قال : وجلة عقوقها أن يقسمها عليه في حق فلا يبر قسمهما ، وإن سألناه حاجة فلا يعطيها ، وأن يسبها فيضربها ، ويجوعان فلا يطعمهما : هذا ما قاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه ، فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر ، وهي جناية على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل ، فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له ، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفي الخبر « من الكبائر السبтан بالسبة ومن الكبائر استتالة الرجل في عرض أخيه المسلم »^(١) ، وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر^(٢) . وقالت طائفة كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ، وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهى كبيرة

= واستحلال البيت الحرام « ولطبراني من حديث وائلة « إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل » وله أيضاً من حديثه « إن من أكبر الكبائر أن يلتقي الرجل من ولده » ولمسلم من حديث جابر « بين الرجل وبين الشرك - أو الكفر ترك الصلاة » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « من الكبائر شتم الرجل والديه » ولأبي داود من حديث سعيد بن زبد « من أربى الربا الاستتالة في عرض المسلم بنير حق » وفي الصحيحين من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال لهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ولأنه لكبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالخميصة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله » الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكر « أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث ألس « عرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أو فيها رجل ثم لسيها » سكت عليه أبو داود واستتر به البخاري والترمذي . وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس « لاصنيرة مع إصرار » وفيه أبو شيبة الخراساني والحديث منسكراً يعرف به . وأما الموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، والبأس من روح الله . وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال : الكبائر الإشراك بالله ، والبأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التي حرم الله ، وقذف المحصنات ، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف ، وأكل الربا ، والسحر ، والزنا ، واليمين الغموس الفاجرة ، والنلول ، ومنع الزكاة . وشهادة الزور ، وكتمان الصمادة وشرب الخمر ، وترك الصلاة متعمداً وأشياء مما فرضها الله ، ونقض العهد ، وقطيعة الرحم . وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس : كل ذنب أصغر عليه العبد كبيرة ، وفيه الربيع بن صبيح يختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن ألس قوله : لاصنيرة مع الإصرار ، وإسناده جيد ؛ فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون ، إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم ، وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوفات . والبيهقي في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له : الكبائر سبع ، فقال : هي إلى السبعين أقرب . وروى البيهقي أيضاً في عن ابن عباس قال : كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم .

(١) حديث « من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استتالة الرجل في عرض أخيه المسلم » عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد ، والذي عندهما من حديثه « من أربى الربا استتالة الرجل في عرض المسلم بنير حق » كما تقدم . (٢) حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة : إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر . أخرجه أحمد والبراز بسند صحيح وقال « من الموقوفات » بدل الكبائر . ورواه البخاري من حديث ألس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن نرس وقال . صحيح الإسناد .

أم لا : لا يصح ، ما لم يفهم معنى الكبيرة ، والمراد بها كقول القائل : السرقة حرام أم لا ؟ ولا مطمع في تعريفه .
إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ثم البحث عن وجوده في السرقة ؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع ، وذلك لأن الكبير والصغير من الإضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه ، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا ، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه ، صغيرة بالإضافة إلى قتله . نعم للإنسان أن يطلق على ما توعده بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونعني بوصفه بالكبيرة : أن العقوبة بالنار عظيمة ، وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيراً إلى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم ، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فيقول : تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ، ثم يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها ، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها ، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ، ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر » فإن هذا إثبات حكم الكبائر . والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها ، وإلى ما يعلم إنها معدودة في الصغائر ، وإلى ما يشك فيه ، فلا يدري حكمه ، فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب للمسلم يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول : إني أردت بالكبائر عشرة أو خمسة ويفصلها فإن لم يرد هذا - بل ورد في بعض الألفاظ « ثلاث من الكبائر »^(١) ، وفي بعضها « سبع من الكبائر »^(٢) ، ثم ورد « أن السبطين بالسبة الواحدة من الكبائر » وهو خارج عن السبع والثلاث : علم أنه لم يقصد به العدد ، بل يحصر فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع ؟ وربما قصد الشرع إيهامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كل يمكن أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ، ونعرف أيضاً أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته . وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقاءه ، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإانس إلا ليعبدون ﴾ أي ليكونوا عبيداً ، ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه ، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء ، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « الدنيا مزرعة الآخرة »^(٣) ، فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان : النفوس والأموال ، فكل ما يستد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يستد باب حياة النفوس ويليه باب ما يستد المعاش التي بها حياة الناس ، فهذه ثلاث مراتب ، فحفظ

(١) حديث « ثلاث من الكبائر » أخرجه الشيخان من حديث أبي بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاث - الحديث ، وقد تقدم . (٢) حديث « سبع من الكبائر » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد « الكبائر سبع » وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر « من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر ... الحديث » ثم عد من سبعا . وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات » . (٣) حديث « الدنيا مزرعة الآخرة » لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً وروى الأقبلي في الضمراء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم « نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته ، الحديث ، وإسناده ضعيف .

المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ضرورى في مقصود الشرائع كلها ، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن تختلف فيها الملل ، فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد بيعته لإصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله ؛ أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال ، فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : (الأولى) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر ، فلا كبيرة فوق الكفر ، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل ، والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة ، وقربه بقدر معرفته ، وببعده بقدر جهله ، ويتلو الجهل الذى يسمى كفرا الآمن من مكر الله والقنوط من رحمته ، فإن هذا أيضا عين الجهل ، فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا ، ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من بعض ، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وأوامره ونواهيه ، ومراتب ذلك لا تنحصر ، وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة فى القرآن ، وإلى ما يعلم أنه لا يدخل ؛ وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك فى القسم المتوسط طمع فى غير مطمع . (المرتبة الثانية) النفوس إذ يبقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله ، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر ، لأن ذلك يصد عن المقصود وهذا يصد م وسيلة المقصود ، إذ حياة الدنيا لا تتراد إلا للأخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ، ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكر فى قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود . وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التى لا ينظم العيش إلا بها ، بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول ، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح ، وينبغى أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل ، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى القتال وينبغى أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته . (المرتبة الثالثة) الأموال فإنها معاش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما ، بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس ، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها . نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر ، وذلك بأربع طرق : أحدها الخفية ، وهى السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك . الثانى : أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأعنى به فى حق الولي والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة فى الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه . الثالث : تفويتها بشهادة الزور . الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا ، وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس : وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها . وأما أكل الربا فليس إلا أكل مال الغير بالتراضى مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع

في مثله ، وإذا لم يجعل الغضب الذي هو أكل مال الغير بغيره رضا وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع ، وإن عظم الشرع الزنا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالنصب وغيره وعظم الخيانة ، والمصير إلى أن أكل دائق بالخيانة أو النصب من الكبائر فيه نظر ، وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين ، فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وحقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر ، وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا ، لأن العقل محظوظ كما أن النفس محظوظة ، بل لا خير في النفس دون العقل ، فإذا أزيل العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر ، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر ، لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس ، والقطرة وحدها في محل الشك ، وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع ، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع ، ولا فلتتوقف فيه مجال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال في الريبة ، ولتناولها مراتب ، وأعظمها تناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره ، وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يمتدنون كل ما يجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس ، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن ، ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجزده لا يدل على كبره وعظمته ، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته ، فإن لم تقبل شهادته لحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات ، فإذا هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع ، فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف ، وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بنصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم ، وإجلالهم من أوطانهم ليس من الكبائر - إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه - فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر . فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنانعي بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات بحكم الشرع . وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه ، والمتوقف فيه بعضه مظهر للنفي والإثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة ، وإذن لا مطمع فيه - فطلب رفع الشك فيه محال .

* فإن قلت . فهذا إقامه برهان على استحالة معرفة حدها ، فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده ؟ فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام ، لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة ، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما ، وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس ، وكذلك اجتناب الكبائر

يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن موافقتها فيكفر نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه؛ فهذا معنى تكفيره، فإن كان عسينا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادراً ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكل من يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي مقدماته كسماع الملاهي والأوتار، نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع، فكل هذه أحكام أخروية، ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع، بل ورد بالفاظ مختلفات، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الصلاة إلى الصلاة كفارة، ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث: إشراك بالله، وترك السنة، ونكث الصفة ^(١)، قيل ما ترك السنة؟ قيل الخروج عن الجماعة. ونكث الصفة: أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لا محالة مبهماً.

• فإن قلت: الشهادة لا تقبل إلا لمن يجتنب الكبائر، والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة، وهذا من أحكام الدنيا فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر، فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر. وقال الشافعي رضي الله عنه: إذا شرب الخنق التبيذ حددته ولم أرد شهادته، فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة، فدل على أن الشهادة نفياً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر، بل كل الذنوب تقدر في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات. كالغيبة، والتجسس، وسوء الظن، والكذب في بعض الأقوال، وسماع الغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكل الشبهات، وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائداً على المصلحة، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجار، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمر الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك، ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات. وليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالاجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل، فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردّها لا إلى الكبيرة والصغيرة، ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لآثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة، وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم، والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة، كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر.

(١) حديث « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفة... الحديث أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد.

بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات في الآخرة

على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت ، وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت ، وبالآخرة حالتك بعد الموت ، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك ، يسمى القريب الداني منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة ، فإننا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ، ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ، ولذلك قال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ^(١) ، وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا الأمثال المحوجة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال ، وأعني بكثرة الأمثال ما نعرفه من علم التعبير ، ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة .

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال : إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر ، قال : صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنني أصب الزيت في الزيتون ، فقال : إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت في صغرك ، لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل ، فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صغره . وقال له آخر رأيت كأنني أقلد الدر في أعناني الخنازير ، فقال : إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال ، والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال ، وإتباعي بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقا ، وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا ، فال مؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا ، فإنه لم يختم به قط ، وإن نظر إلى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له ، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم في النوم ، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل ، فإذا ماتوا انتبهوا ، وعرفوا أن المثل صادق ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ^(٢) ، وهو من المثل الذي لا يعقله إلا العالمون ، فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصبعاً - تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق آدم على صورته ^(٣) ، فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك - تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . من ههنا زل من زل في صفات إلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول ، وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثله يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثل وتناقضه عنده ، كقوله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح ^(٤) فيثور الملحد لاحق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول : يا سبحان الله . الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما ؟ وهل هذا إلا

(١) حديث « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » لم أجده مرافقا ، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب .

(٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » تقدم (٣) حديث « إن الله خلق آدم على صورته » تقدم .

(٤) حديث « يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح ... » الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد .

محال ، ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحق عن معرفة أسرارهم فقال ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامى أنه جيء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر: صدقت والامر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبح وقع اليأس منه ، فإذا المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته ، وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرّفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له ، لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا ؛ فالرسول أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفًا بعباده وتيسيرا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل ، فقوله « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح » مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبتت المعاني فيها بواسطتها ، ولذلك عبر القرآن بقوله ﴿ كن فيكون ﴾ عن نهاية القدرة ، وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » عن سرعة التقلب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في « كتاب قواعد العقائد » من ربيع العبادات فليرجع الآن إلى الغرض ، فالمقصود أن تعريف توزيع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلنفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته . فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودرجاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتًا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا ألبتة ، فإن مدبر الملك والملوك واحد لا شريك له . وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها ، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأجناس . فنقول : الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون ، فإن كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له في أصل الدولة ، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بهلكه وعلو درجته ، ولا يخلى إلا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحقيقا بحز الرقبة أو تنكيلا بالمثل بحسب درجاتهم في المعاندة ، وتعذيب المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم ، فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر ، فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون ، فمن هالك ، ومن معذب مدة ، ومن ناج يجلس في دار السلامة ومن فائز . والفائزون ينقسمون إلى من يحملون في جنات عدن أو جنات المساوى أو جنات الفردوس ، والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة ، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر (١) ، وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت درجاتهم ، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي ، فلنذكر كيفية توزيعها عليها .

(١) حديث « ان آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة » أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأما أولهم مكانا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

(الرتبة الأولى) وهي رتبة المالكين ونعني بالمالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال ، وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجذرين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه ، فإن السعادة الآخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق ، والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون رب العالمين وبأنبيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب من محبوه فحول بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون مخترقاً نار جهنم بنار الفراق ، ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاءونا للحدور العين وإنما مطالبنا للقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لثيم كأن يعبد له لطلب جنته أو لخوف ناره ، بل العارف يعبد له لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحدور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها . إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، ونار جهنم لا تشغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحققر مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل :

وفي فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا ، فقد روى من غلب عليه الوجد فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة القدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه وترى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الغضب قطعة من النار (١) ، واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالاضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيوف إلا من حيث إنه يفرق بين جزئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام ، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحققره بالإضافة إلى ألم الجسم ، فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والوصولان وبين ألم الحرمان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً ولم يعتد ذلك أما وقال : العدو في الميدان مع الوصولان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوباً ، ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيقاً ، وذلك لمن استرقت صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب ، وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان ، وليس لكل إنسان قلب ؛ ولو كان لما صح قوله تعالى ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلساً من القلب ، ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر ، واللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدور كرسیه ، وسائر الأعضاء

(١) حديث « الغضب قطعة من النار » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه ، وقد تقدم .

عالمه ومملكته ، والله الخلق والامر جميعا ، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ هو الأمير والمملك لأن بين عالم الامر وعالم الخلق ترتيبا ، وعالم الامر أمير على عالم الخلق ، وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائع المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته ، ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل ، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر ، فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وحكمته يختص بها من يشاء ﴾ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ ولنعهد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب ، فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نورد لها .

(الرتبة الثانية) رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحمل بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه ، فإن رأس الإيمان هو التوحيد : وهو أن لا يعبد إلا الله ، ومن أتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة ، بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وهو أن تذر بالسكينة غير الله ، ومعنى قوله تعالى ﴿ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة ، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل ، وذلك قاذح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم ، فذلك يقتضى لاحالة نقصانا في درجات القرب ، ومع كل نقصان نار : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن ؛ فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين ، أحدهما : قوة الإيمان وضعفه ، والثاني : كثرة اتباع الهوى وقلته ، وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردة ما كان على ربك حتما مقضيا ﴾ ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأننا تيقنا أننا على النار واردون وشككنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان ^(١) قال الحسن : ياليتني كنت ذلك الرجل . واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث ، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد وأن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يغفر ؛ وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ، ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع ، إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد

(١) حديث « من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان » أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال الحملي عن أس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن مبيون .

والأنف والأذن وغيره ؛ فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع ، وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها . أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرتة فبكثرتها ، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات ؛ وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ وبقوله تعالى ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وبقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال ، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه ، وجانب العفو والرحمة أرجح ؛ إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمتي غضبي »^(١) ، وقال تعالى ﴿ وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض - أعنى الأركان الخمسة - ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط ، فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته ، إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمسة والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفرا للصغائر ، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب ، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه ، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشه راضية ، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرئين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمتعون عليه ، وإيمان كاشفي يحصل بالشرح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه ، فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم المقرَّبون النازلون في الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى ، وهم أيضا على أصناف : فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ؛ وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ؛ ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ، إذ الإحاطة بكسبه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل ؛ فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنزلة ؛ فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم . وأما المؤمنون إيمانا تقليديا فن أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقرئين ، وهم أيضا على درجات ؛ فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرئين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها - أعنى الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج ؛ فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام ، فإن تاب توبة نصوحا قبل أجل التحق بمن لم يرتكب ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلا ، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة ، لا سيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال

(١) حديث « سبقت رحمتي غضبي » أخرجه مسلم من إحد عشر أبي هريرة .

بأدنى شك وخيال ، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الحاتمة وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يعفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب ، ، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات ، وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين ، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ؛ ففي الخبر : « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف ^(١) » ، فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام ، كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين ؛ فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال ، بل هذا كقول القائل : « أخدمته جملا وأعطاه عشرة أمثاله » ، وكان الجمل يساوي عشرة دنائير فأعطاه مائة دينار ؛ فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشيره ، بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها ؛ فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته ، فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية ، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة ، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال : « أعطيته عشرة أمثاله » ، كان صادقا ، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون ؛ فإن روح الجوهري لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر ، فلذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول : « ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال » ، ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله : « إنني أعطيته عشرة أمثاله » ، والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الحواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق ، والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة ، إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « الجنة في السموات ^(٢) » ، كما ورد في الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا ، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة ، وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهري مرحوم إذا بلى بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذا بلى بالبليد الأبله في تفهيم هذه الموازنة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أرحموا ثلاثة : عالما بين الجهال ، وغنى قوم افتقر ، وعزيز قوم ذل ^(٣) » ، والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل ^(٤) » فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن ؛ فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ، إذ بلى بجماعة كان لا يربدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ، ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال : « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر ^(٥) » ، فإذا لا تخلو الأنبياء

(١) حديث « إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف » متفق عليه من حديث ابن مسعود .
 (٢) حديث كون الجنة في السموات : أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه « فإذا سألت الله فاسأله الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن » (٣) حديث « أرحموا ثلاثة : عالما بين الجهال ... الحديث » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أس ، وعيسى ضعيف ، ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال « عالم تلاعب به الصبيان » وفيه أبو البختري واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين . (٤) حديث « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » أخرجه الترمذي وصححه ، والنسائي في الكبرى ، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال : قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ فذكره دون ذكر الأولياء والمطهراني من حديث فاطمة « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ... الحديث » . (٥) حديث « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود .

عن الابتلاء بالجاهدين ، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ، ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين ؛ وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين ، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين ، فإذا عرفت هذه الدقائق فأمن بقوله عليه الصلاة والسلام « إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات ، وإياك أن تقتصر بتصدقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتسكون حمارا برجلين ، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، فأدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم ؛ فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونفسها بالإعراض عنها ، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله ، إذ ليس ذات الله مدركا في هذا العالم بالحواس الخمس ، وكل من نسي الله أنساه الله - لا محالة - نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك النرق إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لأنعمه ومتعزضا لنقمته إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة ، فإن البهيمة تتخلص بالموت . وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها ، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذه القالب الفاني وغربت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة . والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية ، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة ، إذ المرجع والمصير للكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ، ولذلك قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ﴾ فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه ؛ فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال ؛ فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ، ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله ، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبتة وأيدي الغافلين عن ماله ، ومدة الرقبة والمال مدة الحياة ، لحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان ، وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله . وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه ، إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل ، وهذا التوحيد متفاوت ، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال . ومنهم من له مقدار خردلة وذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار ، وفي الخبر يقال « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان »^(١) ، وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة ، والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود ، وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد ، فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك ، فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها ، ففي الأثر « إن العبد

(١) حديث « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان » الحديث تقدم .

ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة ياربنا هذا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير ، فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا إلى النار ، وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال : لا أفعل ، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها . وقال هو وغيره : ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي ، فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة ، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين ، فإن ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ، ولكن قد تثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه ، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم ، إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لها أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعفو والرضا وعمما يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام ، ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها ، فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة ؛ فإن الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب ، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى ، ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ، ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ولا قوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ما سعى ، وسعيه هو الذي يرى ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم ، تحقيقا لقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر ، إذ للبصر يمكن الغلط فيه ، إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا . ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ .

(الرتبة الثالثة) رتبة الناجين ، وأعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد ، وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم ، فاهم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف ، وحلول طائفة من الخلق ^(١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار ومن

(١) حديث حلول طائفة من الخلق بالأعراف : أخرجه البزار من حديث أبي سعيد الخدري : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال « هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم فنتعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة ، وهم على سور بين الجنة والنار ... الحديث » وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف . ورواه الطبراني من رواية =

أنوار الاعتبار ، فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم ؛ فهذا مظهر وليس بمستيقن ؛ والاطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة ؛ ويبعد أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء ؛ والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة . حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة ، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : وما يدريك ، (١) فإذا الإشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام .

(الرتبة الرابعة) رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين ، وهم المقربون السابقون ؛ فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون وما يلحق هؤلاء بمجاوز حد البيان ، والقدر الممكن ذكره مافصله القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان ، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وقوله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والعارفون مطالبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والأساور فإنهم لا يحرسون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبتك في الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار ؛ فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه ، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ، ويعبر على هذه الحالة بأنه فني عن نفسه ، ومعناه أنه صار مستغرقاً بغيره وصارت همومه هما واحداً وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لانفسه ولا غير نفسه ، وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن

= أني معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدني عن أبيه مختصراً ، وأبو معشر نجيح السندی ضعيف ، ويحيى بن شبل لا يعرف . ولما حكى عن حذيفة قال : « أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة ... الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين . وروى الثعلبي عن ابن عباس قال : الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحجرة وعلى وجعفر ... الحديث ، هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين .

(١) حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله وقال : ما يدريك . رواه مسلم ، قال المصنف : والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت : روى البخاري من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه « وأما الرجل الطويل الذي في الروضة إبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة » فقيل : يارسول الله ، وأولاد المشركين ؟ قال : أولاد المشركين « ولطبراني من حديثه : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : هم خدمة أهل الجنة » وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة ، وهو ضعيف يرويه عن عيسى ابن شعيب ، وقد ضعفه ابن حبان . وللتنسي من حديث الأسود بن سريع . كنا في غزاة لنا ... الحديث في قتل الذرية ، وفيه « ألا إن خياركم أبناء المشركين » ثم قال « لا تقتلوا ذرية وكل لسة تولد على الفطرة ... الحديث » وإسناده صحيح ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » وفي رواية لأحمد « ليس مولود يولد إلا على هذه الملة » ولأبي داود في آخر الحديث : يارسول الله أفرأيت من يموت وهو صنيذ ؟ فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وفي الصحيحين من حديث ابن عباس : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » ولطبراني من حديث ثابت بن الحارث الأصاري : كانت يهودي إذا هلك لهم صبي صنيذ قالوا . هو صديق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كذبت يهود ، مامن لسة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد ... الحديث » وفيه عبد الله بن لهيعة ، ولأبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والمودة في النار « وله من حديث عائشة : قلت يارسول الله ذراري المؤمنين ؟ فقال « نعم آبائهم » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قلت : فذراري المشركين ؟ قال « مع آبائهم » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » ولطبراني من حديث خديجة : قلت يارسول الله أين أطفالك منك ؟ قال « في الجنة » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قلت : أطفالك قبلك ؟ قال « في النار » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحارث وخديجة . وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين « هم من آبائهم » وفي رواية « هم منهم »

تخطر في هذا العالم على قلب بشر ، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والالوان على قلب الأصم والأبكم ، إلا أن برفع الحجاب عن سمعه وبصره ، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعاً أنه لم يتصور أن تخطر بباليه قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق ، وبرفعه ينكشف الغطاء ، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات ، والله الموفق بلطفه .

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب .

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الأعمال أدومها وإن قل »^(١) ، والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب ، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر ، فقلما يزن الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات ، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة ، فكل كبيرة تكشفها صغائر سابقة ولاحقة ، ولو تصورت كبيرة وخذها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به ، واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤخذ بما يجرى عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجرى في الغفلة ، وقد جاء في الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره »^(٢) ، وقال بعضهم : الذنب الذي لا يغفر قول العبد : ليت كل ذنب عملته مثل هذا ، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلته بجلال الله ، فإذا نظر إلى عظم من عصي به رأى الصغيرة كبيرة ، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها ، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين : لا صغيرة ، بل كل مخالفة فهي كبيرة ، وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين : وإنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات ، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر ، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثاله عن العارف ، لأن الذنب والمخالفة يسكب بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، فكلمة غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه ، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه ،

(١) حديث « خير الأعمال أدومها وإن قل » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « أحب » وقد تقدم .

(٢) حديث « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه ... الحديث » أخرجه البخاري ، من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين : أحدهما من النبي صلى الله عليه وسلم ، والآخر عن نفسه ، فذكر هذا وحديث « لله أفرح بتوبة العبد » ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا .

كما يقول : أما رأيتني كيف مزقت عرضه ، ويقول المناظر إني مناظرته : أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخرجته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل في التحارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحقتته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى ، فالمرضى الذي يفرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجي شفاؤه ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحله عنه وإمهاله إياه ولا يدري أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثما ، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به ، فيكون ذلك لآمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى ﴿ ويقولون في أنفسهم لو لا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله ، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به ، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر ، وفي الخبر « كل الناس معافي إلا المجاهرين ببيت أحدكم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه ^(١) » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك السر ؟ فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لا تذب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنبن ، ولذلك قال تعالى ﴿ المسافقون والمناقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على منصية ثم يهونها عليه . ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب ، وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة ، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا في العالم آماد متطاولة ، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفي الخبر « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا ^(٢) » ، قال تعالى ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس : ويل للعالم من الانباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق . وقال بعضهم : مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفي الإسرائيليات : أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهرا ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار ، فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنب ، والأخرى إخفائه ، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا . فإذا ترك التجميل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم ، وإن مال إلى التجميل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولا يقدر على التجميل إلا بخدمة السلاطين

(١) حديث « كل الناس معافي إلا المجاهرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « كل أمي » وقد تقدم

(٢) حديث « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله

وقد تقدم في آداب السكيب .

وجع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك ، فحركات العلماء في طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالرجح وإما بالخسران ، وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التى التوبة توبة عنها .

الركن الثالث : في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزيمة وقصدا ، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلا بينه وبين محبوبه ، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ، ولتمامها علامة ، ولدوامها شرط فلا بد من بيانها : أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتى . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر ، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبتة وبكاؤه ، وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شئ أدل على نزول العقوبة من المعاصى وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طيبيا : أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه ، لطال في الحال حزنه ، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت . من المعاصى على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار ، فآلم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى ، فعلمته صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر « جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة » (١) ، ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة . وفي الإسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه - وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يربح قبول توبته فقال - وعزتي وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه في قلبه .

فإن قلت : فالذنوب هى أعمال مشتهة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول : من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وآلمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت : لا ، فهو جحد للشهادة والضرورة ، بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا لشبهه به ، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون ، وذلك لعلبه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون ، فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها ، فهذا شرط تمام الندم وينبغى أن يدوم إلى الموت وينبغى أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل بما فيه ، ولم يكن ضرر التائب من سرقة وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب . وأما القصد الذى ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال ؛ وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال . وله تعلق بالماضى ؛ وهو تدارك ما فرط . وبالمستقبل ؛ وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت .

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من

(١) حديث « جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة » لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال « جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب » وقال أيضا « فالوعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب » وقال أيضا « التائب أسرع دمة وأرق نلدا » .

عمره سنة سنة وشهرا وشهرا ويوما ويوما ونفسا ونفسا ، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها ؟ وإلى المعاصي ما الذي قارفه . منها ؟

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهلة بشرط النية فيقضيها عن آخرها ، فإن شك في عدد ما فاتته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضى الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد .

وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض ؛ فيتعرف بمجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشغل بقضائه .

وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه - لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي - فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته ، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك ، فإن ذلك لا يحجزه أصلا ، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء .

وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج ، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد ، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا »^(١) ، والعجز الطاريء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج . فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

وأما المعاصي فيجب أن يفكش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه ويطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد ، كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجناة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملامه وغيره ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها »^(٢) ، بل من قوله تعالى ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فيكفر سماع الملامه بسماع القرآن وبمجالس الذكر ، ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ، ويكفر مس المصحف محدثا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقييله بأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه ، وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، والمتضادات هي التناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها ، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة ، وهذا التدرج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة

(١) حديث « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا ... الحديث » تقدم في الحج (٢) حديث « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أولا في آداب الكسب وبهذه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس .

به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السوء بها والخنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم يذبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له ، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم »^(١) ، وفي لفظ آخر « إلا الهم بطلب المعيشة » وفي حديث عائشة رضي الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه »^(٢) ، ويقال إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها ، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع .

فإن قلت : هم الإنسان غالبا بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة ؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له : كيف تركت الشيخ الكتيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثمكلى قال : فما له عند الله ؟ قال : أجر مائة شهيد . فإذا الهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا ، فإشغال منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسرو وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها ، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب . لأن تلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيدته والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعنى به الإيذاء المحض .

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فذوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول . وإن كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص ، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عندولى الدم ويحكمه في ، وحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا . ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى ، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب ، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين ، فإن أمر هذه إلى الوالى حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى أن ما عزين مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني فرده فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إني قد زنيت فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به لحفر له حفرة ثم أمر به

(١) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم » وفي لفظ آخر « إلا الهم في طلب المعيشة » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح .

(٢) حديث « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الهموم » وتقدم أيضا في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ « ابتلاه الله بالحزن » .

فرجم ، فكان الناس فيه فريقين : فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ماتوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم ^(١) » وجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله إني قد زينت فظهرني ! فردها فلما كان من الغد قالت : يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزا ، فوالله إني لحبلى : فقال صلى الله عليه وسلم « أما الآن فأذهبي حتى تضعي ، فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت : هذا قد ولدته قال « أذهبي فأرضعيه حتى تفطمي » فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت : يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ! فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتضح الدم على وجهه فسبها ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال « مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت . ^(٢) »

وأما القصاص وحدّ القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه ، وإن كان المتناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويح زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجره أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حدّ بلوغه بل من أول مدة وجوده ، فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي لإخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظلما مطالباً به ، إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ ، وليحاسب نفسه على الحيات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة ، وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه ، فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلفهم أو ليؤد حقوقهم ، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرّون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره . فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك بما لا يعرف ؟ وربما يكون الأجل قريباً ؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات . هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته .

أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به ، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والجرام .

وأما الجناية على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوقهم أو يعيهم في الغيبة فيطلب كل من تعرض له بلسان أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحداً واحداً منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة ، وأما من وجدته وأحله بطيب قلب منه فذلك بكفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته

(١) حديث : اعترف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربما وقوله « لقد تاب توبة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث النامدية واعترافها بالزنا ورجعها وقوله صلى الله عليه وسلم « لقد تاب توبة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله .

وتعرضه له فلاستحلال المبهم لا يكفي ، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته ، فإن كان في جملة جنائته على الغير مالو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبه باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شؤفه به فقد انسدت عليه طريق الاستحلال ، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب .

وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ، ومهما ذكر جنائته وعرفه المجنى عليه فلم تسمع نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه ، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال ، فإن أبي إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته ، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه ، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه ، كمن أتلّف في الدنيا مالا لجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي ، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المتسطين . وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ قال : لا فقتله فشكل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاها ملك في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فأبى أيتها كان أدنى فهو له ففاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة (١) ، وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها ، وفي رواية : « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمشقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .

وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزمًا جزمًا أنه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه ، فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلب الشهوة في ثانی الحال ، ولكن لا يكون تائباً مالم يتأكد عزمه في الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال ، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه ،

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض .. الحديث » هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد .

فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات ؟ وقد قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر . من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبداً . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة ، وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلاً ، وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لا تصح ، وقال قائلون تصح ، ولفظ الصحة في هذا المقام يحمل ، بل نقول لمن قال لا تصح : إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بلا وجوده كعدمه فما أعظم خطأك ! فإننا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتلتها سبب لقلته . ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ ! بل النجاة والفوز بترك الجميع . هذا حكم الظاهر ولست انتكلم في خفايا أسرار عفو الله فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح إن أردت به أن التوبة عبارة عن الندم . وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة ؛ ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية فإن العلة شاملة لها إذ من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله بالسكين لأن توجهه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجه العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجه على البعض دون البعض ؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفقودة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدينين دون الآخر فإن استحالة ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدينان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة ، فإذا منى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات ، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لا يصح أى لم ترتب عليه الثمرة وهو الملك ، وتحقيق هذا أن ثمرة مجزؤ الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمره الندم تكفير ما سبق ، فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي ، وهو كلام مفهوم واقع يستلطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء .

فنقول : التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن الصغائر دون الكبائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته ، والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه ، كالذي يجنى على أهل الملك وحرمه ويجنى على دابته فيكون خائفاً من الجناية على الأهل مستحقراً للجناية على الدابة ، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى . وهذا يمكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الأعصار الحالية ولم يكن أحد منهم معصوماً فلا تستدعى التوبة العصمة . والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً ، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً ، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر .

الثاني : أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند

الله ، كالذى يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعله أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه . . فهذا أيضاً ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر ، لأن الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجيح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل وندماً على الماضي .

الثالث : أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة ، كالذى يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر ، فهو أيضاً ممكن ووجه إمكانه أنه مامن مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً ، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة ، وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون ملياً بتحريك العزم ولا قوياً عليه ، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية ، وقد تشتت ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه ، وتكون له ضراوة ما بالغيبة وتلب الناس والنظر إلى غير المحرم ، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يجمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك ؟ بل يقول هذا الفاسق في نفسه ؛ إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخصي العنان بالكيفية بل أجاهده في بعض المعاصي ، فعسائى أغلبه فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبى . ولولم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصل ويصوم ، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح ، وإن كانت لله فترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد ، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تتقرب بترك الفسق ؛ وهذا محال بأن يقول الله تعالى على أمران ولى على المخالفة فيهما عقوبتان ، وأنا ملئ فى أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه فى الآخر ، فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهورى فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم ؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا ، وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : الندم توبة ، ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال : التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولم يقل التائب من الذنوب كلها ، وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متعائلة في حق الشهوة وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون التبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ، ويتوب عن الكثير دون القليل لأن كثرة الذنوب تأثيراً في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى ، كما يرضى الذى حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلاً ولكن لا يستكثر منها ، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لابد وأن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقى عليه إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة ، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم ، فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووقاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي .

فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم

يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله ، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه ، ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقه الندم تقمع تلك الشهوة وتغايها فإني أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته ، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده ، فإذا لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه ، فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف ، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فغناه يقبله منه ، بل الظاهر أنه يقبله .

والحقيقة في هذا كله ترجع إلى ظلمة المعصية تمنحى عن القلب بشيئين ، أحدهما : حرقه الندم . والآخر : شدة المجاهدة بالترك في المستقبل . وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل مالم يعيش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً .

فإن قلت : إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل ؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه ، فقال أحمد بن أبي الخوارى وأصحاب أبي سليمان الداراني : إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد : وقال علماء البصرة : ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة . وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة .

والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان (إحداهما) أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ؛ وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التي تلعب بإشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين ، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً . وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ . وهو كقول القائل : العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة ، والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم ، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات ، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الأخطار وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار . بل كقول القائل : الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمع به فرسه فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه ، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالماً بطريق تأديبها أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد .

(الحالة الثانية) أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها . وقول القائل : ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود

الجهاد فإن الجهاد كان مقصوداً لعينه ، بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن عجز عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين ، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر . ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم . ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجناح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ، ولقد زل في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق . وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماتها بالكلية مقصود حتى جرت بهم أنفسهم فمعجز عنه فقال : هذا محال ، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل في اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات .

فإن قلت : فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه والآخر جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه فأيهما أفضل ؟ فأعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وكل واحد من المذنبين عندنا على حق ولكن بالإضافة إلى حالين .

وكلام المتصوفة أبداً يكون قاصراً ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال ، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لاهمه أمر غيره ، إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الاشتراك في أصل الهداية ؟

فأقول : تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كال في حق المبتدئ ، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى لإرادته وانبعائه لسلوك الطريق ، لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى الغافل كال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق . بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرج على غير السلوك ، فإن ظهر له مبادئ الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولو اتمع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو السكال . بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل ، ولو جلس على شاطئ البحر بعد عبوره يسكن متأسفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلاً فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكأوه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله ، فإن حصل له من التلبية ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه ، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك — وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربيع المهلكات — بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته ، ولكن إن كان شاباً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالخمر والقصور فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة . بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا .

فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة ، فالمبتدى أيضا قد يستتضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك . ولا يصدئك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام ، فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاوجاج لآلهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاتقة بأهمهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تلتفع بهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم ، فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للأمر على المريد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أما إني لا أنسى ولكني أنسى لأشعر »^(١) ، وفي لفظه إنما أسهو لآسن . ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالمواشى في كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كخ كخ »^(٢) ، لما أخذ ثمرة من تمر الصدقة ووضعها في فيه ؟ وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول أرم هذه الثمرة فإنها حرام ، ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقته ترك الفصاحة ونزل إلى لكتته . بل الذي يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالهيمة والطار تطلقا في تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها منزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات (الطبقة الأولى) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة ، فهذا هو الاستقامة على التوبة ، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة : التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة : النفس المطمئنة ، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا »^(٣) ، فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم . وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات . فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففقر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملي بمجاهدتها وردها ، ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع . وكذلك يختلفون من حيث طول العمر : فمن مختطف يموت قريبا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة . ومن يمهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته . وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء : إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى ، واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن

(١) حديث « أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشعر » ذكره مالك بلاغا بنير إسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد في الموطأ إلا مرسل لا إسناد له وكذا قال حمزة الكنتاني لأنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطي : وقد طال بمعنى عنه وسؤالي عنه للأئمة والمفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا
(٢) حديث أنه قال للحسن « كخ كخ » لما أخذ ثمرة من الصدقة ووضعها في فيه : أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة
(٣) حديث « سبق المفردون المستهترون بذكر الله » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم .

اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته . بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ، ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء .

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها . وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة ، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد ، وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهي أغلب أحوال النائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي فلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات ، فأما أن تخلو بالسكينة كفة السيئات فذلك في غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللجم إن ربك واسع المغفرة ﴾ فكل للمسام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللجم المعفو عنه . قال تعالى ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب »^(١) ، وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة ينوء أحيانا ويميل أحيانا »^(٢) ، وفي الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة »^(٣) ، أى الحين بعد الحين . فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصيرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذى يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار ، وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة . وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه . بل الفقيه في الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختططات قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون »^(٤) ، وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ فما وصفهم بعدم السيئة أصلا .

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلب الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفها شرها ، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى

(١) حديث على « خياركم كل مفتن تواب » أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف (٢) حديث « المؤمن كالسنبلة تنوء أحيانا ويميل أحيانا » أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث حماد بن يسير والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلًا وكلها ضعيفة وقالوا « تقوم » بدل « تنوء » وفي الأمثال للرامهرمزي « ليهناد جيد لحديث أنس » .
(٣) حديث « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث « كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين المستغفرون » أخرجه الترمذي واستنبره والحاكم وصححه وإسناده من حديث أنس وقال « التوابون » بدل « المستغفرون » قلت فيه على بن مسعدة ضمنه البخاري (٥) حديث « المؤمن واه رافع يغيرهم من مات على رقله » أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقال « فسيديهم » بدل « يغيرهم »

في قهرها ، لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم . فهذه النفس هي التي تسمى : النفس المسولة ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكرهاته لما تعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليه ، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخير ، وربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين ، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه ، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذاك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية ، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس ، فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح للملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير . هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب . ولذلك قال تعالى ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها ﴾ فهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان . قال صلى الله عليه وسلم : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها »^(١) ، فإذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة . وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به ، فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر .

(الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصريين ، وهذه النفس هي : النفس الأمارة بالسوء ، الفرارة من الخير ؛ ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيئة الله ، فإن ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه ، كما لا يستحل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فينتفق أن يجده ، وأن يجلس في البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم . فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطاب العلوم من تعليم الملائكة ، وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له ، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا البصائر من الحق والمغرورين - وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله - . فكذاك من ينتظر

(١) حديث « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة .. الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله « سبعين سنة » ولمسلم من حديث أبي هريرة « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ... الحديث » ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة » وشهر بخلاف فيه .

المغفرة من فضل الى تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين . والعجب من عقل هذا المعتوه وترويعه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول : إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك ، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحسب فيستحق قائل هذا الكلام ويستعزى به ويقول : ما هذا الهوس ! السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ، ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً ، وأنه قد أخبر إذ قال ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا ؟ وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا ؟ وينسى قوله تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلًا تحت قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لعمل صالحا ﴾ أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتباب السائق بالضرورة الى سوء المقلب والمآب .

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب

إما عن قصد وشهوة غالبية أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه ، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فالחסنة المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها .

فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل تذلل العبد الآبق ، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم ، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد ، وكذلك يضر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات .

وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول : رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي ، وكذلك يكثّر من ضروب الاستغفار - كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار .

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات . وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجواً ؛ أربعة من أعمال القلوب وهي : التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الإفلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهي : أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهم سبعين مرة وتقول : سبحان الله العظيم وبحمده ، مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم

يوماً ، وفي بعض الآثار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلّي ركعتين ^(١) وفي بعض الأخبار : تصلّي أربع ركعات ^(٢) وفي الخبر : إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها ، السر بالسر والعلانية بالعلانية ^(٣) ، ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار . وفي الخبر الصحيح : أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فأقضى على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم : أو ماصليت معنا صلاة الغداة ، قال : بلى ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الحسنات يذهبن السيئات ^(٤) ، وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة الذنساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم : الصلوات الخمس كفارات لما يبينن إلا الكبائر ، فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويحتشد في دفعها بالحسنات .

فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار ، وفي الخبر : المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمنتهز بآيات الله ^(٥) ، وكان بعضهم يقول استغفر الله من قولي استغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ، فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر . ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات . حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فكان بعض الصحابة يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا ^(٦) فنقول : الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة ، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة استغفر الله ، وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له ، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم : ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة ^(٧) ،

(١) أثر : « إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلّي ركعتين » أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه « ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلّي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » لفظ أبي داود وهو في الكبير للنسائي مرفوعاً وموقوفاً فلعل المصنف عبر بالأثر لإرادة الموقف فذكرته احتياطاً والافالآثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث : التكفير بصلاة أربع ركعات : أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة . . . الحديث وفيه : فلما رآها جلس منها يجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل المذبة فقام نادماً فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « صل أربع ركعات » فأنزل الله عز وجل ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ الآية وإسناده جيد .

(٣) حديث : « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه باللفظ « وما عملت من سوء فأحدث الله فيه توبة السر بالسر . . . الحديث » (٤) حديث : أن رجلاً قال لرسول الله إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس . . . الحديث في نزول ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله « أو ماصليت معنا صلاة الغداة » ورواه . . . لم من حديث أسس وفيه « هل حضرت معنا الصلاة » قال : نعم ، ومن حديث أبي أمامة وفيه « ثم شهدت الصلاة معنا » قال : نعم . . . الحديث (٥) حديث : « المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمنتهز بآيات الله » أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس باللفظ « كالمنتهز بربه » وسنده ضعيف .

(٦) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ الآية « كان لنا أمانان ذهب أحدهما » أخرجه أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه « أنزل الله على أمانين . . . الحديث » وضعفه وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس (٧) حديث : « ما أصر من استغفر . . . الحديث » تقدم في الدعوات .

وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . والتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ولذلك قال سهل : لا بد للعبد في كل حال من مولاة ، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء فإن عصي قال يارب استر علي ، فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب علي ، فإذا تاب قال يارب ارزقني العصمة ، وإذا عمل قال يارب تقبل مني . وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال : أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاة بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلقة ، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش . وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم : التائب حبيب الله ، فقال : إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى ﴿ التائبون العابدون ﴾ الآية . وقال : الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه .

والمقصود أن للتوبة ثمنتين (إحداهما) تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له (والثانية) نيل الدرجات حتى يصير حبيبا . وللتكفير أيضا درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات . وإن خلا عن حل عقدة الإصرار . من أوائل الدرجات . فليس يخاو عن الفائدة أصلا ، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجع الميزان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجع بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات ، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيا وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعملان بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أي غني يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ؟ ولا تدري المعنوية أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطارها اجتمعت ذرة ذرة . فإذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا . بل أقول : الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لسانى في بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبي غافل . فقال : اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعود الفضول . وما ذكره حق فإن تعود الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي . فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا ؛ سبق لسانه إلى ما تعود فقال : استغفر الله . ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحقك وما أقبح كذبك ؛ ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان : نعوذ بالله ، وإذا تعود الفضول قال : لعنه الله ، فيعصى في إخذى الكلمتين ويسلم في الأخرى ، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ومعاني قوله تعالى ﴿ وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه ﴾

أجرا عظيما) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان ، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات ، وتضعيف الآخرة (أكبر لو كانوا يعلمون) فإياك وأن تلح في الطاعات مجرد الآفات فتفتقر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن لاحفايا والسرائر ، فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب ؟ فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت يا ملعون ولكن هي كلبة حق أردت بها باطلا . فلا جرم أعذبتك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب ، فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه . وأما الظالم المغرور : فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطان وتدل بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل : وافق شق طبعه وافقه فاعتقه . وأما المقتصد : فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفتن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب ، ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير . فكان السابق كالحائك الذى ذمت حيا كته فتركها وأصبح كاتباً ، والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً ، والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال : لأنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة . ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه ، فإن سكوت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فكذا ينبغى أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغى أن تؤخذ من غير إضافة ، بل ينبغى أن لا تستحق ذرات الطاعات والمعاصي . ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث : رضا في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فلهل رضاه فيه ، وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فلهل غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عبادته فلا تحقروا منهم أحداً فلهل ولى الله تعالى . وزاد : وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه .

الركن الرابع

في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة »^(١) ، وهذا عزيز نادر . والقسم الثانى : هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين ، وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفع وإبطاله . ولا يبطل الشيء إلا بضده . ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع

(١) حديث « تعجب ربك من الشاب ليست له صبوة » أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لمية .

(٧ — حياء علوم الدين — ٤)

الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى ﴿ وأولئك هم الغافلون لا جرم لهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، وكما يجمع السكنجيين بين حلاوة السكر وحوضة الحُلّ ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقنع الأسباب المهيجة للصغراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب بما به من مرض الإصرار . فإن لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانها .

فإن قلت : أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص ؟ فاعلم أن العلوم بحملتها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه ، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليسكون أقرب إلى الفهم فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

(الأول) أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على مراتبه مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك . وهذا وزانه بما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المعصية وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع ، وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

(الثاني) أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب ، فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الإيمان . ووزانه بما نحن فيه : العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف .

(الثالث) أنه لا بد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثا له على الاحتماء . ووزانه من الدين : الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقي إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج

(الرابع) أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه ، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص . ووزانه من الدين : أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة ؟ وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بأفاتها وقدر ضررها ، ثم العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها .

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم ، وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ، ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه ، بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم ، كما أن الذي ظهر على وجهه برص

ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره ، وهذا فرض عين على العلماء كافة . وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان . والعلماء أطباء والسلاطين قرام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتسى أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيد به بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس .

ولما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل ؛ إحداها : أن المريض به لا يدري أنه مريض . والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وإن عليها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكلم على فضل الله في مرض القلب ويجهد في علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة : وهو الداء العضال ؛ فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم ، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدرُوا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم : فما بالكم تأمرون بالعلاج وتفسون أنفسكم ؟ فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء ، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا ، وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواظبتهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألد في الأسماع وأخف على الطباع ، فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله :

ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائبا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه . فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادين العلة . أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكسبية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكسبية : فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال . وكذلك المصر على الذنوب المشتهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التي سبقت : يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب . فأما معالجة المجرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المجرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء . فإذا فساد الأطباء هي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلا .

فإن قلت : فاذا ذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق ؟ فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه . نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع .

(الأول) أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للذنوبين والمعاصين ، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار

مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ! ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ! فيقول الآخر : يا ليتهم إذ علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ^(١) » وفي بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ! ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا بما عملوا » وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف : ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ؛ فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتاه ولعله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه « الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها ^(٢) » وفي حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطابع ^(٣) » وقال الحسن : إن بين العبد وبين الله حدا من المعاصي معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير .

والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ما خلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه ^(٤) .

(النوع الثاني) حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق ، مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الخلخل عن جسده وبدت عورته ، فاستجيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفع عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه ، ونودي من فوق العرش : اهبطا من جوارى فإنه لا يجاورني من عصاة . قال : فالتفت آدم إلى حواء باكيا وقال : هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوما ، وقيل : لأن المرأة سألته أن يحكم لآبائها فقال نعم ولم يفعل ، وقيل : بل أحب بقلبه أن

(١) حديث « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ... الحديث » غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف « إن الله ملسكا بنادي في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده .. الحديث » وفيه « ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذكروا ... الحديث » .

(٢) حديث عمر « الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات ... الحديث » أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٣) حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة » قلت هكذا قال المصنف : وفي حديث مجاهد ، وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد روينا في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة (٤) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم ما خلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة أخرجه البخاري من حديث عمرو بن الحارث قال : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة . ولمسلم من حديث عائشة ما ترك دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا . وفي حديث أبي هريرة : إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم .. الحديث ولله تقدم في العلم .

يكون الحكم لآبيها على خصمه لمساها منه فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطعموني فإني سليمان بن داود شج وطرد وضرب . وحكى أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه . وفي رواية : أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبت على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين - أيام العقوبة - قال : لجأت الطيور فمكثت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال : لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمكم في عذركم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروى في الإسرائيليات : أن رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبت بها ، فجأدها واستعصم ، قال : فنبأ الله ببركة تقواه فكان نبيا في بني إسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام : بم أطلعك الله على علم الغيب؟ قال : بتركي المعاصي لأجل الله تعالى . وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديدا فكانه أعجبه ! قال : فوضعت الريح ، فقال لم فعلت هذا ولم أمرك؟ قالت : إنما نطيعك إذا أطعت الله . وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام : أندري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال : لا ، قال : لقولك لإخوته (أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) لم خفت عليه الذئب ولم ترجني ، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له؟ وتدرى لم رددته عليك؟ قال : لا ، قال : لأنك رجوتني وقلت (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) وبما قلت (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك (اذكرني عند ربك) قال الله تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) .

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسفار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار؟ نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر . فهذا أيضا مما ينبغي أن يذكر جنسه على أسماع المصرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة .

(النوع الثالث) أن يقرّر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته ، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله ، فيلجئ أن يخوف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر ، كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستول عليه أعداؤه ، قال صلى الله عليه وسلم ، إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ^(١) ، وقال ابن مسعود : إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنوب يصيبه ؛ وهو معنى قوله عليه السلام . من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا ^(٢) ، وقال بعض السلف : ليست اللعنة سوادا في الوجه ونقصا في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه ، وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد ، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان ، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة

(١) حديث « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده واللفظه إلا أنه قال « الرجل » بدل « العبد » من حديث توبان (٢) حديث « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا » تقدم ،

العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يميته الله تعالى ليمتته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى في الوحل جامعاً ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ، فقام وهو يمشى في وسط الوحل ويبيكى ويقول : هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنوبين فعندها يخوض في الذنوب خوفاً . وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ، ولذلك قال الفضيل : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورثتك ذلك . وقال بعضهم : إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فترى ابن الجلاء الدمشقي فأخذ بيدي فاستحييت منه فقلت : يا أبا عبد الله سبحانه الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فغمز يدي وقال : لتجدن عقوبتها بعد حين ، قال : فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة . وقال : لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفي الخبر : ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم ^(١) ، وفي الخبر : يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذية مناجاتي ^(٢) . وحكى عن أبي عمرو بن علوان - في قصة يطول ذكرها - قال فيها : كنت قائماً ذات يوم أصلى فخار قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال ، فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام ، وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث ، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلى فأشخصني من الرقة ، فلما أتيت قال لي : أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فسارت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولاً أنى دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون ، قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة ؟ .

واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر ، وإن كان شقياً أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار . والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من النقر والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته ، فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يقضاعف شقاؤه ، وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه . وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

(النوع الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقه والقتل والغيبة والكبر والحسد ، وكل ذلك بما لا يمكن حصره ، وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه ، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشغل بعلاجها ، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد أوصني يا رسول الله ولا تكثر علي قال : لا تغضب ^(٣) ، وقال له آخر أوصني يا رسول الله فقال

(١) حديث : ما أنكرتم من زمانكم فبما أنكرتم من أعمالكم ، أخرجه البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا القليل وهو عبد الله بن هانئ . قلت : هو منهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل .
(٢) حديث : يقول الله لاني أدنى ما أصنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي ، غريب لم أجده .
(٣) حديث : قال رجل أوصني ولا تكثر علي قال : لا تغضب ، تقدم .

عليك السلام « عليك بالياس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودع ، وإياك وما يعتذر منه ^(١) ، وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصني ، فقال : أوصيك أن تكون ملكا في الدنيا والآخرة قال : وكيف لي بذلك ؟ قال : الزم الزهد في الدنيا . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب فنهأ عنه ، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل . وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا . وقال رجل لمعاذ : أوصني ، فقال : كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما . فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة . وقال رجل لإبراهيم بن أدهم ، أوصني فقال : إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقى الذئسان وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء الياس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والسكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل . وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها : أن اكتب لي كتابا توصيني فيه ولا تكثري ، فكتبت إليه : من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس ^(٢) ، والسلام عليك . فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاية بصدها ؟ وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى . أما بعد ، فاتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام .

فإذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان .

فإن قلت : فإن كان الواعظ يتسكلم في جمع أو سأل من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل ؟ فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإلا على الأكثر ، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للسكافة والأدوية لأرباب العلل .

ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري : أوصني ، قال : عليك بتقوى الله عز وجل فإنهارأس كل خير وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكرك في أهل السماء ، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن : أوصني ، فقال : أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه : يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضولك بسبك لاخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا ، وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفه ولا تخالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه : يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب ولا تسأل عما لا يعينك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت ، يا بني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم . وقال رجل لأبي حازم : أوصني ، فقال : كل مالو جاءك الموت عليه فرأيت غنيمة

(١) حديث قال له آخر : أوصني قال « عليك بالياس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .
(٢) حديث عائشة « من التمس رضا الله بسخط الناس وكله الله إلى الناس ... الحديث » أخرجه الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم .

فالزومه وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيتة مصيبة فاجتنبه . وقال موسى للخضر عليهما السلام : أوصني ، فقال : كن بساما ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطأين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام : أوصني ، فقال : اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك . وقال رجل لحامد اللغاف : أوصني فقال : اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات ، قال . وما غلاف الدين ؟ قال . ترك طلب الدنيا إلا مالا بد منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى أما بعد ، نخف بما خوفك الله واحذر بما حذرك الله وخذ بما في يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأل أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ؛ فإن الهول الأعظم والأمر المفظعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسرو ومن نظر في العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ، فإذا زلت فارجع وإذا ندمت فاقبل وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدي بن أرطاة . أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أوليائه فغمتهم وأما أعداؤه فغرتهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله . أما بعد ؛ فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عز وجل آخذ للظالمين من الظالمين والسلام .

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاض وغلبت المعاصي واستسرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون أبياتا ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب ، بل القائل متصاف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف .

فإذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . (الأصل الثاني) الصبر : ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يتناول ذلك : إما الغفلة عن مضرته ، وإما لشدة غلبة شهوته ؛ فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة . فيبقى علاج الشهوة . وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس . وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لما كوله مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه ، فلا بد على كل حال من برارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي ، كالشباب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى المخلوقات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج . هو

حضور المشتهى والنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة . ومن داخل : تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكير فيه لتمام الفهم ، وينبعث من تمامه لاحالة خوفه وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعث الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فائق وانتظر الثواب وصدق بالحسن فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسن فسييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإتمامه الآخرة والأولى .

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب ، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ؛ فكأن من أصر على الذنب لم يصبر عليه إلا لأنه غير مؤمن ؟ فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان ، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة . ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور .

(أحدها) أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر .

(الثاني) أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالخلق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف - والعادة طبيعة خامسة - والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى ﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ وقال عز وجل ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : حفت الجنة بالمسكاره وحفت النار بالشهوات ^(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام : اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فخفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها . وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فخفها بالمسكاره ثم قال اذهب فانظر إليها ، فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ^(٢) ، فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا إلى المال سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهن عليه الألم المنتظر .

(الثالث) أنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات ، وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يستوف التوبة والتكفير ، فن حين رجاءه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان .

(الرابع) أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إجماعا لا يمكن العفو عنها ،

(١) حديث « حفت الجنة بالمسكاره » . الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة » (٢) حديث « إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها » . الحديث « أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة (٨ - إحياء علوم الدين - ٤)

فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى . فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان .

نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدر في أصل إيمانه وهو كونه شاكاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر ، كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر .

فإن قلت فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر ، وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب ، أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدرية لعل الساعة قريب ، والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً . ويذكر نفسه أنه أبداً في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في المستقبل ، إذ يركب البحار ويقاسى الأسفار لأجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثانی الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد الذال الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألم لحظة إذا لم يخف ما بعده ، ومفارقة الدنيا لا بد منها ، فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلاً وأبداً ؟ فليتنظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذي لم تقم معجزة على طبه فيقول : كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا ؟ وبهذا التفكير بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول : إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ؟ وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار ؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ؟ وأما تسويق التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر مصيحات أهل النار من التسويق ، لأن المسوق يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم ، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتقاد . فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتى لم يؤكد لها . وعن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتأملين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق . وما مثال المسوف إلا مثاله من احتياج إلى قلع شجرة فرأى قوته لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف .

وأما المعنى الرابع : وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة ، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان ، وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار . فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة . وقد حكى في الأسفار أن مثل ذلك وقع فأننا أنتظر من فضل الله مثله . فنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يكون .

وأما الخامس وهو شكك فهذا كفر ، وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول . ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحجة عقله ، فيقال له : ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة شخص واحد في مكانين في حالة واحدة ؟ فإن قال : أعلم استحالاته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء . وإن قال : أنا شك فيه ، فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألد الأطعمة ؟ فيقول : أتركه لا محالة لأنني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتني الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : ياسبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء . ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوى الألباب -- عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول ؟ فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا في كيفية ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبا الأباد ، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المسكرة . فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبا الأباد ، بل لو قدرنا الدنيا بمائة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقض أبا الأباد شيئا ، فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبا الأباد ؟ ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعري :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعت الأموات قلت إني

إن صح قواكما فاست بخامر أو صح قولي فالحسار عليك

لذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا : إن صح ما قلت فقد تخاضنا جميعا وإلا فقد تخاضت وهلكنا أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال .

فإن قلت : هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلت ؟ وما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله ؟ فاعلم أنّ المانع من الفكر أمران (أحدهما) أنّ الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم ، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرّج والاستراحة . (والثاني) أنّ الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات ، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقت فصار عقله مسخرا للشهوة فهو مشغول بتدبير حيلته ، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك .

أما علاج هذين المانعين : فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألما بذكره مع استحقاق ألم مواعته ، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به ؟ وأما الثاني وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا ؟ فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها ، ولذات الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته

وطول الأنس به ؟ ولو لم يكن المطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا ، فكيف بما يضاف إليه من نعيم الآخرة ؟ نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا ، فالنفس قابلة - ما عودتها تتعود - والخير عادة والشر لاجاة .

فاذن هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن الذات ، ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر ، فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب إليه . ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق ، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة . وقد روى في حديث طويل : أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بنى ؟ فقال على رضى الله عنه : بنى على أربع دعائم : على الجفاء والعمى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عمى نسي الذكر ، ومن غفل حاد عن الرشد ، ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب . فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف . وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثانى من ربح المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المنفرد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء ، والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأنقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء : ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء . أما بعد : فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر (١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار . وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سمي نفسه صبورا وشكورا ، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطرى الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان ، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان؟ والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان ، فما أخرج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان . ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . (الشطر الأول) فى الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حده وحقيقته ، وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف

كتاب الصبر والشكر

(١) حديث « الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسنده دوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف .

أقسامه باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه . فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

بيان فضيلة الصبر

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ فما من قرينة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى « الصوم لي وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين ﴾ وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ فالهدى والرحمة والصلوات بمجموعة للصابرين . واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان »^(١) ، على ما سيأتي وجه كونه نصفاً وقال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاتته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أتم عليه أحب إلى من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتش عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم ﴾^(٢) ، الآية وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال « الصبر والسماحة »^(٣) ، وقال أيضاً « الصبر كنز من كنوز الجنة »^(٤) ، وسئل مرة « ما الإيمان ؟ فقال : الصبر »^(٥) ، وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة »^(٦) معناه معظم الحج عرفة وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس »^(٧) وقيل : أرحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى وأن من أخلاقى أنى أنا الصبور وفى حديث عطاء عن ابن عباس : لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال « أمؤمنون أتم ، فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله قال « وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم

- (١) حديث « الصبر نصف الإيمان » أخرجه أبو ليم والحطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم
(٢) حديث « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ... الحديث » بطوله تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطول
(٣) حديث جابر : سئل عن الإيمان فقال « الصبر والسماحة » أخرجه الطبراني في معارج الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده
(٤) حديث « الصبر كنز من كنوز الجنة » غريب لم أجده . (٥) حديث : سئل مرة عن الإيمان فقال « الصبر » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقائى عن أسمر مرفوعاً « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » ويزيد ضعيف (٦) حديث « الحج عرفة » تقدم في الحج .
(٧) حديث « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » لأصل له مرفوعاً وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا زواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس .

« مؤمنون ورب الكعبة »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « في الصبر على ما تكره خير كثير »^(٢) ، وقال المسيح عليه السلام : إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين »^(٣) ، والأخبار في هذا لا تحصى .

وأما الآثار . فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعري عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر . الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى . واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه . بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا . الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد لمن لارأس له ولا إيمان لمن لا صبر له . وكان عمر رضى الله عنه يقول . نعم العبدان ونعمت العلاوة للصابرين ؛ يعنى بالعبدان الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى . والعلاوة ما يحمل فوق العبدان على البعير وأشار به إلى قوله تعالى ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ بكى وقال . وأعجبا أعطى واثى أى هو المعطى للصبر وهو المشى . وقال أبو الدرداء . ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل ، وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه ، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقة ومعناه وبالله التوفيق .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين ، وجميع مقامات الدين إنما تنظم من ثلاثة أمور . معارف وأحوال وأعمال . فالمعارف هى الأصول وهى تورث الأحوال والأحوال ثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار . وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى . واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل - كما ذكرناه فى اختلاف اسم الإيمان والإسلام فى كتاب قواعد العقائد - وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة . فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمره يصدر عنها ، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم . فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك فى البهائم والملائكة . أما فى البهائم فلتنقصانها . وأما فى الملائكة فلنكاملها .

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف . وأما الإنسان فإنه خلق فى ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، على الترتيب ، وليس له قوة الصبر البتة ؛ إذ الصبر عبارة عن

(١) حديث عطاء بن ابن عباس : دخل على الأنصار فقال « أمؤمنون أنتم ؟ » فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله . . الحديث « أخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء .

(٢) حديث « فى الصبر على ما تكره خير كثير » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٣) حديث « لو كان الصبر رجلا لكان كريما » أخرجه الطبرانى من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي

ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما ، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم ؛ ولكن الله تعالى بفضلته وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ؛ أحدهما يهديه ، والآخر يقويه ، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم . واختص بصفيتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف . فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط ، فلذلك لا تطلب إلا اللذيق . وأما الدواء النافع مع كونه مضرًا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه ، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر ، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً ولكن لا قدرة له على دفعه ؟ فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة ، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد ، كما أن نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر .

فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها : باعثاً دينياً ، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها : باعث الهوى . وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد . ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين .

فإن ترك الأفعال المشتبهة عمل يشمره حال يسمى : الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال ثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه - أعنى المعرفة التي تسمى إيماناً وهو اليقين - بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى - قوى ثبات باعث الدين ، وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تقتضاه الشهوة ، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره لإياهما وهما من الكرام السالكين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من آدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوى لم يخف عليك أن جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست ، الذي ينبغي أن يكون مسلماً له . فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال .

وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومضى إليه فيكتب أعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب لإقباله له حسنة . وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسمى إليه فيثبت عليه سيئة ، وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة . وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإبائهما فلذلك سميا كراماً كاتبين .

أما الكرام فلا تتفاح العبد بكرمهما ولأن الملائكة كلهم كرام بررة ، وأما الكاتبون فلا يثبتهما الحسنات والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم ، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجلة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والمسلوك لامن عالم الشهادة ، وكل شيء من عالم المملوك لا تدركه الأبصار في هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين : مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى ، وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : من مات فقد قامت قيامته (١) ، وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال (ولقد جثتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) وفيها يقال (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملا من الخلق ، وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا . والهلول الأول هو هول القيامة الصغرى . ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها ، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره ، لخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضي مخلوق من التراب ، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط ، فأما بدن غيرك فليس بحظك . والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا فالهول أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك ، لحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهي أرضك وترابك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك ، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصلت العظام من اللحم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا ، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا ، فإذا بطل سميعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكسرت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا ، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد لحرت البحار تفجييرا ، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلًا ، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ، واست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمنجزة الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك . فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتشرت حواسك التي بها تنفع بالنظر إلى الكواكب ، والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ، ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لأرأس له لاسماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟ فهذه هي القيامة الصغرى . والخوف بعد أسفل والهلول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال .

(١) حديث : من مات فقد قامت قيامته ، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أس بن سند ضعيف .

واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا في وصفها فإننا لم نذكر عشير أوصافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى ؛ فإن للإنسان ولادتين (إحداهما) الخروج من الصلب والتراتب إلى مستودع الأرحام فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم ، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطاة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ، ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم . فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وننشئكم فيها لا تعلمون ﴾ فالمرء بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت . والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والافتداء بالأعور الدجال .

فما أعظم غفلتك يا مسكين - وكلنا ذلك المسكين - وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء د كنى بالموت واعظا (١) ، أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم د اللهم هون على محمد سكرات الموت (٢) ، أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ؟ فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ، أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون ؟ ﴿ أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ ولكن ﴿ ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ وذلك لانا ﴿ جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ .

ولنرجع إلى الغرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة . فنقول : ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا عن الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنه في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الإعراض عنهما ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة ، بل على القيم العدل والولى البر الشفيق

(١) حديث د كنى بالموت واعظا « أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الريس بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قوله الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد . (٢) حديث د اللهم هون على محمد سكرات الموت » أخرجه الترمذى وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة باللفظ د اللهم أعنى على سكرات الموت .

- إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار - أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب . فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي . فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة (١) ، وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم .

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا ، والمعارف أبواب والأعمال أبواب ، ولاشتغال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا . واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربح العبادات . ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين .

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا . فيكون الإيمان ركنان : (أحدهما) اليقين (والآخر) الصبر . والمراد باليقين . المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين . والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار . ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ... الحديث ، إلى آخره .

الاعتبار الثاني : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما ، وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول . وهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه : الإيمان نصفان ، نصف صبر ونصف شكر . وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كان الصبر صبورا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين ، باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ؛ فالشهوة لطلب اللذيق والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبورا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب : قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار : الصوم نصف الصبر ، لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان . فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان : والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

أعلم أن الصبر ضربان : أحدهما : ضرب بدني ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها . وهو إما بالفعل : كتعاطي

(١) حديث : أنا وكافل اليتيم كهاتين ، أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم .

الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها . وإما بالاحتمال : كالصبر على الضرب الشديد والمرضى العظيم والجراحات الهائلة . وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع .

ولكن المحمود التام هو الصبر الآخر : وهو الصبر النفسى عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الصبر إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمي عفة ، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميها عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر . فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الحدود وشق الجيوب وغيرها . وإن كان فى احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر . وإن كان فى حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن . وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمي حليما ويضاده التذمر . وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان فى إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمى صاحبه كتوما . وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ويضاده الحرص . وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر . ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال : هو الصبر ، لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال : الحج عرفة ^(١) ، وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى (والصابرين فى البأساء) أى المصيبة (والضراء) أى الفقر (وحين البأس) أى المحاربة (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) فإذا هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ، ومن يأخذ المعانى من الأسماء يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسماء مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعانى أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسماء فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابد وأن يزل . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم) فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها : أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال من صبر ظفر . والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأننت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادى المنادى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) .

الحالة الثانية : أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ، ولا يجاهد لبأسه من المجاهدة ، وهؤلاء هم النافلون وهم الأكثرون ، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم لحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله . وإليهم الإشارة بقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لآملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخرست صفقتهم ، وقيل لمن قصد إرشادهم (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا

(١) حديث : الحج عرفة ، أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يسر وتقدم فى الحج .

ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴿ وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى وهو غاية الحق كما قال صلى الله عليه وآله وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واللاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله (١) » ، وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها ، أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال : إن الله غفور رحيم فلا حاجة به إلى توبتي . وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته ، فقد صار عقله في يد شهواته كسلم أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخنور وحملها ، ومخلة عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيرا عندهم ، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر ، وسلط ما حقه أن لا يتسلط عليه ، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه . فهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبغدين عن الله تعالى كان كن أرق مسلما لكافر ، بل هو كن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسله إلى أبغض أعدائه ، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجاب له لنعمته ! لأن الهوى أبغض إليه عبد في الأرض عند الله تعالى ، والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض .

الحالة الثالثة : أن يكون الحرب سجالات بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه ، وهذا من المجاهدين يعد مثله لامن الظافرين ، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ هذا باعتبار القوة والضعف . ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لا يغلب شيئا منها ، أو يغلب بعضها دون بعض . وتنزيل قوله تعالى ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى . والتاركون للجهاد مع الشهوات مطلقا يشبهون بالإنعام بل هم أضل سبيلا ، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات ، وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ، ولذلك قيل :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا ، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحمل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسن تيسر الصبر ولذلك قال تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره ، فإن الرجل القوي يقدر على أن يصارع الضعيف بأدنى حيلة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينهر . ولا يقوى على أن يصارع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين . ومهما أذغنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا - كما سيأتي في كتاب الرضا - فالرضا

(١) حديث « الكيس من دان نفسه ... الحديث » بتقديم في ذم الغرور .

أعلى من الصبر ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير »^(١) .

وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات (أولها) ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . (وثانيها) الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . (وثالثها) المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين . وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من الرضا ، كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا .

واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض . وعلى المكروه نفل . والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا . وكن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتبيح غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع . فليكن الشرع يحك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخلل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال

اعلم أن جميع ما يلحق العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين (أحدهما) هو الذي يوافق هواه . (والآخر) هو الذي لا يوافق به بل يسكره . وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما . فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر .

(النوع الأول) ما يوافق الهوى : وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشرة واتساع الأسباب وكثرة الاتباع والآنصار وجميع ملاذ الدنيا . وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوائى لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال . والزوج والولد فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وقال عز وجل ﴿ إِنْ مِنْكُمْ أَزْوَاجٌ وَأَوْلَادُكُمْ عَدُوا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبنة مجنة محزنة »^(٢) . ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثّر في قيصره نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال « صدق الله ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ ﴾ لى لما رأيت ابني يتعثّر لم أملك نفسي أن أخذه »^(٣) ، ففي ذلك عبرة لأولى الأبصار .

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التعم واللذة واللهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإتفاق وفي بدنه ببذل المعونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق ، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه

(١) حديث « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس . وقد تقدم . (٢) حديث « الولد مبنة مجنة محزنة » أخرجه أبو يعلى الموصلى من حديث أبي سعيد وتقدم (٣) حديث « لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثّر في قيصره نزل عن المنبر » الحديث « أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب »

وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر — كما سيأتى — وإنما كان الصبر على السراء أشدّ لانه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر ، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامةك نفسك ؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة الذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فطنة السراء .

(النوع الثانى) مالا يوافق الهوى والطبع ، وذلك لا يخار إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى ، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب . أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشقى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان : (الضرب الأول) الطاعة ، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها ، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشهى الربوبية ، ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهر فرعون من قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه ، وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعا من إظهاره فإن استشاطته وغيطه عند تقصيرهم فى خدمته واستعباده ذلك ليس يصدر إلا عن إضرار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء . فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقا . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة . ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة . ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالجمع والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد .

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء . وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكاييد النفس . وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ^(١) ، وقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ .

الحالة الثانية : حالة العمل ، كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى ﴿ نعم أجر العاملين الذين صبروا ﴾ أى صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ وكما قال تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى ﴾ فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والاذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى فى قوله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل وإيتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم . وكل ذلك يحتاج إلى صبر .

(الضرب الثانى) المعاصى : فما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه » ^(٢) .

(١) حديث « إنما الأعمال بالنيات » معنق عليه من حديث عمرو وقد تقدم (٢) حديث « المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه » أخرجه ابن ماجه بالشرط الأول والنسائي فى الكبرى بالشرط الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد الله بإسنادين جيدين وقد قدما

والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

وأشد أنواع الصبر : الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل ممسكاً تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع المزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإضرار والاستحقار وذكر الموتي والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم ، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان : إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية . ولا اجتماع للشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الانس بها ، فترى الإنسان يلبس حريرا مثلاً فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ماورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزنا ^(١) ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره ، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة .

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوسواس ، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه ، كمن أصبح وهوومه هم واحد ، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه .

(القسم الثاني) مالا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه ، كمالو أوذى بفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى . وقال تعالى ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال : یرحم الله أخى موسى لقد أذى بأكثر من هذا فصبر ^(٢) ، وقال تعالى ﴿ ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ أى تصبروا عن المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خیر الصابرين ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك ^(٣) ، ورأيت في الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام ، لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف ، وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه

(١) حديث « إن الذيبة أشد من الزنا » تقدم في آفات اللسان (٢) حديث : قسمة مالا وقول بعض الأعراب : هذه

قسمة ما أريد بها وجه الله ... الحديث « متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

(٣) حديث « صل من قطعك ... الحديث » تقدم

الخذ الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين . وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى . فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا .

(القسم الثالث) مالا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره ؛ كالمصائب : مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء . وبالجملة سائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما . الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه ؛ صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم .

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ماتهمون على به مصائب الدنيا »^(١) ، فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

وقال أبو سليمان : وألله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره ؟ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « انتظر الفرج بالصبر عبادة »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أوجرني بمصيبتى وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك »^(٤) ، وقال أنس : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانه لا أعلم لنا إلا ما علمتنا قال الله تعالى جزاؤه الخلود فى دارى والنظر إلى وجهى »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبيدى ببلاء فصبر ولم يشكنى إلى عواده أبدلته لما خيرا من لحه ودما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتى »^(٦) ، وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعرضه منها الصبر إلا كان ما عرضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وسئل فضيل عن الصبر فقال : هو

(١) حديث « أسألك من اليقين ماتهمون به على مصائب الدنيا » أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم فى الدعوات (٢) حديث « قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل ... الحديث » أخرجه ابن عدى من حديث أس بنسند ضعيف .

(٣) حديث « انتظر الفرج بالصبر عبادة » أخرجه القضاعى فى مسند المساهب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبى الدنيا فى الفرج بعد القدة من حديث على دون قوله « بالصبر » وكذلك رواه أبو سعيد المسالبى فى مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة والترمذى من حديث ابن مسعود « أفضل العبادة انتظار الفرج » وتقدم فى الدعوات (٤) حديث « ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله (إنا لله وإنا إليه راجعون) ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة

(٥) حديث أس « إن الله قال يا جبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية أبى ذلال القسلى واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ « إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبيدى بمصيبة فصبر عوضته منها الجنة » رواه ابن عدى وأبو يعلى بلفظ « إذا أخذت كريمتى عبيدى لم أرض له ثوبا دون الجنة » قالت يارسول الله وإن كانت واحدة قال « وإن كانت واحدة » وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف (٦) حديث « يقول الله إذا ابتليت عبيدى ببلاء نصبر ولم يشكنى إلى عواده أبدلته لما خيرا من لحه ... الحديث » أخرجه مالك فى الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى موافقا على أبى هريرة .

الرضا بقضاء الله ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : الراضى لا يتمنى فوق منزلته . وقيل حبس الشبلى رحمه الله في السارستان فدخل عليه جماعة فقال : من أتم ؟ قالوا : أحباؤك جاءوك زائرين ، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال : لو كنتم أحباؤى لصبرتم على بلائى . وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالها وكان فيها (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) ويقال إن امرأة فتش الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجمعه . وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من أجل الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ^(١) » ، ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كفه صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كفه فقال : بارك الله له فيها لعله أحوج إليها منى . وروى عن بعضهم أنه قال : مررت على سالم مولى أبى حذيفة في القتلى وبه رمل فقلت له : أسقيك ماء ؟ فقال : جزئى قليلا إلى العدو واجعل الماء في الترس فإن عشت إلى الليل شربته . فهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى .

فإن قلت : فماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطر شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار ؟ فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الحدود والمبالغة في الشكوى وإظهار السكابة وتغيير العادة في اللبس والمفرش والمطعم ، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغى أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت . كما روى عن الرميمضاء أم سليم رحمها الله ، أنها قالت : توفي ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمعت فسجيت في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقمعت فهايات له إفطاره فجعل يأكل ، فقال : كيف الصبي ؟ قلت : بأحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أنصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ، ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا ؟ قال : ما لهم ؟ قلت : أعيروا عارية ولما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ، فقال : بشئ ما صنعوا ! فقلت : هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه ، الحمد لله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال « اللهم بارك لها في ليلتهما ^(٢) » ، قال الراوى : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرءوا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال « رأيتنى دخلت الجنة فإذا أنا بالريمضاء امرأة أبى طلحة ، وقد قيل : الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ، ولا يخرج عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع ، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ، ولأن البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له : أمانيتنا عن هذا ؟ فقال « إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحما » ، بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا ، فالمقدم على الحجة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه - وسيأتى

(١) حديث « من أجل الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبى الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال « من المبرأ أن لا يتحدث بمصيبته ولا بوجعك ولا بترك نفسك » .
(٢) حديث الرميمضاء أم سليم : توفي ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمعت فسجيت في ناحية البيت . الحديث « أخرجه الطبرانى ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى - وكتب ابن أبي نجیح يعزى بعض الخافاء : إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاء له : واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه .

فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكير في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين . نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب . وقد قيل : من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة . فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال ، فإن الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا ، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا . فإن اختلاج الخواطر لا يسكن . وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر ، فهو كيفما كان تضييع زمان . وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة بحبة الله تعالى فهو مغبون ، هذا إن كان فكره ووسوانه في المباحات مقصورا عليه ، ولا يكون ذلك غالبا ، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، إذ لا يزال ينزع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أماره له منه ، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ، ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفتهم ، ولا يزال في شغل دائم ، فللشيطان جندان : جند يطير وجند يسير ، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار . وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار ، والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين ، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة ، فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبيعتها . وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدا لما خاق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ .

فإذن حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده . ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه . وانقياده بالإذعان بسجود منه - فهو روح السجود - وإنما وضع الجبهة على الأرض قابله وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح . ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك ، كما أن الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة ، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالسكينة عن عالم الغيب . وتحقيق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك هم واحد ، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك ، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء في القدح فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع ، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة ، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان ، وإلا فن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى

﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الله تعالى يغيض الشاب الفارغ ^(١) ، وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا ، بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ، ثم تزوج أفراده أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار ، وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع ألبته بل تسرى شيئا فشيئا على الانصال . فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار ، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة ، فإذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي صفة . نفسك ، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج - حين كان يصاب وقد سئل عن التصوف ماهو ؟ فقال : هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك . فإذا حققت الصبر وكأله : الصبر عن كل حركة مذمومة ، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك ، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت . نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء ، فالصبر وإن كان شاقا أو ممتعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل . فالعلم والعمل هما الاخلاط التي منها تركيب الأدوية لأمراض القلوب كلها ، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر ، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة ، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها . واستيفاء ذلك بما يطول ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة . فنقول : إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدته بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المراقبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة ، فنقول ، قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ؛ فلزنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة . فأما باعث الشهوة فسيبل تضعيفه ثلاثة أمور .

(أحدها) أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة - من حيث نوعها ومن حيث كثرتها - فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه ، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة .

(الثاني) قطع أسبابه المهيجة في الحال فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة ، إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة ، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتبهة والفرار منها بالسكينة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظره سهم من سهام إبليس ^(٢) ، وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الحرب من صوب رمية . فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه .

(الثالث) : تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح ، فإن كل ما يشتهيه الطبع في المباحات

(١) حديث « إن الله يغيض الشاب الفارغ » لم أجده . (٢) حديث النظره سهم مسوم من سهام إبليس » تقدم غير مرة

من جنسه ما يغني عن المحظورات منه : وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر ، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لا يجمع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالبائة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء » .^(١)

فهذه ثلاثة أسباب ، فالعلاج الأول وهو قطع الطعام : يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته . الثاني : يضاهي تغيب اللحم عن الكلب وتغيب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث : يضاهي تسليتها بشيء قليل بما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب .

وأما تهوية باعث الدين فإنما تكون بطريقتين ، أحدهما : إطاعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثّر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة (وفي الأثر) إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر . ومن أسلم خسيسا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال . وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى ، فإن قوى قوى باعث الدين وهيجه تهيجها شديدا وإن ضعف ضعفه . وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر ، وأقل ما أوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر .

والثاني : أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجيا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجري عليها وتقوى منته في مصارعها ، فإن الاعتیاد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ، ولذلك تزيد قوة الجمالين والفلاحين والمقاتلين . وبالجمله فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين ، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة .

فالعلاج الأول : يضاهي إطاع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سمحته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال (وإنكم إذا لمن المقربين) .

والثاني : يضاهي تعويد العبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجري عليه وتقوى فيه منته . فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت ، ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد .

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاءه ، وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن قبح الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس المراقبة والذكر والفكر ، فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب . وهذا لا علاج له ألبتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ، ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ، ثم كل ذلك لا يمكن ما لم تصبر الهوم هما واحدا وهو الله تعالى . ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يمكن ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك بجاذبة الشيطان ووسواسه وإن

(١) حديث « عليكم بالبائة فمن لم يستطع فإليه بالصوم ... الحديث » تقدم في النكاح .

لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة : من القراءة والاذكار والصلوات ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإن الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها ؛ إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط ، إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة . فهذا أحد الأنواع الشاغلة .

وأما النوع الثانى : فهو ضرورى أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش ، فإن تهية ذلك أيضا تتوج إلى شغل إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه . ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به مله أو واقعة ، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق ، والانتهاى إلى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكساب والاجهد فأما مقادير ما ينكشف مبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجرى مجرى الصيد وهو بحسب الرزق . فقد يقل الجهد ويحل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ ، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازى أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها ، فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ، إن ربكم في أيام دهركم نفحات ألا فمعرضوا لها ، وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى يسر الله تعالى أسباب الرزق . فما علينا إلا تفرغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها ، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلى سنة عن مطر ، فكذلك فلما تجلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات : فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرضه لمهابة رياح الرحمة ، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع المهم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان ، فإن المهم والأنفاس أسباب . بحكم تقدير الله تعالى لاستدرا رحمة حتى تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء ، وهى لاستدرا أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرا قطرات الماء واستجراار الغيوم من أفطار الجبال والبحار ، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك ، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا إلى أن تمكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضرا في القلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكرا ، فقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقال تعالى ﴿ وليتذكر أولو الألباب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾

فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر .

قال الجنيد رحمه الله : السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد ، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق .

وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه . فإن لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء ، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية ؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية . وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ وليس القلب مذموما على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغيير الشيطان للعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر . فأضله وأغواه ، وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ؟ فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه . وعزا لاذل فيه وأما لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكالا لا نقصان فيه ؟ وهذه كلها من أوصاف الربوبية . وليس مذموما على طلب ذلك ، بل حق كل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له . وطالب الملك طالب للعلم والعز والكمال لا محالة . ولكن الملك ملكان : ملك مشوب بأنواع الآلام وملحق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل ... وقد خلق الإنسان عجولا راغبا في العاجلة لجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة - التي في طبعه - فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم « واللاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ، فأنخدع الخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه . ولم يتبدل الموفق بجبل غروره إذ علم مداخل مكروه فأعرض عن العاجلة . فعبث عن الخذولين بقوله تعالى ﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ وقال تعالى ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ فأعرض عنهم تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ .

ولما استطار مسكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحوا إليهم ما تم على الخلق من إهلاك العدو وإغوائه ، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل له إن سلم ولادوام له أصلا فنادوا فيهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله أنفقتم إلى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ .

فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم الخلد ، والمراد منهم أن يكونوا ملوكا في الدنيا ملوكا في الآخرة . أما ملك الدنيا : فالزهد فيها والقناعة باليسير منها . وأما ملك الآخرة : فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعزا لاذل فيه وقرة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس .

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعله بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضربتان ، ولعله بأن الدنيا لا تسلم له أيضا ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ، ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول

الهموم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه . ثم مهما تسلم وتم الأسباب ينقضى العمر ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ﴾ فضرَب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ﴾ والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصدته عنه .

ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان ، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا . وباستئلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذاً بمخنته إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكا ! وينال الربوبية بأن يصير عبدا ! ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك ؟ فقال كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو عبد لي ! فقال كيف ذلك ؟ قال . أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لي . فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة . فالخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا ، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا .

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته ؛ إذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجو به ملكا في الآخرة .

ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف ؛ بل لابد أن يضيف إليه العمل . وعمله في ثلاثة أمور (أحدها) أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ (الثاني) أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده ، فيبدل التكلف بالتبذل وزى الحشمة بزي التواضع ، وكذلك كل هيئة وحال وفعل : في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغي أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده . فلا معنى للمعالجة إلا المضادة (الثالث) أن يراعى في ذلك التلطف والتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل ، فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج ، فيترك البعض ويسل نفسه بالبعض ، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتداء بترك البعض من ذلك البعض ، إلى أن يقنع بالبقية . وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيه . وإلى هذا التدرج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » (١) ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه » (٢) .

(١) حديث « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » الحديث أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد (٢) حديث « لا تشادوا هذا الدين فإنه من تشاده يغلبه » تقدم فيه .

فإذن ماذا كرتاه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربح المهلكات ، فاتخذة دستوراً لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل ، فإن تفصيل الأحاد يطول . ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتعكس أموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه . وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات ، فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهراً . فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب . وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد ؟ فقال : الصبر في الله تعالى ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال : لا ، فقال : الصبر مع الله ، فقال : لا ، فقال : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله ؛ فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف . وقد قيل في معنى قوله تعالى ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله . وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء . وقد قيل في معناه :

والصبر عنك فذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود
وقيل أيضاً : الصبر يحمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل
هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره .

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة أركان : (الأول) في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه (الثاني) في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة (الثالث) في بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول : في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ فقال تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ وقال تعالى ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين ﴿ لا قدرن لهم صراطك المستقيم ﴾ قيل هو طريق الشكر ، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال : ولا تجد أكثرهم شاكرين . وقال تعالى ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى ﴿ لأن شكرتم لازيدنكم ﴾ واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ وقال ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ وقال ﴿ يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ وقال ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى ﴿ والله شكور حلیم ﴾ وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ وقال ﴿ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »^(١) ، وروى عن عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت : وأى شأنه لم يكن عجبا ؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي - أو قالت في لحافي - حتى مس جلدي جلده ثم قال « يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي » فقالت : قلت إني أحب قربك لكني أوتر هواك فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يسكب الماء ، ثم قام يصلي فبكي حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكي ثم سجد فبكي ثم رفع رأسه فبكي فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة ، فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أفلا أكون عبدا شكورا ولم لأفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى على ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ الآية^(٢) ، وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ فأنا أبكي من خوفه ، فسأله أن يبيده من النار فأجاره ، ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال : لم تبكي الآن ؟ فقال : ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور ! وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينادي يوم القيامة ليقيم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة » قيل : ومن الحمادون ؟ قال « الذين يشكرون الله تعالى على كل حال »^(٣) وفي لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن »^(٤) ، وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي - في كلام طويل - وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين : أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدهم ، وبالنظر إلى أزيدهم . ولما نزل في الكنوز ما نزل ؛ قال عمر رضي الله عنه : أي المال تتخذ ؟ فقال عليه السلام « ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا »^(٥) ، فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال . وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان .

بيان حد الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين ، وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم ، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه ، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوه . ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكامل معانيه .

-
- (١) حديث « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف .
- (٢) حديث عطاء : دخلت على عائشة فقلت لها : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : وأى أمره لم يكن عجبا ... الحديث في بكائه في صلاة الليل . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزي في الوفا وفيه أبو جناب واسم يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء دون قولها : وأى أمره لم يكن عجبا . وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصر على آخر الحديث (٣) حديث . ينادي يوم القيامة « ليقيم الحمادون ... الحديث » أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون ... الحديث » وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور .
- (٤) حديث « الحمد رداء الرحمن » لم أجده أصلا وفي الصحيح من حديث أبي هريرة « الشكر رداؤه .. الحديث » وتقدم في العلم (٥) حديث عمر : ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا .. الحديث « تقدم في النسكاح .
- (١١ - أحياء علوم الدين - ١)

(فالأصل الأول) العلم : وهو علم بثلاثة أمور ؛ بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة في حقه ، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لا بد من : نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه ، تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة ، فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته .

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان : التقديس . ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس ؛ وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فلكل نعمة منه ، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة ، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد : كمال القدرة والانفراد بالفعل . وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله ^(٢) ، وقاله ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله ^(٣) ، ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب ، فسبحان الله ، كلمة تدل على التقديس و لا إله إلا الله ، كلمة تدل على التوحيد و الحمد لله ، كلمة تدل على النعمة من الواحد الحق . فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين .

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة ، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه ، بل منه بوجه ومن غيره بوجه ، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك . نعم لا يغض من توحيده في حق الملك وكما شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلبه وبالسكاغد الذي كتبه عليه ، فإنه لا يفرح بالقلم والسكاغد ولا يشكرهما ، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك . وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك في الإيصال ، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئا ، فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والسكاغد ، فلا يورث ذلك شركا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك .

وكذلك من الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها ، فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل - شاءت أم أبت - كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده . فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهييج عليه الدواعي وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك ، وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به . وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه ، فهو إذن إنما يعطيك

(١) حديث : من قال سبحان الله فله عشر حسنات . الحديث تقدم في الدعوات . (٢) حديث : أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله . أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم واليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث : ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله . لم أجده مرثوها وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفكر عن إبراهيم النخعي . يقال إن الحمد أكثر الكلام تضييفا .

لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك ، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما أنفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعا عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها . وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطرا إلى الإيصال إليك . فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا وقدرت على شكره ، بل كنت بهذه المعرفة ، مجردا شاكرا .

ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته . إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرا .

فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه ، فإن خالجت ريب في هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره ، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك : فهذا بيان هذا الأصل .

(الأصل الثاني) الحال المستمدة من أصل المعرفة : وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، وهو أيضا في نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه ، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ، لا بالإلعام ، ولعل هذا يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فنقول : الملك الذي يريد الخروج إلى سفره فأنعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح بالمنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه (أحدها) أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس وأنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وأنه جواد نفيس ، وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجدته في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح (الوجه الثاني) أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من حيث تستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه ، لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائه عن الفرس أصلا أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك (الوجه الثالث) أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمة القرب منه ، وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتنى به هذا القدر من العناية ، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب ، فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى ، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلية في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحقه على الإلعام في المستقبل ، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه ، وإنما الشكر التام في الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والتزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام ، فهذا هو الرتبة العليا ، وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للأخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدّه عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما يريد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال الشبلي رحمه الله : الشكر رؤية بالمنعم

لا رؤية النعمة وقال الخواص رحمه الله : شكر العامة على المطعم والملبس والمشرّب . وشكر الخاصة على واردات القلوب ، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده الذات في البطن والفرج ومدركات الخواص من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب ، فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفة ولفاته ، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرة ، كما قيل :
ومن يك ذا فم مريض يجد مرا به الماء الزلالا
فاذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى ، فإن لم تكن إبل فعزى ، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية ، أما الأولى الخارجة عن كل حساب ، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك ، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه .

الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم . وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، حتى إن شكر العيينين : أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، وشكر الأذنين : أن تستر كل عيب تسمعه فيه ، فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان : لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم أرجل وكيف أصبحت ؟ ، قال بخير ، فأعاد صلى الله تعالى عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : هذا الذى أردت منك ^(١) ، وكان السلف يتساءلون وينتهم استخراج الشكر لله تعالى ليسكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق ، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين ، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك ويده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء ؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى ، فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء . وذل العبد لمولاه عز ، والشكوى إلى غيره ذل ؛ وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر : الكبر الكبر ! فقال : يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك ! فقال : تكلم ، فقال : لسنا وفدا لرغبة ولا وفدا لرغبة ، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك ، وأما الرغبة فقد آمنتنا منها عدلك ، وإنما نحن وقد الشكر جئتناك نشكرك باللسان ونصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته .

فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان . وقول القائل :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم أرجل وكيف أصبحت ؟ ، فقال : بخير ، فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال : هذا الذى أردت منك . أخرجه الطبراني في المعجم من رواية الفضل بن عمرو مرفوعا نحوه ، قال في الثالثة : أحمد الله . وهذا معضل ، ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال : أحمد الله إليك ، وفيه راشد بن سعد ضعيف الجمهور لسوء حفظه ، ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر بإسناد صحيح

إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة : جامع لاكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار شكر النعمة : أن ترى نفسك في الشكر طفيليا ، إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد الشكر : أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة : إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم ؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم ، أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحالة السائل ، اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه ، وإعراضا عما لا يحتاج إليه ؛ فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها ، بل لا يظن ذلك بعقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني ، أم يتناول بعضها مقصودا وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه ؟ ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء ، والله الموفق برحمته .

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يفعل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر ، فإننا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محالهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثل بين أيديهم في صورة الخدم ، وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم ، فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك ، وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين : (أحدهما) أن الله تعالى منزّه عن الحظوظ والأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة ، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالمثل بين يديه ركعا سجدا ؛ فشكرنا إياه بما لاحظ فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن تنام في بيوتنا أو نسجد أو نركع ، إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ، ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها (الوجه الثاني) أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا ، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ، ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه ، أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثاني شكر للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين . ولسنا نشك في الأمرين جميعا ، والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام فقال : يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ وفي لفظ آخر : وشكرك لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتني . وفي خبر آخر : إذا عرفت أن النعمة مني رضيت منك بذلك شكرا .

فإن قلت : فقد فهمت السؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم ؛ فإني أعلم استحالة الشكر لله تعالى ، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه ، فإن هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا ؟ وكأنّ الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر ، وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى ، والفهم قاصر عن درك السرفيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى

من علوم المعاملة ، ولكننا نشير منها إلى ملاحظ ونقول : ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب ، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلاً وأبداً ، لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ، ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد ، إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه ، وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره ؛ فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود ألبتة ، وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجوداً فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ، ولا قيوم إلا واحد ، ولا يتصور أن يكون غير ذلك ؛ فإذا لم يكن في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد ؛ فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه ، فهو الشاكر وهو المشكور ، وهو المحب وهو المحبوب ، ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ فقال وأعجابه أعطى وأتى إشارة إلى أنه إذا أتى على إعطائه فعلى نفسه أتى ، فهو المثنى وهو المثنى عليه ، ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرئ بين يديه ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فقال : لعمرى يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه ، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب ، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حدّ عقلك ، فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه ، والصانع إذا أحب صنيعه فقد أحب نفسه ، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه ، وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنيعه ؛ فإن أحبه فما أحب إلا نفسه ، وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب ؛ وهذا كله نظر بعين التوحيد ، وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى ، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول : كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالا من الخبز ، فيضحك عليهم الجاهل لجهلهم بمعاني كلامهم ، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين ﴿ ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم ، إذ قال تعالى ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ على الأرائك ينظرون ﴾ وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال ﴿ إن تسخروا منا فلنا تسخر منكم كما تسخرون ﴾ فهذا أحد النظرين . النظر الثاني : نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان : قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم في كتمان العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقاً وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ، ولم يقتصر على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ، ولو عرفوا لعلوا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم ، وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا ، وفرق بين الموجود وبين الموجد ، وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد ، فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو ، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان ، وإذا كان كل من عليها فان ، فسلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثاني : ليس بهم عى ولكن بهم عور ، لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه ، والذين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق ؛ فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقاً كما

أن الذي قبله جاحد تحقيقاً : فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين ، فأثبت عبداً ورباً ، فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد ، ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى ؛ فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلى المحو ، فيمنحى عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله ، ليكون قد بلغ كمال التوحيد ، وحيث أدرك نقصاً في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد ، وبينهما درجات لا تحصى ، فهذا تتفاوت درجات الموحدين ، وكتب الله المنزلة على السنة رساله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار ، والأنبياء هم الكحالون ، وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض ، وترجمته قول « لا إله إلا الله » ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق ، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون ، والجاحدون والمشركون أيضاً قليلون ، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد ، إذ عبدة الأوثان قالوا « مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفاً ، والمتوسطون هم الأكثرون ، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالأبرق الخاطف لا يثبت ، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز .

لكل إلى شأ والعلا حركات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقيل له « واسجد واقترب » قال في سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ^(١) » فقوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بعفوك من عقابك » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط ، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله « ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال ، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال « أعوذ برضاك من سخطك » وهما صفتان ، ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وأعوذ بك منك » وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ، ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذاً ومثلياً ، ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقترب فقال « لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقوله صلى الله عليه وسلم « لأحصى » خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها ، وقوله « أنت كما أثنيت على نفسك » بيان أنه المثنى والمثنى عليه وأن الكل منه بلا وإليه يعود وأن كل شيء هالك إلا وجهه ؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعبد بفعل من فعل : فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذ انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « أنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة ^(٢) » فكان ذلك لترقيته إلى سبعين مقاماً بعضها فوق البعض : أولها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى آخرها ، فكان استغفاره لذلك . ولما قالت عائشة رضي الله عنها : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد ؟

(١) حديث قال في سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك » وأعوذ برضاك من سخطك ... الحديث « أخرجه مسلم من حديث عائشة : أعوذ برضاك من سخطك وبما فاتك من عفوئك ... الحديث (٢) حديث « أنه ليغان على قلبي » الحديث « تقدم في التوبة ، وقبله في الدعوات .

قال « أفلا أكون عبداً شكوراً^(١) » ، معناه . أفلا أكون طالباً المزيد في المقامات . فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾

وإذا تغلغنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ، وارجع إلى ما يليق بعلم المعاملة : فنقول الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الحق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه ، ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة ، وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مراكباً وملبوساً ونقداً لاجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ، ثم يكون له حالتان : (إحداهما) أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته (والثانية) أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناه ، وغيبته لا تنقص من ملكه ؛ فيكون قصد من الإلزام عليه بالركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه ، فنزل العباد من الله تعالى في المنزل الثانية لا في المنزل الأولى فإن الأولى محال على الله تعالى ، والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكراً في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته مالم يتم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً ، ومع ذلك يتصور أن يكون شاكراً وكافراً ويكون يشكره بأن يستعمل ما أنفذه إليه مولاه فيما أحبه لاجله لا لاجل نفسه ، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه ؛ فهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذ استعمل نعمته في محبته : أي فيما أحبه لعبد له لنفسه ، وإن ركب واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته : أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبد له لنفسه ، وإن جلس ولم يركب لاني طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته إذا أهملها وعطّلها ، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه ، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتشكل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته ، وإنما سعادتهم في القرب منه فأعده لهم من النعم ما يقدر على استعماله في نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ثم رددناه أسفل سافلين » إلا الذين آمنوا ﴾ الآية ، فإذا نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لاجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب ، والله تعالى غني عنه قرب أم بعد ، والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له ؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطّلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى ؛ فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى ؛ فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملها المحبة والكراهة ، بل رب مراد

(١) حديث عائشة لما قالت له : ففر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء .. الحديث . رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بلسة أحاديث ، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصراً وكذلك هو في الصحيحين مختصراً من حديث المنيرة بن شهبة .

محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سر التقدر الذي منع من إفشائه ، وقد انحل بهذا الإشكال الأول : وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر ؛ وبهذا أيضا ينحل الثاني ؛ فإننا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد ، وفعلك عطاء من الله تعالى ، ومن حيث أنت محله فقد أتى عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك ؛ فهو الذي أعطى وهو الذي أتى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته ، فله الشكر على كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له ، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ، ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الازلية فيك ؛ فوصفك بأنك شاكر لإثبات شئية لك وأنت شيء ، إذ جعلك خالق الأشياء شيئا وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك ؛ فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئا فأنت شيء إذ جعلك شيئا ؛ فإن قطع النظر عن جعله كنت لاشيء بتحقيقها ، وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »^(١) ، لما قيل له : يا رسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟ فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض . وقوله « اعملوا » وإن كان جاريا على لسان الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو فعل من أفعاله ، وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع ، وعليهم فعل من أفعال الله تعالى ، والعلم سبب لا نبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة ، وانبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى ، وهو سبب للحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض إذ لا يخاق العرض قبله ، وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أى هو شرط ، ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم ، فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجود لغيره بل بمهد شرط الحصول لغيره ، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه .

فإن قلت : فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان ، وما إلينا شيء فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى ؟ فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا ، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف ، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله ، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها ، فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ، ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ، ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء ؛ فإذا لم يسمع لم يعلم « وإذا لم يعلم لم يخف ، وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا ، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى فى حزب الشيطان ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين ؛ فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ؛ فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب ، وهو تسليط العلم والخوف عليه . وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة واللامن والغرور عليه ، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا ، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ،

(١) حديث « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » من حديث علي وعمران بن حصين .

ولا قادر إلا الملك الجبار ، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لذلك اليوم على الخصوص ، ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف ؛ فتعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك .

بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه . ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان (أحدهما) السمع ، ومستنده الآيات والأخبار (والثاني) بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار ، وهذا الأخير عسير ، وهو لأجل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ، ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد ، فمن لا يطالع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً . وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه ، إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب ، وتلك الحكمة منقسمة إلى جليلة وخفية . أما الجليلة فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً فتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة ، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام ، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجارية التي تحتلها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه ، إذ قال تعالى ﴿ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققا فأنبتنا فيها حبا وعنبا ﴾ الآية . وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت الخفية لا يطالع عليها كافة الخلق ، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار إليه قوله تعالى ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ لجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لانهلوا ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمه واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف ، وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلا ما يعرف حكتها كالعالم بأن العين للإبصار لا للبطش ، واليد للبطش لا للشي ، والرجل للشي لا للشم ، فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجايف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغاظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس ، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ فإذا كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى ، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما لم يكن يأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، إذ الإبصار يتم بهما ، وإنما خلقتا ليصير بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقى بهما ما يضره فيهما ، فقد استعملها في غير ما أريدتا به ، وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والانس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ، ولا أنس

إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهراً وباطناً ، فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس ، والراجح إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، فلذلك قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ۝ ما أريد منهم من رزق ﴾ الآية ، فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية . ولنذكر مثلاً واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه . كمن يملك الزعفران مثلاً وهو محتاج إلى جمل يركبه ، ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران ، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة . وكذا من يشتري داراً بثياب أو عبداً بخف أو دقيقاً بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها ، فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعدد المعاملات جداً ، فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم بينهما بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى ، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال : هذا الجمل يسوى مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة ، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان ، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينفذ الأمر ، فإذا خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكين بين الأموال بالعدل والحكمة أخرى وهي التوصل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة فمن ملكهما فكانه ملك كل شيء ، لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتيج إلى شيء وهو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء ، والشئ إنما تستوى نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها ، كالمرآة لا لون لها ، وتحكى كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض ، وكالحرف لا معنى له نفسه وتظهر به المعاني في غيره ، فهذه هي الحكمة الثانية ، وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما ، فإذا من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه . لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به ، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمر وخاصة إذ لا غرض للأحاد في أعيانهما فإنهما حجران ، وإنما خلقا لتتداولهما الأيدي فيكونا حاكين بين الناس وعلامة معرفة المقادير مقومة للراتب ، فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة في صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة - أخبر هؤلاء العاجزين

بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل اليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كنز لان مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياة والمسكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس ، والحبس أهون منه ، وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تتوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تتبدد ، وإنما الألوان لحفظ المائعات ، ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له : من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر فى بطنه نار جهنم ^(١) ، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض فى عينهما ، فإذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم . ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاما ودابة ، إذ ربما لا يبيع الطعام والدابة بالثوب ، فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده . فانهما وسيلتان إلى الغير لا غرض فى أعيانهما ، وموقعهما فى الأموال كموقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون : إن الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره ، وموقع المرأة من الألوان ؛ فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز ، وتقييد الحاكم والبريد الموصول إلى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم ، فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للدخار وهو ظلم

فإن قلت فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر ؛ ولما جاز بيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد النقدين يخالف الآخر فى مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدرهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا ، وفى المنع منه ما يشوق المقصود الخاص به ؛ وهو تيسر التوصل به إلى غيره : وأما بيع الدرهم بدرهم بمثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فإنه عبث يجرى بجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، فلا نمنع بما لا تشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر ، وذلك أيضا لا يتمسور جريانه ؛ إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردى فلا ينتظم العقد ؛ وإن طلب زيادة فى الردى فذلك بما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديتها سواء ، لأن الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر إليهما فيما يقصد فى عينه ، وما لا غرض فى عينه فلا ينبغى أن ينظر إلا مضافات دقيقة فى صفاته ، وإنما الذى ظلم هو الذى ضرب النقود مختلفة فى الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة فى أعيانها وحققا أن لا تقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فإنما لم يجر ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان فى القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر . والمعاوضة لا أحد فيها ولا أجر ، فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها فى معرض المعارضة ، وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف على جهتها فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها فى الأيدى ويؤخر عنها الأكل الذى أريدت له ، فإخلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغنى عنها ؛ إذ من معه طعام فلم

(١) حديث « من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر فى بطنه نار جهنم » متفق عليه من حديث أم سلمة ، ولم يصرح المصنف بكونه حديثا .

لا يأكله إن كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة ، وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه من يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه ، فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ، ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر ، وورده من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ؛ نعم بائع البر بالتمر معذور ، إذ أحدهما لا يستد مسد الآخر في الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عايب فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ؛ ومقابلة الجيد بمثله من الردى لا يرضى بها صاحب الجيد وأما جيد برديثين فقد يقصد ، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوى الردى في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام ، فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا ، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فإنه أوى من جميع ما أوردناه في الخلافات ، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعى رحمه الله في الشخصص بالأطعمة دون المكيلات ، إذ لو دخل الجص فيه لسكان الثياب والدواب أولى بالدخول ؛ ولولا الملح لسكان مذهب مالك رحمه الله أفوم المذاهب فيه إذ خصصه بالآوقات ، ولكن كل معنى يراه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحدد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء ؛ وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ؛ ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يجد لتحير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص فعين المعنى بكامل قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا ، فلذلك قال الله تعالى ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد ، كما يجد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر ، وقد حده شرعا بكونه من جنس المسكر ؛ لأن قليله يدعو إلى كثير ، والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية ، فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقيدين ، فينبغى أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغى أن يصرف عنها ، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزايل الشهوات وملاعب الشياطين ، بل لا يتذكر إلا أولوا الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء »^(١) ، وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك ، وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنهما ، وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذى تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالخطر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالخطر ، فأقول مثلا : لو استنجيت باليمن فقد كفرت نعمة اليمين ، إذ خلق الله لك اليمين وجعل إحداها أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل ، وتفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لا يأمر بالعدل ، ثم أخرجك من أعطاك اليمين إلى أعمال : بعضها شريف كأخذ المصحف ، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة ، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمن فقد خصصت الشريف بمسا هو خسيس فنقضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل ، وكذلك إذا بصقت مثلا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متمسكة في حركتك وقسم الجهات إلى مالم يشرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه إلى نفسه استمالة

(١) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » تقدم في الصوم .

لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك ، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيصة كقضاء الحاجة ورعى البصاق ، فإذا رميت بصاقتك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك ، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ؛ لأن الخف وقاية الرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداة في الخناووظ يذبحى أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل ، وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروها ، حتى إن بعضهم كان قد جمع إكرارا من الحنطة وكان يتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين ، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الإلغام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها ؛ فقيح أن يقال : الذي شرب الخمر وأخذ القدرح ييساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ، ومن باع خمر في وقت النداء يوم الجمعة فقيح أن يقال خان من وجهين (أحدهما) بيع الخمر ، والآخر البيع في وقت النداء . ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدر القبلة فقيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه ، فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض ، فيمنحق بعضها في جنب البعض ، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ، ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكايه في نفسه ، فكل ماراعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة ، وإلا فكل هذه المكاه عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب ، بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزل وبعضها يخرج بالسكينة عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين ، وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد أما اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة . وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوة لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل ، فإن كان له غرض صحيح فله ذلك ، إذا الشجر والحيوان جملا فداء لأغراض الإنسان ، فإنهما جميعا فانيان هالكان ، فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا ، لأن كل شجرة بعينها لا تفى بحاجات عباد الله كلهم بل تفى بحاجة واحدة ، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما ، فصاحب الاختصاص هو الذى حصل البذر ووضعه فى الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجع جانبه بذلك ، فإن نبت ذلك فى موات الأرض لا يسمى آدمى اختص بمفرسه أو بغرسه ، فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه ، فللسابق خاصية السبق ، فالعدل هو أن يكون أولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذى له مافى السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو فى نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم فى الأكل من مائدته بقدر حاجتهم ، كالملك ينصب مائدة لعبيده ، فن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها براجه فجاء عبد آخر وأراد انزعاعها

من يده لم يمكن منه لا لأن اللقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد — فإن اليد وصاحب اليد أيضاً مملوك — ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص ، والأخذ اختصاصاً ينفرد به العبد فمنع من لا يدل بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عبادته ، ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكثره وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم ، وهو من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة ، فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تسكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطبقونه ، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحة ذلك إياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق ، فكذلك إباحة العوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن إليه ، إذ قال تعالى ﴿ إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِيهَا فَمَا فَيَحْفَظْكُمْ تَحْفَظُوا ﴾ بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراتب ، فكل عباد الله ركب لمطايأ الأبدان إلى حضرة الملك الديان ، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن ركب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدو وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الراتب وبال عليه في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر ، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفي إلا بالقليل ، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ وفرح إبليس لعنه الله بقوله ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأموراً أخرى وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مبادئها ؛ فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير .

هـ فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة ، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساق الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران ، وهذا كله مفهوم ، ولكن الإشكال باق : وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضاً من فعل الله تعالى ، فأين العبد في البين حتى يكون شاكراً مرة وكافراً أخرى ؟ فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المسكشافات ، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها ، ونحن الآن نعبّر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير ويحجدها من عجز عن الإيضاح في السير فضلاً عن أن يحول في جوّ المسكوت جولان الطير فنقول : إن الله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلبسها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها ، فلم يكن لها في العالم عبارة لعل شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشرافها ، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفايش عن نور الشمس ، لاغموض

في نور الشمس ولكن اضعف في أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً ، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ، ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة ، فهي توهم منها أمراً يحمل عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها ، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كفصور لفظ القدر ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية ، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات ، فاستعير للنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير للنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة ، وقيل : إنهما جميعاً داخلان في وصف المشيئة ، ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة ، منهما أمراً يحمل عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات ، ثم انقسم عباد الله الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ، ويكون ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور ، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة ، فاستعير للنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها ، فاستعير له الكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زبادة في النكال ، وظهر على من ارتضاء في الأزل فعل النساق بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى النكال ثم قبح وأردى ، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسع عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه ، فإذا تم زينته قال يا جميل ما أجملك وأجل ثيابك وأنظف وجهك ، فيكون بالحقيقة هو الجميل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال ، وكأنه لم يثنى من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة ، فهكذا كانت الأمور في الأزال ، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ولم يكن ذلك على اتفاق وبحيث بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء ، وقيل إنه كلبح بالبصر أو هو أقرب ، لفاضت بخار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بمسابق به التقدير ، فاستعير لترتيب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي ، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتماهى إلى غير نهاية . وقيل : إن شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والقدر ، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل ، وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفصيل ، وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه ، فأججوا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكنوا فما لهذا خلقتكم (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) وامتلات مشكاة بعضهم نورا مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض ، وكان زيتهم أولاً صافياً يكاد يضيء ولولم تمسسه نار ، فمسته نار فاشتعل نورا على نور ، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم : تأدبوا بأداب الله تعالى واسكنوا ، وإذا

ذكر القدر فأمسكوا ^(١) فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل ، فيجيا به حياة يحتملها شخصه وخاله وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس ، وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضله وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلا له ، وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك ، والاعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حد ما ؛ فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجّر وراءه أعمى ، وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر الماهر بصناعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجّر وراءه آخر ؛ فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ماهو بحال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض ، والسباحة يمكن أن تتعلم ؛ فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ؛ ولذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : لو ازداد يقينا لمشي على الهواء ^(٢) ، فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران ، لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها ، وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرّف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ، ثم أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين ، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين : ويغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى ﴿ قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ﴾ وقال تعالى ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة ، فانظر كيف نسبته إلى العبد الذي غضب عليه ، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبته إلى العبد الذي أحبه ، وعندك في العادة له مثال ، فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له غيدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغي أن تقول « هذا فعلى ، ولم يكون فعله دون فعلى ؟ » فإنك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك ، بل هو الذى صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماما للعدل ، فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك فإنك أيضا من أفعاله ، فداعيتك وقدرتك وعملك وعملك وسائر أسباب

(١) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود ، وقد تقدم في العلم ، ولم يصرح المصنف بكونه حديثا . (٢) حديث قيل له : يقال إن عيسى مسمى على الماء قال « لو ازداد يقينا لمشي على الهواء » هذا حديث منكر لا يعرف هكذا ، والمعروف . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال : فقد الحواريون نبيهم فقبل لهم توجه نحو البحر فاطلقوا بطلبونه ، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يسعى على الماء ، فذكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مسمى على الماء . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل « لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال » .

حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتبته بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال المعتدلة ، إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والمكوت ، فلذلك تضيفه إلى نفسك ، وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلاً إلى لعب المشعبد الذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص وتزق وتقوم وتقعده وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورءوسها في يد المشعبد وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعده . وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك ، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله ، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبد الذي الأمر إليه والجاذبة بيده ، فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ، ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون ، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بمدة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ، ثم شاهدوا رموس تلك الخيوط في مناطق لها هي معلقة بها ، وشاهدوا تلك المناطق مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسماوات ، وشاهدوا أيضاً ملائكة السماوات مصروقة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وعبر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من القدر والأمر ف قيل ﴿ خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم . وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى ﴿ يتنزل الأمر بينهما ﴾ فقال : لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجتموني ، وفي لفظ آخر : لقائم إنه كافر .

وانتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه ، فلانرجع إلى مقاصد الشكر فنقول :

إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إتمام حكمة الله تعالى ، فأشكر العباد أحبيهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضاً ترتيب ، وما منهم إلا وله مقام معلوم ، وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام ، وإنما علق درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام ، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ، ويلي درجتهم درجة الأنبياء فإنهم في أنفسهم أخيار ، وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتم بهم حكمته ، وأعلام رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم ، إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين ، ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فإنهم في أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ، ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ، ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ، ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط ، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ، ومن عدا هؤلاء فهم جرع راع .

واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحق وإن كان ظالماً فاسقاً . قال عمرو بن العاص رحمه الله :
 إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتسكرون ،
 ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر ، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر ، وإن أساءوا فعليه الوزر وعليكم
 الصبر » (١) . وقال سهل : من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع ، ومن أتاه
 من غير دعوة فهو جاهل . وسئل : أى الناس خير ؟ فقال : السلطان ، فقيل : كنا نرى أن شر الناس السلطان فقال
 مهلاً ، إن الله تعالى له كل يوم نظرتين : نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ، ونظرة إلى سلامة أبدانهم ، فيطلع في صيفته
 فيغفر له جميع ذنبه ، وكان يقول : الخشب السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصاً يقصون .

الركن الثاني من أركان الشكر : ما عليه الشكر

وهو النعمة ، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم فإن إحصاء نعم
 الله على عباده خارج عن مقدور البشر ، كما قال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ فنقدم أموراً كلية تجرى
 مجرى القرائن في معرفة النعم ، ثم نشغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب .

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة ، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة
 الآخروية ، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز ، كتسمية السعادة الدنيوية التي لاتعين على الآخرة
 نعمة فإن ذلك غلط محض ، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن يكون إطلاقه على السعادة الآخروية أصدق
 فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بوسطة واحدة أو بوسائل فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق
 لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية . والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات :

(القسم الأول) أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً : كالعلم وحسن الخلق
 وإلى ما هو ضار فيهما جميعاً كالجهل وسوء الخلق ، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل : كالتلذذ باتباع الشهوة ، وإلى
 ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل : كقمع الشهوات ومخالفة النفس ، فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقاً
 كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقاً وهو ضدهما والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوى البصائر
 وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم فإنه يعتده نعمة إن كان جاهلاً ، وإذا علم أنه علم أن ذلك بلاء سيق
 إليه . والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال : ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه
 شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة ، فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعتده نعمة
 ويتقصد المنفعة منه يهديه إليه ويقربه منه ويهيئ له أسبابه ، فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والاب يدعوه إليها ، فإن
 الأب لكامل عقله يلمح العاقبة ، والأم لفرط حباها وقصورها تلحظ الحال ، والصبي لجهله يتقصد منة من أمه دون أيه

(١) حديث « سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة « يستعمل
 عليكم أمراء فتعرفون وتسكرون » ورواه الترمذي باللفظ « سيكون عليكم أئمة » وقال حسن صحيح ، والبخاري بسند ضعيف من
 حديث ابن عمر « السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ،
 وإن جار أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر » وأما قوله « وما يصلح الله بهم أكثر » فلم أجده بهذا اللفظ ،
 إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فرغ إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله : اسبروا فإن جور إمامكم
 خسين سنة خير من هرج شهر ، فإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - فذكر حديثاً فيه « والإمرة الفاجرة خير من
 الهرج » رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به .

ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوا له ؛ ولو عقل لعلم أن الالم عدوا باطنا في سورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة ، ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل ، فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو .

(قصة ثانية) اعلم أن الأسباب الدنيوية تختلط قد امتزج خيرها بشرها ، فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والآقارب والجاه وسائر الأسباب ، ولكن تنقسم إلى مانعة أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب ، وإلى مضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى ما يكافئ ضرور نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص ؛ فرب إنسان صالح يفتن بالمال الصالح وإن كثر فينتقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذه التوفيق لعمه في حقه ، ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستغفرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه .

(قصة ثالثة) اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره ، وإلى مؤثر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته ولغيره ، فالأول : ما يؤثر لذاته لا لغيره : كاذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الآخرة التي لا انتضاء لها فإنها لا تطالب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة ورامها ، بل تطالب لذاتها . الثاني : ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته : كالدرهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحسب بمثابه واحدة ، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ؛ ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقد ، وهو غاية الجهل والضلال الثالث : ما يقصد لذاته ولغيره : كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليقدّر بسببها على الذكر والفكر الموصولين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا ، وتقصد أيضا لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة ، فإذا المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول ، فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة ، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمر ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما ، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته ، استوى عند الذهب والمدر ، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة .

(قصة رابعة) اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل ، فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الذي يفيد في المآل ، والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال : والشروع أيضا تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم ، وكل واحد من القسمين ضربان : مطلق ومقيد ، فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة ، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم ، وإنما يحس الجاهل بالجهل إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنع الجسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه ، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات وأبترك

الكبر وذل التعلم ، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة . الضرب الثاني : المقيد ، وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض ، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن ، ورب نافع قبيح كالحق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لا عقل له فإنه لا يتهم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه ، ورب نافع من وجه ضار من وجه : كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق ، فإنه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها . والنافع قسمان : ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما ألبته غيرهما ، وإلى ما لا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا في تسكين الصفراء ؛ فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه .

(قصة خامسة) اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات . أما العقلية فسلطنة العلم والحكمة ، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها القلب لا اختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل ، وهذه أقل اللذات وجودا وهي أشرفها ، أما قلتها فلأن العلم لا يستلذ إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل العلم والحكمة ، وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلأنها لازمة لاتزول أبدا لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ودائمة لا تمل ، فالطعام يشبع منه فيمل ، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل ، والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستثقل ، ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد إذا رضى بالخسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه : أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال ، إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يريد بالإتفاق والمال ينقص بالإتفاق ، والمال يسرق والولاية يعزل عنها ، والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه في روح الأمن أبدا ؛ وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبدا ، ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال أبدا ، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة ، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سماه خيرا في مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم . فلما لعدم الذوق فن لم يذق لم يعرف ولم يشق ، إذ الشوق تبع الذوق ، ولما الفساد أمرجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمرضى الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مراً ، ولما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن ، وذلك لا يدل على أنها ليست لذية ، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألد الأشياء ، فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة ، إما من لم يحى باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات : وقوله تعالى ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ إشارة إلى مرض العقول . وقوله عز وجل ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ إشارة إلى من لم يحى حياة باطنة ، وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتي وإن كان عند الجهال من الأحياء ، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالابدان الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء ، وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة : ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج ، وهذه أكثرها وجودا وهي أخسها ، ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج حتى الديدان والحشرات ، ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة ، وهو

أشدّها التصاقاً بالمتغافلين ، فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله ، وهذه رتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب ، وآخر ما يخرج من رموس الصديقين حب الرياسة . وأما شره البطن والفرج فكسره بما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصديقون : فأما قمعها بالسكينة - حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجاً عن مقدور البشر . نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ، ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل يعتريه الفترات فتعود إلى الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل ، وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام : قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجاء والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية : وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفاب البشرية ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة . أما الأول فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد . وأما الثاني فالدنيا طالحة به . وأما الثالث والرابع فوجودان ولكن على غاية الندور ، ولا يتصور أن يكون ذلك نادراً شاذاً ، وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة ، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام ، فلا يزال يزداد العهد طولاً وتزداد مثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإنما وجب أن يكون هذا نادراً لأنه مبادئ ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرثون ، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم ، فكذا في ملك الآخرة ، فإن الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة ، والآخرة عبارة عن عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك ، فإنك لا ترى نفسك ، وترى صورتك في المرآة أولاً فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ؛ فالقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة والقلب المتأخر متقدماً ؛ وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم ، فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملوكوت ، فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملوكوت فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الحق به فقال ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء ناراً من شأنها أن تطلع على الأفق ، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجاباً ، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك ، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين ، وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين ، فلذلك قال الله تعالى ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ﴾ أي في الدنيا ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أي في الآخرة ، فإذا قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزاً كالشخص الصالح لملك الدنيا .

(قصة سادسة) حاوية لمجامع النعم : اعلم أن النعم تنقسم إلى ماهي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ماهي مطلوبة لأجل

الغاية ؛ أما العاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهى النعمة الحقيقية ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا عيش إلا عيش الآخرة »^(١) ، وقال ذلك مرة فى الشدة تسليية للنفس ، وذلك فى وقت حفز الخندق فى شدة الضر ؛ وقال ذلك مرة فى السرور منعاً للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ؛ وذلك عند إحدائق الناس به فى حجة الوداع^(٢) . وقال رجل : اللهم إني أسألك تمام النعمة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « وهل تعلم ما تمام النعمة ؟ قال : لا . قال : « تمام النعمة دخول الجنة »^(٣) .

وأما الوسائل فتتقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس ؛ وإلى ما يليه فى القرب كفضائل البدن وهو الثانى ، وإلى ما يليه فى القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيعة بالبدن من المال والأهل والعشيرة ؛ وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية ، فهى إذن أربعة أنواع : (النوع الأول) وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق ، وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسوله ، وإلى علوم المعاملة . وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل فى الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال تعالى ﴿ أن لا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح ، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان . ومن انهك فى شهوة البطن والفرج فقد طغى فى الميزان ، وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان ، فإذا فى الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة : علم مكاشفة ، وعلم معاملة ، وعفة ، وعدالة . ولا يتم هذا فى غالب الأمر إلا بالنوع الثانى وهو الفضائل البدنية وهى أربعة : الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر ولا تنهأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهى النعم الخارجة المطيعة بالبدن وهى أربعة : المال والأهل ، والجاء ، وكرم العشيرة ، ولا ينتفع بشئ من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهى الأسباب التى تجميع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهى أربعة هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأنيده . فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة ألبتة إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ما سعى وليس لأحد فى الآخرة إلا ما تزود من الدنيا ، فكذلك حاجة الفضائل النفسية التى تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورى : وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل ، فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة .

« فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاء والعشيرة ؟ فأعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود . أما المال فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس

(١) حديث قوله عند حفز الخندق « لا عيش إلا عيش الآخرة » متفق عليه من حديث أنس .
 (٢) حديث قوله فى حجة الوداع « لا عيش إلا عيش الآخرة » رواه النافعى مرسلًا ، والحاكم متصلًا وصححه ، وتقدم فى الحج
 (٣) حديث قال رجل : اللهم إني أسألك تمام النعمة ... الحديث ، أخرجه الترمذى من حديث معاذ بن عمرو بن الجموح .

له كفاية : كساع إلى الهيبة بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نعم المال الصالح للرجل الصالح ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على تقوى الله المال ^(٢) » ، وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الاوقات فى طلب الاقوات وفى تهيتة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ، ثم يتعرض لانواع من الاذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع لإبساله المال ، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات .

وقال بعض الحكماء - وقد قبل له ما النعيم ؟ فقال : الغنى فإن رأى الفقير لا يعيش له . قيل : زدنا قال : الامن ، فإن رأى الخائف لا يعيش له . قيل : زدنا قال : العافية ، فإن رأى المريض لا يعيش له . قيل : زدنا قال : الشباب ، فإن رأى الهرم لا يعيش له . وكأن ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح معافى فى بدنه آمناً فى سربه عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ^(٣) » ، وأما الامل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على الدين المرأة الصالحة ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم فى الولد « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ... الحديث ^(٥) » وقد ذكرنا فوائد الامل والولد فى كتاب النكاح . وأما الأقارب فهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدى فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة فى دينه ماله انفراد به ليطال شغله ، وكل ما يفرغ قلبك من ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذن نعمة . وأما العز والجاه ، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضميم ، ولا يستغنى عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه وعمله وفراغه ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله ، وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه ، ولذلك قيل : الدين والسلطان توأمان . قال تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب ، كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم ، ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه ، فكما يحتاج إلى سقف يدفع عنه المطر ، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته ، فيحتاج أيضاً إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه ، وكذلك علماء الدين لأعلى قصد التناول من خزائنها والاستئثار والاستكثار فى الدنيا بمتابعتهم ، ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن فى القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الحرب والهجرة ^(٦)

(١) حديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح » رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد .
(٢) حديث « نعم العون على تقوى الله المال » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر من جابر . ورواه أبو القاسم البزوفى من رواية ابن المنكدر مرسلاً : ومن طريقه رواه القضاة فى مسند الشهاب هكذا مرسلاً .
(٣) حديث « من أصبح معافى فى بدنه آمناً فى سربه ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محسن الألبارى ، وقد تقدم .
(٤) حديث « نعم العون على الدين المرأة الصالحة » لم أجده له إسناداً ، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » . (٥) حديث « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، وتقدم فى النكاح .

(٦) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الحرب والهجرة . رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت لئن صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال « لقد أقيمت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن هبدي ليل ... الحديث » والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أسد « لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد »

فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول : نعم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش »^(١) ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء »^(٤) ، فهذا أيضا من النعم ولست أغنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل .

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول : لاخفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى »^(٥) ، وإنما يستحق من جلته أمر الجمال ، فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ، ولعمري الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضا : أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها ، وأما في الآخرة فن وجهين (أحدهما) أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع ، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمسال والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح ، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها . والثاني : أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس ؛ لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن ، فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ، ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيآت البدن فقالوا : الوجه والعين مرآة الباطن . ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والنعم ، ولذلك قيل : طلاقة الوجه عنوان مافي النفس . وقيل : مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه . واستعرض المأمون جيشاً فعرض عليه رجل قبيح ، فاستنطقه فإذا هو ألكن ، فأسقط اسمه من الديوان وقال : الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة ، أو على الباطن ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه »^(٦) ، وقال عمر

= ولقد أوديت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد لا شيء يواريه لبلال » قال الترمذي : معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هارباً من مكة ومعه بلال . ولا يخفى عن عروة قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المفركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر فدفعه عنه ... الحديث . ولا يزال وأبي بكر من حديث أنس قال : لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه ، فقام أبو بكر لجل ينادى : ويلكم أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله . وإسناده صحيح على شرط مسلم : (١) حديث « الأئمة من قريش » رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح (٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم . الأرومة الأصل ، هذا معلوم ، فروى مسلم من حديث وائلة بن الأسقع مرفوعاً « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » وفي رواية الترمذي « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب ابن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه « إن الله خلق الخلق لجلني من خيرهم » وفي حديث ابن عباس « ما بال أقوام يتنزلون أصلي ، فوالله لأنا أفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً » (٣) حديث « تخيروا لنطفكم » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة ، وتقدم في النسكاح . (٤) حديث « إياكم وخضراء الدمن » تقدم فيه أيضاً .

(٥) حديث « أفضل السعادات طول العمر في عبادة الله » غريب بهذا اللفظ ، ولترمذي من حديث أبي بكر أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن صحيح .

(٦) حديث « اطلبوا الخير عند حسان الوجوه » أخرجه أبو بكر من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة ، وخيرة وأمه لا أعرف حالهما . ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء ، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر ، وله طرق كلها ضعيفة .

رضى الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم . وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أو لام بالإمامة ، وقال تعالى عمتنا بذلك (وزاده بسطة في العلم والجسم) ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة ، وإنما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه .

هـ فإن قلت : فقد أدخلت المال والجاء والنسب والأهل والولد في حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاء ، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وكذا العلماء . قال تعالى (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) وقال عز وجل (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) وقال على كرم الله وجهه في ذم النسب : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه . وقيل : المرء بنفسه لأبائه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا ؟ فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعصومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه ، ثم ينزل الثقل على وفق مظهره منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى ؛ فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسيما إلى جحدها ، إلا أن فيها فتنا ومخاوف ؛ فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم نافع ، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة ، وإن أصابها السوادى الغر فبهي عليه بلاء وهلاك ، وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللكل ، فن ظفر بالبحر فإن كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، وإن غاضه جاهلا بذلك فقد هلك ، فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم العون على تقوى الله تعالى المال » وكذلك مدح الجاء والعز ، إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وحبيه في قلوب الخلق ، وهو المعنى بالجاه ، ولكن المنقول في مدحهما قليل ، والمنقول في ذم المال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب ، وإنما كثر هذا وقل ذاك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ، ولو كانا في أعيانها مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن ينضاف إليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام ؛ فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزومون ، فقد يضر الصبي مالا يضر المعزم . نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك ، فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد ، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويعترفه أن فيها سمًا قاتلا لا ينبو منه أحد ولا يحدته أصلا بما فيها من نفع الترياق ، فإن ذلك ربما يغتره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة . وكذلك الغواص إذا علم أنه لو غاص في البحر بمراى من ولده لا تبعه وهلك .

(١) حديث ذم المال والجاه . أخرجه الترمذى من حديث مكب بن مالك « ما ذئبان جالمان أرسلاني غنم بأفسد لها من حب المال والعرف لدينه » وقد تقدم في ذم المال والبخل .

فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر . فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل . فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه . فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغنياء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما تنهافتون على النار تنهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم »^(٢) ، وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك ، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك ، وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت ، فلا جرم اقتصروا على رة القوت وما فضل فلم يسكوه بل أنفقوه ، فإن الإنفاق فيه الترياق ، وفي الإمساك السم ، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لما ألوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق ، فلذلك قبحت الأموال ، والمعنى به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذتها ؛ فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفائض إلى الخيرات فليس بمذموم ، وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله ؛ فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار . وقوله عليه الصلاة والسلام : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب »^(٣) ، معناه لأنفسكم خاصة ولا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه وإلا يمسك منها حبة . ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه ، فأذن له فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مره بأن يطعم المسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف^(٤) ... الحديث فإذا النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بنائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها ؛ فمن وثق ببصيرته وكال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار ، فلا تعدل بالسلامة شيئا في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه .

« فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد ؟ فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد ؛ وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل لمخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق ، وكذا الارتداد ، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما ينجى عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها ، لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته

(١) حديث « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله « لولده » وقد تقدم .
(٢) حديث « إنما تنهافتون على النار تنهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم » متفق عليه من حديث أبي هريرة باللفظ « مثل » ومثل الناس » وقال مسلم « ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه »
وسلم من حديث جابر « وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتلون من يدي » (٣) حديث « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال « بلغة » وقال « مثل زاد الراكب » وقال صحيح الإسناد قلت : هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسين وقال ابن ماجه « عهد إلى أن يسكني أحدكم مثل زاد الراكب » .
(٤) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال : مره أن يطعم المسكين ... الحديث أخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقاله صحيح الإسناد ، قلت : كلا ، فيه خالد بن أبي مالك ضعيف جدا .

ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحاً فمن أين ينفعه مجرد الإرادة ؟ فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية ، ولذلك قال تعالى ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى ، أي بهدأيته ، فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا »^(١) ، وللهداية ثلاث منازل (الأولى) معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى ﴿ وهدينا النجدين ﴾ وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل ، ولذلك قال تعالى ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا لعمى على الهدى ﴾ فأسباب الهدى هي الكتاب والرسل وبصائر العقول ، وهي مبدولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا ، والأسباب التي تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار ، قال تعالى ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ومن جملة المعميات : الإلف والعادة وحب استصحابهما ، وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ الآية . وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ أبشرا منا واحدا نتبعه ﴾ فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء ، والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال ، وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ والهداية الثالثة وراء الثانية : وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة ، فيهتدى بها إلا ما لا يهتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات ؛ وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى ، فقال تعالى ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ وهو المسمى حياة في قوله تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس ﴾ والمعنى بقوله تعالى ﴿ أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وأما الرشد فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقوبه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساد ، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها ، فالصبي إذا بلغ خبيراً يحفظ المال وطرق التجارة والاستثناء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستثناء لا يسمى رشيداً لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته ، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد ، فالرشد بهذا الاعتبار أكل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت ، فإن الهداية بمجرد أنها لا تسكني ، بل لا بد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكتفي ، بل لا بد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستقيظ وتتحرك ، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد ، وأما التأييد فكأنه جامع للكل ، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج ، وهو المراد بقوله عز وجل ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وتقرب منه العصمة ، وهي

(١) حديث « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله » متفق عليه من حديث أبي هريرة « إن يدخل أحدكم عمله الجنة » قالوا ولأنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة » وفي رواية لمسلم « ما من أحد يدخله عمله الجنة ... الحديث » وانقلا عليه من حديث عائشة ، وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر يصير كانع من باطنه غير محسوس ، وإياه عنى بقوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ فهذه هي مجامع النعم ، وإن تثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المراعى المتواضع والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرتة والعزالذى يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء ، ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا ، وتستدعى تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهى بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب ، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلندكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ وبالله التوفيق .

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا ، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة ، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلندكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لا بد لها من جسم متحرك هو آلتها ، ولا بد لها من قدرة على الحركة ، ولا بد من إرادة للحركة ، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ، ولا بد للأكل من مأكول ، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصلحه ؛ فلندكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء .

الطرف الأول : في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمى ولا تغذى ؛ فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض ، وهي له آلات ، فيها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ، ثم تغلظ أصولها ، ثم تتشعب ، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر ، إلا أن النبات مع هذا السكال ناقص ، فإنه إذا أعوزته غذاء يساق إليه ويمس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من وضع آخر ، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالاتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك ، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء ، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك ، فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه ، وهذا أول حس يخلق للحيوان ، ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس ، لأنه إذا لم يحس أصلا فليس بحيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه ، فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة ، وهذا الحس موجود لكل حيوان ، حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب ، لا كالنبات فإن النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع ، إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت

ناقصاً كالذئبة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط ، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك ، تخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أى ناحية ، فتحتاج إلى أن تطوف كثيراً من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذى شممت ريحه ، وربما لم تعثر فتكون فى غاية النقصان لولم يخلق لك إلا هذا ، تخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً ، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدواً لا حجاب بينك وبينه ؛ وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب ، تخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً ، وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع ، فاشتدت إليه حاجتك تخلق لك ذلك ، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات ، وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق ، إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب فى أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذب ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق فى مقدمة دماغك إدراك آخر يسمى حساً مشتركاً تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ، ولولاه لبطال الأمر عليك ؛ فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانياً لولا الحس المشترك ، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلا بد من حاكمتهم عند الصفرة والمرارة جميعاً ، حتى إذا أردت الصفرة حكم أنه مرفيع تمتنع عن تناوله ثانياً ، وهذا كله تشارك فيه الحيوانات ، إذ للشاة هذه الحواس كلها ؛ فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصاً ؛ فإن البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت ، وقد تلقى نفسها فى بئر ولا تدري أن ذلك يهلكها ، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه فى الحال ويضرها فى ثانى الحال فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر ، فأما إدراك العواقب فلا ، فيترك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى وهى أشرف من الكل وهو العقل ، فيه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتاتها فى الحال والمآل ، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك فى الأكل الذى هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل ، وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة فى عالمه ، وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس فى حقك ، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به ، فواحدة منها بأخبار الألوان ، والأخرى بأخبار الأصوات ، والأخرى بأخبار الروائح ، والأخرى بأخبار الطعوم ، والأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها ، وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك ، والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهى محتومة ويسلمها ، إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها ؛ فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذى هو الأمير والملك سلم الإنهاءات إليه محتومة ، فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها فى هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود وهى الأعضاء : مرة فى الطلب ومرة فى الحرب ومرة فى إتمام التدبيرات التى تمن له ،

فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات ، ولا تظن أنا استوفيناها ؛ فإن الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات ، والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية ، وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالشمعة ، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد ، ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب ، ولو اختلفت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم ، فهذا في حس واحد ، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس ؛ بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة ، مع أن جملة لا تزيد على جوزة صغيرة ؛ فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه ، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثاني : في أصناف النعم في خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البشر معطلا ، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله ، فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه ، فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة ؛ فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطانها عليك ووكلاها بك كالتقاضى الذى يضطرك إلى تناول حتى تتناول وتغتذى فتبقى بالغذاء ، وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ، ثم هذه الشهوة لولم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكك نفسك ، فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، لا كالزرع فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى ، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك ، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض ، وكيفية خلق الانثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذى هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث ، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظاما ولحما ودما ، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء : لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب ، فضلا عما تراه الآن ، ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام ؛ فإذا شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يكفيك ، فإنه تأتلك المهلكات من الجوانب ، فلولم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، لبقيت عرضة للآفات ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء ، فإن كل واحد يشتهى ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلى إلا ما يضر وينفع في الحال ، وأما فى المال فلا تكفى فيه هذه الإرادة ، فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعترف للعواقب ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فقم بها انتفاعك بالعقل ، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يفتيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة ، وهذه

الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب ، وقد سمينا هذه الإرادة باعثاً دينياً ، وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا .

الطرف الثالث : في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك ، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والمهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والمهرب ، فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفالج وخدر فيهما ، فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتسكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً وبمقتضى الكراهية هرباً ، فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها ؛ فمنها ما هو للطلب والمهرب كالرجل للإنسان والجنح للطير والقوائم للدواب ، ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان ، وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافاً كثيراً ؛ فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج إلى سرعة الحركة لخلق له الجناح ليطير بسرعة ، ومنها ما خلق له أربع قوائم ؛ ومنها ما له رجلان ، ومنها ما يدب وذكرك ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غير هاتين : رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تنكفي ما لم تتمكن من أن تأخذه ؛ فافتقرت إلى آلة باطشة ؛ فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومشملمتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتد وتنثني إليك فلا تكون كخشبة منصوبة ؛ ثم جعل رأس اليد عريضة بخلق الكف ؛ ثم قسم رأس الكف بخمس أقسام هي الأصابع وجعلها في صفتين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ، ولو كانت مجمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعا إن بسطتها كانت لك بحرفة وإن ضممتها كانت لك مغرفة ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن اشترتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ، ثم خلق لها أظفاراً وأسند إليها رموس الأصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برموس أظفارك ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن ، فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز لإيها حتى يدخل الطعام منه ، فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللحيين من عظمتين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحناً ، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك ، فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس ، وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالانياب ، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى ، ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلاً ، وبذلك لا يتم الطحن . لجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة دورية ، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك فانظر إلى عجب صنع الله تعالى فإن كل رحى صنعها الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنع الله تعالى ، إذ يدور منه الأسفل على الأعلى ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام في فمك فكيف يتحرك الطعام إلى ماتحت الأسنان ، أو كيف تستجزه الأسنان إلى نفسها ، وكيف يتصرف باليد في داخل الفم ؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان ، فإنه يطفو في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الإنسان بحسب الحاجة كالبحرفة التي ترد الطعام إلى الرحى ،

هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق والحكم التي لسانا لطلب بذكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة ، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطعام ، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فإنك ترى الطعام من بعد فيثور الحنك للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ، ثم هذا الطعام المطحون المتعجن من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد في المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام ، فانظر كيف هيأ الله تعالى المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوى إلى المعدة فيدهلز المريء ، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو مخبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزائه، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحوى عليه وتغلق عليه الأبواب ، فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة ، إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ، ومن قدام الثرائب ، ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق ، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته ، وهو بعد لا يصلح للتغذية ؛ فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد ، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم ، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء ، إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ : إحداهما شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوى ، والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء ، ولولم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء ، فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد داخل في تجويفه ، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوى ، فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية، ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعدا إلى الأعضاء ، فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد . ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخل في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد، إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق ، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نقيًا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساما ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الاوراق والاشجار بحيث لا تدرك بالابصار ، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ، ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الامراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة ، وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى حدثت الامراض السوداوية كالهبق والجذام والماليخوليا وغيرها ، وإن لم تندفع المائية نحو الكلتي حدث منه الاستسقاء وغيره . ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة : أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقها وتقذف

بالعنى الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزلفة ويحدث في الأمعاء لدغ يحركها للدفع، فتتضغط حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك . وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة لإحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ، ثم يرسل منها كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته ويذهبها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل ، وأما الكلية فإنها تغتذى بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل . ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواري من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها - لطال الكلام ، وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور آخر سواء ، بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشرون زيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جعلتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يامسكين ، فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك ألا لتقوى بعدها على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أحسنها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والجمار أيضاً يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجتمع ويستنهض فينهض ويريح ، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الجمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك ؟ وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط ، فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل ، وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر ، إلا أن من علم شيئاً من هذا أدرك شئمة من معاني قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلط الأربعة ومستقره القلب ، ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواري فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها ، كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ، ولكنه جعل السراج سبباً له بحكمته ؛ وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح ؛ ومحله القلب ، ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة ، والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضاً ينطفئ مهما انقطع غذاؤه ، وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير ماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفراط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء ؛ فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبق به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبل أن تشبث النارية ؛ وكما أن السراج تارة ينطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل ، وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدره ؛ فكذلك انطفاء الروح ، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب ، فكذلك انطفاء الروح ؛ وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم

البدن كله وفارقتة أنواره التي كان يستفيد منها من الروح وهي أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة ، فهذا أضرار من وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي عز وجل : فتعسا لمن كفر بالله تعسا ؛ وسحقا لمن كفر نعمته سحقا .

فإن قلت : فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال « قل الروح من أمر ربي »^(١) ، فلم يصفه لهم على هذا الوجه ، فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح ، فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لانطوّل بذكرها نحن إنما وصفنا من جملتها جسما لطيفا نسميه الأطباء روحا ، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به ، حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة ، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن ، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال : هو أمر رباني كما قال تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ والامور الربانية لا تحتل العقول وصفها بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق ، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتزلزل في ذكر مبادئ وصفها معاقدة العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة في مضيقها ، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية ، نسبتته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال ، وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا ، فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها ؛ لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية ، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين ، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد ، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ، ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب ، وعلى أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني ؛ فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة واستحال أن يصل الميدان ، فكيف بالانتهاه إلى ما وراءه من المشاهدات العالية ، ولذلك قيل : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وأنى يصادف هذا خزانة الأطباء ؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه ؟ بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك ، ولا يشك في أن خطاه فاحش ، وهذا الخطأ أخش منه جدا ، ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسول صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه ، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته ، أما نسبته ففي قوله تعالى ﴿ من أمر ربي ﴾ وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى ﴿ يا أيها النفس

(١) حديث : أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال « الروح من أمر ربي » متفق عليه من حديث ابن مسعود ، وقد

لا نهدم في شرح عجائب القلب .

المطمئنة أرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى في عبادى وادخلى جنتى ﴿ ولنرجع الآن إلى الغرض ، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل .

الطرف الرابع : في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة

وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمى بعد ذلك بصنعيته

اعلم أن الأطعمة كثيرة ، والله تعالى في خالقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تنتهى ، وذكر ذلك في كل طعام بما يطول ، فإن الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية ، فلنأخذ الأغذية فإنها الأصل ، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولنضع سائر الأغذية فنقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنييت وبقيت جائعا ، فما أحوالك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تنفجرت بتمام حاجتك ! فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك ، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء لأنه يغتذى بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذى أنت وتجتذب ، ولسنا نطرب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ، ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لا تغتذى بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص ، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ، ويجرد الهواء لا يصلح لغذائها ، ولو تركتها في الماء لم تزد ، ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد ، بل لا بد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا ... ﴾ الآية ؛ ثم لا يكفي الماء والتراب ، إذ لو تركت في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء ، فيحتاج إلى تركها في أرض رجوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها ، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وإنما إلقاها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ، ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات ، فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف ؛ فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة ، فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد ، إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي ، فانظر كيف خلق الله البحار ولجج العيون وأجرى منها الأنهار ، ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف ساطت الرياح عليها لتسوقها إليه إلى أقطار الأرض وهي سحب ثقيل حوامل بالماء ، ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الأراضى في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة ، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجا ، فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع والمواشى ، ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها ، وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان ، فانظر كيف سخّر الشمس وكيف خلقتها مع بعدها عن الأرض مسخرة للأرض في وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر ؛ فهذه إحدى حكم الشمس - والحكم فيها أكثر من أن تحصى ، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في القواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج الفواكه ويصنعها بتقدير الفاطر الحكيم ؛ ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر

الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة ، حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة ، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا ، ولا تطول فيما لا مطنع في استقصائه ، بل نقول : كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للتطبيب ، فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها ، ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ وقوله عز وجل ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة ، والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعارن أعضاء بدنك في جملة بدنك ، وشرح ذلك يطول ، ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة - مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم ^(١) ، بل المنهى عنه في النجوم أمران (أحدهما) أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها : وهذا كفر (والثاني) تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها ، لأنهم يقولون ذلك عن جهل ، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ ؛ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق ، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح في الدين ، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك : أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال : قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك ، وقس بهذا سائر الآثار ، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول . فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه ، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كصول الضياء والحرارة بطولع الشمس ، وبعضه لبعض الناس كصول الزكام بشروق القمر ؛ فإذا نكبت الكواكب ما خلقت عبثا ، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ، ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبجانك فقنا عذاب النار ﴾ ثم قال صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ^(٢) ، ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا ، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته ، فله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى ؛ فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب عليه حبا له ، فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى ، فإن العالم

(١) حديث النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم . أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس « من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » ولطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان « إذا ذكرت النجوم فأمسكوا » وإسنادهما ضعيف ، وقد تقدم في العلم . ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال : قلت يا رسول الله ، أمورا كنا نمنعها في الجاهلية كنا نأتى الكهان أ قال « فلا تأتوا الكهان ... الحديث » .

(٢) حديث قرأ قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبجانك فقنا عذاب النار ﴾ ثم قال « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته » أي ترك تأملها . أخرجه الثعالبي من حديث ابن عباس بلفظ « ولم يفكر فيها » وفيه أبو جناب يحيى بن أبي جبة ضعيف .

كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قابو عباده ، فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف ، بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه ، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فإنها خرق محركة لامتحركة ، ولكن تعجب من حلق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار ، فإذن المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالافلاك التى هى مركوزة فيها ، ولا يتم الافلاك إلا بحركاتها ، ولا يتم حركاتها إلا بملائكة سبوية يحركونها ، وكذلك يتهدى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبها بما ذكرناه على ما أهملناه ، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

الطرف الخامس : فى نعم الله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد فى كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد فى بعض الأماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى ، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لا يغنيهم فى غالب الأمر شيء ، بل يجمعون فيما أن تفرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين ، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لوعرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح ويركبوا الاخطار وينزروا بالارواح فى ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك ، وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ، وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل فى البرارى ، وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة ، وإلى الحمار كيف جعل صبوراً على التعب ، وإلى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش ، وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج ، وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما يحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ، ويتهدى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز .

الطرف السادس : فى إصلاح الأطعمة

اعلم أن الذى يذبت فى الأرض من النبات وما ينشق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل ، وهو كذلك ، بل لا بد فى كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور أخر لا تحصى ، واستقصاء ذلك فى كل طعام يطول ، فلنعين رغيفاً واحداً ، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر فى الأرض ، فأول ما يحتاج إليه الحارث ليزرع ويصلح الأرض ، ثم الثور الذى يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه ، ثم بعد ذلك التعهد بسقى الماء مدة ، ثم تنقية الأرض من الحشيش ، ثم الحصاد ، ثم الفرك والتنقية ، ثم الطحن ، ثم العجين ، ثم الخبز ؛ فتأمل عدد هذه الأفعال التى ذكرناها وما لم نذكره ، وعدد الأشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التى يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره ، وانظر إلى أعمال الصناع فى إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار ، وحداد وغيرهما ، وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس ، وانظر كيف خلق الله تعالى

الجبال والاحجار والمعادن ، وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ، فإن قلت علمت أن رغبةً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يامسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع ، فابتدئ من الملك الذي يرجى السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تنتهي النوبة إلى عمل الإنسان فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات ، حتى إن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديد تصليح الإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبري خمساً وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملاً ، فلولا مجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد واقتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلاً بعد نباته لنفذ عمره وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قدرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة ، فانظر إلى المقرض مثلاً وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة ، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضلته وكرمه لمن قبلنا واقتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقرض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتي أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها ؛ فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع النبيين مع هذا البيان ، فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلاً ، أو عن الحداد ، أو عن الحجام الذي هو أحسن العمال ، أو عن الحائك ، أو عن واحد من جملة الصنائع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ، فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكته ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضاً فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

الطرف السابع : في إصلاح المصلحين

إعلم أن هؤلاء الصنائع المصلحين الأاطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واثقفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ، ففي جملة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة ، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر ، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والعدة والأسباب وألقى رعيهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً وكرهاً ، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض ، فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق ، واضطروا الخلق إلى قانون العدل والزموم المساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد ، وصار الحجام ينتفع بالحراث ، والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه ، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض . وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه

ما اهتموا به إلى إصلاح الدنيا فضلاً عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين ، وانظر كيف أصلح الله تعالى الانبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالتباز ينجز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلح الحصاد ، والحصاد يصلح آلات الحراثة والتجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطقمة ، والسلطان يصلح الصانع ، والانبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والملائكة يصلحون الانبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف ، وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ لما اهتمينا إلى هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ، ولولا عزله إيانا عن أن نطمع بعين الطمع إلى الإحاطة بكنهه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ، ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا ، وإن سكنا فبقهره انقبضنا ؛ إذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى ، لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

الطرف الثامن : في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة : عليهم السلام

ليس يخفى عليك ماسبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الانبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم ، ولا تظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية والسمائية وحمة العرش ، فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرها . واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يقتدى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ، وذلك الغذاء يصير دماً في آخر الأمر ، ثم يصير لحماً وعظماً ، وإذا صار لحماً وعظماً تم اغتذاءك ، والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار ، فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ، ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ثم عجينة ثم خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصناع ، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً وعروفاً وعصباً إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد ، وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة ، فأقول : لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظام ، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، ولا بد من ثالث يخلع عليه صورة الدم ، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ، ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ، ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلاً ، ولا بد من سابع يرعى المقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالعريض مالا يزيل عرضه وبالمجوف مالا يبطل تجويفه ، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته ، فإنه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على نخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته ، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجنان مع رقتها وإلى الحديقة مع صفاتها وإلى الأخاذ مع غلاظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة

وربا بعض المواضع وضعف بعض المواضع ، بل لو لم يراع هذا الملك العادل في القسمة والتقسيم فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا لإحدى الرجلين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن ، فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا يفتنع بنفسه ألبته ، فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ، ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإن عميل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول ، فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من أجزاءك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز ، والملائكة الأرضية مدد هم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيم القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب ^(١) أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به .

فإن قلت : فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم افتقر إلى سبعة أملاك ، والحنطة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولا ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يلصقها بالتور سابعا ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الإنس ظاهرا ؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس ، وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب ألبته ، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما منا إلا وله مقام معلوم ﴾ فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل ، بل مثلهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الخواص الخمس ، فإن البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولا هما يتنازعا في الشم ؛ وليس كاليد والرجل فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا فتزاحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز ، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ، ولذلك نرى الإنسان يطبخ الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته ، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة ، بل هم مجبولون على الطاعة

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب ... ؛ في الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الإسراء قال جبريل لحازن السماء الدنيا : افصح ، وفيه : آتى السماء الثانية فقال لحازنها : افتح ... الحديث ، ولها من حديث أبي هريرة « أن لله ملائكة سياحين يبلغون عن أمي السلام » وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضة نفسه على عبد البليل « فناداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .. الحديث » ولها من حديث أنس « أن الله وكل بالرحم ملكا .. الحديث » وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسدي « ما من نبت ينبت ولا ونعمته ملك موكل حتى يحصد ... الحديث » وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكر أوى واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف . والطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف « أن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون السكك عن دواب الفزاة الأداة في عنقها جرس » ولطرمذي وحسنه من حديث ابن عباس : قالت اليهود يا أبا القاسم أخينا عن الرصد قال « ملك من الملائكة موكل بالسحاب » ولمسلم من حديث أبي هريرة : « بينما رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة : اسق حديقة فلان ، فتدعى ذلك السحاب فأفرغ ماء في حرة .. الحديث » .

لأجبال للمعصية في حقهم ، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ، والراكع منهم راکع أبدا ، والساجد منهم ساجد أبدا ، والقائم قائم أبدا لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه ، وطاعتهم لله تعالى من حيث لأجبال المخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى ، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك يفتح وينطبق متصلا بإشارتك ، فهذا يشبهه من وجهه ولكن يخالفه من وجه ، إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحة وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون ؛ فإذا هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسموية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها ؛ فإننا لم نطول بذكرها ؛ فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف أحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ، فإذا قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ، ثم قال ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ فترك باطن الإثم بما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدة واضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة ، وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة بل أقول : كل من عصى الله تعالى ولو في طريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما ، فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بحملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضاً به فإن الله تعالى في كل طريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ، ونعمة الله تعالى في سوادها أنهم اتجمع ضوء العين ، إذ البياض بفرق الضوء والسواد يجمعه ، ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفا واحداً أن يكون مانعا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومتشعبا للأفداء التي تنثر في الهواء ، وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصيبها ، وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل ؛ وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر ، فيجمع الأجفان مقدار ما تشابك الأهداب فينظر من وراء شبك الشعر ، فيكون شبك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمنقلة للبرأة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الأقذاء إلى زوايا العين والأجفان ، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين ، فتراه على الدوام يسمح بهما حدقته ليصقلهما من الغبار وإذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجفان ، ولا تقوم الأجفان إلا بعين ، ولا العين إلا برأس ؛ ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيث والشمس والقمر ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ، ولا السموات إلا بالملائكة ، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض ، فإذا قد كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد إلا ويلعنه ، ولذا ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم (١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر

(١) حديث « ان البقعة التي اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم » لم أجد له أصلا .

له كل شيء حتى الحوت في البحر (١) وأن الملائكة يلغنون العصاة (٢) في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها ، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع مافي الملك والمملوك ، وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها ، فيتبدل اللعن بالاستغفار ، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه . وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : يا أيوب مامن عبدى من الآدميين إلا ومعه ملكان ، فإذا شكرني على نعمائي قال الملكان : اللهم زده نعماً على نعم ، فإنك أهل الحمد والشكر ، فسكن من الشاكرين قريباً فسكني بالشاكرين علو رتبة ، وعندى أنى أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكى عليهم .

وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعم كثيرة ، فاعلم أن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك ، بل اليوم واللييلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك ، بل في كل جزء من أجزاء العالم ، فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ قال : إلهى كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدى نعمتان : أن ليئت أصلها ، وأن طمست رأسها ؟ وكذا ورد في الآثار : أن من لم يعرف نعم الله في مطعمه ومشربه فقد قل عليه وحضر عذابه .

وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ماسواه من النعم به ، فإن البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه ، فلتترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع في غير مطعم .

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه : الحمد لله ، الشكر لله . ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان .

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب ، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبدولة لهم في جميع أحوالهم ، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يعده نعمة ، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمختلهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غماً ؛ فإن ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال ، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها ؛ فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينيه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره

(١) حديث « إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر » جرد في العلم (٢) حديث « إن الملائكة يلغنون العصى » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة الملائكة تلغن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه .

أحسن به وشكره وعده نعمة ، ولما كانت رحمة الله واسعة وعم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعدّه الجاهل نعمة ، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائماً ، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة ، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر ، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم ، كما شكوا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتيامه به فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا فقال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا : فقال : أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً ؟ فقال : لا ، فقال : أيسرك أنك تجنون ولك عشر آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال : أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً ؟

وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً ، فرأى في المنام كأن قائلاً يقول له : تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، فعدّد عليه سوراً ثم قال : فمك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ، فأصبح وقد سرى عنه .

ودخل ابن السهاك على بعض الخلفاء ويده كوز ماء يشربه ، فقال له : عطشني ! فقال : لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه ؟ قال : نعم ، فقال : لو لم تعط إلا بمسكك كله فهل كنت تتركه ؟ قال : نعم . قال : فلا تفرح بمسك لا يساوي شربة ماء .

فهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة — وقد ذكرنا النعم العامة — فلندكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول : ما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعمة كثيرة تخصه لا يشاركها فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد ، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور : في العقل ، والخلق ، والعلم .

أما العقل . فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل ، وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به ، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره ، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه ، فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكره عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه في حقه كالباقى .

وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها ، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها ، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيئ .

وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفسكاره وما هو منفرد به ، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح ، فكيف لو اطلع الناس كافة ! فإذا نزل على عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله ، فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص عليه به حتى لا يطلع عليه أحد ؛ فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد لما مطلقاً . وأما في بعض الأمور فلنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلاً ، فنقول : ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أموراً

لوسلب ذلك منه وأعطى ماخصص به غيره لسكان لايرضى به ، وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا وإنسانا لا بهيمة وذكر لا أنثى وصحيحا لا مريضا وسليما لا معيبا ؛ فإن كل هذه خصائص ، وإن كان فيها عموم أيضا فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها ، بل له أمور لا يتبدلها بأحوال الآدميين أيضا ، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الأكثر ؛ فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فأذن حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص ؛ فأذن لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء ، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه ، فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه ، وما باله لا يسوى دنياه بدينه ، أليس إذا لامته نفسه على سيئته يقارفها يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ، فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك ؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيرا منه ، وحاله في الدنيا خيرا من حال أكثر الخلق ، فكيف لا يلزمه الشكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتب الله صابرا وشاكرا . ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا » (١) ، فأذن كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعمة كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ، ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به في ديشه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه ورعا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » (٢) ، وهذا إشارة إلى نعمة العلم . وقال عليه السلام « إن القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه » (٣) ، وقال عليه السلام « من أتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله » (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » (٥) ، وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى » (٦) ، وقال بعض السلف : يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة « إن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتي : عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعم في يد أخيه ، وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن
وأصبحت أبا حزن فلا فارقك الحزن

(١) حديث « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتب الله صابرا وشاكرا . » الحديث « أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب ، وفيه المتن بن الصباح ضعيف . » (٢) حديث « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » لم أجده بهذا اللفظ . (٣) حديث « إن القرآن هو البناء الذي لا غناء بعده ولا فقر معه » أخرجه أبو يلى والطبراني من حديث أسد بسند ضعيف باللفظ « إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه » قال الدارقطني رواد أبو داود عن الأعمش عن يزيد الرقائبي عن الحسن مرسلا ، وهو أشبه بالصواب .

(٤) حديث « من أتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله » أخرجه البخاري في التاريخ من حديث رجاء الدين بلفظ « من أتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد صر أعظم النعم » وقد تقدم في فضل القرآن ، ورجاء مختلف في صحبته . وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة . (٥) حديث « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » تقدم في آداب التلاوة . (٦) حديث « كفى باليقين غنى » رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر ، ورواه ابن أبي الدنيا في الغناعة موقوفا عليه ، وقد تقدم .

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه : فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ^(١) ، ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ؛ مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم ، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان ، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضاً عن علمك بل عن عشر عشير علمك : لم يأخذ ، وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة ، بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكأله ، أخذ هذه اللذات في الدنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به ، لكان لا يأخذ ، لعله بأن لذة العلم دائماً لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة مكثرة مشوشة لا يبقى مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها ، هكذا كانت إلى الآن ، وهكذا تكون ما بقى من الزمان إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخضع ، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت ، كالمرأة الجميل ظاهرها تزين للشباب الشبق الغنى ، حتى إذا تقيدت بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في اللحظة ، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره ، فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبايلها ، ولا ينبغي أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها ، فإن المقبل عليها أيضاً متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها ، وتألم المعرض يفضي إلى لذة في الآخرة وتألم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة ، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ﴿ ولا تنهوا في ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ فإذا نسي السد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامّة .

• فإن قلت : فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر ؟ فأقول : أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البائدة التي لا تعدّ النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها ، فسيبيله أن ينظر أبداً إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية ، إذ كان كل يوم يحضر دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود ، فمكان يحضر دار المرضى ليشهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ، ويشاهد الجنّة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ، ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى المولى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً ، أما من عصى الله تعالى فليستدارك ، وأما من أطاع فليرد في طاعته ، فإن يوم القيامة يوم التغابن ، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غنبي إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات ، وأما العاصي فغبنه ظاهر ، فإذا شاهد المقابر وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقى له ، فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر ، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس ، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة ، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى

فحساها تشكر . وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيداً للمعرفة ، فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غللاً في عنقه وينام في لحده ثم يقول ﴿ رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً ﴾ ثم يقوم ويقول: ياربيع قد أعطيت ما سألت ، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد .

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر : أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدها بالشكر . وفي الخبر « ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال »^(١) ، وقال الله سبحانه وتعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر

فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول : ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً ، فما معنى الصبر إذن . وإن كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء . وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة ، فكيف يتصور الشكر على البلاء ، وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألمًا والشكر يستدعي فرحاً وهما يتضادان ، وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده ؟ فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة ، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان ، ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه : أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى ، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما ، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه : كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه ، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد : أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدة وأما أبداً . وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق . وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا ، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة . وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية ، بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي ، نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه ، والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية ، بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته ، فإذا رجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر ؛ فإن الغنى مثلاً يجوز أن يكون

(١) حديث « ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه » الحديث « أخرجه ابن عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بإسناد « الا عظمت مؤنة الناس عليه ، فمن لم يحتمل تلك المؤنة » الحديث « ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال : انه موضوع على حجاج الأعور .

سببا لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده ، والصحة أيضا كذلك ؛ فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه ، فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حالة ؛ فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى ؛ قال الله تعالى ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ وقال تعالى ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحصى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحصى أحدكم مريضه ^(١) » ، وكذلك الزوجة والولد والقريب ، وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فإنها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعم في حقهم ، إذ سبق أن المعرفة كمال ونعمة فإنها صفة من صفات الله تعالى ، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون فقدتها نعمة ، مثاله : جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه ، إذ لو عرفه ربما تنقص عليه العيش وطال بذلك غمه ؛ وكذلك جهله بما يضمه الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه ، إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطلال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام ؛ وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه ، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة ، بل جهله بالصفات الحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فإنه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانتته ، ولو عرف ذلك وآذى كان لئمه لا محالة أعظم ، فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف . ومنها : إيهام الله تعالى أمر القيامة ، وإيهامه ليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، وإيهامه بعض الكبار ، فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد ، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم . وحيث قلنا إن الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق ، وذلك مطرد في حق كل أحد ، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخاقها في بعض الناس ، وهي أيضا قد تكون نعمة في حق المتألم بها ، فإن لم تكن نعمة في حقه كآلام الحاصل من المعصية كقطع يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به ، وألم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم ، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد . ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتعممون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها ، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليه من حيث إنها عامة مبدولة ، ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها ، فإذا قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم ، فإذا في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المبتلى أو على غير المبتلى ؛ فإذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة ، فيجتمع فيها على العبد وظيفتان : الصبر والشكر جميعا .

« فإن قلت : فهما متضادان فكيف يجتمعان ؟ إذ لا صبر إلا على غم ، ولا شكر إلا على فرح ؟ فاعلم أن الشيء الوحيد قد ينتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح . وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح الغافل بها ويشكر عليها . (أحدها) أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها ، إذ مقدورات الله تعالى لا تنهاى فلو ضعفها الله

(١) حديث « إن الله ليحصى عبده من الدنيا ... الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه ، وقد تقدم .

تعالى وزادها ماذا كان يردده ويحجزه ، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا . (الثاني) أنه كان يمكن أن تكون مصيبتة في دينه : قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه : دخل اللص بيتي وأخذ متاعى ! فقال : اشكر الله تعالى ، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم : إذ لم يكن في ديني ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به ، وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق لخبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له : اشكر الله فضربه ؛ فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال : اشكر الله ، فجاءه بمجوسى لخبس عنده وكان مبطونا فقيده وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسى ، فأرسل إليه فقال : اشكر الله ، فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال : اشكر الله ، فقال : إلى متى هذا ، وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال : لو جعل الزنار الذى في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع ؟ فإذا ما من إنسان أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أذبه ظاهرا وباطنا في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فافتصر على عشرة فهو مستحق للشكر ، ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداها فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد ، فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له : ما هذه السجدة ؟ فقال : كنت أنتظر أن تصب على النار ، فالأقتصار على الرماد نعمة ، وقيل لبعضهم : لا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار ! فقال : أتم تستبطئون المطر وأنا أستبطنى الحجر .

* فإن قلت : كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار ؟ فاعلم أن الكافر قد خبي له ما هو أكثر ، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب ، كما قال تعالى ﴿ إنما نملئ لهم ليزدادوا إثما ﴾ وأما المعاصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ، ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح ، ولذلك قال تعالى في مثله ﴿ وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾ فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ، ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك . وهذا هو الوجه الثالث في الشكر : وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخفف وقعها ، ومصيبة الآخرة تدوم ، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى ، إذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذنين ، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فإله أكرم من أن يعذبه ثانيا » . (الرابع) أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة . (الخامس) أن ثوابها

(١) حديث « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فإله أكرم من أن يعذبه ثانيا » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث علي « من أصاب في الدنيا ذنبا عوقب به فإله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده ... الحديث » لفظ ابن ماجه . وقال الترمذى « من أصاب حدا فمجل عقوبته في الدنيا » وقال حسن . ولشيخين من حديث عبادة بن الصامت « ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له ... الحديث » .

أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين ، أحدهما : الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة حق الصبي ، فإنه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العسلم والأدب ، فكان يخسر جميع عمره ، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان في بعض الأحوال ، بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه ، فالمصلحة غداً يتمنون لو كانوا مجانين أو صبياناً ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى ، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه ، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغداً يشكره العباد على البلياء إذا رأوا ثواب الله على البلياء ، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب ، والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد ، فقد روى أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني قال : لا تهم الله في شيء قضاء عليك ^(١) ، ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك ، فسئل فقال : عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن : إن قضى له بالسراة رضى وكان خيراً له وإن قضى له بالضراء رضى وكان خيراً له ^(٢) ، الوجه الثاني : أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة التجاني بالقلب عن دار الغرور ، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة في حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها ، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجنًا عليه ، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ^(٣) ، والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها ، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين إلى الخروج منها ، والكافر بعضه ظاهر وبعضه خفي ، وبقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي ، بل الموحّد المطلق هو الذي لا يجب إلا الواحد الحق ؛ فإذا في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به ، وأما التألم فهو ضروري ، وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامة بكبحان ، أو يسقيك دواء نافعا بشعابا ، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح ، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل ، بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لاحتالة ، فرأى وجهها حسناً لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأناس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه ، والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحمة وهم خارجون عنها من باب اللحد ؛ فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة ؛ فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلياء ، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر ؛ لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ،

(١) حديث : قال له رجل أوصني قال « لا تهم الله في شيء قضاء عليك » رواه أحمد والطبراني من حديث عبادة بن يزيد في أوله ، وفي إسناده ابن لهيعة . (٢) حديث : نظر إلى السماء فضحك . فسئل فقال « عجبت لقضاء الله للمؤمن ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء ، وضحكه « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سره شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » وللنساء في اليوم واليلة من حديث سعد بن أبي وقاص « عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمدربه وشكر .. الحديث » (٣) حديث « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .

ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة . وحكى أن أعرابيا عزي ابن عباس على أبيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين فإنما هـ صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بعده هـ والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس : ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي .

والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من يرد الله به خيرا يصيب منه » (١) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى « إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا ، وقال عليه السلام « ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى ﴿ إنا لله وإليه راجعون ﴾ اللهم أجرني في مصيبتى وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله ذلك به » ، وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى « من سلبته كريمته فجزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي » ، وروى أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال صلى الله عليه وسلم لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره » (٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبطل ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك » (٣) ، وعن خباب بن الارت قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا : يا رسول الله ، ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمرا لونه ثم قال « إن من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفيرة ويحاج بالمذشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه » (٤) ، وعن علي كرم الله وجهه قال : أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد ، وإن ضربه فمات فهو شهيد ، وقال عليه السلام « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » ، وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه : تولدون للثوب وتعمرون للخراب وتحرسون على ما يفنى وتذرون ما يبق ، ألا حبذا المكروهات الثلاث : الفقر والمرض والموت . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله تعالى بعبد خيرا وأراد أن يصابه صيب عليه البلاء صبا وثجعه عليه ثجا ، فإذا دعاه قالت الملائكة : صوت معروف وإن دعاه ثانيا فقال يارب قال الله تعالى : لبيك عبيدي وسعديك لا تسألني شيئا إلا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه ، فإذا كان يوم القيامة جرى بأهل الأعمال فوفوا أعمالهم بالميزان : أهل

(١) حديث « من يرد الله به خير يصيب منه » رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال « لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه » ، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبره » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والسكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين (٣) حديث « إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبطل ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك » ، رواه أبو داود في رواية ابن داسه ، وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده ، وليس في رواية الأؤاوي . [ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه] ، ومحمد بن خالد لم يروه إلا أبو المبيع الحسن بن عمر الرقي ، وكذلك لم يروه عن خالد إلا ابنه محمد ، وذكر أبو ليم أن ابن منده سمى جده العجلاج بن سليم ، فأنه أعلم . وعلى هذا فابنه خالد بن العجلاج العاصري ذلك مسموع روى عنه جماعة . ورواه ابن منده وأبو ليم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي لياس بن أبي قاطمة عن أبيه عن جده . ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فأنه أعلم .

(٤) حديث خباب بن الارت : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث . . . تقدم .

الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب (١) ، فذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : شكنا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال : يارب ، العبد المؤمن يطيعك ويحتجب بمعاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ، ويكون الكافر لا يطيعك ويحتجب عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا ؛ فأوحى الله تعالى إليه « إن العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي ، فيكون المؤمن عايشه من الذنوب ، فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه ، حتى يلتقي فأجزيه بحسناته . ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا ، حتى يلتقي فأجزيه بسيئاته .

وروي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، غفر الله لك يا أبا بكر ، ألسنت تمرض ؟ ألسنت يصيبك الأذى ؟ ألسنت تحزن ؟ فهذا مما تجزون به (٢) ، يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ، ثم قرأ قوله تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ (٣) ، يعني لما تركوا ما مروا به فتحنا عليهم أبواب الخير ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة .

وعن الحسن البصري رحمه الله : أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يمر فها في الجاهلية ، فكلما هم تركها ، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فآثر في وجهه فأتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا أراد الله بعد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا (٤) ، وقال على كرم الله وجهه : ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن ؟ قالوا : بلى ، فقرا عليهم ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار ؛ فإذا عاقبه الله في الدنيا فأنه أكرم من أن يعذبه ثانيا ، وإن عفا عنه في الدنيا فأنه أكرم من أن يعذبه يوم القيامة . وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال « ما تجزع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها . ولا قطرت قطرة أحب إلى الله من قطرة دم أهرقت في سبيل الله ، أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله . وما خطا عبد

(١) حديث ألس « إذا أراد الله بعد خيرا وأراد أن يضافه صب عليه البلاء صبا .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن ألس أخرجه منه دون قوله « فإذا كان يوم القيامة ... إلى آخره » وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان . ورواه الأصمهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل ابن بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف . (٢) حديث لما نزل قوله تعالى ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ قال أبو بكر الصديق : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ، ألسنت تمرض ... الحديث » ، من رواية من لم يسم عن أبي بكر ورواه الترمذي من وجه آخر باللفظ آخر وضعفه . قال : وليس له إسناد صحيح . وقال الدارقطني : وروي أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير ، قال : وليس فيها شيء يثبت . (٣) حديث عقبة بن عامر « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ... الحديث » رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بإسناد حسن .

(٤) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط ... الحديث ، وفيه « إذا أراد الله بعد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا » أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل صرفوعا ومتصلا . ورواه الطبراني أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ، ورواه أيضا من حديث ابن عباس ، وقد روى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث ألس وحسنه الترمذي .

خطورتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة ، وخطوة إلى صلة الرحم ^(١) .
وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زى الخصوم ، فقال أحدهما : بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده ، فقال للآخر : ماتقول ؟ فقال : أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يميننا وشمالا فإذا الطريق عليه . فقال سليمان عليه السلام : ولم بذرت على الطريق ، أما علمت أن لا بد للناس من الطريق ؟ قال : فلم تحزن على ولدك ، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة ؟ فتاب سليمان إلى ربه ولم يحزع على ولد بعد ذلك .

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال : يا بني ، لأن تكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك ، فقال يا أبت ، لأن يكون ما تحب أحب إلى من أن يكون ما أحب .
وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له ، فاسترجع وقال : عورة سترها الله تعالى ، ومؤنة كفها الله وأجر قد ساقه الله تعالى ، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال : قد صنعنا ما أمر الله تعالى : قال تعالى ﴿ واستمعينوا بالصبر والصلاة ﴾ .

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن ، فعزاه بجوسى يعرفه ؛ فقال له : ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك : اكتبوا عنه هذه .

وقال بعض العلماء إن الله ليعتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الأرض وماله ذنب .
وقال الفضيل إن الله عز وجل ليعتاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يعتاهد الرجل أهله بالخير .
وقال حاتم الأضمر إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ، وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم
وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك ، فجاءه بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا ، فأن منه أنه ؛ فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لنصعدت منك أنه ثانية لأخونك من ديوان البوة ، فعرض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين .
وقال أبو مسعود البليخي : من أصيب بمصيبة ففرق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ ربحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل .

وقال لقمان رحمه الله لابنه : يا بني إن الذهب يحترق بالنار والعبد الصالح يحترق بالبلاء ، فإذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما اشتكى ضربي ، فقلت لعمى : ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قاتتها ثلاثا ، فقال : لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة ، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام : إذا نزلت بك بلية فلا تشكني إلى خلقي وأشك إلى

(١) حديث أسس : ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ... الحديث « أخرجه أبو بكر بن لاد في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين ، وفيه محمد بن صدقة وهو الفلكني منكر الحديث . وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد جيد : ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كفهاها عبد ابتغاء وجه الله . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة « ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله ، أو قطرة دمع في سواد الليل ... الحديث » وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفلكني المنكر الحديث .

كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك وفضأتحك ، نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة .

بيان فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول : هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟ فأقول : لا وجه لذلك ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ^(١) وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ^(٢) » وكانوا يستعيزون من شتاتة الأعداء وغيرها ^(٣) .

وقال علي كرم الله وجهه . اللهم إني أسألك الصبر ، فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت البلاء فأسأله العافية ^(٤) » وروى الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية ، فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين ^(٥) » ، وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك ، فعافية القلب أعلى من عافية البدن .

وقال الحسن رحمه الله الخير الذي لا شرف فيه : العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر .

وقال مطرف بن عبد الله : لأن أعاني فأشكر ، أحب إلى من أن أبتلى فأصبر .

وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « وعافيتك أحب إلى ^(٦) » .

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد ، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين ، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب ؛ فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوّقه من البلاء ، ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر .

فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار . وقال سمنون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ فكيفها شئت فاخترني

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة رواء أحمد من حديث بشر بن أبي أرملة بإفظ « أجزنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » وإسناده جيد . ولأبي داود من حديث عائشة « اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة » وفيه بقية وهو مدلس ، ورواه بالنعنة .

(٢) حديث : كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقا عذاب النار » أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس : كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم آتنا في الدنيا ... الحديث » ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنتين « ربنا آتنا ... الحديث » (٣) حديث : كان يستعيز من شتاتة الأعداء : تقدم في الدعوات (٤) حديث قال صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أسألك الصبر ، فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فسأله العافية » رواء الترمذي من حديث معاذ بن أنس حديث وحسنه ، ولم يسم عليا وإنما قال : سمع رجلا . وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث علي : كنت ساكنا فمر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول ... الحديث . وفيه : فإن كان بلاء فصرتي ، فضر به برجله وقال « اللهم عافه واشفه » وقال حسن صحيح .

(٥) حديث أبي بكر الصديق « سلوا الله العافية ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد جيد ، وقد تقدم . (٦) حديث « وعافيتك أحب إلى » ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ « وعافيتك أوسع لي » وكذا رواء ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عافية مرسلا ، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل .

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء ! فاعلم أنه حكى عن سمنون المحب رحمه الله أنه بلى بعد هذا البيت بعملة الحصر ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب . وأما محبة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه حيا مثل ذلك ، فن شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع في الكلام ، ولو زايه سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لاشقية لها ، فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم ، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه ، كما حكى أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه ، فقال : ما الذي يمنعك عني - ولو أردت أن أقلب لك السكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك ؟ فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال : يابني الله كلام العشاق لا يحكى ، وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ، ومعناه أني أريد ما لا يريد ، لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر ، فكيف أراد الهجر الذي لم يردده ، بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين (أحدهما) أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضا الذي يتوصل به إلى الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة ، فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما في درهمين فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال (الثاني) أن يصير رضا عنده مطلوبا من حيث إنه رضا فقط ، ويكون له لذة في استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته ، فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا ، فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا ، فهؤلاء إذا قدروا رضا في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية ، وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب واسكنها لا تثبت ، وإن ثبتت مثلا فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه ، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا في ذلك ، فقال قائلون : الصبر أفضل من الشكر . وقال آخرون : الشكر أفضل . وقال آخرون : هما سياتان . وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال ، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل ، فلا معنى للتطويل بالثقل ، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول : في بيان ذلك مقامان : (المقام الأول) البيان على سبيل التساهل : وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب التفتيش بحقيقته وهو البيان الذي ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة ، وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغى أن يعتمد عليه الوعاظ ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام لإصلاحهم ، والظاهر المشفقة لا ينبغى أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات ، بل باللين اللطيف ، وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملا لها بقوة ، ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيته فنقول : هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع ، وذلك يقتضى تفضيل الصبر ، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر ، بل فيه ألفاظ

صريحة في التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر »^(١) ، وفي الخبر يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزبه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول : نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كلا ، أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت ، لاضعفن لك الأجر عليه ، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين^(٢) ، وقد قال الله تعالى ﴿ إنما يؤتى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »^(٣) فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر ، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر ، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم « الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل »^(٤) ، وكقوله صلى الله عليه وسلم « شارب الخمر كعابد الوثن »^(٥) ، وأبدا المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان » لا يدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام الصوم نصف الصبر « فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت ، كما يقال : الإيمان هو العلم والعمل ؛ فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوى العلم . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه . وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه »^(٦) ، وفي خبر آخر « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً »^(٧) ، وفي الخبر « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد ، وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام »^(٨) .

وكل ماورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ؛ لأن الصبر حال الفقير ، والشكر حال الغنى ، فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويسكفهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

(المقام الثانى) هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف

- (١) حديث « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » تقدم (٢) حديث : يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزبه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض ... الحديث . لم أجده أصلاً . (٣) حديث « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .
- (٤) حديث « الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل » أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشعار الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، أو الطبرانى بالشعار الثانى من حديثه بسند ضعيف أيضاً أن امرأة قالت : كتب الله للجهاد على الرجال فما يدل ذلك من أعمالهم من الطاعة ؟ قل : طاعة أزواجهن . وفي رواية : ما جزاء غزوة المرأة ؟ قال طاعة الزوج ... الحديث « وفيه القاسم بن ذئب ، وثقه أبو داود وضعفه ابن مدين وباقى رجاله ثقات » (٥) حديث « شارب الخمر كعابد الوثن » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « مدمن الخمر » ورواه بإفظ « شارب » الحارث بن أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمر ، وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى : إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهانى .
- (٦) حديث « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه ، وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه » أخرجه الطبرانى في الأوسط من حديث معاذ بن جبل « يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً » وقال : لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفى ثقة ، وروى البزار من حديث أنس « أول من يدخل الجنة من أخصياء أمى عبد الرحمن ابن عوف » وفيه أغلب بن تميم ضعيف . (٧) حديث « يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً » تقدم حديث معاذ قبله . ورواه أبو منصور الديلى في مستند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ، ودينار الحلبى أحد الكذابين على أنس ، والحديث منكسر : (٨) حديث « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد » الحديث « لم أجده أصلاً ولا فى الأحاديث الواردة فى مصاريع أبواب الجنة تفرقة » فروى مسلم من حديث أنس فى الشفاعة والقى نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لسكان مكة وبصرى وفى الصحيحين فى خطبة عتبة بن غزوان : ولقد ذكرنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كذا لفظ من الزحام .

والإيضاح فنقول فيه : كل أمرين مهمين لا يمكن الموازنة بينهما مع الإيهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما ، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا يمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان . والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة : علوم ، وأحوال ، وأعمال ، والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك ، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها البعض لاح للناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال ، والأحوال تراد للأعمال ، والأعمال هي الأفضل ؛ وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك ؛ فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم ؛ فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال ؛ لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه ؛ وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا آحاد المعارف ، وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة ، بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد بالمعاملة ؛ ففائدتها إصلاح العمل ، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان عليه مما يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل ؛ وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر ؛ فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب ، وفائدة إصلاح حال القلب أن يكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته ، وأفعاله ، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه ، وهي الغاية التي تطلب لذاتها ، فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة ، فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تنقيد بغيرها . وكل ما عدا ما من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها ، فإنها إنما تراد لأجلها . ولما كانت مرادة لأجلها كان تعاونها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى ؛ فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة ، فكما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل وأما الأحوال فنحن بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق ، حتى إذا ظهر وصفا اتضح له حقيقة الحق ، فإذا نزل فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداد له لأن تحصل له علوم المكاشفة ، وكأن تصفية المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال المرآة بعضها أقرب إلى الصفاة من بعض ، فكذلك أحوال القلب ، فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لاحتالة بسبب القرب من المقصود ، وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه ، وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا ، وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه . واسم الأول المعصية ، واسم الثاني الطاعة ، والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة ، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأن الحج أفضل من الصدقة ، وأن قيام الليل أفضل من غيره ، ولكن التحقيق فيه أن الغنى الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام ، لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع ، فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه ، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره ، وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به ، بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه ، والشح المطاع من جملة

المهلكات ، ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة ، بل لا يزيله إلا إخراج المال ؛ فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذه مما ذكرناه في ربيع المهلكات فليرجع إليه ؛ فإذا باعتبار هذه الأحوال يختلف ، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ ، إذ لو قال لنا قائل : الخبز أفضل أم الماء ؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا فليُنظر إلى الأغلب ؛ فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، فإن تساويا فهما متساويان ، وكذا إذا قيل : السكنجبين أفضل أم شراب اللينوفر ؟ لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا : السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء ؟ فنقول : عدم الصفراء ، لأن السكنجبين مراد له ، وما يراد لغيره فلذلك أفضل منه لاعتالة ، فإذا في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ، ويتمى القلب بسبب خروج حب الدنيا منه معرفة الله تعالى ووجهه ، فالأفضل المعرفة ، ودونها الحال ، ودونها العمل .

• فإن قلت : فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ وقال تعالى ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ فاعلم أن الطبيب إذا أتى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا امرأة معه ، فإنه لا يشعر به ، ولو ذكر له لا يصدق به . والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزيل البرص ، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه ، فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه .

ولنضرب مثلا أقرب من هذا : من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لئلا إنه محفوظ ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة ، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا ، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعدته على ذلك بالجميل لتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم ، فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد ، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدّر عليه دون تكليفي به ، وأعلم أن لانقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن ، فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدري ، وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا : إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا ، فأى معنى لقوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ولو شاء الله اطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم ، كما قال تعالى حكاية عن الكفار ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ وقالوا أيضا ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ﴾ فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم ، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل ﴿ يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا ﴾ فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو جل الله تعالى ثم قالوا لاحظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا : هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل

العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراره إلى ما فيه سعادته ، فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق ، فإذا هذا المسكين الآخذ لمالك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك ؛ فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام . ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئا بالدم ، ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها ^(١) ، كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس ، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها ^(٢) ، والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع المهلكات ، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة ، فهذا هو القول السكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ، وارجع الآن إلى خصوص مانحن فيه من الصبر والشكر فنقول : في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل ، فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال ، أو العمل في الآخر ، بل يقابل كل واحد منها بنظيره حتى يظهر التناسب ، وبعد التناسب يظهر الفضل ، ومهما قربت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر : أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى . ومعرفة الصابر : أن يرى العمى من الله ، وهما معرفتان متلازمان متساويتان هذا إن اعتبرنا في البلاء والمصائب . وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية ، وفيهما يتحد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة ، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى ، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين ، إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة : وهو أن يصرخ به باعث الشهوة ، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة ، فهما عبارتان عن معنى واحد ، فكيف يفضل الشيء على نفسه ؛ فإذا جرى الصبر ثلاثة : الطاعة ، والمعصية ، والبلاء وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية ، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة ، والنعمة إما أن تقع ضرورة كالعينين مثلا ، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال ، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي ، وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة ، وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر ؛ فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها ، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين ؛ وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين ؛ فقد دخل الصبر في شكره ، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ، ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ، لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ، ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جدا

(١) حديث النهى عن كسب الحجام : تقدم : (٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها . أخرجه مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة « أن هذه الصدقة لا تغل لنا إنما هي أوساخ القوم وانها لا تحمل للحمد وللال محمد » وفي رواية له « أوساخ الناس » .

لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين ، وشكرها باستعمالها فيها هي آلة فيه من الدين ، وذلك لا يكون إلا بصبر ، وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ماوراءه ، ففي الصبر عتقه بمجاهدة وهو جهاد الفقر ، ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو أن لا تستعمل في المعصية ، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل ، لأنه تضمن الصبر أيضا ، وفيه فرح بنعمة الله تعالى ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التمتع المباح ، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد ، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض ، وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها ، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التمتع المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر ، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغنى الصارف ماله إلى الخيرات ، لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى ، وهذه الحالة تستدعي لأمثلة قوة ؛ والغنى أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا ، إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصر في التمتع على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها ، فإن الأعمال لا تتراد إلا لأحوال القلوب ، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان ، فما دل على زيادة قوة الإيمان فهو أفضل لأمثلة ، وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال الغنى بها ، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية ، لا أن يصرفها إلى الطاعة ، فإذا الصبر أفضل من الشكر ، أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة ، وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر : أيهما أفضل ؟ فقال : ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقر بالعدم ، وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما ، فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها ، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبطها وترعجها ، فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ماعليهما كان الذي لم صفته وأزعجها أتم حالا من متع صفته ونعمها . والأمر على ما قاله ، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه ، وهو لم يرد سواء . ويقال : كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال : الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر ، فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة ، فكان يقول : دعوة الجنيد أصابتني ، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغنى الشاكر .

ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجهها في بعض الأحوال ، فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما سبق ، ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغنى الذي يرى نفسه مثل الفقير ، إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه ، على اعتقاده أنه خازن للمحتاجين والمساكين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها ، ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا تقليد منه ، بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عبادته ، فهذا أفضل من الفقير الصابر .

« فإن قلت : فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر ؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر ؛ فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق » فاعلم أن الذي تراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكل حالاً عن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهراً . وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة ، فأبلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها ، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد ، والكلب المتأدب أكل من السكب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإبلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليهما في النهاية ، بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذياً عنده ، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذياً . وقد كان مؤلماً له أولاً ، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأفلين في البداية - بل قبل البداية بكثير - كالصبيان ، أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل ، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ، فإذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام ؛ فإذا أردت التحقيق ففصل ، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ، ووراءها الرضا وهو الرضا وهو مقام وراء الصبر ، ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا ؛ إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به ، وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ، ويدخل في جماتها أمور دونها ؛ فإن حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكف ستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر ، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر ؛ إذ قال عليه السلام « من لم يشكر الناس لم يشكر الله »^(١) ، وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر أحادها ؛ وهي درجات مختلفة ؛ فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار .

وقد روى عن بعضهم أنه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن فسألته عن حاله فقال : إن كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك ، كانت تهواني ؛ فاتفق أنها زوجت مني ، فليلة زفافها قلت : تعالى حتى نحبي هذه الليلة شكراً لله تعالى على ما جمعنا ، فصليتنا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه ؛ فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك ، فصليتنا طول الليل ، فمئذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك يا فلانة ؟ قالت العجوز : هو كما يقول الشيخ ؛ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة ، أولو لم يجمع الله بينهما ، وانسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل ؛ فإذا لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفصيل كما سبق . والله أعلم .

(١) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » تقدم في الزكاة .

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه ، المخوف مكره وعقابه ، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائيه ، والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه . وضرب بسيطا التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته ، وصدمهم عن التعرض لألمته والتهدف لسنخه ونقمته ، قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف إلى جنته . والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته وعلى آله وأصحابه وعترته :

(أما بعد) فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كشود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقل الأعباء محفوفًا بمكاره القلوب ومشايق الجوارح والأعضاء - إلزام الرجاء . ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم - مع كونه محفوفًا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات - لإسقاط التخويف وسطوات التعنيف ، فلا بد إذن من بيان حقيقتيهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما . ونحن نجتمع ذكرهما في كتاب واحد يشمل على شطرين : الشطر الأول في الرجاء ، والشطر الثاني في الخوف .

أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء ، والطرق الذي يحتل به الرجاء .

بيان حقيقة الرجاء

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام ، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريعا الزوال ، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب ، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجع ، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام ، فالذي هو غير ثابت يسمى حالا لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب ؛ وغرضنا الآن حقيقة الرجاء ، فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل ، فالعلم سبب يشمر الحال . والحال يقتضي العمل ، وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة ، وبيانه : أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحجوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في المستقبل ، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكرا وتذكرا ، وإن كان ما خطر بقلبك موجودا في الحال سمي وجدا وذوقا وإدراكا ، وإنما سمي وجدا لأنها حالة تجدها من نفسك ، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في المستقبل وغلب ذلك على قلبك سمي انتظارا وتوقعا ، فإن كان المنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب سمي خوفا وإشفاقا ، وإن كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء ، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ، ولكنه ذلك

المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحق عليه أصدق من اسم الرجاء ، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب ، لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه . وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية بحرى تقلب الأرض وتطهيرها وبحرى حفر الأنهار وسياقه الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة ، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسؤوس ، ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته : سمي انتظاره رجاء . وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه : سمي انتظاره حقا وغرورا لا رجاء . وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا : سمي انتظاره تمنيا لا رجاء ؛ فإذا سمي الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ؛ فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة : وكان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعتباره على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت ؛ وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات ، وترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حرق وغرور ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : «اللاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة» (١) ، وقال تعالى ﴿ تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ وقال تعالى ﴿ تخلف من بعدهم خائف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال ﴿ ما أظن أن تبعد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ فإذا العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة . وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير لحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبل التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق إليها ، لحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ؛ لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يحرقى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ، ولذلك قال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود

(١) حديث «اللاحق من أتبع نفسه هواها .. الحديث» تقدم غير ضمة .

الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء ، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع ، فرجاؤه المغفرة حق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية . قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندى التماذى فى الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاءه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهداتها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهداتها أصلا إلى وقت الحصاد ، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس ، واليأس يمنع من التعهد ، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت ؛ فيترك لأحالة تفقد الأرض والتعب فى تعهداتها ، والرجاء محمود لأنه باعث ، واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل ، والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة ، فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعيم بمناجاته والتلطف فى التعلق له ، فإن هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله تعالى ؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل ، وبدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل ، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامة فيمن لا يريد ؟ فقال : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه ، وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه . فقال : هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هياك لها ثم لا يبالي فى أى أوديتها هلك ، فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير ، فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور (١) .

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له ، والحب يغلب الرجاء ، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد فى الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيما فى وقت الموت : قال تعالى (لا تنظروا من رحمة الله) لحرم أصل اليأس ، وفى أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه . أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجنى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له . وقال صلى الله عليه وسلم : لا يموت

(١) حديث : قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامة فيمن لا يريد ... الحديث . أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ، وفيه أنه قال : أنت زيد الخير ، وكذا قال ابن أبي حاتم سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخير يروى عنه حديث ، وذكره فى حديث يروى : فقام زيد الخير فقال : يا رسول الله ... الحديث ، سمعت أبى يقول ذلك

أحدكم إلا وهو يحسن بالله تعالى ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ؟ يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ^(٢) . . ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في التزع فقال « كيف تهجدك ؟ » فقال : أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . فقال صلى الله عليه وسلم : ما اجتماع في قلب عبدي هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وأمنه بما يخاف ^(٣) ، وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان : من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجاء غفرانه غفر الله له ذنبه ، قال : لأن الله عز وجل عير قوما فقال ﴿ وذاكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإن لقنه الله حجته قال : يارب رجوتك وخفت الناس . قال : فيقول الله تعالى . قد غفرت لك ^(٤) ، وفي الخبر الصحيح : أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيرا قط ، فقال الله عز وجل : من أحق بذلك منا ^(٥) ، فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات . وقال تعالى ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾ ولما قال صلى الله عليه وسلم : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصدقات تلدمون صدوركم وتجارون إلى ربكم ، فهبط جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم ^(٦) . وفي الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام . أحبنى وأحب من يحبني وحبنى إلى خلقى . فقال : يارب ، كيف أحبيك إلى خلقك ؟ : اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحسانى وذكركم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا بالجميل ^(٧) ورثى أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكسر ذكر أبواب الرجاء فقال : أوقفني الله تعالى بين يديه فقال : ما الذى حملك على ذلك ؟ فقلت : أردت أن أحبيك إلى خلقك ، فقال : قد غفرت لك . ورثى يحيى بن أكثم بعد موته في النوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أوقفني الله بين يديه وقال : يا شيخ السوء ، فعلت وفعلت ، وقال : فأخذني من الرعب ما يعلم الله ، ثم قلت : يارب ما هكذا حدثت عنك ، فقال : وما حدثت عني ؟ فقلت : حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ، وكنت أظن بك أن لا تعذبنى ، فقال الله عز وجل : صدق جبريل وصدق نبي ، وصدق أنس ، وصدق الزهري ، وصدق معمر ، وصدق عبد الرزاق وصدق قل فألبست ومشى بين

- (١) حديث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » أخرجه مسلم من حديث جابر .
 (٢) حديث أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء . أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله « فليظن بي ما شاء » . (٣) حديث : دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في التزع فقال : « كيف تهجدك ؟ » الحديث . رواه الترمذى وقال غريب ، والنسائى في الكبرى ، وابن ماجه من حديث أسرو قال النبوى : إسناده جيد (٤) حديث « إن الله يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد جيد ، وقد تقدم في الأمر بالمعروف .
 (٥) حديث : إن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي مسعود « حوسب رجل من كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فساكن يأمر غلمانة أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل : نحن أحق بذلك ، تمأزوا عنه . وانفقا عليه من حديث حذيفة وأبي هريرة بنحوه .
 (٦) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . . . الحديث » وفيه « فهبط جبريل . . . الحديث » أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة ، فأوله متفق عليه من حديث أس ، ورواه بزيادة « ولخرجتم إلى الصدقات » أخرجه أحمد والحاكم ، وقد تقدم . (٧) حديث « إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبني . . . الحديث » لم أجد له أصلا ، وكأنه من الإسرائيليات كالذى قبله .

يدى الولدان إلى الجنة ، فقلت : يالها من فرحة . وفي الخبر « أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، قال : فيقول له الله تعالى يوم القيامة . اليوم أويستك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها (١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى : يا حنان يا منان ، فيقول الله تعالى لجبريل : اذهب فائتني بعبدى . قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى : كيف وجدت مكانك ؟ فيقول : شر مكان . قال : فيقول ردوه إلى مكانه . قال : فيمشى ويلتفت إلى ورائه ، فيقول الله عز وجل : إلى أى شيء تلتفت ؟ فيقول : لقد رجوت أن لا تعيدنى إليها بعد إذا خرجتني منها ، فيقول الله تعالى : اذهبوا به إلى الجنة (٢) » ، فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة ، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله ، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ؛ فأما العاصي المغرور المتمنى على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموها مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد ، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة ، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له ، فهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها ، فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوسطها ؛ فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يردّه إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط ، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء فيها لهم ويرديهم بالسكينة ، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعظ إلا استئالة القلوب واستنطاق الخلق بالشأن كيف كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً . قال على كرم الله وجهه إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله .

ونحن نذكر أسباب الرجاء التي تستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعاً لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لاستعمال الآخرق الذي يقظ أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يغلب بشيئين ، أحدهما . الاعتبار ، والآخر . استقراء الآيات والأخبار والآثار .

أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعده له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام

(١) حديث : أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ... الحديث ، رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم ، فذكره مقطوعاً . (٢) حديث أن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان ... الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله ، والبيهقي في الشعب وضمه من حديث أنس .

الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحرمة الشفتين وغير ذلك مما كان لا يفتقر بفقد غرض مقصود ؛ وإنما كان يفوت به منزلة جمال ، فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقتهم إلى الهلاك المؤبد ، بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيئ له أسباب السعادة في الدنيا ، حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا أو لا يحشر أصلا فليست كراهمتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة ، وإنما الذي يتمنى الموت نادر ، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة ، فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلا ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لأن مديبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم ، فهذا إذا توكل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء ، ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسننها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها ، حتى كان بعض العارفين يرى آية المدائنة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء . فقليل له : وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل ، والدين قليل عن رزقه ، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه ، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه ؟

الفن الثاني : استقراء الآيات والأخبار ، فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر ، أما الآيات فقد قال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم ﴾^(١) وقال تعالى ﴿ والملائكة يسبحون بحمدهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ وأخبر تعالى أن النار أعداء لأعدائه ، وإنما خوف بها أوليائه فقال ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقي الذي كذب وتولى ﴾ وقال عز وجل ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ ويقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له : أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾^(٢) . وفي تفسير قوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال : لا يرضى بمحمد واحد من أمته في النار ، وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول : أتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ الآية ، ونحن أهل البيت نقول : أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أمتي أمة مرحومة لأعذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا : الزلازل والفتن ، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب فقليل : هذا فداؤك من النار^(٣) ،

(١) حديث : قرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حقه غريب . (٢) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له : أما ترضى وقد أنزل عليك ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ لم أجده بهذا اللفظ . وروى ابن أبي حاتم والشملي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا عفو الله وتجاوز ما هنا أحدنا العيش ... الحديث . (٣) حديث أبي موسى : أمتي أمة مرحومة لأعذاب عليها عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن .. الحديث . أخرجه أبو داود دون قوله : فإذا كان يوم القيامة ... الخ . فرواه ابن ماجه من حديث أس بن سند ضعيف ، وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه .

وفي لفظ آخر : يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودى أو نصرانى إلى جهنم فيقول : هذا فدائى من النار فيلقى فيها ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الحمى من فيسح جهنم وهى حظ المؤمن من النار ^(٢) ، وروى فى تفسير قوله تعالى ﴿ يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام : إني أجعل حساب أمتك إليك . قال : لا يارب أنت أرحم بهم منى ، فقال : إذن لا تخزيك فيهم ^(٣) . وروى عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمة فقال : يارب اجعل حسابهم إلى ثلاث يطلع على مساوئهم غيرى ، فأوحى الله تعالى إليه : هم أمتك وهم عبادى ، وأنا أرحم بهم منك ، لا أجعل حسابهم إلى غيرى لثلاث تنظر إلى مساوئهم أنت ولا غيرك ^(٤) . وقال صلى الله عليه وسلم : حياتى خير لكم وموتى خير لكم ، أما حياتى فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع . وأما موتى فإن أعمالكم تعرض على فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه ، وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله تعالى لكم ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم يوماً : يا كريم العفو ، فقال جبريل عليه السلام : أتدرى ما تفسير : يا كريم العفو ؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته بدلها «سنوات بكرمه» ^(٦) . وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة . فقال : هل تدرى ما تمام النعمة ؟ قال لا . قال : دخول الجنة ^(٧) ، قال العلماء : قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ وفى الخبر : إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت له ^(٨) ، وفى الخبر : لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرنى ورجائى ^(٩) ، وفى الخبر : لو لقينى عبدى بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة ^(١٠) ، وفى الحديث : إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات ، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة ^(١١) ، وفى لفظ آخر : فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب

- (١) حديث : يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودى أو نصرانى إلى جهنم ... الحديث « أخرجه مسلم من حديث أبى موسى » . إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول : هذا فدائك من النار » وفى رواية له : لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه فى النار يهودياً أو نصرانياً . (٢) حديث : الحمى من فيسح جهنم وهى حظ المؤمن من النار » أخرجه أحمد من رواية أبى صالح الأشعرى عن أبى أمامة ، وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه . (٣) حديث : إن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم إني أجعل حساب أمتك إليك . فقال : لا يارب أنت خير لهم منى ... الحديث « فى تفسير قوله تعالى ﴿ يوم لا يخزى الله النبي ﴾ » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله . (٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمة فقال : يارب اجعل حسابهم إلى ... الحديث « لم أنت له على أصل . (٥) حديث حياتى خير لكم وموتى خير لكم ... الحديث أخرجه البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى داود وابن أخيه له مسلم ووثقه ابن معين والنسائى فقد ضعفه كثيرون ، ورواه المارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس بنجوه بإسناد ضعيف . (٦) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوماً : يا كريم العفو » فقال جبريل . أتدرى ما تفسير يا كريم العفو ؟ الحديث : لم أجده من النبي صلى الله عليه وسلم ، والوجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل ، هكذا رواه أبو الشيخ فى كتاب المغازى من قول عتبة بن الوليد . ورواه البيهقى فى الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال : حدثنى بعض الزهاد ... فذكره . (٧) حديث سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة ... الحديث : تقدم . (٨) حديث : إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنوب » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ : إن عبداً أذنب ذنباً فقال : أى رب أذنب ذنباً فاعفركى ... الحديث « وفى رواية : أذنب عبد ذنباً فقال ... الحديث » (٩) حديث : لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء ... الحديث « أخرجه الترمذى من حديث أنس » يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتى غفرت لك » وقال : حسن . (١٠) حديث : لو لقينى عبدى بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة » أخرجه مسلم من حديث أبى ذر « ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يمسك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة » والترمذى من حديث أنس الذى قبله « يا ابن آدم لو لقينى ... الحديث . (١١) حديث : إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات ، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه . . الحديث » قال : وفى لفظ آخر : فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشهاد =

الشمال وهو أمير عليه : ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات ، فتلقى عنه السيئة ، وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال : « إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه » فقال أعرابي : وإن ناب عنه ؟ قال : « محى عنه » ، قال : « فإن عاد ؟ » قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يكتب عليه » ، قال الأعرابي : فإن تاب ؟ قال : « محى من صحيفته » ، قال : « إلى متى ؟ » قال : « إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل » ، إن الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار ؛ فإذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها ، فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعائة ضعف ، وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل ^(١) .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها ، وليس لله في مالى صدقة ولا حج ولا تطوع : أين أنا إذا مت ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « نعم معى » ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الغل ، والحسد ؛ ولسانك من اثنتين : الغيبة ، والكذب ؛ وعينيك من اثنتين : النظر إلى ما حرم الله ، وأن تزدري بهما مسلماً - دخلت معى الجنة على راحتي هاتين ^(٢) ، وفى الحديث الطويل لأنس : أن الأعرابي قال : يا رسول الله ، من يلى حساب الخلق ؟ فقال : « الله تبارك وتعالى » ، قال : « هو بنفسه ؟ » قال : « نعم » ، فتبسم الأعرابي ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « مم ضحكت يا أعرابي ؟ » ، فقال : « إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب ساءح » ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق الأعرابي » ، ألا لا كريم أكرم من الله تعالى ، هو أكرم الأكرمين ، ثم قال : « فقه الأعرابي ^(٣) » ، وفيه أيضاً : « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبداً هدمها حجراً حجراً ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولى من أولياء الله تعالى » ، قال الأعرابي : ومن أولياء الله تعالى ؟ قال : « المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى » ، أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ ، وفى بعض الأخبار : « المؤمن أفضل من الكعبة ^(٤) » و « المؤمن طيب

= وهو أمير عليه : ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر ... الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه : « إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال » وليس فيه : أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ، ولم أجد لذلك أصلاً .

(١) حديث أنس : « إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه » فقال أعرابي : « فإن تاب عنه ؟ » قال : « محى عنه » ، قال : « فإن عاد ؟ » .. الحديث . وفيه : « إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار » الحديث أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ : فقال : يا رسول الله لاني أذنبت ذنباً . قال : « استغفر ربك » ، قال : « فاستغفر ثم أعود . قال : « فإذا عدت فاستغفر ربك » ثلاث مرات أو أربعاً . قال : « فاستغفر ربك حتى يسكون الشيطان هو المسجور المحسور » وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصري منسكراً الحديث . وروى أيضاً من حديث عقبة بن عامر : « أحداً يذنب ؟ قال : « يكتب عليه » ، قال : « ثم يستغفر ويتوب ؟ » قال : « ينفر له ويتاب عليه » ، قال : « فيهود .. الحديث . وفيه : « لا يمل الله حتى تملاوا » ، وأيسر في الحديثين قوله في آخره : « فإذا هم العبد بحسنة . الخ » وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » زاد مسلم في رواية : « أو يحاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك » ولهما نحوه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث : جاء رجل فقال : يا رسول الله إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها ، وليس لله في مالى صدقة ولا حج ولا تطوع ... الحديث تقدم . (٣) حديث أنس الطويل : قال أعرابي : يا رسول الله ، من يلى حساب الخلق ؟ قال : « الله تبارك وتعالى » فقال هو بنفسه ؟ قال : « نعم » ، فتبسم الأعرابي .. الحديث ، لم أجد له أصلاً .

(٤) حديث : « المؤمن أفضل من الكعبة » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ : « ما أعظمك وأعظم حرمتك » ، والذي نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً » وشيخه نصر بن محمد بن سليمان الحمصي ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان ، وقد تقدم .

ظاهر (١) ، و « المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة » (٢) ، وفي الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة » (٣) ، وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل : إنما خلقت الخلق ليرجعوا على ولم أخلقهم لأرجع عليهم » (٤) ، وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه » (٥) ، وفي الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي تغلب غضبي » (٦) ، وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » (٧) ، و « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار » (٨) ، و « من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار » (٩) ، و « لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان » (١٠) ، وفي خبر آخر « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما آيس من جنته أحد » (١١) ، ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ قال « أتدرون أي يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام : قم فابعث بعث النار من ذربتك ، فيقول : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » قال : فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « ما لكم لا تعملون ، فقالوا : ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا ؟ فقال « كم أنتم في الأمم ؟ أين تاويل وثاريت ومنسك وأجوج ومأجوج أم لا يحصيها إلا الله تعالى ، إنما أنتم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، وكالرقعة في ذراع الدابة » (١٢) ، فانظر كيف كان الخوف يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة

- (١) حديث « المؤمن طيب طاهر » لم أجده بهذا اللفظ ، وفي الصحيحين من حديث حذيفة « المؤمن لا ينجس » .
 (٢) حديث « المؤمن أكرم على الله من الملائكة » أخرجه ابن ماجه من رواية أبي المهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ « المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة » وأبو المهزم تركه شعبة وضفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف . (٣) حديث « خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده إلى الجنة » لم أجده هكذا ، وبني عنه مارواه البخاري من حديث أبي هريرة « عجب ربنا من قوم يحاهيهم إلى الجنة في السلاسل » .
 (٤) حديث « قال الله : إنما خلقت الخلق ليرجعوا على ولم أخلقهم لأرجع عليهم » لم أقف له على أصل .
 (٥) حديث أبي سعيد « ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب ، وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم ، وقال صاحب الميزان : ليس بواه ولا بمجهول .
 (٦) حديث « إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي تغلب غضبي » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم . (٧) حديث معاذ وألس « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » أخرجه الطبراني في الدعاء بلفظ « من مات يشهد . »
 وتقدم من حديث معاذ ، وهو في اليوم واليلة للنسائي بلفظ « من مات يشهد ... » وقد تقدم من حديث معاذ ، ومن حديث ألس أيضا ، وتقدم في الأذكار . (٨) حديث « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ « دخل الجنة » . (٩) حديث « من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار » أخرجه الشيخان من حديث ألس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمة الله على النار » وزاد البخاري « صادقا من قلبه » وفي رواية له « من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة » ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ « جعله الله في الجنة » ولذا في من حديث أبي حمزة الانصاري في أثناء حديث فقال « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقي الله عبد يؤمن بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة » . (١٠) حديث « لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان » أخرجه أحمد من حديث سهل بن بيضاء « من شهد أن لا إله إلا الله حرمة الله على النار » وفيه انقطاع ، وله من حديث عثمان ابن عفان « أني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار » قال عمر بن الخطاب : هي كلمة الإخلاص ، وإسناده صحيح واسكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعه من الموحدين النار وإخراجهم بالشفاعة ، نعم لا يبق في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد ، وفيه « فن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه » وقال مسلم « من خير » بدل « من إيمان » . (١١) حديث « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما آيس من جنته أحد » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (١٢) حديث : لما تلا ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ قال « أتدرون أي يوم هذا ؟ ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين وقال : حسن صحيح . قلت : هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه ، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد .

الرجاء إلى الله تعالى ، إذ ساقهم بسياط الخوف أولا ، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داوهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال ، والقصد والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن ذكر في الأول ما رآه سببا للشفاء واقتصر عليه ، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر ، فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلفظ في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلال الباطنة ، وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفي الخبر « لو لم تذبوا لخلق الله خلقا يذبون فيغفر لهم ^(١) » ، وفي لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق يذبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم » ، وفي الخبر « لو لم تذبوا لحشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل : وما هو ؟ قال : العجب ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها ^(٣) » ، وفي الخبر « ليغفر الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد ، حتى إن إبليس ليتناول لها رجاء أن تصيبه ^(٤) » ، وفي الخبر « إن لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسع وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يتراحم الخلق ، فتحن الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها . فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض . قال : فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك ^(٥) » ، وفي الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ^(٦) » ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وابشروا واعلموا أن أحدا إن ينجيه عمله ^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي أترونها للطيبين المتقين بل هي للمتأولين المخطئين ^(٨) » ، وقال عليه الصلاة والسلام « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة ^(٩) » ، وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفي « أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا سماحة ^(١٠) » ، ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم « ولا تحمل علينا إصرا » وقال تعالى « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنه « لما نزل قوله تعالى « فاصفح الصفيح الجميل » قال « يا جبريل ، وما الصفيح الجميل ؟ قال عليه السلام : « إذا عفوت عن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال « يا جبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه » فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث الله تعالى

- (١) حديث « لو لم تذبوا لخلق الله خلقا يذبون فيغفر لهم » . وفي لفظ « لذهب بكم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي أيوب ، واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريبا منه . (٢) حديث « لو لم تذبوا لحشيت عليكم ما هو شر من الذنوب » قيل ما هو ؟ قال « العجب » أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء ، والبيهقي في الشعب من حديث أنس ، وتقدم في ذم الكبر والعجب (٣) حديث « والذي نفسي بيده الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب . (٤) حديث « ليغفر الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد » ... الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف . (٥) حديث « إن لله تعالى مائة رحمة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم . (٧) حديث « اعملوا وابشروا واعلموا أن أحدا إن ينجيه عمله » تقدم أيضا . (٨) حديث « إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ... الحديث » أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة « لكل نبي دعوة وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي » . ورواه مسلم من حديث أنس ، ولترمذي من حديثه . وصححه ، وابن ماجه من حديث جابر « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ولابن ماجه من حديث أبي موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر « خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة ، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أترونها للمتقين ... الحديث » وفيه من لم يسم . (٩) حديث « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله « السهلة » وله والطبراني من حديث ابن عباس « أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة » . وفيه محمد بن اسحق رواه بالنعنة . (١٠) حديث « أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة » رواه أبو عبيد في غريب الحديث ، وأحمد .

إليهما ميكائيل عليه السلام وقال : إن ربكما يقرئكما السلام ويقول : كيف أعائب من عفوت عنه ؛ هذا ما لا يشبه كرمي (١) والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال علي كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة ، ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة . وقال الثوري : ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصي الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكثب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه : إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول يارب حجبت الملائكة صوته ، وكذا الثانية والثالثة ، حتى إذا قال الرابعة : يارب ، قاله الله تعالى : حتى متى تحجبون عني صوت عبدي ، قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر له الذنوب غيري ، أشهدكم أنني قد غفرت له وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله عليه : خلال الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة ، فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت : يارب أعصمني حتى لا أعصيك أبدا ، فهتف بي هاتف من البيت : يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك ، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ؟ ولمن أغفر ؟ وكان الحسن يقول : لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين . واتي مالك بن دينار أبانا فقال له : إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال : يا أبا يحيى ، إنى لأرجو أن ترى من عفوا الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح . وفي حديث ربيع بن حراش عن أخيه - وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت - قال : لما مات أخى سجد بثوبه وألقيناه على نعشه ، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إنى أقيت ربى عز وجل لخيانى بروح وريحان وربى غير غضبان ، وإنى رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفنروا ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال : ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت ، لحملناه ودفناه .

وفي الحديث أن رجلين من بنى إسرائيل تواخيا في الله تعالى ، فكان أحدهما يسرف على نفسه ، وكان الآخر عابدا وكان يعظه ويرجره ، فكان يقول : دعنى وربى ، أبعثت على رقبيا ، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لا يغفر الله لك . قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي ، اذهب أنت فقد غفرت لك ، ثم يقول للعابد : وأنت فقد أوجبت لك النار . قال : فوالذى نفسى بيده لقد تسكلم بكلمة أهلك دنياه وآخرته (٢) .

وروى أيضا أن لصا كان يقطع الطريق في بنى إسرائيل أربعين سنة ، فر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بنى إسرائيل من الحواريين ، فقال اللص في نفسه : هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثا ، قال : فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيما للحوارى ويقول في نفسه : مثلى لا يمشى إلى جنب هذا العابد . قال : وأحس الحوارى به ، فقال في نفسه : هذا يمشى إلى جانبي ، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ، فشى بجنبه فبقى اللص خلفه ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة

(١) حديث محمد بن الحنفية عن علي : لما نزل قوله تعالى (فاصبح الصبح الجليل) قال : « يا جبريل وما الصبح الجليل ؟ » قال : إذا عفوت عن ظلمك فلا تعابه ... الحديث . أخرجه ابن مردويه في تفسيره موقوفا على علي بن عيسى ، قال : الرضا بن عتابة ، ولم يذكر بقية الحديث ، وفي إسناده نظر . (٢) حديث « أن رجلين من بنى إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا ... الحديث » رواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد .

والسلام . قل لها ليستأنفا العمل فقد أحبطت ماسلف من أعمالها ، أما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه ، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدري على نفسه ، فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حواريه .

وروى عن مسروق أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا فوطى عقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجهته ، قال : فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال « اذهب فلن يغفر الله لك » فأوحى الله تعالى إليه : تتألى على في عبادي ، إني قد غفرت له .

ويقرب من هذا ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية ، فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام (١)

وروى في الآثار أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة ، قال : فاذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول : يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته على في عليين ، فيقول الله سبحانه : إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله ، وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف . فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريما (٢) » ، وقال « إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى ؛ فإن الله تعالى لا يتعاطاه شيء (٣) » .

وقال بكر بن سليم الصواف . دخلنا على مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تجدك ؟ قال : لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب ، ثم ما برحنا حتى أغمضناه .

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته : يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إياك مع الأعمال ؛ لأنني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف .

وقيل إن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلمت أضفتك ؛ فتر المجوسى ،

(١) حديث ابن عباس : كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته ، فنزل قوله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ فترك الدعاء عليهم . . . الحديث ، أخرجه البخاري من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول « اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا » بعد ما يقول « سمع الله من حمده ربنا ولك الحمد » فأزل الله عز وجل ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ إلى قوله (فإنهم ظالمون) ورواه الترمذي وسهام أبا سفيان والحارث بن هشام وصفيان بن أمية وزاد « فتاب عليهم فأسلوا لحسن إسلامهم » وقال حسن غريب . وفي رواية له « أربعة نفر » ولم يسمهم وقال « فهداهم الله للإسلام » وقال حسن غريب صحيح .

(٢) حديث « سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريما » لم أجده بهذا اللفظ . ولترمذي من حديث ابن مسعود « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسئل » وقال : هكذا روى حماد بن خالد وليس بالحافظ .

(٣) حديث « إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطاه شيء » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي ان شئت » ولكن يلزم وليعظم الرغبة ، فإن الله عز وجل لا يتعاطاه شيء أعطاءه . والبخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث « فإذا سألت الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » ورواه الترمذي من حديث معاذ وهبادة بن الصامت .

فأوحى الله تعالى إليه : يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعة سنين نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك ؟ فر إبراهيم يسعى خلف المجوسى فردده وأضافه ؛ فقال له المجوسى ما السبب فيما بدا لك ؟ فذكر له ؛ فقال له المجوسى : أهكذا يعاملنى ثم قال : اعرض على الإسلام فأسلم .

ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام وكان يقول بوعيد الأبد ، فقال له : كيف حالك ؟ فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا .

ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف ، فقال له : يا أستاذ ، بم نلت هذا ؟ فقال : بحسن ظنى برى .

وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول : أين العلماء ؟ قال : لجاموا ، ثم قال : ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال : فقلنا يارب قصرنا وأسانا ؛ قال : فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت : أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه ، فقال : اذهبوا به فقد غفرت لكم ، ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل : كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئا من الفواكه للجلس ، فز الغلام بباب مجاس منصور بن عمار وهو يسأل لفقيه شيئا ويقول : من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات ، قال : فدفع الغلام إليه الدراهم ، فقال منصور : ما الذى تريد أن أدعوك ؟ فقال : لى سيد أريد أن أتخلص منه ، فدعا منصور وقال : الأخرى . قال : أن يخلف الله على دراهمى ، فدعا ، ثم قال : الأخرى . قال : أن يتوب الله على سيدى ، فدعا ، ثم قال : الأخرى ، فقال : أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم ، فدعا منصور ، فرجع الغلام فقال له سيده : لم أبطأت ؟ فقص عليه القصة . قال : وبهم دعا ، فقال : سألت لنفسى العتق . فقال له : اذهب فأنت حر . قال : وأيش الثانى ؟ قال : أن يخلف الله على الدراهم ، قال : لك أربعة آلاف درهم ، وأيش الثالث ؟ قال : أن يتوب الله عليك . قال ثبت إلى الله تعالى . قال : وأيش الرابع ؟ قال : أن يغفر الله لى ولك وللقوم ، قال . هذا الواحد ليس لى ، فلما بات تلك الليلة رأى فى المنام كأن قائلا يقول له : أنت فعلت ما كان إليك ، أفترى أنى لا أفعل ما لى ، قد غفرت لك وللغلام وللمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين .

وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال : رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة ، قال : فأخذت مسكان المرأة وذهبتا إلى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت ، فقلت للمرأة : من كان هذا الميت منك ؟ قالت ابنى . قلت ولم يكن لكم جيران ؟ قالت بلى ولكن صغروا أمره . قلت : وأيش كان هذا ؟ قالت : محتشا ، قال فرحمتها وذهبت بها إلى منزلى وأعطيتها دراهم وخطة وثيابا ، قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرنى ، فقلت من أنت ؟ فقال المحتش الذى دفنتموفى اليوم رحمنى ربى باحتقار الناس لى .

وقال إبراهيم الأطروش : كننا قعودا بينجداد مع معروف الكرخى على دجلة ، إذ مر أحداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويأعبون ، فقالوا لمعروف أما تراهم يعصون الله بحماهم ، ادع الله عليهم ، فرفع يديه وقال إلهى كما فزحتهم فى الدنيا ففزحتهم فى الآخرة ، فقال القوم : إنما سألناك أن تدعو عليهم ، فقال : إذا

فزعهم في الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض السلف يقول في دعائه : يارب وأى أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابعة ورزقك عليهم دارا سبحانك ما أحلمك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك ياربنا لا تغضب .

فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحق المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئا من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف ، كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام . وأما ضد ذلك فيستد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا .

الشرط الثاني من الكتاب : في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف ، وبيان الأفضل من الخوف والرجاء ، وبيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

بيان حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام : لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد . وقال أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف ؛ وبالجملة فالخوف إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود ، وإنما دوام الشهود غاية المقامات ، ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول : حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوقا بمن يحثه على الانتقام غالبا عن يتشفع إليه في حقه ، وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب ، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جنابة قارفها الخائف بل عن صفة الخوف كالذي وقع في مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الاقتراس غالبا وإن كان اقتراسه بالاختيار ، وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه ، كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الماء يخاف لأنه بطبعه يجبول على السيلان والإغراق ، وكذا النار على الإحراق ؛ فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه ، وذلك الإحراق هو الخوف ، فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يلمه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعا . وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائاه وأنه لا يستل عما يفعله وهم

يسألون) فتكون قوة خوفه ؛ فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم ، أنا أخوفكم لله (١) ، وكذلك قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ثم إذا كملت المعرفة أورت جلال الخوف واحترق القلب ، ثم يفيض أثر الحرق من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما في البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء ، وقد تنشق به المرارة فيفيض إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . وقيل لذى النون : متى يكون العبد خائفا : قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتذى مخافة طول السقام . وأما في الصفات فبأن يجمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيها إذا عرف أن فيه سميما ، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفترغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضئنة بالأنفاس واللحظات ومواخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدرى أنه يغفل عنه فيفلس أو يهجم عليه فيهلك ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متمتع فيه لغيره : هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه ، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعبوب النفس وما بين يديها من الأخطار والآهوال ، وأقل درجات الخوف بما يظهر أثره في الأعمال : أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا ، فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى ، إذ التقوى : أن يترك ما يريه إلى ما لا يريه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى ، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق ، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا ، ويدخل في الصدق التقوى ، ويدخل في التقوى الورع ، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ؛ فإذا الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة ، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محذور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحذور والشبهة جميعا ، ووراء اسم الصديق والمقرب ، وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم ؛ فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل ، كما أنك تقول : الإنسان إما عربي وإما عجمي ، والعربي إما قرشي أو غيره ، والقرشي إما هاشمي أو غيره ، والهاشمي إما علوي أو غيره ، والعلوي إما حسني أو حسيني ، فإذا ذكرت أنه حسني مثلا فقد وصفته بالجميع ، وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه ، فكذلك إذا قلت صديق فقد قلت : إنه أقي وورع وعفيف ، فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الاسماء تدل على معان كثيرة متباينة ، فيختلط عليك كما اختلط

(١) حديث « أنا أخوفكم لله » أخرجه البخاري من حديث أسد « والله أنى لأخذكم قد وأنتم لم » والشيخان من حديث عائشة « والله أنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

على من طلب المعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ المعاني ، فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالعرفه الموجبة له ومن جانب السفلى كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما .

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحدا ، وهو غلط ، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى ، والأصلح للبيعة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي ، ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمود ، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال ، والمحمود هو الاعتدال والوسط ؛ فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع ، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضييب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألما مبرحا فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها ، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ، ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الخوف ، بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله ، وذلك بما قد عز وجوده الآن ؛ ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإنك إن قلت لا ، كفرت ، وإن قلت نعم ، كذبت ، وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات ومالم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفا . وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، وهو مذموم أيضا لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ؛ فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ، ولولاه لما كان الخوف كالا لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأ الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ولوعرف لم يكن خائفا لأن الخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمخذور لا يقدر على دفعه ؛ فإذا هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمي ، وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة ، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال في ذاته ، وإنما يصير محمودا بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه ، كما يكون احتمال ألم الدواء محمودا لأنه أهون من ألم المرض والموت ، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم ، وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ، وقد يخرج إلى الموت ، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها ، وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور ، فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم ، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل ، فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم .

❦ فإن قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد ، فكيف يكون حاله مذموما ؟ فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف ، فهو بالإضافة إليه فضيلة ، فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة ، بل للسالك إلى الله تعالى بطريق

الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه ، وهو محال ، فلا ينبغي أن يظن هذا ، بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى ؛ فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخرى كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصدّيقين ، فإذا الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه ، مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة ، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره ، فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة ، فإذا أثمر الورع فهو أعلى ، وأقصى درجاته أن يشعر درجات الصديقين ؛ وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع ؛ فهذا أقصى ما يحمد منه ، وذلك مع بقاء الصحة والعقل ؛ فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه ، ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ، ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة : احفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل .

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه أما أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروها لأنه يفضي إلى المكروه ، كما تكرر المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة وكما يكره المريض الفواق المضرة لأدائها إلى الموت ، فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة ، فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره ؛ كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المسأوفة ، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي أكل عليها وتعزز بها في عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم : أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحسب ، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والحيانة والغش وإضرار السوء ، أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريره في حال غفلته عنه . أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل . فهذه كلها مخاوف ، ولكل واحد خصوص فائدة ؛ وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريره يشتغل بتطهير قلبه عن الوسوس ، وهكذا إلى بقية الأقسام . وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة ، فإن الأمر فيه مخطر ، وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة ؛ لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة ، فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء في أم الكتاب ، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في ختلهما يتوقع يحتمل أن يكون فيه حز الرقة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد ، فيربط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه

عماذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقييع الملك وكيفيته وأنه ما الذى خطر له فى حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع ، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزل الذى جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر فى الأبد ؛ وإليه أشار النبى صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال : ، هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص ، ثم قبض كفه اليسرى وقال ، هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستنفذهم الله قبل الموت ولو بفراق ناقة . وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفراق ناقة ، السعيد من سعد بقضاء الله ، والشقى من شقى بقضاء الله ، والأعمال بالخواتيم ^(١) . وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنائته ، وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التى تقتضى الهيبة لا محالة ، فهذا أعلى رتبة ، ولذلك يبقى خوفه وإن كان فى طاعة الصديقين ، وأما الآخر فهو فى عرصة الغرور والأمن : إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين ، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين ، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى ، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جنائية ؛ بل العاصى لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ، ولولا أنه يخوف فى نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها ، فإن تيسر أسباب المعصية لإبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توصل بها من يسر له الطاعات ومهد له سبيل القربات ، فالعاصى قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى ، وكذا المطيع فالذى يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل فى أسفل سافلين من غير جنائية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلالة ، فإن من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا ، والذى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة ، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا ، فليت شعري ما الذى أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه ، وما الذى أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه ، وكيف يحال ذلك على العبد ؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزل من غير جنائية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ، ووراء هذا المعنى سر القدر لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن أن تفهم الخوف منه فى صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجري على ذكره ذو بصيرة ، فقد جاء فى الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود خفى كما تخاف السبع الضارى ^(٢) . فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فإن الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ، ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف من الجنائية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيئته ، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي ، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة ، إذ لا يقدح

(١) حديث « هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال : حسن صحيح غريب . (٢) حديث « إن الله تعالى أوحى إلى داود : يا داود ، خفى كما يخاف السبع الضارى » لم أجده أصلا ، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات ، فانه عبر عنه بقوله : جاء فى الخبر ، وكتبرا ما يعبر بذلك عن الإسرائيليات التى هى غير مرفوعة

ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ، والله المثل الأعلى ، ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي » هؤلاء إلى النار ولا أبالي ، ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة . الطبقة الثانية من الخائفين : أن يشمل في أنفسهم ما هو المكروه ، وذلك مثل سكرات الموت وشدة ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر ، أو هول المطلع ، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النكير والقطمير ، أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه ، أو الخوف من النار وأغلاها وأهوالها ، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات ، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها . وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ، ومن لم تسكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بالم البعد والفراق ، وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتعجب منه في نفسه ، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره ، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد ، وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان ، وبالجملة كل لذة تشاركها فيها البهائم ؛ فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم ، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ، ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره ، فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين ، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة بالآيات والأخبار .

أما الاعتبار فسيبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة ، إذ لا مقصود سوى السعادة ، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه ؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته ، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والانس به في الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الانس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتبهات إلا بقمع الشهوات ، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف ؛ فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق ، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلنى .

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر ، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان ، وقال الله تعالى (وهدي ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وصفهم بالعلم والخشيتهم . وقال عز وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة العلم ، ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام : وأما الخائفون

فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه ، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى ، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ، ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول : « أسألك الرفيق الأعلى »^(١) ، فإذا إن نظر إلى مشمره فهو العلم ، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما ، حتى إن العاقب صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها ، كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين . وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى ﴿ إن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف - كما سبق - ولذلك قال تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ وقال عز وجل ﴿ وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان . فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى « وإذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذا هم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أذانهم فيقول : يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم ، إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس : إني قد جعلت نسبا وجعلت نسبا ، فوضعت نسبي ورفعت نسبكم ، قلت ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وأيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان ، فالיום أضع نسبكم وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب »^(٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام « رأس الحكمة مخافة الله »^(٣) ، وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى »^(٤) ، وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير . وقال الشبلي رحمه الله : ما خفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيت قط . وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يحمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ورجاء العفو كمثل بين أسدين . وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفشت عما في يديه إلا الورعين فإنني أستحي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب .

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف ، فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الاسامي ، وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يخفى ، وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين فقال ﴿ سيدكر من يخشى ﴾

(١) حديث : لما خير في مرض موته كان يقول « أسألك الرفيق الأعلى » متفق عليه من حديث عائشة قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح « له لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير » فلما نزل به ورأسه في حجرى غشي عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال « اللهم الرفيق الأعلى » فعلمت أنه لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح ... الحديث . (٢) حديث « إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أذانهم فيقول : يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم ، إنما هي أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس : إني قد جعلت نسبا وجعلت نسبا ، فوضعت نسبي ورفعت نسبكم ، قلت ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وأيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان ، فالיום أضع نسبكم وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب » أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک بسند ضعيف والعلهي في التمهيد مقتصر على آخره « إني جعلت نسبا ... الحديث » من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث « رأس الحكمة مخافة الله » رواه أبو بكر بن لال القتيبي في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الشعب ، وضعفه من حديث ابن مسعود ، ورواه في دلائل النبوة من حديث عتبة بن عامر ولا يصح أيضا .

(٤) حديث « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى » قاله لابن مسعود : لم أتف له على أصل .

وقال تعالى ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ وقال صلى الله عليه وسلم «قال الله عز وجل : وعزقي لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمينين فإن أمننى فى الدنيا أخففته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا أمنتته يوم القيامة (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم «من خاف الله تعالى خافه كل شيء ، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم «أنتمكم عقلا أشدكم خوفا لله تعالى ، وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً (٣) ، وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه : مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له لبه . وقال ذو النون أيضاً : يلغى أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فإذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة ، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا ؟ فقال : أشدهم خوفا اليوم . وقال سهل رحمه الله : لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال ، وقيل للحسن ، يا أبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أفواما يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟ فقال : والله إنك إن تخالط أفواما يخوفونك حتى يدركك أمن ؛ خير لك من أن تصحب أفواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فارق الخوف قلبا إلا خرب . وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يا رسول الله ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله﴾ هو الرجل يسرق ويبنى ؟ قال «لا ، بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه (٤) ، والتشديدات الواردة فى الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر ، وكل ذلك ثناء على الخوف ، لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذى ينفيه ، وضد الخوف الأمن ، كما أن ضد الرجاء اليأس ، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول : كل ما ورد فى فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان ، فإن كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته ، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا ، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه ، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف ؛ فإذا كان المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة ؛ فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ؛ وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه ، نعم أحد طرفى الشك قد يرجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالإضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى ﴿ويدعوننا رغبا ورهبا﴾ وقال عز وجل ﴿يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾ ولذلك عبر العرب عن الخوف

- (١) حديث «لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمينين» أخرجه ابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى فى الشعب من حديث أبي هريرة ، ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبي الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسل .
 (٢) حديث «من خاف الله خافه كل شيء ... الحديث» رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا . ورواه ابن أبي الدنيا فى كتاب الخائفين بإسناد ضعيف معضل ، وقد تقدم .
 (٣) حديث «أنتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ... الحديث» لم أوف له هل أصل ، ولم يصح فى فضل العقل شيء .
 (٤) حديث عائشة : قلت يا رسول الله ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله﴾ هو الرجل يسرق ويبنى ؟ قال «لا ... الحديث» رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد . قلت : بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذى وروى عن الرحمن بن حازم عن أبي هريرة .

بالرجاء ، فقال تعالى ﴿ ما لكم لا ترحون لله وقارا ﴾ أى لا تخافون ، وكثيرا ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلزمه ، بل أقول : كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية ، فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكموا كثيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ وقال عز وجل ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد مؤمن تخرج من عينيه دمة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حرّمه الله على النار »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أشفى قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطايا كما يتحات من الشجرة ورقها »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يلبغ النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع »^(٣) ، وقال عقبة بن عامر : ما النجاة يا رسول الله ؟ قال « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك »^(٤) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب ؟ قال « نعم من ذكر ذنوبه فبكى »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهرىقت في سبيل الله سبحانه وتعالى »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان القلب بذروف الدمع مع خشيتك قبل أن تصير الدموع دما والاضراس جبرا »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، وذكر منهم « رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »^(٨) ،

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : من استطاع أن يبكى فليبك ومن لم يستطع فليتبأك .

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول . بلغنى أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : ابكوا فإن لم تبكوا فتابكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ما تفرغت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قطر ولا ذلة يوم القيامة ،

(١) حديث « ما من مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الذباب ... الحديث » أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٢) حديث « إذا أشفى جلد المؤمن من خشية الله تحانت عنه ذنوبه ... الحديث » أخرجه الطبراني والبيهقي في حديث العباس بسند ضعيف . (٣) حديث « لا يلبغ النار عبد بكى من خشية الله ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح ، والمسنون وابن ماجه من حديث أبي هريرة .

(٤) حديث قال عقبة بن عامر : ما النجاة يا رسول الله ؟ قال « أمسك عليك لسانك ... الحديث » تقدم .

(٥) حديث عائشة : قلت أيدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب ؟ قال « نعم من ذكر ذنوبه فبكى » لم أقف له على أصل ، (٦) حديث « ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمة من خشية الله ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال : حسن غريب ، وقد تقدم . (٧) حديث « اللهم ارزقني عينين هطالتين يشفيان القلب بذروف الدمع .. الحديث » أخرجه

الطبراني في الكبير في الدعاء وأبو إمام في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ، ورواه الحسين المروزي في زيادته على الزهد والرفائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر « الله » وذكر الدارقطني في المال أن من قال فيه « عن أبيه » وهم ، وإنما هو عن سالم بن عبد الله مرسلا ، قال : وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله الحارثي وليس بابن عمر انتهى ، وما ذكره من أنه سالم الحارثي هو الذى يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في السكتي وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فإن الراوى له عن سالم عبد الله أبو سلمة ، وإنما ذكروا له رواية عن سالم الحارثي والله أعلم . نعم حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذى يروى عن سالم الحارثي أو سالم بن عبد الله بن عمر . (٨) حديث « سبعة يظلهم الله في ظله ... الحديث » مطبق عليه من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم :

فإن سألت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ، ولو أن رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة .
وقال أبو سليمان البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق .

وقال كعب الأحبار رضى الله عنه . والذي نفسى بيده ؛ لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب إلى من أن أتصدق بجبل من ذهب .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . لأن أدمع دموعى من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار .
وروى عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعنا إلى أهلى فدنيت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فلسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا فى الدنيا ، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلنا فى نفسى . قد نافقت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والركة ، فخرجت وجعلت أنادى . نافق حنظلة ، فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال . كلا لم ينافق حنظلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول . نافق حنظلة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « كلا لم ينافق حنظلة ، فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا ، فرجعنا إلى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه . فقال صلى الله عليه وسلم « يا حنظلة لو أنكم كنتم أبدأ على تلك الحالة لصاحجتكم الملائكة فى الطريق وعلى فراشكم ؛ ولكن يا حنظلة ساعة وساعة (١) ، فإذن كل ما ورد فى فضل الرجاء والبكاء وفضل العلم ومذمة الآمن فهو دلالة على فضل الخوف ؛ لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب .

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أن الأخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتربه شك فى أن الأفضل أيهما ، وقول القائل : الخوف أفضل أم الرجاء ؟ سؤال فاسد يعضاهى قول القائل : الخبز أفضل أم المساء ؟ وجوابه أن يقال : الخبز أفضل للجائع ، والمساء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب ؛ فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالمساء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان ، وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه ، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ؛ ففضلهما بحسب الداء الموجود ؛ فإن كان الغالب على القلب داء الآمن من مكر الله تعالى والاعتزاز به فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ، ويجوز أن يقال مطلقا : الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكنجين ، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع ، وبالسكنجين مرض الصفر ، ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل ، فهنا الاعتبار غلبة الخوف أفضل ؛ لأن المعاصى والاعتزاز على الخلق أغلب ، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ، ومستقى الخوف من بحر الغضب ، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة بمازجتها للرجاء .

(١) حديث حنظلة : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا ... الحديث ، وفيه « نافق حنظلة الحديث » وفيه « ولكن يا حنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم مختصرا .

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصح لا لفظ الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصي . فأما التقى الذى ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروى أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده : يا بني خف الله خوفا ترى أنك لو أتيت به حسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيت به سيئات أهل الأرض غفرها لك ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : لو نودى ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لنخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل ، وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى ؛ فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى أن يستوى خوفه ورجاؤه ؛ فأما العاصى إذا ظن أنه الرجل الذى استثنى من الذين أسروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره .

هـ فإن قلت : مثل عمر رضى الله عنه لا ينبغى أن يتساوى خوفه ورجاؤه ، بل ينبغى أن يغلب رجاءه كما سبق فى أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغى أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح فى أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه . فهكذا ينبغى أن تكون أحوال المتقين ؛ فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله ، وذلك وإن أوردناه مثالا فليس يضاهى مانحن فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة ، إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها ، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة فى تلك البقاع وغيرها ، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يحترق جنسه وقد بث فى أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يحتبرها ، وهى فى بلاد ليس يدرى أكثر الصواعق فيها أم لا ، فمثل هذا الزارع وإن أدى كنهه بجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاءه على خوفه ، والبذر فى مسألتنا هو الإيمان - وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب - وخفايا خبثه وصفاته من الشرك الخفى والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة ، والآفات هى الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها فى مستقبل الزمان وإن سلم فى الحال ، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة ، إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يحترق مثله ، والصواعق هى أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ، وذلك مما لم يحترق مثله ، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يحترق ، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جبانا فى نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سيحكى فى أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين ، وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه ، فأما أن يغلب رجاءه فلا ، ولقد كان عمر رضى الله عنه يبالغ فى تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضى الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا ، إذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين^(١) ، فمن ذا الذى يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفى ، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتليبس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه ؟ وإن وثق به فمن أين يثق بيقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر^(٢) . وفى رواية « إلا قدر فواق

(١) حديث : أن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين أخرجه مسلم من حديث حذيفة « فى أصحابي اثنا عشر منافقا » تمامه « لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » الحديث .

(٢) حديث « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر » وفى رواية « إلا قدر فواق =

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار ، وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضى خاتمة السوء ، فكيف يؤمن ذلك ؟ فإذا أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة ، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أتى عليهم فقال تعالى ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ وقال عز وجل ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وأين مثل عمر رضى الله عنه ؟ فالخلق الموجودة في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف ، إنما الخوف هو الذى يبحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجانى عن دار الغرور فهو الخوف الحمود ، دون حديث النفس الذى لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط .

وقد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادكار .
وقال مكحول الدمشقي : من عبد الله بالخوف فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجى ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد .

فإذن لابد من الجمع بين هذه الأمور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت ، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل ، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته ، وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذى إليه رجاءه ، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله تعالى ، فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ، والرجاء تقارنه المحبة فن ارتجى كرمه فهو محبوب ، والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة ، فإن المصير إليه والقُدوم بالموت عليه ، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتدّت محنته وعذابه ، فهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب : فهذا رجل محابه كلها في الدنيا ، فالدنيا جنته ، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب ، فوته خروج من الجنة وحيالولة بينه وبين ما يشتهي ، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي ، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه ، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه ، فوته قدوم على محبوبه وخلص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر ، فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعدّه الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر ، وفضلاً عما أعدّه الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من

= ناقة ... الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « إذا الرجل يعمل الزمن الطويل يعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار » وللبزار والطبراني في الأوسط « سبعين سنة » وإسناده حسن . ولشيخين في أثناء حديث لابن مسعود « أن أحكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ... الحديث » ليس فيه تقدير زمن للعمل بخمسين سنة ولا ذكر « شهر » ولا « فواق ناقة » .

الانكسار والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنعكال ، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ، ولا مبطع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع الملائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ومال ووطن ، فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال : اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد (١) ، والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للجنة ، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه (٢) ، وقال تعالى : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ، ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه : يا بني حدثني بالرخص واذا كررتى الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به ، وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه . وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت : اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن ، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : أن حبيبي إلى عبادي . فقال : بماذا ؟ قال : بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي ، فإذا غلبت السعادة أن يموت محبا لله تعالى ، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تفسير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير ، فسأله ؟ فقال : الآن أفلت ، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له : إنه مات البارحة .

بيان الدواء الذى به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ما ذكرناه في حال الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض ، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء ، لأن أول مقامات الدين اليقين الذى هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار ، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر ، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ، ولذلك قال على كرم الله وجهه . من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ، ويؤدي دوام الذكر إلى الانس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ، ويؤدي كمال المعرفة والانس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات ، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين ، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والانس ، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل ، فإذا فيها ذكرناه في علاج الصبر كفاية ، ولكننا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول : الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما أعلى من الآخر ، ومثاله : أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف ، وربما مذل إلى الحية ليأخذها ويلعب بها ، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها ، فإذا نظر الصبي إلى أبيه

(١) حديث : اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك . . . الحديث . أخرجه الترمذي من حديث معاذ ، وتقدم في الأذكار والدعوات . (٢) حديث : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه ، أخرجه مسلم من حديث جابر ، وقد تقدم .

وهو ترتد فرائضه ويحتال فى الحرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه فى الحرب ؛ فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه رقلة مبالاته . وأما خوف الابن فإيمانه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب يخوف فى نفسه ، فيعلم أن السبع يخوف ولا يعرف وجهه ، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين : أحدهما الخوف من عذابه ، والثانى الخوف منه ؛ فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله عز وجل ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ وأما الأول فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية وضدّه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإبما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفسك فى أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة ، وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم ؛ فإن فانت المشاهدة فالسمع لا يخلو عن تأثير ، وأما الثانى وهو الأعلى فإن يكون الله هو المخوف ، أعنى أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى : خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت فى بحر لجى ، وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد أيضا هى خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه ، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويذول على قرب ، حتى إن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه ، والعقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات واجتناب المعاصى مدة طويلة على الاستمرار ؛ فإذا من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف ، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعا فى مخالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : خفى كما تخاف السبع الضارى . ولا حيلة فى جلب الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع فى مخالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواه فن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي ، ويحكم ما يريد ولا يخاف ، قزب الملائكة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفه ، بل صفته ما ترجمه قوله تعالى : هؤلاء فى الجنة ولا أبالي وهؤلاء فى النار ولا أبالي . وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصى بدواعى المعصية حتى يعصى شاء أم أبى ، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة ، فإن كان أبده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه فى الأزل ، وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال : احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما ، لحج آدم موسى عليه السلام ، قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمسك لك ملائكتك وأسكنك جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض . فقال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الأرواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا ، فبكى وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال آدم : فهل وجدت فيها ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ قال نعم . قال : أفنلومنى على

أن عملت عملا كتبه الله على قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة ، قال صلى الله عليه وسلم ، فحج آدم موسى (١) ، فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ، ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف ؛ فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع ، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه ، وقد يهجم عليه فيفتنسه وذلك بحسب ما يتفق ، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمي اتفاقا ، وإن أضيف إلى علم الله لم يحز أن يسمى اتفاقا ، والواقع في مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع ؛ لأن السبع مسخر : إن سلط عليه الجوع اقترس ، وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك ، فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته ، فليست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع ، بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى ، لأن المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلى إلى ما خلق له ، تخلق الجنة وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا ، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر ، فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسيبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتبارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين (٢) وكان أشد الناس خوفا (٣) حتى روى أنه كان يصلى على طفل : ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار (٤) ، وفي رواية ثانية : أنه سمع قائلا يقول : هنيئا لك ، عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال : ما يدريك أنه كذلك ، والله إنى رسول الله ، وما أدري ما يصنع بى إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم (٥) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة : هنيئا لك الجنة ، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك : والله لا أزكى أحدا بعد عثمان (٦) ، وقال محمد بن خولة الحنفية : والله لا أزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث « احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وهو متفق عليه بالفاظ أخر .

(٢) حديث : كان سيد الأولين والآخرين . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « أنا سيد ولد آدم ولا يخرى . الحديث » .

(٣) حديث : كان أشد الناس خوفا . تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله « والله أنى لأخشاكم لله » وقوله « والله أنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

(٤) حديث أنه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أسى أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أو صبية وقال « لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي » واختاف فى إسناده ، فرواه فى الكبير من حديث أبى أيوب أن صبيًا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي » (٥) حديث : أنه سمع قائلا يقول لطفل مات : هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « ما يدريك . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة قالت : توفى صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة . . . الحديث وليس فيه فغضب ، وقد تقدم . (٦) حديث : لما توفى عثمان بن مظعون قالت أم سلمة : هنيئا لك الجنة . . . الحديث . أخرجه البخارى من حديث أم الهول الأنصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله ، قال « وما يدريك الحديث » وورد أن القى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ، ولم أجده فيه ذكر أم سلمة .

وسلم ولا أبي الذي ولدني ، قال : فثارت الشيعة عليه ، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه ، وروى في حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره »^(١) وفي حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول : هنيئا لك الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم « من هذه المتألية على الله تعالى ؟ » فقال المريض : هي أمي يا رسول الله ، فقال « وما يدريك ، لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه »^(٢) ، وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول شيبتي هود وأخواتها^(٣) ، سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى ﴿ ألا بعدا لقوم هود ﴾ ﴿ ألا بعدا لنود ﴾ ﴿ ألا بعدا لمدين كما بعدت نود ﴾ مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا ، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ﴾ أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة : إما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا ، وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا . وفي سورة التكموير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة ، وهو قوله تعالى ﴿ وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علقت نفس ما احضرت ﴾ وفي عم يتساءلون ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ الآية ، وقوله تعالى ﴿ لا يتسكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ لكان كافيا ، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها ، وأشد منه قوله تعالى ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ سنفرغ لكم أية الثقلان ﴾ وقوله عز وجل ﴿ أؤمنوا بكر الله ﴾ الآية . وقوله ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ وقوله تعالى ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ الآيتين . وقوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ الآية وقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ الآية : وقوله ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ الآية . وقوله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ الآيتين . وقوله تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ﴾ الآية . وكذلك قوله تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لني خسر ﴾ إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران ، وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمروا مكر الله تعالى ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى ، فأوحى الله إليهما لم تبكيا وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكره ؟^(٤) وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله « قد أمنتكما ، ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما ، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمتا من المكر وما وفيا بقولهما

(١) حديث : إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه : هنيئا لك يا بني الجنة . رواه البيهقي في الشعب ، إلا أنه قال فقالت أمه : هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذي ، إلا أنه قال : إن رجلا قال له : أبشر بالجنة ، وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف . (٢) حديث : دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول : هنيئا لك الجنة ... الحديث ، تقدم أيضا . (٣) حديث « شيبتي هود وأخواتها ... الحديث » أخرجه الترمذي وحده ، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس ، وهو في الدلائل من حديث أبي جحيفة . وقد تقدم في كتاب السماع . (٤) حديث : أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل ، فأوحى الله إليهما : لم تبكيا ؟ الحديث ، أخرجه ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر ، ورويناه في مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش . بسند ضعيف

كما أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع فى المنجنيق قال : حسبي الله ، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء ، حتى قال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، فكان ذلك وقام بحقيقة قوله حسبي الله ، فأخبر الله تعالى عنه فقال ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى بموجب قوله : حسبي الله ، وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال ﴿ إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ ، قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ﴾ ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى فى نفسه خيفة ؛ إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك ^(١) ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك ، فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر ؛ وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لاحالة ، ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ﴾ وقال ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم ﴾ الآية ، فوض الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من البين ، لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسابان فضلا عن التحقيق والاستيقان ، وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أسرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك بمن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ، ثم يخبر عنه ويقول ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم ﴾ الآية ؛ فكيف لا يخاف ماحق من القول فى الأزل ولا يطعم فى تداركه ولو كان الأمر أنفا لكأنت الاطماع تمتد إلى حيلة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقرار خنى السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح ؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له ، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا : كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ؛ ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشد تقريبا من القدر فى غليانها ، وقد قال مقلب القلوب عز وجل ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ فأجهل الناس من آمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن ، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا حترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة الخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ؛ إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين

(١) حديث قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك ، : أخرجه البخارى من حديث ابن عباس بلفظ : اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم ... الحديث .

سنة أسطوانة فأت لم أقطع له بالتوحيد ، لأنى لا أدرى ماظهر له من التقلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام ، لأنى لا أدرى مايعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد آمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سابه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة ، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ .

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع ، فقيل له : يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفوا الله أعظم من ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبي أبكى لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمشال الجبال من الخطايا .

وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرتنى الوفاة فاقعد عند رأسى ، فإن رأيتنى مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت ، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يعترفوا بشهود جنازتى ليحضر جنازتى من أحب على بصيرة لئلا يلحقنى الرياء بعد الوفاة . قال : وبهم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة ، فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرقه .

وكان سهل يقول : المرید يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر . وكان أبو زيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكأن فى وسطى زنارا أخاف أن يذهب بى إلى البيعة ويبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عنى الزنار ، فهذا لى فى كل يوم خمس مرات . وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الحواريين ، أنتم تخافون المعاصى ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر .

وروى فى أخبار الأنبياء أن نبيا شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبدى ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بى حتى تسألنى الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت يارب فاعصمنى من الكفر .

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء . ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أنى برىء من النفاق كان أحب إلى مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذى هو ضد أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلما منافقا ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر ^(١) ، وفى لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » .

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صديق ، إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ، ومن الذى يخلو عن هذه المعانى

(١) حديث « أربع من كن فيه فهو منافق » الحديث « متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو » . عدم فى قواعد العقائد .

بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونسي كونها منكر بالكلية ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا ! حتى قال حذيفة رضى الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيصير بها منافقا إلى لاسمعه من أحدكم في اليوم عشر مرات ^(١) . وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الكبائر ^(٢) . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله ، وأن تحب على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ^(٣) . وروى أنه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال : رأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به ؟ قال : لا . قال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ^(٤) . وأشد من ذلك ما روى أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال : تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ؛ فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ^(٥) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يمتلي* بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز لبرة ، ويأتي عليه ساعة يمتلي* بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز لبرة ، فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة ، وأن سببه أمرر تتقدمه : منها البدع . ومنها المعاصي ، ومنها النفاق ، ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظن أنه خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل : من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إنى أخاف على نفسى النفاق ، فقال : لو كنت منافقا لما خفت النفاق ، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفا منهما ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم : العبد المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فالذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعقب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ^(٦) ، والله المستعان .

بيان معنى سوء الخاتمة

• فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة ، فما معنى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أن سوء الخاتمة عل رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة : فإن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله : إما الشك ، وإما الجحود ، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ماغلب على

(١) حديث حذيفة : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيصير بها منافقا . . الحديث ، أخرجه أحمد من حديث حذيفة ، وقد تقدم في قواعد العقائد .

(٢) حديث أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر . . الحديث ، أخرجه البخارى من حديث أسد وأحمد ، والبرار من حديث أبى سعيد ، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن فرس وصحيح إسناده ، وتقدم في التوبة . (٣) حديث : قال رجل لابن عمر : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون . . الحديث ، رواه أحمد والطبرانى ، وقد تقدم في قواعد العقائد . (٤) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال : رأيت لو كان الحجاج حاضرا . . الحديث ، تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج . (٥) حديث : إن نفرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا . . الحديث ، لم أجد له أصلا . (٦) حديث : العبد المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى . . الحديث ، أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن بن رجل من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد تقدم في ذم الدنيا : ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغا ، وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرج له ولله في مسند الفردوس

القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساراً إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب . ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه ؛ فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار : جز يا مؤمن فإن نورك أطفأ لحي ، فهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا ، فالأمر خطر ، لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه ، إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال ؛ فلا مطمع في عمل ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك ، وعند ذلك تعظم الحسرة ، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فإنه يحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه في القوة إلى حدٍّ مثقال أخرجته من النار في زمان أقرب ، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار ، ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين .

« فإن قلت : فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته ، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة ؟ فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان ، بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما صححت به الأخبار وهو : أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ^(١) وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم ^(٢) ، كما وردت به الأخبار ، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شق بسوء الخاتمة . وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الاوقات ، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر ^(٣) والتعذيب بعده ^(٤) ، ثم المناقشة في الحساب ^(٥) والافتضاح على ملاء من الأشهاد في القيامة ^(٦) ، ثم بعد ذلك خطر الصراط ^(٧) وهول الزبانية ^(٨) . . . إلى آخر ما وردت به الأخبار ، فلا يزال الشق متردداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته ، ولا تظن أن محل الإيمان لا يأكله التراب ، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الأجزاء المتفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان ، وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة ، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية .

(١) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب ، وتقدم في الأذكار . (٢) حديث « أنه يفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم » لم أجده له أصلاً . (٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر : تقدم في قواعد العقائد . (٤) حديث عذاب القبر : تقدم فيه : (٥) حديث المناقشة في الحساب : تقدم فيه . (٦) حديث الافتضاح على ملاء الأشهاد في القيامة : رواه أحمد والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد جيد « من اتقى من ولده ليفضحه في الدنيا فضحه الله على رهوس الأشهاد » وفي الصحيحين من حديث ابن عمر « وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رهوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على وبيهم » والطبراني والعقيلي في الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض « فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » وهو حديث طويل منكر . (٧) حديث خطر الصراط : تقدم في قواعد العقائد (٨) حديث هول الزبانية أخرجه الطبراني من حديث أسس « الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقه حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران » قال صاحب الميزان : حديث منكر . . . وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم « مضلاني خرفة جهنم ما بين منكمي أحدهم كما بين المشرق والمغرب » .

« فإن قات : فما السبب الذى يفضى إلى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها : أما الختم على الشك والجنود فينحصر سببه في شيئين :

(أحدهما) يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال : كالمبتدع الزاهد فإن عاقبته خطيرة جدا ، وإن كانت أعماله سالحة ولست أعنى مذهبا فأقول إنه بدعة ؛ فإن بيان ذلك يطول القول فيه ، بل أعنى بالبدعة : أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ما هو عليه ، إما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يغتر ، وإما أخذاً بالتقليد عن هذا حاله ؛ فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور ؛ فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقناً له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له ، إذ لم يكن عنده فرق في إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكها فيها ، فإن اتفق زهوق روجه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعباد بالله منه ، فهو لاهم المرادون بقوله تعالى ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وكما أنه ينكشف في النوم ماسيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور ، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المائلة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت ، فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتتكشف له الأمور على ما هي عليه ، فيكون مثل هذه الحال سبباً للكشف ، ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات ، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأى والمعقول ، فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكتفى لدفع هذا الخطر ، بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق ، والبله بمعزل عن هذا الخطر ، أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً بجملاً راسخاً كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله (١) ، ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور ، وأمروا الخلق أن يقتصر على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعاً وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده في التشبيه ، ومنعهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كثودة ومسالكه وعرة ، والمعقول عن ذلك جلال الله تعالى قاصرة ، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبات عليه من حب الدنيا محجوبة ، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض ، والقلوب لما اتقى إليها في مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة ، والتعصبات النائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر ، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة ، وشهوات الدنيا بمنخقتها آخذة وعن تمام الفكر صارقة ، فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والمعقول مع تفاوت الناس في قرائنهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البله » أخرجه البراء من حديث أنس ؛ وقد تقدم .

أن يدعى الكمال أو الإحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم ، وتأكد ذلك بطول الآلاف فيهم ، فأنسد بالكلية طريق الخلاص عليهم ، فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حذق طاقتهم : ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان ، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صغو الإيمان ، ويظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ويذبحى أن يفتش في هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسنْتَ ظَنكَ بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتى به القدر

وسألتك الليالى فاعتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث ، فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج ، فرجما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد ، والهلاك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم لما مع الأدلة التي حذروها في تعصباتهم أو دون الأدلة ، فإن كان شاك فيه فهو فاسد الدين وإن كان واثقا فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص ، وكل غائص في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين ، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر ، وإنما يتيسر ، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة .

(وأما السبب الثاني) فهو ضعف الإيمان في الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب . ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا ، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال يطغى ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريناً ، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك . من حيث إنه من الله ، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب ، كما أن الذي يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمراله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا ، فإن اتفق زهوق روجه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً ، والسبب الذي يفهم إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى ؛ فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى ، إذ لا يحبه إلا من عرفه ؟ ولهذا قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ فإذا نكل من فارقته روجه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهر بغض فعل الله بقلبه في تفرقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ؟ فيسكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا

لما أحبه ، فيقدم على الله قدوم العبد المبعوض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا ، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال ، وأما الذى يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا فى لقائه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام .

وأما الخاتمة الثانية التى هى دون الأولى وليست مقتضية للخلود فى النار ، فلها أيضا سيان :

(أحدهما) كثرة المعاصى وإن قوى الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصى ، وذلك لأن مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب بكثرة الإلآف والعادة . وجميع ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله ، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت ؟ فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى ، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى ، فالذى لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر ، والذى لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر ، والذى غلبت عليه المعاصى وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم فى حقه جدا ، ونعرف هذا بمثال : وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى فى منامه جملة من الأحوال التى عهدها طول عمره ، حتى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهدته فى اليقظة ، وحتى إن المراهق الذى يحتمل لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ، ولو بقى كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ، ثم لا يخفى أن الذى قضى عمره فى الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة ، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ؟ لأنه إنما يظهر فى حال النوم ما حصل له مناسبة مع القاب بطول الإلآف أو بسبب آخر من الأسباب ، والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ، ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم ، فيقتضى ذلك تذكر المؤلف وعوده إلى القاب ، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره فى القلب طول الإلآف ، فطول الإلآف بالمعاصى والطاعات أيضا مرجح ، وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق ، فتكون غلبة الإلآف سبب لأن تتمثل صورة فاحشة فى قلبه وتميل إليها نفسه ، فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها ، وكما أن ما يخطر فى اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى ، فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها ، كما أننا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشئ إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر ، وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل فى شدة التفاوت بينهما ، وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان ، وقد ينتقل الخاطر من شئ إلى شئ ولا يدرك وجه مناسبتة له ، وإنما يكون ذلك بواسطة واسطتين ، مثل أن ينتقل من شئ ثان ، ومنه إلى شئ ثالث ، ثم ينسى الثانى ، ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ، ولكن يكون بينه وبين الثانى مناسبة وبين الثانى والأول مناسبة ، فكذلك لانتقالات الخواطر فى المنامات أسباب من هذا الجنس ، وكذلك عند سكرات الموت ، فعلى هذا - والعلم عند الله - من كانت الخياطة أكثر أشغاله ، فإنك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته لينخيط بها ويبسل أصبعه التى لها عادة بالسكستبان يأخذ الإزار من فوقه ويثدده ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله ، ثم يمد يده إلى المقراض ،

ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب ، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتحلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقي عند الموت كلمتي الشهادة فيقول : خمسة ستة أربعة ، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت . وقال بعض العارفين من السلف : العرش جوهرة تتلألأ نورا ، فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها ، فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش ؛ فربما يرى نفسه على صورة معصية ، وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذ من الحياء والخوف ما يجمل عن الوصف ، وما ذكره صحيح ، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك ، فإن النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة ، فإذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله ، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولا كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير ، فهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة ، لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة ، حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمه الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المرید لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال : حكيت لشيخ أبي القاسم الكرماني مناماً لي وقلت : رأيتك قلت لي كذا ؛ فقلت : لم ذاك ؟ قال : فهجرتني شهراً ولم يكلمني وقال : لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال ؛ إذ قلنا يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه ؛ فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة ، وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وترجيح جميع العمر في طاعة الله من غير معصية ؛ فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك ، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليسكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك ، وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح ، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جداً ، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول : لئن لا أعجب من هلك كيف هلك ، ولكني أعجب من نجا كيف نجا ؛ ولذلك قال حامد اللقاف : إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا : كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا . وكان الثوري يوماً يبكي ف قيل له علام تبكي ؟ فقال : بكينا على الذنوب زماناً ، فالآن نبكي على الإسلام . وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة ، وأمواج الخواطر أعظم النظام من أمواج البحر ، وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فراق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب (١) ، ولا يتسع

(١) حديث « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة . . . الحديث » تقدم .

فراق الناقة لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر التي تضرب وتخطر خطور البرق الخاطف . وقال سهل : رأيت كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثمائة نبي فسألهم : ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا ؟ قالوا : سوء الخاتمة ولاجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها ، وكان موت الفجأة مكروها ، أما الموت فجأة فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكره أو بنور المعرفة . وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب ، إذ لا يهجم على صف القتال موطننا نفسه على الموت إلا حبا لله وطلباً لمرضاته وبائما دنياه بآخرته وراضيا بالبيع الذي بايحه الله به ، إذ قال تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب ؛ ويجزئ حب العوض المطلوب في قلبه ، ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها ، فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة ، هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة ، فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار (١) .

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها ، فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصي وجوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهديك ، فإن ذلك أيضا يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك فراقب قلبك في كل تطريفة ، وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك ، هذا مادمت في يقظتك ، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ، لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ضعيفة الأثر . واعلم قطعاً أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليه ، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم ، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك ، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة ، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه ، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه ، وتحقيق قطعاً وبقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك ، وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة ، وراقب أنفاسك ولحظاناتك ، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم ، فكيف إذا لم تفعل . والناس كلهم هلكي إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكي إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكي إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك ، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول ، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك ، فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك ،

(١) حديث « المقتول في الحرب إذا كان قصده الذل والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة » متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري « إن رجلاً قال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل البغيم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليري مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ فقال « من قاتل لتسكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وفي رواية : الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء . وفي رواية غضبا .

إذ لافرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه ، فهما ضرورتان في الجبلة ، وكلا لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك ، وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك ، فعلمة ذلك تظهر في ثلاثة أمور : من ما كورك في وقته وقدره وجنسه ، أما الوقت فأقله أن يكتفي في اليوم واللييلة بمرة واحد فيواظب على الصوم ، وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن ، وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق ، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مثونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لاتأكل إلا من حله ، فإن الحلال يعز ولا يفنى بجميع الشهوات ، وأما ما لبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة ؛ فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة يدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة ، وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك ؛ فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكنف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده . بل كنت بمن لا يملأ بطنه إلا التراب ، وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والأرض مستقرا ؛ فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد ، فإن طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك ، وعمرك هو بضاعتك ، ثم إن تيسر لك فقصدت من الحوائط سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ، ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار ، فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رقيق منها ، وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصررت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لخاتمتك ، وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمان تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أهلكك ؛ فاقبل هذه النصيحة من هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير ، فإذا دفعته يوما بيوم في تسويقك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك ، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذا لم يكن فيها وصفاء من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فإننا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك ، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك ، فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم : لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يضعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط منشيا عليه وبعضهم يختر ميتا إلى الأرض ، ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روت عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله ^(١) . وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق ^(٢) ، وقال تعالى ﴿ وختر موسى صعقا ﴾ ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل

(١) حديث عائشة : كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه ... الحديث ، متفق عليه من حديث عائشة .
(٢) حديث : قرأ في سورة الواقعة فصعق ، المعروف فيما يروى من هذه النسخة أنه قرأه عنده (أن لدينا أنسكالا وجهها وطاماما ذا غصة وهذا بابا أليما) فصعق ، كإرواه ابن عدى والبيهقي في الشعب مسرلا ، وهكذا ذكره المصنف في الصواب في كتاب السماع كما تقدم

عليه السلام بالأبطح فصعق^(١) . وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيزا كأزيز المرجل^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : ما جاءني جبريل قط إلا وهو يرعد فرقا من الجبار^(٣) ، وقيل : لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان ، فأوحى الله إليهما : مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا : يارب ، ما نأمن منك ؛ فقال الله تعالى : هكذا كوننا ، لا تأمنا منك ،

وعن محمد بن المنكدر قال : لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها ، فلما خلق بنو آدم عادت . وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل : مالي لا أرى ميكائيل يضحك ؟ ، فقال جبريل : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار^(٤) .

ويقال : إن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال ، يا ابن عمر ، مالك لا تأكل : فقلت : يا رسول الله لا أشتهي ، فقال : لكنني أشتهي وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربي لأعطاني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبثون رزق سننهم ويضعف اليقين في قلوبهم ؟ ، قال فوالله ما برحنا ولا قننا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات ، من كنز دنائير يريد بها حياة فانية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لعد^(٥) .

وقال أبو الدرداء : كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه .

وقال مجاهد : بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نهت المرعى من دمرعه وحتى غطى رأسه ، فنودي : يا داود أجامع أنت فتطعم ؟ أم ظمآن فتسقى ؟ أم عار فتكسى ؟ فنحب نحية هاج العود فاحترق من حر جوفه ، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال : يارب اجعل خطيئتي في كفى فصارت خطيئته في كفه مكتوبة ، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأمسكته ، قال : وكان يؤتى بالقدح الملاء فإذا

(١) حديث : أنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق : أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند جيد : سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل أن يراه في صورته ؟ فقال : ادع ربك ، فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير ، فلما رآه صعق . ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسل باللفظ : فنعى عليه . وفي الصحيحين عن عائشة : رأى جبريل في صورته صريحا ولما عن ابن مسعود : رأى جبريل له ستانة جناح .

(٢) حديث : كان إذا دخل في الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل . رواه أبو داود والترمذي في المعجمين ، والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير ، وتقدم في كتاب السماع . (٣) حديث : ما جاءني جبريل قط إلا وهو يرتعد فرائصه من الجبار . لم أجد هذا اللفظ . وروى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال : إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فرقا من عذاب الله ... الحديث . وفيه زميل بن سمالك الخنفي يحتاج إلى معرفته .

(٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : مالي لا أرى ميكائيل يضحك . فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار . رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد ، ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسل ، وورد ذلك أيضا في حق اسرافيل . رواه البيهقي في الشعب ، وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين . (٥) حديث ابن عمر : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل الحديث . أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر ، قال البيهقي : هذا إسناد مجهول ، والجراح بن منهال ضعيف .

تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدر من دموعه . و يروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل ، وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روجي ، سبحانك إلهي آتيت أطباء عبادك ليداروا خطيئتي فكلهم عليك يدلي ، فبؤسا للقائين من رحمتك .

وقال الفضيل : بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال : ارجعوا لا أريدكم ، إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا البكاء ، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء . وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول ، دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتغال الحشا وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال : إلهي بح صوتي في صفاء أصوات الصديقين . وروى أنه عليه السلام لما طال بكأؤه وام ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه ، فقال : يارب أما ترحم بكائي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ، نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ، فقال : إلهي وسيدى كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلم الطير على رأسي وأنست الوحوش إلى محرابي ، إلهي وسيدى فما هذه الوحشة التي بيني وبينك ، فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، يا داود آدم خلق من خلق خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري ، وشكالي الوحدة فزوجته حواء أمي وأسكنته جنتي ، عصاني فطردته عن جوارى عريانا ذليلا ، يا داود اسمع مني والحق أقول : أطعنا فأطعناك ، وسألنا فأعطيناك ، وعصيتنا فأمهلتناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك . وقال يحيى بن أبي كثير : بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء ، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية ، فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع ، فينادى فيها : ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت ، قال : فتأتى الوحوش من البراري والآكام وتأتى السباع من الغياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الآواك وتأتى العذاري من خدورهن ، وتجتمع الناس لذلك اليوم ، ويأتى داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه ، فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ، ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة ، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال : يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق ومانت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام ، فيأخذ في الدعاء ، فيينا هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل : يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك ! قال فيختر داود مغشيا عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسريره فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسريره فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يا من قتله ذكر النار ، يا من قتله خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول : يا إله داود أغضيان أنت على داود ولا يزال يناجي ربه ، فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول : يا أبتاه تقو بهذا على ماتريد ، فيأكل من

ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشي : خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم ، فخرج في أربعين ألفا فأتهم ثلاثون ألفا ومارجع إلا في عشرة آلاف ، قال : وكان له جارتان اتخذهما ، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجله مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج ، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهدهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس ، فهاله ذلك ، فرجع إلى أبيه فتر بصبيان يلعبون ، فقالوا له : يا يحيى ، هلم بنا للعب فقال : إني لم أخلق للعب ، قال : فأتى أبيه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا ، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة ، فخرج ولزم أطواد الأرض وغيوان الشعاب ، فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد ألتع رجله في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول : وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك ، فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه ، فدح بالبر ، فرده أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام يصلي بكى حتى يسكى معه الشجر والمدر ، ويسكى زكريا عليه السلام لبسكائه حتى يغمى عليه ، فلم يزل يسكى حتى خرقت دموعه لحلم خديه وبدت أضراسه للناظرين ، فقالت له أمه : يا بني لو أذنت لي أن أتخذ لك شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين فأذن لها ، فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خدي ، فكان إذا قام يصلي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فمصرتهما ، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال : اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين ، فقال له زكريا يوما . يا بني إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقر عيناى بك ، فقال يحيى ، يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بسكاء . فقال زكريا عليه السلام : يا بني فابك .

وقال المسيح عليه السلام : معاشر الحراريين ، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا . بحق أقول لكم : إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع السكالب في طلب الفردوس قليل . وقيل : كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا في ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له : ربك يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلا يخاف خليفه ؟ فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي ، فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته ، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتنى مثلك ياطر ولم أخلق بشراً .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : وددت لو أني شجرة تعضد وكذلك قال طلحة .

وقال عثمان رضي الله عنه : وددت إني إذا مت لم أبعث .

وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسيا منسيا .

وروى أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه ، فكان يعاد أياماً . وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ، ياليتني لم أك شيئاً مذكوراً ، ياليتني كنت نسيا منسيا ،

يألتنى لم تلدن أُمى . وكان في وجه عمر رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضى الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون . ولما قرأ عمر رضى الله عنه ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ وانتهى إلى قوله تعالى ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ خثر مغشياً عليه . ومر يوماً بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة (والطور) فوقف يستمع ، فلما بلغ قوله تعالى ﴿ إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع ﴾ نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زماناً ، ورجع إلى منزله ففرض شهراً يعود به الناس ولا يدرون ما مرضه .

وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم أر اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فسادوا كما يبد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ، والله فكأن بالقوم باتوا غافلين ، ثم قام ، فاروى بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم .

وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رماداً تنسفني الرياح في يوم عاصف ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : وددت أنى كبش فيذبحنى أهلى فياً كاون لحى ويحسون مرقى وكان على بن الحسين رضى الله عنه إذا توهضاً اصفرلونه ، فيقولون له أهله : ماهذا الذى يعتادك عندالوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟

وقال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى الثورى كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خونه وجزعه . وقرأ مضر القارئ يوماً ﴿ هذا كتابنا ينطق عليك بالحق . . . الآية ﴾ فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لأعصيتك جهدى أبداً ، فأعنى بتوفيقك على طاعتك .

وكان المسور بن مخزومة لا يقوى أن يسمع شيئاً من القرآن : لشدة خوفه ، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياً ما ، حتى أتى عليه رجل من خشع فقرأ عليه ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين ، أعد على القول أيها القارئ ، فأعادها عليه فشقه شقة فلحق بالآخرة .

وقرئ عند يحيى البكاء ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ فصاح صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة .

وقال مالك بن دينار : بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرة متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول : يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها ! يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار ؟ وتبكى ؛ فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك : فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى صارخاً أقول : ثكلت مالكا أمه .

وروى أن الفضيل رأى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكى بكاء الشكى المحترقة ، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : واسوأنا منك وإن غفرت ، ثم انقلب مع الناس .

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين ؟ فقال : قلوبهم بالخوف فرحة ، وأعينهم باكية ، يقولون : كيف نفرح والموت من ورائنا ، والقبر أمامنا ، والقبالة موعداً ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله ربنا موقنا .

ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكته وهو جالس مع قوم في مجلس ؛ فقال له الحسن : يا فتى ، هل مررت بالصراط ؟ قال : لا . قال : فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار ؟ قال : لا . قال فما هذا الضحك ؟ قال فما روى ذلك الفتى بعدها ضاحكا .

وكان حماد بن عبيد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه ، فيقال له : لو اطمأنت ؟ فيقول : تلك جلسة الآمن ، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يتوتوا من خشية الله تعالى . وقال مالك بن دينار : لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبد الأبق إلى سيده .

وقال حاتم الأصم : لا تغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة وقد اتى آدم عليه السلام فيها مالتى : ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده اتى مالتى ١ ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فأنظر ماذا اتى ١ ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلفظه أقاربه وأعداؤه ١

وقال السري : إني لأنظر إلى أننى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهى . وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسى أن الله ينظر إلى نظار السخط وأعمالى تدل على ذلك .

وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال : إني اجترأت البارحة على الله سأله الجنة .

وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها : يا بنى إني أعرفك صغيرا طيبا وكبيراً طيباً ، وكانك أحدثت حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليالك ونهارك ١ فقال : يا أماء ، ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى فمقتنى وقال : وعزنى وجلالى لا غفرت لك

وقال الفضيل : إني لا أغبط نبيا مرسلًا ولا ملكا مقربا ولا عبداً صالحاً ، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة ، إنما أغبط من لم يخلق .

وروى : أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار ، فكان يبكى حتى حبسه ذلك في البيت ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه نظر ميتاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فتت كبده (١) ،

وروى عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول : ياليت أمتى لم تلدننى ، فقالت له أمه : يا ميسرة ، إن الله تعالى قد أحسن إليك : هداك إلى الإسلام ، قال : أجل ولكن الله قد بين لنا أنا واردو النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها ،

وقيل لفرقد السبخى : أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بنى إسرائيل ١ فقال : بلغنى أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح ، فتذاكرن ثواب الله وعقابه فتمن جميعاً في يوم واحد .

وكان عطاء السلمي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو . وقيل له في مرضه : ألا تشتهى شيئاً ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع فى قلبي موضعاً للشهوة : لأنه مارتفع رأسه إلى السماء ولا ضحك

(١) حديث : أن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة ، والبيهقى في الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر .
(٢٤ - لحياء علوم الدين - ٤)

أربعين سنة . وأنه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق ، وكان يمس جسده في بعض الليلة خفاة أن يكون قد مسخ . وكان إذا أصابهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال : هذا من أجل يصيبهم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وقال عطاء : خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصاون صلاة الفجر بطهور العشاء قد توزمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رموسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الّا وتار ، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين ، فينهم يمشون إذ مزأحد بمكان نخز مغشيا عليه ، لجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا ، لجاءوا بماء فسحوا وجهه فأفاق وسأله عن أمره ؟ فقال : إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان .

وقال صالح المري : قرأت على رجل من المتعبدين ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ فصعق ثم أفاق فقال : زدني يا صالح فإني أجد غما ، فقرأت ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ فخر ميتا .

وروى أن زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ ﴿ فاذا نقر في الناقور ﴾ خز مغشيا عليه ، لحمل ميتا . ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال : عظمي يا يزيد : فقال يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لست أول خليفة يموت ، فبكى ثم قال : زدني ، قال : يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت ، فبكى ثم قال : زدني يا يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل ، نخز مغشيا عليه .

وقال ميمون بن مهران : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدر أن عليه (١) .

ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول : يا ابنه ، ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا ؟ فصعق داود وسقط مكانه .

وقيل : مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذى فقال : هذا رجل قطع الخوف كبده ، ثم جاء وجس عروقه ثم قال : ما علمت أن في الملة الخنيفية مثله .

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله عليه : سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ، ففتح فخفت على عقلي ؛ فقلت : يارب على قدر ما أطيق ، فسكن قلبي .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ابكوا فإن لم تبكوا فتبا كرا ، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه ، وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (٢) .

وقال العنبري : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته ترجف ، فقال : عليكم بالقرآن ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ! ليس هذا زمان حديث ، إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الفريق ، إنما هذا زمان : احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر .

(١) حديث ميمون بن مهران : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ صاح سلمان الفارسي : لم أنف له على أصل (٢) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » تقدم في قواعد المفائد .

وروى الفضيل يوماً وهو يمشي ، فقيل له : إلى أين ؟ قال : لا أدري ، وكان يمشي والهيام من الخوف .
وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبيكي أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ، فقال : يا بني ليست النائحة الثكلى كالنايحة المستأجرة .
وحكى أن قوما وقفوا بعباد وهو يبكي فقالوا : ما الذي يبكيك يرحمك الله ؟ قال : فرحة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا : وما هي ؟ قال : روعة النداء بالعرض على الله عز وجل .

وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته : قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتقني .
وقال صالح المري : قدم علينا ابن السماك مرة فقال : أرني شيئاً من بعض عجائب عبادكم ، فذهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يعمل خوصاً ، فقرأت عليه (إذا الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الجحيم ثم في النار يسجرون) فشقق الرجل شهقة وختر مغشياً عليه ، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله ، وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشقق شهقة وختر مغشياً عليه ، فذهبنا واستأذنا على ثالث ، فقال : ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا ، فقرأت (ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) فشقق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط في دمه حتى يبس ، فتركناه على حاله وخرجنا فأدبرته على ستة أنفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشياً عليه : ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا . فإذا امرأة من داخل الخوص تقول : ادخلوا ، فدخلنا فإذا شيخ فأن جالس في منسلاه ، فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا ، فقلت بصوت عال : ألا إن للخلق غدا مقاما ، فقال الشيخ : بين يدي من ويحك ! ثم بقي مبهوتا فأتى فاه شاخصاً بصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت ، فقالت امرأته : اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة ، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم ؟ فإذا ثلاثة قد أفاقوا ، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى . وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيراً لا يؤدي فرضاً فلما كان بعد ثلاث عقل .

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال ، وكان قد حلف أن لا يضحك أبداً ولا ينام مضطجعا ولا يأكل سمناً أبداً ، فما رأى ضاحكاً ولا مضطجعا ولا أكل سمناً حتى مات رحمه الله .

وقال الحجاج لسعيد بن جبير : بلغني أنك لم تضحك قط ؟ فقال : كيف أضحك وجههم قد سمرت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعتدت .

وقال رجل للحسن : يا أبا سعيد كيف أصبحت ؟ قال : بخير ، قال : كيف حالك ؟ فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالي ؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة ؟ على أي حال يكون ؟ قال الرجل : على حال شديدة . قال الحسن : حالي أشد من حالهم .

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناهما : فرقدت فاستبكت في منامها ، ثم انتبهت فقالت : يا أمير المؤمنين ، إني والله رأيت عجبا ، قال ، وما ذلك ؟ قالت : رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جرى بالصراط ووضع على منها ، فقال : هيه ، قالت : فجاء بعدد الملك بن مروان لحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط ، فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه ، قالت : ثم جرى بالوليد بن عبد الملك لحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم ، فقال عمر : هيه قالت : ثم جرى بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك ، فقال عمر : هيه قالت : ثم جرى بك والله يا أمير المؤمنين : فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة ختر مغشياً عليه ،

فقامت إليه فجعلت تنادى في أذنه : يا أمير المؤمنين ، إني رأيتك والله قد نجوت ، إني رأيتك والله قد نجوت ، قال : وهي تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه . ويحكى أن أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه ، فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون .

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه .

وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقل كما تتقل الحبة في المقل ، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول : طير ذكر جهنم نوم الخائفين .

وقال الحسن البصري رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، ياليتني كنت ذلك الرجل ، وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ما ضحك أربعين سنة ؛ قال : وكنت إذا رأيت قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه ، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها ، فإذا سكنت كأن النار تسعربين عيذه . وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال : ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في علي بعض ما يكره ففتنتي فقال : اذهب فلا غفرت لك ؛ فأنا أعمل في غير معتمل .

وعن ابن السماك قال : وعظت يوما في مجلس ، فقام شاب من القوم فقال : يا أبا العباس ، لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لا نسمع غيرها . قلت : وما هي رحمتك الله ؟ قال قولاك : لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود إما في الجنة أو في النار . ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أراه ، فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد ، فأتيته أعوده فقلت : يا أخى ما الذى أرى بك ؟ فقال : يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود إما في الجنة أو في النار . قال : ثم مات رحمه الله فرأيت في المنام فقلت : يا أخى ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة . قلت بماذا ؟ قال بالكلمة .

فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكال المعرفة ، وإلا فليس أمننا لقلّة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا ، بل قادتنا شهواتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ، فلا قرب الرحيل يذهبنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ، ولا خطر الخاتمة يرعبنا ؛ فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضلته وجوده أحوالنا فيصلحنا ، إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا .

ومن العجائب أما إذا أردنا المال في الدنيا زرنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبرارى وخطرنا . وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وشهرنا ، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نثق بضمائم الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول : اللهم ارزقنا ، ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم فنحن بأن نقول بالسنتنا : اللهم اغفر لنا وارحمنا ، والذي إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول ﴿ وإن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ ولا يفرنكم بالله الغرور ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ثم كل ذلك لا يذهبنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا ، فما هذه إلا عنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويحيرنا ، فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا ، بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا ، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل ، إذا سمعنا الوعظ بكينا ، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا ؛ علامة للخذلان أعظم من هذا ؛ فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله .

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فإن القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغنى . ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني - وكان من خيار العباد - أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقأ دمعته من كثرة البكاء ، فقال عيسى : لما رأيته هالتي منظره ، فقلت : أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك ، فقال : يا أخى بماذا أوصيك ، إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فتفتريسه السباع أو يسهو فتتهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل ، فهو في المخالفة ليله وإن أمن المغترون ، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون . ثم ولي وتركني فقلت : لو زدتنى شيئا عسى أن ينفعني ؟ فقال الظمآن يحزبه من الماء أيسره ، وقد صدق فإن القلب الصافي يحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبؤ عنه كل المواعظ ، وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق ؛ فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها ، وهي التي لا تزال تفتريسك وتهشك إن غفلت عنها لحظة ، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها ؛ فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانها ، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أهدقت بك في قبرك وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها ، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل ، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك ، والسلام .

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتذكرك من هيئته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدق والآصال ، ثم كحل بصيرة الخالص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضائته - حضرة الجلال ، فلاح له من الهيبة والبهاء والكمال ، ما استقبح دون مبادئ إشرافه كل حسن وجمال ، واستقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستئصال ، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميمس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الحزى وضربت في قالب النكال ، وهي متلففة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حباثلها في مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاعتيال ، ثم لا يتجزئ معهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال ، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

(أما بعد) فإن الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل ، وبكرها زل من زل ، لخبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأس القربات . وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربح المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات ، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزواتها عن العبد ويسمى ذلك فقرا ، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة . ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ، ونبدأ بذكر الفقر فنقول :

الشرط الأول من الكتاب في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر ، وبيان فضيلة الفقر مطلقا ، وبيان خصوص فضيلة الفقراء ، وبيان فضيلة الفقير على الغنى ، وبيان أدب الفقير في فقره ، وبيان أدبه في قبوله العطاء ، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين ، والله الموفق بلطفه وكرمه .

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميهِ

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه ، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا ، وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا ، وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثانی الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وجوده ؛ فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغنى المطلق ، ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا ، فليس في الوجود إلا غنى واحد ، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدوا وجودهم بالدوام ، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى ﴿ والله الغنى وأتم الفقراء ﴾ هذا معنى الفقر مطلقا ، ولكننا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص ، وإلا فقير العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر ، لأن حاجاته لا حصر لها . ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط ، فنقول : كل فاقد للمال فإننا نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه في حقه ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر . ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها :

(الحالة الأولى) وهي العليا : أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحتزا من شره وشغله وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد .

(الثانية) أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا .

(الثالثة) أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا ، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة .

(الرابعة) أن يكون تركه الطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص .

(الخامسة) أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية ، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال : أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتى بيانه ، ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عنده وجود المال وفقده ؛ فإن وجدته لم يفرح به ولم يتأذى ، وإن فقده فكذلك ، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذ أتتها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفترقتها من يومها فقالت خادماتها : ما استطعت فيما فترقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه ، فقالت : لو ذكرتيني لفعلت ، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بخذا في يده وخزائنه لم تضره ، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يده نفسه ، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره ، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى ، لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعا ، وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد ، فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده ، وإنما هو غنى عن دخول المال في يده لاعتنا بقاءه ، فهو إذن فقير من وجه ، وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضا ، فإنه ليس يتأذى به ليجتاح إلى إخراجه ، وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءه . وليس فاقدًا له ليجتاح إلى الدخول في يده ، فغنائه إلى العموم أميل ، فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب ، وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ، ولكننا لانسمى صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ، ليبقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شيء . وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجودا أو عدما فلم يستغن عن أشياء آخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه ، فإن القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر ، والله تعالى هو الذي أعنته من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق ، والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة ، لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فلذلك لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا .

واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقربين ، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانا ، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهذا لأن الكاره للعالم مشغول بالدنيا ، كما أن الراغب فيها مشغول بها ، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى ، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا ، فإنه أقرب إليك من جبل الوريد ، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجابا بينك وبينه ، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره ، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره ، وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهووات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه ، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى ، والمشغول ببنفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله ، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق ، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه ، فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر ، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا ، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان

في حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحب في حالة واحدة ؛ فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها ، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب ، إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبدل بالشهود ؛ فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ، ولكن أحدهما مستقبل السكبة والآخر مستدير لها فهما ، سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن السكبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدير إذ يرجى له الوصول إليها ، وليس محمودا بالإضافة إلى المعتكف في السكبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يقتدر على الاشتغال بالدابة في الوصول إليها ، فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه ، بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا يدفع العائق ، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة ، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة ؛ فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج ، فإذا ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص ، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى ، بل الكمال في حق المال أن يستوى عندك المال والماء ، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ، ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة ، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير ، بل تقول : أشرب منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد ، فهكذا ينبغي أن يكون المال ؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة ، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر ، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم : علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء ، على ماسياتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

قال أحمد بن أبي الخوارى : قلت لأبي سليمان الداراني : قال مالك بن دينار للمغيرة : اذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها ، قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية : قدزاده في الدنيا ما غلبه من أخذها ، فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان .

فإن قلت : فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل انفار ؟ فأقول : كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففتروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يدبرونه مع أنفسهم ، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للحتاجين إليه ، لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها ^(١) ، إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر ، وما نقل عنهم من امتناع فيما أن ينقل عن خوف

(١) حديث : إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف ، وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقا مجزوما به من حديث أسى : أن النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أنى به ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء مجلس إليه ، فلما كان يرى أحدا لا أعطاء . ووصله عمر بن محمد البخيري في صحيحه من هذا الوجه . وفي الصحيحين من حديث عمرو ابن هوف : قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار يقدمونه ... الحديث ، ولها من حديث جابر : لوجاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا ، فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر أبو بكر مناديا فنادى : من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فليأتنا ، فقلت : إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدني ، فأتانا ثلاثا .

أن لو أخذه أن يخذله المال ويقيده قلبه فيدعوه إلى الشهوات ، وهذا حال الضعفاء ، فلا جرم البغض للمال والحرب منه في حقهم كمال ؛ وهذا حكم جميع الخلق ، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ، وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك ؛ إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا ، كما يفتر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعله أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون ، والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء ، فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص . وأما المضطر فيتنصو في حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجه تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال ، واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة . أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى ؛ بل إن سمي فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغناؤه عن المال خاصة ، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها ؛ فإنه أحق باسم العبد من الغافلين . وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير ، فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين ، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من الفقر ^(١) » وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا ^(٢) » ، لا ينافض قوله « أحيى مسكينا وأمتى مسكينا ^(٣) » ، إذ فقر المضطر هو الذى استعاض منه ، والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

بيان فضيلة الفقر مطلقا

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض ﴾ ساق الكلام في معرض المدح ، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالمهجرة والإحصار ، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر . وأما الأخبار في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى : روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أى الناس خير ؟ » فقالوا : موسى من المال يعطى حق الله من نفسه وماله . فقال « نعم الرجل هذا وليس به » قالوا : فن خير الناس يا رسول الله ؟ قال « فقير يعطى جهده ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لبلال القى الله فقيرا ولا تلقه غنيا ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ^(٦) » ، وفي الخبر المشهور « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام ^(٧) » ، وفي حديث آخر

(١) حديث « أعوذ بك من الفقر » تقدم في الأذكار والدعوات .

(٢) حديث « كاد الفقر أن يسكون كفرا » تقدم في ذم المسد . (٣) حديث « اللهم أحيى مسكينا وأمتى مسكينا » رواه الترمذى من حديث أنس وحسنه ، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم . (٤) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « أى الناس خير ؟ » فقالوا : موسى من المال يعطى حق الله من نفسه وماله . فقال : « نعم الرجل هذا وليس به » قالوا : فن خير الناس ؟ قال : « فقير يعطى جهده » أخرجه أبو منصور الديلى في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له . (٥) حديث : قال لبلال « القى الله فقيرا ولا تلقه غنيا » أخرجه الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال . ورواه الطبرانى من حديث أبي سعيد بلفظ « مت فقيرا ولا تمت غنيا » وكلاهما ضعيف .

(٦) حديث « إن يحب الفقير المتعفف أبا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين ، وقد تقدم .

(٧) حديث « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال : حسن صحيح

وقد تقدم ،

« بأربعين خريفاً »^(١) ، أى أربعين سنة ، فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغنى الحريص ، والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغنى الراغب ، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعترفك بالضرورة تفاوتاً بين الفقراء في درجاتهم ، وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقر الزاهد ، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة ، ولا تظن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافاً وبالتفاق ، بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »^(٢) ، فإنه تقدير تحقيق لا محالة ، لكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين ، فأما بالتحقيق فلا ، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره ، وهو يختص بأنواع من الخواص : أحدها أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة ، لا كما يعلمه غيره بل بخلافه بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف . والثاني : أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى . والثالث : أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات . والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب ، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها الأنبياء وبهم انقسام كل واحد منها إلى أقسام ، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين ، ويمكننا أيضاً أن نتكاف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءاً واحداً من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقاً أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ، وإنما المعلوم بجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها ، وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير ، فسلك ذلك لعدم أن الفقراء لهم درجات كما سبق ، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلاً على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به ، والغرض التنبيه على مناهج التقدير في أمثال هذه الأمور ، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق ، وحاشا منصب النبوة عن ذلك وانرجع إلى نقل الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضاً « خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تضجيماً في الجنة ضعفائوها »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضني : الفقر والجهد »^(٤) ، وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد . إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول . أنحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً^(٥) ،

(١) حديث دخولهم قبلهم أربعين خريفاً : أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ، إلا أنه قال : فقراء المهاجرين ، والترمذي من حديث جابر والس . (٢) حديث « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد ، ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبد بن الصامت وأنس بن مالك . رؤيا المؤمن جزء ... الحديث « وقد تقدم . (٣) حديث « خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجيماً في الجنة ضعفائوها » لم أجده أصلاً . (٤) حديث أن لي حرفتين اثنتين .. الحديث « وفيه » الفقر والجهد » لم أجده أصلاً . (٥) حديث : أن جبريل نزل فقال : إن الله يقرأ عليك السلام ويقول : أنحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً ... الحديث « هذا ملحق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة « عرض على ربي ليجعل لي ببلحاء مكة ذهباً ، قلت : لا بارب ، واسكن أشبع يوماً وأجوع يوماً » الحديث وقال . حسن ولاحمد من حديث عائشة « الدنيا دار من لادار له ... الحديث » وقد تقدم في ذم الدنيا .

وتكون معك أينما كنت ، فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا جبريل ، إن الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لا عقل له ، فقال له جبريل : يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة ، فأيقظه وقال : يا نائم قم فاذكر الله تعالى ، فقال ما تريد مني ؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها ، فقال له فم إذن يا حيي .
ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متور بعباءة ، فقال : يارب عبدك هذا في الدنيا ضائع ، فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها .

وعن أبي رافع أنه قال : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال : قل له يقول لك محمد أسلفني أو بعني دقيقا إلى هلال رجب ، قال فأتيته فقال : لا والله إلا برهن ، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : أما والله إني لأمين في أهل السماء أمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأديت إليه ، اذهب بدرعي هذا إليه فارهنه ، فلما خرجت نزلت هذه الآية ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾^(١) الآية ، وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم : الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من أصبح منكم معافى في جسده آمنا في سربه عنده قوت يومه ؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها^(٣) ، وقال كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين .

وقال عطاء الخراساني : مر نبي من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتانا ، فقال : بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ، ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك ، فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما ، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال : رضيت يارب .
وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء ، وفي لفظ آخر : فقلت أين الأغنياء ؟ حبسهم الجدة ، وفي حديث آخر : فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ما شأنهن ؟ فقيل شغلن الأحران الذهب والزعفران^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : تحفة المؤمن في الدنيا الفقر^(٥) ، وفي الخبر : آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه^(٦) ، وفي حديث آخر : رأيت يدخل الجنة زحفا^(٧) .

(١) حديث أبي رافع : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر ... الحديث في نزول قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾ أخرجه الطبراني بسند ضعيف .
(٢) حديث : الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس . رواه الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، رواه ابن عدي في الكامل هكذا (٣) حديث : من أصبح منكم معافى في جسده ... الحديث أخرجه الترمذي وقد تقدم (٤) حديث : اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء ... الحديث تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره . (٥) حديث : تحفة المؤمن في الدنيا الفقر ، رواه محمد بن خفيف الهبراني في شرف الفقر ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ، ورواه أبو منصور أيضا في حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا . (٦) حديث : آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان . الحديث ، وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد ، وفيه نسكارة . (٧) حديث : رأيت عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا وهو ضيف .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة .
وفي خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإذا أحبه
الحب البالغ اقتناه . قيل : وما اقتناه ؟ قال : لم يترك له أهلا ولا مالا (١) » .
وفي الخبر : « إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب
عجلت عقوبته (٢) » .

وقال موسى عليه السلام : يارب من أحبائك من خلقتك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال : كل فقير فقير ، فيمكن
أن يكون الثانى للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر .

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه : إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء ، وكان أحب الأسامي إليه
صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين . ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا
يوما ولهم يوما يحميئون إليك ولا نجيء ، ونجيء إليك ولا يحميئون ، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب
وأبي ذر وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب العسفة من الفقراء رضى الله عنهم أجمعين أجابهم
النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحتهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة
الحر ، فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم ، فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأفرع بن حابس التميمي وعيينة بن
حصن الفراري وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم ، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وليام
مجلس واحد ؛ فنزل عليه قوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد
عينك عنهم ﴾ يعنى الفقراء ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ يعنى الأغنياء ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾
يعنى الأغنياء إلى قوله تعالى ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (٣) الآية .

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبي
صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدرىك لعله يركى أو يذكر فتفتحه
الذكرى ﴾ يعنى ابن مكتوم ﴿ أما من استغنى فانت له تصدى ﴾ (٤) يعنى هذا الشريف .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل
فى الدنيا ، فيقول : وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك لموانك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة
والفضيلة ، اخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف ، فمن أطعمك فى أو كسأك فى يريد بذلك وجهى نأخذ بيده فهو لك ،
والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة (٥) » .

(١) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه .. الحديث » أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني .

(٢) حديث « إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته » أخرجه
أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام . ياموسى .. » فذكره بزيادة فى أوله . ورواه أبو نعيم فى الحلية من قول كعب الأحبار
غير مرفوع بإسناد ضعيف .

(٣) حديث : قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم . اجعل لنا يوما ولهم يوما .. الحديث فى نزول قوله تعالى
﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم .. ﴾ الآية ، تقدم من حديث خباب ، وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم
إذا عرقوا ، وهذه الزيادة من حديث سلمان . (٤) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل
من أشراف قريش ونزول قوله تعالى ﴿ عبس وتولى ﴾ أخرجه الترمذى من حديث عائشة وقال قريب قلت : ورجاله رجال الصبيح
(٥) حديث « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل فى الدنيا ، فيقول وعزتى وجلالى ما زويت =

وقال عليه السلام : أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة ، قالوا : يا رسول الله ، وما دولتهم ؟ قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : دخلت الجنة فسمعت حركة أمانى فنظرت فإذا بلال ، ونظرت في أعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم ، ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل ؛ فقلت يا رب ما شأنهم ؟ قال : أما النساء فأضربهن الأحمران الذهب والحريز ، وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب ، وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ، ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي ، فقلت : ما خلفك عني ؟ قال : يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أني لا أراك ، فقلت : ولم ؟ قال : كنت أحاسب بمالي ^(٢) ، فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة ^(٣) ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا من قال بالمال هكذا وهكذا ^(٤) ، ومع هذا فقد استضر بالفتى إلى هذا الحد .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال : لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم ^(٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ^(٦) .

وقال عمران بن حصين : كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء ، فقال : يا عمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها ، فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة ، فقرع الباب وقال : السلام عليكم ، أدخل ؟ ، فقالت : ادخل يا رسول الله . قال : أنا ومن معي ؟ ، قالت : ومن معك يا رسول الله ؟ قال : عمران ، فقالت فاطمة : والذي بعثك بالحق نبيا ما على إلا عبادة . قال : اصنعي بها هكذا وهكذا ، وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي ؟ فالتقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال : شدي على رأسك ، ثم أذنت له فدخل فقال

عنك الدنيا لموانك على الحديث أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف « يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا مني أحبائي » فتقول الملائكة : ومن أحبائك ؟ فيقول : فقراء المسلمين ، فيدنون منه فيقول : أما لاني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولست أردت بذلك أن أضف لكم كرامتي اليوم ، فتعدوا على ما شئتم اليوم . . . الحديث دون آخر الحديث ، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية ، وسيأتي في الحديث الذي بعده .

(١) حديث « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة . . . الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف « اتخذوا عند الفقراء أيادي ، فإن لهم دولة يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : سيروا إلى الفقراء ، فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه في الدنيا .

(٢) حديث « دخلت الجنة فسمعت حركة أمانى ، فنظرت فإذا بلال ، ونظرت إلى أعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم . . . الحديث » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه ، وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر .

(٣) حديث : إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد ، قال الترمذي : حسن صحيح . (٤) حديث « لا من قال بالمال هكذا وهكذا » متفق عليه من حديث أبي ذر

في أثناء حديث تقدم . (٥) حديث : دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال « لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم »

لم أجده . (٦) حديث « ألا أخبركم عن ملوك الجنة . . . الحديث » متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقل « ملوك » وقد تقدم ، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ « ألا أخبركم عن ملوك الجنة . . . الحديث » دون قوله

« أغبر أشعث » .

و السلام عليكم يا ابتاه ، كيف أصبحت ؟ ، قالت : أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بي أنى لست أقدر على طعام آكله فقد أضربني الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لا تجزعى يا ابتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لا أكرم على الله منك ، ولو سألت ربى لأطعمنى ولبكى آثرت الآخرة على الدنيا ، ثم ضرب يده على منكبها وقال لها : أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة ، قالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ؟ قال : آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنك فى بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ، ثم قال لها : اقنعى بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة (١) .

وروى عن على كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتسكالبوا على جمع الدراهم وماهم الله بأربع خصال : بالقحط من الزمان ، والجور من السلطان ، والخيانة من ولاية الأحكام ، والشوكة من الأعداء (٢) .

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه : ذو الدرهمين أشد حبسا أو قال أشد حسبا من ذى الدرهم . وأرسل عمر رضى الله عنه إلى سعيد بن عاصر بألف دينار ، فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته : أحدث أسر ؟ قال : أشد من ذلك ، ثم قال : أربنى درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ، ثم قام يصلى ويبكى إلى الغداة ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل فى غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج (٣) .

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ، ورجل دعا بشرا به فلا يقال له أيها تريد .

وقيل : جاء فقير إلى مجلس الثورى رحمه الله فقال له : تحظ ، لو كنت غنيا لما قربتك ، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء . وقال المؤمل : ما رأيت الغنى أذل منه فى مجلس الثورى ، ولا رأيت الفقير أعز منه فى مجلس الثورى رحمه الله .

وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ، ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعا ، ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا . وقال ابن عباس : ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر .

وقال يحيى بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك بجالستهم من علامة الصالحين ، وفرارك من صحتهم من علامة المنافقين .

وفى الأخبار عن الكتب السالفة : أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام . احذر أن أمقتك فتسقط

(١) حديث عمران بن حصين . كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء ، فقال : يا عمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها ، فهل لك فى عبادة فاطمة ؟ الحديث . تقدم (٢) حديث : إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا . . . الحديث . أخرجه أبو منصور الدبلى بإسناد فيه جهالة ، وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عامر : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام . . . الحديث . وفى أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقا ، وقد روى أحمد فى الزهد القصة إلا أنه قال : سمعنا عاما . وفى إسناد يزيد بن أبي زياد تسكلم فيه ، وفى رواية له : بأربعين سنة . وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذى من حديث أبي هريرة وصححه ، وقد تقدم .

من عيني فأصب الدنيا عليك صبا .

وانقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائه ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية : لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه ، وكانت صائمة ، فقالت : لو ذكرتيني لفعلت ، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تنزعى درعك حتى ترقيه (١) .

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم ، فأبى عليه أن يقبلها ، فألح عليه الرجل ، فقال له إبراهيم : أتريد أن أحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لأفعل ذلك أبدا - رضى الله عنه .

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقائمين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا (٣) ، فالأول القانع وهذا الراضى ، ويكاد يشعر هذا بمفهومه : أن الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه ، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه ، ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله ، فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم ، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة (٤) .

وروى عن علي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى (٥) . وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا (٦) ، وقال : ما من أحد غنى ولا فقر إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا (٧) ، وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام : اطلبني عند المنكسرة قلوبهم . قال : ومن هم ؟ قال : الفقراء الصادقون . وقال صلى الله عليه وسلم : لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا (٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى يوم القيامة : أين صفوتي من خلقي ؟ فتقول الملائكة : ومن هم ياربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدرى ،

(١) حديث : قال عائشة : إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء ، وإياك ومجالسة الأغنياء ... الحديث ، أخرجه الترمذى وقال غريب ، والحاكم وصححه نحوه من حديثها ، وقد تقدم .

(٢) حديث : طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به ، رواه مسلم ، وقد تقدم .

(٣) حديث : يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم .. الحديث ، رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة ، وهو ضعيف جدا ، فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى متهم بالكذب ووضع الحديث .

(٤) حديث : إن لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين .. الحديث ، رواه الدارقطنى في غرائب مالك ، وأبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق ، وابن عدى في الكامل ، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر .

(٥) حديث : أحب السباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى عن الله ، لم أجده بهذا اللفظ ، وتقدم عند ابن ماجه حديث

« إن الله يحب الفقير المتعفف » (٦) حديث : « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وهو

متفق عليه باللفظ « قوتا » وقد تقدم (٧) حديث : « ما من أحد غنى ولا فقر إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس ، وقد تقدم (٨) حديث : « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا » لم أجده بهذا اللفظ

أدخلوهم الجنة . فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون (١) ، فهذا في القانع والراضى . وأما الزاهد فسندكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى .

وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة ، ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع . وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه : إن الطمع فقر والياس غنى ، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم .

وقال أبو مسعود رضى الله تعالى عنه : مامن يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش : يا ابن آدم ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك .

وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : مامن أحد إلا وفي عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص .

وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك .

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان ؛ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله ، فلما أكل نام ، فقال لبعض غلمانه : إذا قام فجئني به ، فلما قام جاء به إليه ، فقال إبراهيم : أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال نعم . قال فشبع ؟ قال نعم ، قال ثم تمت طيبا ؟ قال نعم . فقال إبراهيم في نفسه ، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر .

ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا ، فقال له : يا عبد الله أترضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال : ألا أدلك على من رضى بشر من هذا ؟ قال : بلى . قال من رضى بالدنيا عوضا عن الآخرة .

وكان محمد بن واسع رحمه الله عليه يخرج خبزا يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول : من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد .

وقال الحسن رحمه الله : لعن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ، ثم قرأ ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ، ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

وكان أبو ذر رضى الله عنه يوماً جالساً في الناس فأتته امرأته فقالت له : اتجلس بين هؤلاء ؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة ، فقال : يا هذه ، إن بين أيدينا عقبة كثودا لا ينجو منها إلا كل مخف ، فرجعت وهي راضية .

وقال ذو النون رحمه الله : أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له .

وقيل لبعض الحكماء : ما مالك ؟ فقال : التجميل في الظاهر والقصد في الباطن والياس بما في أيدي الناس .

وروى أن الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة : يا ابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك .

وقد قيل في القناعة :

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس واقنع بياس فإن العز في الياس

واستغن عن كل ذي قربى وذى رحم إن الغنى من استغنى عن الناس

(١) حديث « يقول الله يوم القيامة : أين صفوتي من خاني ؟ فيقول الملائكة : ومن هم ياربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

وقد قيل في هذا المعنى أيضا :

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه	مقدرا أى باب منه يغلقه
مفكرا كيف تأتبه منيته	أغاديا أم بها يسرى فتطرقة
جمعت مالا ثقل لي هل جمعت له	يا جامع المال أيا ما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه	ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة	أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدلسه	والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها	لم يبق في ظلها هم يورقه

بيان فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا ، فذهب الجنييد والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر وقال ابن عطاء .
الغنى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر . ويقال إن الجنييد دعا علي بن عطاء لمخالفته إياه في هذا فأصابته محنة ،
وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر — ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال
والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل .

فأما الفقر والغنى إذا أخذنا مطلقا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ، ولا بد فيه من تفصيل
فنتول إنمّا يتصور الشك في مقامين (أحدهما) فقير صابر ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض
بالإضافة إلى غنى منفق ماله في الخيرات ليس حريصا على إمساك المال (والثاني) فقير حريص مع غنى حريص ،
إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص 'الممسك' ، وأن الغنى المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير
الحريص ، أما الأول فربما يظن أن الغنى أفضل من الفقير ، لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال ، والغنى
متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه ، وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ، فأما الغنى المتمتع بالمال
وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع ، وقد يشهد له ما روى في الخبر : أن الفقراء شكوا إلى
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد ، فعلمهم كلمات في التسبيح ،
وذكر لهم أنهم يتألون بها فوق ما ناله الأغنياء ، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال عليه السلام « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (١) .

وقد استشهد ابن عطاء أيضا لما سئل عن ذلك فقال : الغنى أفضل لأنه وصف الحق ، أما دليله الأول ففيه
نظر ؛ لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك : وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب
الغنى ، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه
قال : بعث الفقراء رسولا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى رسول الفقراء إليك ؛ فقال « مرحبا بك
وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم » قال : قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه ،
ويعتمرون ولا نقدر عليه ، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « بلغ عنى

(١) حديث . شكى الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات . . الحديث ، وفي آخر :
فقال « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » متفق عليه من حديث أبى هريرة نحوه .

الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء : أما خصلة واحدة : فإن في الجنة غرضا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء ، لا يدخلها إلا نبي فقير ، أو شهيد فقير ، أو مؤمن فقير ، والثانية : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة : إذا قال الغنى : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أفتق فيها عشرة آلاف درهم ، وكذلك أعمال البر كلها ، فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : رضينا رضينا ^(١) فهذا يدل على أن قوله « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » أى مزيد ثواب الفقراء على ذكركم . وأما قوله : إن الغنى وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال : أترى أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض ، فانقطع ولم ينطق ، وأجاب آخرون فقالوا : إن التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ، ثم قالوا : بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء ، وصفات الربوبية لا ينبغى أن ينافى فيها ، ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري » فمن نازعني واحدا منهما قصمته ^(٢) . وقال سهل : حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى ؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر ، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناسقتها ، إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر ، فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والغفلة وصف العبد ، وليس لاحد أن يفضل الغفلة على العلم ، فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر : وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغى أن يضاب إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله ، والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عاتقة عن الوصول إلى الله تعالى ، ولا الفقر مطلوب لعينه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه ، وكمن غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهما ، وكمن فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد ، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والانس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن ، والفقر قد يكون من الشواغل كما الغنى قد يكون من الشواغل ، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب ، والمحجب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله ، وربما يكون شغله في الفراق أكثر ، وربما يكثر شغله في الوصال أكثر ، والدنيا معشوقة الغافلين ، المحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها ؛ فإذا إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد ، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقد ، إذ الجائع يسلك سبيل الممرت لاسبيل المعرفة . وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد ؛ إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا يقدر ، ولذلك قال الصحابة رضى الله تعالى عنهم : بلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذى لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا .

(١) حديث زيد بن أسلم عن أنس : بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا : إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا يقدر عليه . . . الحديث ، وفيه « بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء . . . الحديث » لم أجده هكذا بهذا السياق ، والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر : اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم ، فقال « يا معشر الفقراء ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام » وإسناده ضعيف . (٢) حديث « قال الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري » تقدم في العلم وغيره .

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر - والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر - زجر الشرع عن الغنى وذمه ، وفضل الفقر ومدحه ، حتى قال المسيح عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم .

وقال بعض العلماء : تقليب الأموال يمهض حلاوة الإيمان .

وفي الخبر « إن لكل أمة عجلا وعجلا هذه الأمة الدينار والدرهم »^(١) ، وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا ، واستواء المال والماء ، والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء ؛ ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة ، إن كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول للدنيا « إليك غنى »^(٢) ، إذ كانت تتمثل له بزينتها . وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غري غري ، ويا بيضاء غري غري ، وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه ، وذلك هو الغنى المطلق ، إذ قال عليه الصلاة والسلام « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس »^(٣) ، وإذا كان ذلك بعيدا فإذن الأصاح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات ، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها ، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم ، وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ؟ وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها ، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لأمالة إلى الله ، إذ لا يتصور قلب فارغ ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره ، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر ، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان ، فالتردد بينهما يقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر ، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر ، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغي أن يكون « طمع نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها ، فإذن فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط ، فإن تساويا فيه تساوت درجتهم ، إلا أن هذا منزلة قدم وموضع غرور ، فإن الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ، ويكون حبه دفينا في باطنه وهو لا يشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقد ، فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه ، فإن وجد لقلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا ، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كنت مستكنة فيه ، فتحقق إذن أنه كان مغرورا ، وأنّ العشق كان مستكنا في الفؤاد استكنا النار تحت الرماد ، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء ، وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل ، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسليحاته وعباداته ، فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمدكور ، ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول ، ولذلك قال بعض السلف : مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفى النار بالخلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسملك .

(١) حديث « لكل أمة عجل ، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم » رواه أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة . (٢) حديث : كان يقول للدنيا « إليك غنى » الحديث . رواه الحاكم مع اختلاف . وقد تقدم . (٣) حديث « ليس الغنى عن كثرة العرض » الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة » ، وقد تقدم .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها : أفضل من عبادة غنى ألف عام .

وعن الضحاك قال : من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيهِ فصبر واحتسب ، كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى .

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله : ادع الله لي فقد أضربني العيال فقال : إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت ، فإن دعاءك أفضل من دعائي . وكان يقول : مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجواهر في جيد الحسنة . وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسي ، والزهد فيما جاوز الكفاف . وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كماله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن فقد المال أصلح من وجوده هذا ، مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ، ومن نوقش الحساب فقد عذب ، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما أحب أن لي حانوتا على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأرجح كل يوم خمسين دينارا وأتصدق بها في سبيل الله تعالى : قيل : وما تكره ؟ قال : سوء الحساب ، ولذلك قال سفيان رحمه الله : اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء : اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب ، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب ، وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ، ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوى عنده كلاهما ، فأما إذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا إلى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى ، لأن الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق ، وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غنى يريد بقاء المال ، وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح ، بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد ، بل منتهى العبد أن يتخاق بأخلاق الله تعالى ، وقد سمعت بعض المشايخ يقول : إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له : أي يكون له من كل واحد نصيب ، وأما التكبر فلا يليق بالعبد ، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى ، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيلحق به نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى ، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك ، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس ، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر ، والمطيع أكبر من العاصي ، والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات ، وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محقة لاشك فيها لتكانت صفة التكبر حاصلة له ولاتقته به وفضيلة في حقه ، إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقوف على الخاتمة ، وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق ؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر ، إذ ربما يختم للكافر بالإيمان ، وقد يختم له بالكفر ، فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كالا في حقه لانه

في صفات الله تعالى ، ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره ، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله تعالى ، فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء ، فإذا لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة ، أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا ، فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .

المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص

وانفرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفقد له ثم وجده ، فله حالة الفقد وحالة الوجود ، فأى حالتيه أفضل ؟ فنقول : ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه لحال الوجود أفضل ، لأن الفقر يشغله بالطلب ، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل ؛ والمكفي هو القادر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل قوت آل محمد كفا ، وقال : كاد الفقر أن يكون كفرا ، أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه ، وإن كان المطلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين ؛ لحالة الفقر أفضل وأصلح ، لأنها استويا في الحرص وحب المال ، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ؛ ولكن افرقا في أن الواحد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا ، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي ينبغي الخلاص منه ، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا ؛ لحاله أشد لاهالة ؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : إن روح القدس نفث في روعي : أحب من أحببت فإنك مفارقة (١) ، وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد ، فينبغي أن تحب من لا يفارئك وهو الله تعالى ، ولا تحب ما يفارئك وهو الدنيا ، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ؛ وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه وأنس الواحد الدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقدها وإن كان حريصا عليها ، فإذا قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين : أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيدا له ؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع مهم ؛ والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا ، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبق حياه ثم يستعين بقوته وحياهه على الكفر والمعاصي ؛ ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل ؛ فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجد ما يضطر إليه أيضا ؛ فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر . ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه ، وفي غنى دونه في الحرص على حفظ المال ، ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره ، فهذا في محل النظر ، والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقره ؛ والعلم عند الله تعالى فيه .

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك مفارقة » تقدم .

بيان آداب الفقير في فقره

اعلم أنّ للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها .
فأما أدب باطنه فإن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر ، أعنى أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله - وإن كان كارهاً للفقير - كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهاً فعل الحجام ولا كارهاً للحجام ، بل ربما يتقصد منه منة ، فهذا أقل درجاته وهو واجب ، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام : « يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بشواب فقركم وإلا فلا ، وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقير بل يكون راضياً به ، وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعلمه بغوائل الغنى ، ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى واثقاً به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف . وقد قال على كرم الله وجهه : إنّ الله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر ؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته - إذا كان عقوبة - أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء ، وهذا يدل أن كل فقير فليس بمحمود ، بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بشمرته ، إذ قيل : ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له : خذه على ثلاثة أثلاث : شغل وهم وطول حساب .

وأما أدب ظاهره : فإن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ويستر أنه يستره في الحديث : « إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال ، وقال تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ وقال سفيان : أفضل الأعمال التجمل عند المحتنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كدور البر .

وأما في الأعمال فأدبه : أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال على كرم الله وجهه : ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة في ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل ، فهذه رتبة ، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله : إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مرء ، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل . وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء .

وأما أدبه في أفعاله : فإن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه ، فإن ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى : روى زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم ، قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها ، وأخرج رجل درهماً من درهماين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه ، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف »^(١) ، وينبغي أن لا يتدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات (إحداها) أن لا يتدخر إلا ليومه وليلته وهي درجة الصديقين (والثانية) أن يتدخر لأربعين يوماً فإن ما زاد عليه داخل في طول الأمل ، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام

(١) حديث زيد بن أسلم « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف » قيل : وكيف يا رسول الله ؟ قال « أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف ... الحديث » أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً ، وقد تقدم في الزكاة ، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسل .

ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوما . وهذه درجة المتقين (والثالثة) أن يتدخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين ، ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية ، فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته ، وغنى الخصوص في أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة . وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل ، وبعضهن قوت أربعين يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال . وغرض المعطى ، وغرضه في الأخذ . أما نفس المال فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه ، وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب . وأما غرض المعطى فلا يخلو : إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية ، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة ، والذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما بمزوجة ببقية الأغراض . أما الأول - وهو الهدية - فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة . فإن كان فيها منة فالأولى تركها ، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض ؛ فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش ، فقبل السمن والأقط ورد الكبش ^(٢) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض ^(٣) . وقال : لقد هممت أن لا أتعب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي ^(٤) ، وفعل هذا جماعة من التابعين . وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسين درهما فقال : حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أتاه رزق من غير مسألة فرده فأما يرد على الله ^(٥) ، ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرهما . وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضا ولكن حل إليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان ، فرد ذلك وقال : من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق . وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من أصحابه . وكان إبراهيم النعماني يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها . وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول . اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل من قبل القبول فأخبرني

-
- (١) حديث أن قبول الهدية سنة : تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية .
 (٢) حديث : أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش . أخرجه أحمد في أثناء حديث لبعل بن صرة : وأهدت إليه كبشين وشيئا من سمن وأقط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عاها الآخر . وإسناده جيد . وقال وكيع : صرة عن بعل بن صرة عن أبيه .
 (٣) حديث : كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة . وإيم الله لأقبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا ... الحديث . فيه محمد بن إسحق ورواه بالسنعة .
 (٤) حديث : لقد هممت أن لا أتعب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي . أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال : روى من غير وجه عن أبي هريرة ، قلت : ورجاله ثقات . (٥) حديث عطاء مرسلا : من أتاه رزق من غير وسيلة فرده فأما يرد على الله عز وجل . لم أجده مرسلا هكذا ، ولأحمد وأبي بلي والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني . من بلده معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يردده فأما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه . ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة . من أتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله . وفي الصحيحين من حديث عمر : ما أتاك من هذا المال وأنت غير مفرف ولا سائل فخذ . الحديث .

حتى أخذه وإلا فلا ، وأمانة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنّة على نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منّة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقهاء الصادقين . وقال بشر : ما سألت أحدا قط شيئا إلا سرى السقطى لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب . وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بسأل وسأله أن يأكله فقال : أفترقه على الفقراء ، فقال : ما أريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا ؟ قال : ما أريد أن تنفقه في الخل والبقل بل في الحلوات والطيبات ، فقبل ذلك منه ، فقال الخراساني : ما أجد في بغداد أمن على منك ، فقال الجنيد : ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك .

الثاني : أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة ، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة . وإن كانت صدقة وكان يعطيه ليدنه فليُنظر إلى باطنه ، فإن كان مقارفا لمعصية في السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه ، فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو تالوي ولم يكن ، فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه .

الثالث : أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة ، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول : لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال : إنما أرد صلّتهم لإشفاقاً عليهم ونصحاً لهم لأنهم يذكرون ذلك ويجنون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم .

وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر : أهو محتاج إليه فيما لا بدّ منه أو هو مستغن عنه ، فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطى فالأفضل له الأخذ ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما المعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجاً »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه »^(٢) ، وفي لفظ آخر « فلا يرد » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط . وقد كان سري السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمه الله عليهما شيئا فردّه مرة ، فقال له السري : يا أحمد ، احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ ، فقال له أحمد : أعد على ما قلت ، فأعاده ، فقال أحمد : ما رددت عليك إلا لأنّ عندي قوت شهر ، فأحبسه لي عندك ، فإذا كان بعد شهر فأنفذه لي ، وقد قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره ؛ فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو : إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لمافي طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة ، فإن ذلك محض اتباع الهوى ، وكل عمل ليس لله فهو سميل الشيطان أو داع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ثم له ممانان (أحدهما) أن يأخذ في العلانية ويرد في السر ، أو يأخذ في العلانية ويفترق في السر ، وهذا مقام الصديقين ، وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمانت نفسه بالرياضة (والثاني) أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه . أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه ، فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية ؛ وقد ذكرنا هل الأفضل (إظهار

(١) حديث « ما المعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجاً » رواه الطبراني من حديث ابن عمر ، وقد تقدم في الزكاة . (٢) حديث « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه » وفي لفظ آخر « فلا يرد » تقدّمنا قبل هذا بحديث .

الآخذ أو إخفاؤه؟ في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطي رحمه الله ، فإنما كان لاستغنائه عنه ، إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره ؛ فإن في ذلك آفات وأخطارا ، والورع يكون حذراً من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة . كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله ، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي : أنا جائع كما ترى عريان كما ترى ، فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى ، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت في نفسي : لا أجدر لدراهمي موضعاً أحسن من هذا ؛ فحملتها إليه ، فنظر إليهما ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مئزرين ، ودرهم أنفقه ثلاثة فلا حاجة بي إلى الباقي فردته . قال : فرأيت الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء ، فالتفت إلى فأخذ بيدي ، فأطافني معه أسبوعاً كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخسش تحت أقدامنا إلى الكعابين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ، ولم يظهر ذلك للناس ، فقال . هذا كله قد أعطانيه فرهدت فيه وأخذ من أيدي الخلق لأن هذه أثقال وفتنة ، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة ، والمقصود من هذا : أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه ، وقدر الحاجة يأتيك وفقاً بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء . قال الله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ وقد قال صلى الله عليه وسلم : لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه ، فما زاد فهو حساب ^(١) ، فإذا أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب . ومن الاختبار أيضاً : أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقرباً إلى الله تعالى وكسراً لصفة النفس فتأتيك عفراً صفواً لئلا تمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها ، فزد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذه وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون : وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهدهم جماعة من الصالحين فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة المقراء ، وبإدربه إلى الصرف إليهم ولا تدخره ، فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في الطعام والمشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة ، فإن رزقه الله من حلال قضاء ، وإن مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخذله بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة ، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة ، وقد قال تعالى ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ قيل معناه : لبيع أحد ثوبيه . وقيل معناه : فليستقرض بجأهه ، فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم : إن لله تعالى عباداً ينفقون على قدر بضائعهم ، والله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف : الأقوياء ، والاسخياء ، والأغنياء ، فقيل : من هؤلاء ؟ فقال : أما الأقوياء فهم أهل

(١) حديث « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه فما زاد فهو حساب »

أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال « وجلف الحبز والماء » بدل قوله « طعام يقيم صلبه » وقال صحيح .

(٢٧ - إحياء علوم الدين - ٤)

التوكل على الله تعالى ، وأما الاستخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى ، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى ، فإذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطى فليأخذه ، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى ؛ لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء ، وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقاً في خمسين من أصحابه ، فوضع الرجل مائدة حسنة ، فلما قعد قال لأصحابه : إن هذا الرجل يقول : من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدمته فطعمني عليه حرام ، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شاباً منهم كان دونهم في الدرجة ، فقال صاحب المنزل لشقيق : ما قصدت بهذا ؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم . وقال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوماً ويعشيني هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي ، أجرى أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم . فلا ينبغي أن يرى المعطى إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى ، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة ؛ وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات ، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم « للسائل حق ولو جاء على فرس ^(١) » ، وفي الحديث « ردوا السائل ولو بظلف محرق ^(٢) » ، ولو كان السؤال حراماً مطلقاً لما جاز إعانة المتعدي على عدوانه والإعطاء إعانة ، فالكشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة ، فإن كان عنها بد فهو حرام ، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة .

(الأول) إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى ، وكما أن العبد المملوك لو سأل لسان سؤاله تشجيعاً على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشجيع على الله تعالى ، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة .

(الثاني) أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه ، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة ، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المستول .

(الثالث) أنه لا ينفك عن إيذاء المستول غالباً ؛ لأنه ربما لا يسمع نفسه بالبدل عن طيب قلب منه ، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استجيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء ، ففي البدل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة ، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم « مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها ^(٣) » ، فانظر كيف سماها فاحشة ، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح

(١) حديث « للسائل حق وإن جاء على فرس » رواه أبو داود من حديث الحسين بن علي ، ومن حديث علي ، وفي الأول يعل بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان ، وفي الثاني شيخ لم يسم ، وسكت عليهما أبو داود ، وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه يأنه من أحمد بن حنبل قال : أرومة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها « للسائل حق .. الحديث » فإنه لا يصح عن أحمد ، فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده . (٢) حديث « ردوا السائل ولو بظلف محرق » رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، والنسائي واللفظ له من حديث أم بجيد . وقال ابن عبد البر . حديث مضطرب .

(٣) حديث « مسألة الناس من الفواحش ، وما أحل الله من الفواحش غيرها » لم أجده إلا في نسخة واحدة .

الضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره . وقال صلى الله عليه وسلم « من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم »^(١) ، « ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وبوجهه عظم يتققع وليس عليه لحم ، وفي لفظ آخر « كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه »^(٢) ، وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وبإيعاز رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئاً »^(٣) ، وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ويقول « من سألنا أعطيناه ، ومن استغنى أغناه الله ، ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير » قالوا : ومنك يا رسول الله ؟ قال « ومنى »^(٥) ، وسمع عمر رضى الله عنه سائلاً بعد المغرب فقال لواحد من قومه : عش الرجل ، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال : قد عشيت ، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً فقال : لست سائلاً ولكنك تاجر ، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرّة وقال : لا تعد . ولولا أن سؤاله كان حراماً لما ضربه ، ولا أخذ المخلاته ، ولعل الفقيه الضعيف المنه الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول : أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتهذير ، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه ؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه ، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده ؟ أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضباً في معصية الله وحاشاه ، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله ، وهيات وإن ذلك أيضاً معصية ، بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رأى مستغنياً عن السؤال ، وعلم أن من أعطاه شيئاً فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج ، وقد كان كاذباً فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التليس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه ، إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقى ما لا مال لك له ، فوجب صرفه إلى المصالح ، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح ، ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذباً كأخذ المولى بقوله إني علوى وهو كاذب . فإنه لا يملك ما يأخذه ، كأخذ الصوفي الصالح الذى يعطى لصلاحه وهو فى الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطى لما أعطاه — وقد ذكرنا فى مواضع أن ما أخذه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه .. فاستدل بفعل عمر رضى الله عنه على صحة هذا المعنى الذى يغفل عنه كثير من الفقهاء ، وقد قررناه فى مواضع ، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر .

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعلم أن الشيء . إما أن يكون مضطراً إليه ، أو محتاجاً إليه حاجة

- (١) حديث « من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم ... الحديث » رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصرين على ما ذكر منه وتقدم فى الزكاة ، ولمسلم من حديث أبي هريرة « من يسأل الناس أموالهم تكثر فإنما يسأل جراً ... الحديث . وللبزار والطبراني من حديث مسعود بن عمر « ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه » وفى إسناده ابن ولشيخين من حديث ابن عمر « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه زرعة لحم » وإسناده جيد .
- (٢) حديث « من سأل وله ما يغنيه كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه » رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود ، وتقدم فى الزكاة (٣) حديث : بإيعاز قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئاً » أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي (٤) حديث « من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا » أخرجه ابن أبي الدنيا فى القناعة ، والمارث بن أبي أسامة فى مسنده من حديث أبي سعيد الخدرى ، وفيه حسن بن هلال لم أر من تكلم فيه ، وباقيهم ثقات . (٥) حديث « استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير ... الحديث » أخرجه البزار والطبراني من حديث ابن عباس « استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك » وإسناده صحيح ، وله فى حديث « فتففوا ولو بمحزم الحطب » وفيه من لم يسم ، وليس فيه : وما قل من السؤال ... الخ .

مهمة أو حاجة خفيفة . أو مستغنى عنه ؛ فهذه أربعة أحوال .

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المستول بكونه مباحا ، والمستول منه بكونه راضيا في الباطن ، وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب ، فإن القادر على الكسب وهو بطلال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته ، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة .

وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله ، فسؤاله حرام قطعا ، وهذان طرفان واضحان .

وأما المحتاج حاجة مهمة فكمريض الذى يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لولم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف ، وكن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى إلى حد الضرورة ، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشى بمشقة ، فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة محقة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذى أليقة ولكن يشق على ، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى .

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤال قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس ، وكن يسأل لأجل الادم وهو واجد للخبز ، وكن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار ، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الرحلة ، فهذا ونحوه إن كان فيه تلييس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام ، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المستول فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات ، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة .

هـ فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ، ولكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ولكن تطلبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس ، فيخرج به عن حد الشكوى ، وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله ، أو الرجل السخى الذى قد أعد ماله لمثل هذه المسكارم فيفرح بوجود مثله ويتقصد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك ، فإن الذل لازم للمنة لا محالة . وأما الإيذاء فسيبيل الخلاص عنه أن لا يمين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة ، وإن كان في القوم شخص مرموق لولم يبذل لسكان يلام ، فهذا إيذاء ، فإنه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ، ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغي أن لا يصرح بل يعرض تعريضا يبق له سبيلا إلى التغافل إن أراد ، فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذ به ، وينبغي أن يسأل من لا يستحيا منه لو رده أو تغافل عنه ، فإن الحياء من السائل يؤذى كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى .

هـ فإن قلت : فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأ به فهل هو حلال أو شبهة ؟ فأقول : ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة ، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام ، وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء ، ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضى به وقد قال صلى الله

عليه وسلم وإنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ^(١) ، فإن هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات ، إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال ، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب ، ولكن الضرورة دعت إليه ، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى ، والحاكم فيه أحكم الحاكمين ، والقلوب عنده كالأسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أقنوك وأقنوك ، فإن المفتي معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة ، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة ، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا ، فإذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه ، فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهده ، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته ، فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى .

• فإن قلت : فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه ، فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضياً ؟ فأقول : لهذا ترك المتقون السؤال رأساً فما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال : لاني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحب ، وإنما عظم النكير في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا ، لأن الأذى إنما يحل بضرورة : وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى ، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة ، فكان الامتناع طريق الورعين ، ومن أرباب القلوب من كان واثقاً ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال ، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ، ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضاً ويرد بعضاً ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكبش والسمن والافط ، وكان هذا يأتيهم من غير سؤال ، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ، ولكن قد تكون رغبته طمعاً في جاه أو طلباً للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك ، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلا في موضعين : أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة : سليمان ، وموسى ، والخضر عليهم السلام . ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني : السؤال من الأصدقاء والإخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان ، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان ، وقد كانوا وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباستهم ، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال ، وحذوا بإباحة السؤال أن تعلم أن المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لا يبدئك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا بتعريف حاجتك ، فأما في تحريكك بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا ، ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن ، وحالة لا يشك في الكراهة ، ويعلم ذلك بقرينة الأحوال ، فالأخذ في الحالة الأولى حلال طاق ، وفي الثانية محت ، ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإثم ، وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته ، فإن قوى الحرص وضعفت الفطنة تراهى له ما يوافق غرضه ، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة ، وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله

(١) حديث : « إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » لم أجده أصلاً ، وكذا قال المزني لما سئل عنه .

صلى الله عليه وسلم ، إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ^(١) ، وقد أوتي جوامع الحكم ، لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فليأكل من أيدي الناس ، وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطى بدينه ، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما ، وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل ؟ وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك ، فإذا بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، ففسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يغنيننا بحلاله عن حرامه ، وبفضله عمن سواه ، إنه وسعة جوده ، فإنه على ما يشاء قدير .

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من سأل عن ظهر غنى فإنما يسأل جمرا فليستقل منه أو ليستكثر » صريح في التحريم ، ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير ، وليس إلينا وضع المقادير ، بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث « استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره » قالوا : وما هو قال : غدا يوم وعشاء ليلة ^(٢) ، وفي حديث آخر « من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل الحما » ^(٣) ، وورد في لفظ آخر « أربعون درهما ، ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة ، فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير ممتنع ، وغاية الممكن فيه تقريب ، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا حق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى به عورته ، ويبيت يكتنه فما زاد فهو حساب » ، فليجعل هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالاته كالإبنة أيضا . وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقيص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقتس على هذا أثاث البيت جميعا ، ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفير فيما يكفي فيه الخرف ، فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقد رده في اليوم مده وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير . والأدم على الدوام فضلة ، وقطعة بالكلية لإضرار ، ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة . وأما المسكن فأقله ما يجزئ من حيث المقدار وذلك من غير زينة ، فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى ، وأما بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه وماوى يكتنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات (إحداهما) ما يحتاج إليه في غد (والثانية) ما يحتاج إليه في أربعين يوما أو خمسين يوما . (والثالثة) ما يحتاج إليه في السنة ، ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال

(١) حديث « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه » تقدم .

(٢) حديث « استغنوا بغنى الله » قالوا : وما هو ؟ قال « غدا يوم وعشاء ليلة » تقدم في الزكاة من حديث سهل ابن الحنفية قالوا ما ينبغي ؟ قال « ما يندبه أو يشبه » ولا أحد من حديث علي بن زياد حسن : قالوا وما ظهر غنى ؟ قال « عشاء ليلة » وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة (٣) حديث « من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل الحما » وفي لفظ آخر « أربعون درهما » تقدم في الزكاة .

لسنة فسؤاله حرام ، فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما في الحديث ، فإن خمسة دنانير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد ، أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ، فإن كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل مالا يحتاج فيه كفيه غداء يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر . وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال ، لأن أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يعينه ، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفا وكان مالا لاجله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف الفوت وتراخي المدة التي فيها يحتاج إلى السؤال ، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى ، فيستفتي فيه قلبه ويعمل به إن سالك طريق الآخرة ، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أنهم وقناعتهم بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى ، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعمالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان ، وقد قال تعالى ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ والسؤال من الفحشاء التي أبيت بالضرورة ، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة ، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطرب الأمل وعدم الثقة بفضل الله ، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ ، فهذا مع الروحانيين في عليين . وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ ، فهذا مع المقربين في جنات الفردوس . وفقير يسأل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين .

فإذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة .

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت الفقراء من أصحابك ؟ قال : تركتهم إن أعطوا شكروا ، وإن منعوا صبروا - وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء ، فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا ، فقال له إبراهيم : فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق ؟ فقال : الفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال : صدقت يا أستاذ .

فإذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة ، فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى أعليين ، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رد إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عالين ، ومن لا يميز بين السفلى والعلو لا يقدر على الرقي قطعا ، وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فإنه ربما لا يقدر عليه ، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا إسحاق النوري رحمه الله يمد يده ويسأل الناس في بعض المواضع ، قال : فاستعظمت ذلك واستقبحته له ، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال : لا يعظم هذا

عليك ، فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم . وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد المعطى هى العليا »^(١) ، فقال بعضهم : يد المعطى هى يد الآخذ للمال لأنه يعطى الثواب والقدر له لئلا يأخذه ، ثم قال الجنيد : هات الميزان ، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال : أحملها إليه ، فقلت فى نفسى : إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به بجهولا وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله ، فذهبت بالصرة إلى النورى فقال : هات الميزان ، فوزن مائة درهم وقال : ردها عليه وقل له : أنا لأقبل منك أنت شيئا وأخذما زاد على المائة قال : فزاد تعجبي ، فسألته فقال . الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه : وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل ، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه . قال : فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال : أخذماله وردمالنا الله المستعان ، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجى الأسرار ، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة ، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه . ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنهه بجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر فى حقه خاصة لعله فى باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا ، وهذا وإن كان فى الجهل دون الأول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل ، بل البصير أحدرجلين : إما رجل سالك الطريق فظهر له مثل مظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين . ولعلم اليقين أيضا رتبة وإن كان دون عين اليقين ، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة فى زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراغبين فى العلم القائلين ﴿ آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ .

الشطر الثانى من الكتاب فى الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه ، وبيان تفصيل الزهد فى المطعم والملبس والسكن والأثاث وضروب المعيشة ، وبيان علامة الزهد .

بيان حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات ، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقرل وعمل ، وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مرادا لعينه ، وإن لم يكن صادرا عن حال سمى لإسلاما ولم يسمى لإيمانا والعلم هو السبب فى حال يجرى بجرى الثمر ، والعمل يجرى من الحال مجزئ الثمرة ، فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل : أما الحال فنعني بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة ويبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه ، وإنما عدل إلى غيره لرغبته

(١) حديث « يد المعطى هى العليا » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

في غيره ؛ لحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدا ، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحباً ، فإذا استدعى حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً ، إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهداً ، وإنما يسمى زاهداً من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة ، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة ، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهداً فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحباً ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ معناه باعوه ، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ؛ وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعاً في العوض ، فإذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو لليسل في وضع اللسان . ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالمعدول إلى شيء هو أحب منه ، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال ، والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضاً زاهد ولكنه دون الأول ، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقاً ، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين ، وهو زهد صحيح ، كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة ، فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات ، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ، ولكن العادة تخص هذا الاسم بترك المباحات ، فإذا زهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا ، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه ، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال ، وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك : يا زاهد ، فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففيهاذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو مشر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه ، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع ، فسلك ذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى ، أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى ، كما تكون الجواهر خيراً وأبقى من الثلج مثلاً . ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللكل ، فهكذا مثال الدنيا والآخرة ، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له ، فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة ، حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر : وهو أن الآخرة

خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا ، إما لضعف علمه و يقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوما بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت : وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير ﴾ فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ، ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه : اللهم أرني الدنيا كما تراها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « لا تقل هكذا ، ولكن قل : أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك ^(١) » وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي ، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والعبد يراها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له ، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلا ، لأنه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن الفرس ، والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه ، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ، ويراه متفاوتا بالإضافة إلى غيره ، والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى ، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض ، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلاقاتها ، فبخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات ، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن ، فإذا وفي بشرط الجاهلين في الأخذ والترك فليست بشيء ببيع الذي بايع به ؛ فإن الذي بايعه بهذا البيع وفي بالهدء ، فمن سلم حاضرا في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد بمن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالهدء ، وما دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا ﴿ ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك ، ولا وصفهم أيضا بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه ، بل عند التسليم والبيع ، فعلامة الرغبة الإمساك ، وعلامة الزهد الإخراج : فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط واستزاهدا مطلقا ، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد ، لأن ما لا يقدر عليه لا يقوى على تركه ، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتلك فأنت زاهد فيها ، فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله ، فأياك إذا لم تجزب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها ، فكمن من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها ، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها ، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات ، فأياك أن تثق بوعدتها في المباحات ، والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها ، أن تجزبها مرة بعد مرة في حال القدرة ، فإذا وفيت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرا وباطنا فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما ، ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر ، فإنها سريعة النقص للعهد ، قريية الرجوع إلى مقتضى الطبع وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة : ألا ترى إلى ابن الحنائل هذا

(١) حديث : قال رجل : اللهم أرني الدنيا كما تراها ، فقال له « لا تقل هكذا ، ولكن قل : أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك » ذكره صاحب الفردوس مختصرا « اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك » من حديث أبي القصير ولم يخرجوه ولله

لأنفنى في مسألة إلا رد علينا — يعنى أبا خيفة ، فقال ابن شبرمة : لا أدري أهو ابن الحائك أم ماهو ؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها ، وهربت منا فطلبناها ، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نحب ربنا ولو علمنا في أى شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ^(١) ﴾ . قال ابن مسعود رحمه الله : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنت منهم — يعنى من القليل . قال : وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ^(٢) ﴾ . وأعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات ؛ وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسسة الآخرة ؛ فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور من لا يؤمن بالآخرة ؛ فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ، ولكن لا يكون زهداً ؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهى ألد وأهنا من المال ، وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد ، فكذلك تركه طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستقلاله لما في حفظ المال من المشقة والعناء . والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلاً ، بل هو استعجال حظ آخر للنفس ؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان جاء وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس ، فتركها خوفاً من أن يأنس بها ، فيكون آنسا بغير الله ومحباً لما سوى الله ، ويكون مشركاً في حب الله تعالى غيره . أو تركها طمعاً في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنة ، وترك التمتع بالسرارى والنسوان طمعاً في الحور العين ، وترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة وأشجارها ، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة ، وترك المطاعم اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة وخوفاً من أن يقال له ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ فأثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفواً لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى ، وأن ما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلاً .

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى ﴿ نخرج على قومك في زينته ... إلى قوله تعالى ... وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ﴾ فأنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء ، وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا . وقال عز وجل ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ قيل : معناه أيهم أزهد فيها ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ فوصف الكفار بذلك ، ففهموه أن المؤمن هو الذى يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا .

(١) حديث قال المسلمون . إنا نحب ربنا ولو علمنا في أى شيء محبته لفعلناه ، حتى نزل قوله تعالى ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ﴾ الآية : لم أقف له على أصل . (٢) حديث ابن مسعود . ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ الآية أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن .

وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير ، وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا مع ربيع المهلكات ، إذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات ، وهو المعنى بالزهد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح وهمه الدنيا شئت الله عليه أمره وفتق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة » (٢) ، وقال تعالى ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ ولذلك قيل من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال قلنا يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ قال كل مؤمن محوم القلب صدوق اللسان ، قلنا يا رسول الله وما محوم القلب ؟ قال « التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغى ولا حسد » قلنا : يا رسول الله ، فمن على أثره ؟ قال « الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة » (٣) ، ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا » (٤) ، لجعل الزهد سببا للمحبة ، فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات ، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ، ومفهومه أيضا أن من يحب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت « الزهد والورع يحولان في القلوب كل ليلة ، فإن صادقا قلبا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا » (٥) ، ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقا قال « وما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حبرها وذهبها ، وكأني بالجنة والنار ، وكأني بعرش ربي بارزا ، فقال صلى الله عليه وسلم « عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان » (٦) ، فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : عبد نور الله قلبه بالإيمان . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال « إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح » قيل يا رسول الله ، وهل لذلك من علامة ؟ قال « نعم ، التجافي عن دار الغرور ؛ والإجابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للهوت قبل نزوله » (٧) ، فانظر كيف جعل الزهد شرطا للإسلام وهو التجافي عن دار الغرور ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا : إنا لنستحي منه تعالى ، فقال « ليس كذلك تبنون مالا تسكنون ، وتجمعون مالا تأكلون » (٨) ، فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا : إنا مؤمنون . قال « وما علامة إيمانكم ؟ » فذكروا

(١) حديث « من أصبح وهمه الدنيا شئت الله عليه أمره ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد ، والترمذي من حديث أسد بسند ضعيف نحوه .

(٢) حديث « إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة » رواه ابن ماجه من حديث أبي خلد بسند فيه ضعف (٣) حديث : قلنا يا رسول الله وما محوم القلب ؟ قال « التقي النقي ... الحديث » رواه ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو قوله : يا رسول الله فمن على أثره ، وقد تقدم ، ورواه بهذه الزيادة بالإسناد المذكور الحرثي في مكارم الأخلاق (٤) حديث « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا » رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه ، وقد تقدم . (٥) حديث « الزهد والورع يحولان في القلب كل ليلة ، فإن صادقا قلبا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا » لم أجده أصلا . (٦) حديث : لما قال له حارثة : أنا مؤمن حقا ، فقال « وما حقيقة إيمانك ... الحديث » أخرجه البزار من حديث أسد ، والطبراني من حديث الحارث بن مالك ، وكلا الحديثين ضعيف .

(٧) حديث : سئل عن قوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ ... الحديث . أخرجه الحاكم ، وقد تقدم .

(٨) حديث « استحيوا من الله حق الحياء ... الحديث » رواه الطبراني من حديث أم الوائيد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف

الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشهادة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبثوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا فيما ترحلون »^(١) ، فجعل الزهد تسكلاً لإيمانهم . وقال جابر رضى الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « من جاء بلا إله إلا الله لا يخطأ بها غيرها وجبت له الجنة » فقام إليه على كثر الله وجهه ، فقال : « بآبى أنت وأبى يا رسول الله مالا يخطأ بها غيرها ؟ صفه لنا فسرره لنا » فقال : « حب الدنيا طلباً لها واتباعاً لها » وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون عمل الجبابرة ، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة^(٢) . وفى الخبر : « السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن » ، والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك^(٣) . وقال أيضاً : « السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة » والبخل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار^(٤) ، والبخل ثمرة الرغبة فى الدنيا ، والسخاء ثمرة الزهد . والثناء على الثمرة ثناء على الثمر لا محالة . وروى عن ابن المسيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من زهد فى الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام »^(٥) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم مرفى أصحابه بعشار من الترق حفل وهى الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ، وأعظمها فى قلوبهم قال الله تعالى ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال : فأعرض عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغض بصره ، فقيل له : يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها ؟ فقال : « قد نهانى الله عن ذلك » ثم تلا قرأه تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى مامتنعابه ﴾ الآية^(٦) وروى مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : ألا تستطعم الله فيطعمك ؟ قالت : وبكيت لما رأيت به من الجوع ؛ فقال يا عائشة ؛ والذى نفسى بيده لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ؛ يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض إلا أن يكلفنى ما كلفهم ؛ فقال ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ والله مالى بد من طاعته وإنى والله لأصبرن كما صبروا بجهدى ولا قوة إلا بالله^(٧) . وروى عن عمر رضى الله عنه : أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها .

- (١) حديث : لما قدم عليه بعض الوفود قالوا : إنا مؤمنون . قال : « وما علامة إيمانكم . الحديث » رواه الخطيب وابن عساكر فى تاريخهما بإسناد ضعيف من حديث جابر . (٢) حديث جابر : « من جاء بلا إله إلا الله لا يخطأ معها شيئاً وجبت له الجنة » لم أره من حديث جابر ، وقد رواه الترمذى الحسكى فى النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف . (٣) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن ... الحديث » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى الدرداء ولم يخرج له ولده فى مسنده . (٤) حديث : « السخى قريب من الله ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم . (٥) حديث أبى ذر : « من زهد الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه ... الحديث » لم أره من حديث أبى ذر ، ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سلم مرسل ، ولا بن عدى فى السكائل من حديث أبى موسى الأشعرى « من زهد فى الدنيا أربعين يوماً وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وقال حديث منكر . وقال القهبي باطل : ورواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب وأبو نعيم فى الحلية مختصراً من حديث أبى أيوب « من أخلص لله » وكلها ضعيفة . (٦) حديث مر فى أصحابه بعشار من الترق حفل .. الحديث . وفيه : ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ الآية : لم أجده أصلاً (٧) حديث مسروق عن عائشة قالت يا رسول الله ، ألا تستطعم ربك فيطعمك ، قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع ... الحديث . وفيه : يا عائشة ، إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس من طريق أبى عبد الرحمن السلمى من رواية عباد بن عباد عن مجاهد عن القهبي عن مسروق مختصراً « يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن يكلفنى ما كلفهم » فقال تعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ ومجاهد مختلف فى الاحتجاج به .

البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر : يا حفصة ، ألسنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ فقالت : بلى . قال : ناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ، وناشدتك الله ، هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا كذا سنة لم يشبع من التمروه وأهله حتى فتح الله عليه خيبر ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قترتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينسأم على عبادة مثنية فثبت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال : منعتموني قيام الليلة بهذه العبادة اثنتي عشرة ليلة كما كنتم تثنونها ، ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كسامين إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك ؟ فما زال يقول حتى أبكاه وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج ^(١) . وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال : كان لي صاحبان سلكا طريقا ، فإن سلكت غير طريقتهما سلك بي طريق غير طريقتهما ، وإنى والله سأصبر على عيشهما الشديد لعل أدرك معهما عيشهما الرغيد .

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العبادة ، وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم ^(٢) .

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال ؛ فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف بخلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة .

وفي حديث عمر رضى الله عنه أنه قال : لما نزل قوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

(١) حديث : أن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة : البس ألين الثياب إذا قدمت عليك الوفود ... الحديث بهلولة ، وفيه : ناشدتك الله هل تعلمين كذا : يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاه وبكى ... الخ . لم أجده هكذا مجرّوا في حديث ، وهو مفرق في عدة أحاديث ؛ فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى ألقى ربه ، وفيه عمرو بن عبد الله القدري متروك الحديث ، ولا ترمذى من حديث مألوفة قالت : ما شبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت ، قلت : لم ؟ قالت : أذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها ، والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم . وقال حديث حسن ، وللشيخين من حديثها : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض . وللبخاري من حديث أس : كان لا يأكل على خوان ... الحديث ، وتقدم في آداب الأكل ، ولترمذى في الممائل من حديث حفصة أنها لما سألت : ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم ؟ مسح تشفيه نذتين فينام عليه ... الحديث . ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة : أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عبادة بانثنتين ... الحديث ، وتقدم في آداب المعيشة . وللبزار من حديث أبي الدرداء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل له الدقيق ولم يكن له إلا قيس واحد . وقال : لا أعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد . قال يونس بن بكير : قد حدث عن سعيد بن مسيرة البكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها . قلت : فيه سعيد بن مسيرة فقد كذبه يحيى القطان وضمفه البخاري وابن حبان وابن عدى وغيرهم . ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى الله عليه وسلم في شملة قد عهد عليها زاد الطريق في جزئه المشهور : فمعهما في عنقه ما عليه غيرها ولمساده ضيف ، وتقدم في آداب المعيشة . (٢) حديث أبي سعيد الخدري : كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العبادة . الحديث ... بإسناد صحيح في أثناء حديث أوله : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله : وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل

في سبيل الله) قال صلى الله عليه وسلم ، تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم ، فقلنا : يا رسول الله نهانا الله عن كثرة الذهب والفضة ، فأى شيء ندخر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ليتخذ أحدكم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا وزوجة سالحة تعينه على أمر آخرته ^(١) .

وفي حديث حذيفة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث : هما لا يفارق قلبه أبدا وفقرا لا يستغنى أبدا وحرصا لا يشبع أبدا ^(٢) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ؛ وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة ^(٣) .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم الدنيا قطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له : يا نبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه ؟ قال : اذهبوا فابنوا بيتا على الماء ، فقالوا : كيف يستقيم بنيان على الماء ؟ قال : وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : إن ربى عز وجل عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأنضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل ، والذى بعثتك الحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق ، فلم يسكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله القيامة أن تقوم ؟ قال : لا ، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعملت ، وإن شئت نبييا ملكا ، وإن شئت نبييا عبدا . فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال : نبييا عبدا ، ثلاثا ^(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه ^(٥) .

(١) حديث عمر : لما نزل قوله تعالى (والذين يكتزون الذهب والفضة) الآية ، قال « تبا للدينار والدرهم ... الحديث » وفيه : فأى شيء ندخر ؟ أخرجه الترمذى وابن ماجه ويهتدم في النكاح دون قوله « تبا للدينار والدرهم » والزيادة رواها الطبرانى في الأوسط وهو من حديث ثوبان ، وإنما قال المصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذى سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أى المال يتخذ ؟ كما فى رواية ابن ماجه ، وكما رواه البزار من حديث ابن عباس ،

(٢) حديث حذيفة « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث . الحديث » لم أجده من حديث حذيفة ، أخرجه الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند حسن : من أشرق فى قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث : شقاء لا ينفد عنه ، وحرص لا يبلغ غناه ، وأمل لا يبلغ منتهاه ، وفي آخره زيادة . (٣) حديث « لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثرتة » لم أجده لاستادا ، وذكره صاحب الفردوس من رواية على بن أبى طلحة مرسل « لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة ، وحتى يكون أن يعرف فى ذات الله أحب إليه من أن يعرف فى غير ذات الله » ولم يخرج له رده فى مسند الفردوس ، وعلى بن أبى طلحة أخرجه له مسلم . وروى عن ابن عباس ، لكن روايته عنه مرسله ، فالحديث اذن معطل . (٤) حديث ابن عباس : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا ... الحديث فى نزول إسرافيل . وقوله : إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة ... الحديث تقدم مختصرا . (٥) حديث « إذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه » رواه أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس دون قوله « ورغبه فى الآخرة » وزاد « فقهه فى الدين » واستاده ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم لرجل « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس »^(١) .
وقال صلوات الله عليه ، من أراد أن يؤتیه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا^(٢) ، وقال
صلى الله عليه وسلم « من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن خاف من النار لها عن الشهوات ، ومن ترقب
الموت ترك اللذات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات »^(٣) .

ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام ، أربع لا يدركن إلا بتعب : الصمت وهو أول العبادة ،
والتواضع ، وكثرة الذكر ، وقلة الشيء^(٤) ، وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها
لا يمكن ، فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لصراف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما
أوردناه كفاية والله المستعان .

وأما الآثار : فقد جاء في الآثار : لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما تنقص
من دنياهم . وفي لفظ آخر : ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى :
كذبتم ، لستم بها صادقين .

وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا .
وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكانوا خيرا منكم . قيل : ولم ذلك ؟ قال : كانوا أزهد في الدنيا منكم
وقال عمر رضى الله عنه : الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد .

وقال بلال بن سعد : كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها .
وقال رجل لسفيان : أشتى أن أرى عالما زاهدا ، فقال : ويحك : تلك ضالة لا توجد .
وقال وهب بن منبه : إن للجنة ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون : وعزة ربنا
لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة .

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله : إني لأشتى من الله ثلاث خصال : أن أموت حين أموت وليس في ملكي
درهم ، ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فأعطى ذلك كله .

وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فقال له
بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكي الفضيل وقال : أتدرون ما مثلي ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت
لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن يفتفخوا بجلودها ، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبرسني ، موتوا
يا أهلي جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا .

وقال عبيد بن عمير كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر ، وليس له وليد يموت ولا يئس
ينحرب ولا يتخر لعد ، أينما أدركه المساء نام ،

وقالت امرأة أبي حازم لابي حازم . هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والخطب !

(١) حديث « ازهد في الدنيا يحبك الله ... الحديث » تقدم . (٢) حديث « من أراد أن يؤتیه الله علما بغير تعلم وهدى بغير
هداية فليزهد في الدنيا » لم أجده أصلا . (٣) حديث « من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ... الحديث » رواه ابن حبان
في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب . (٤) حديث « أربع لا يدركن إلا بتعب : الصمت وهو أول العبادة ... الحديث »
رواه الطبراني والمحاكم من حديث ألس وقد تقدم .

فقال لها أبو حازم : من هذا كله بد ، ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار .

وقيل للحسن : لم لا تغسل ثيابك ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك .

وقال إبراهيم ابن آدم : قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح ، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدًا .

وقال بعض الساف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا ، وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله يحصى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه (١) ، فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدى إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدى إلى السقم .

وكان الثوري يقول : الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترج لا دار فرح ، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء .

وقال سهل : لا يخلص العمل لمتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء : الجوع ، والعري ، والفقر والذل .

وقال الحسن البصري : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شئ منها أدبر ، ولم يكانت في أعينهم أهون من التراب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً ، ولا أسر من في بيته بصنعة طعام قط ، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم ، يفترون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكك رقابهم . كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ، والله ماسلها من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه : وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث : (الدرجة الأولى) وهي السفلى منها : أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها ، وهذا يسمى الزهد ، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد ، والزهد يذيب أولاً نفسه ثم كيسه والزاهد أولاً يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه ، والزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير . (الدرجة الثانية) : الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه ، كالذي يترك درهما لأجل درهمين ، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فينكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده ، ويظن في نفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه ، وهذا أيضاً نقصان (الدرجة الثالثة) وهي العليا : أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئاً . إذ عرف أن الدنيا لا شيء .

(١) حديث : إن الله يحصى عبده المؤمن من الدنيا ... الحديث ، تقدم .

فيكون كمن ترك خزفه وأخذ جوهرة ، فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً ، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ، ونعيم الآخرة أخس من خزقة بالإضافة إلى جوهرة ، فهذا هو السكال في الزهد . وسببه كمال المعرفة ، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخزقة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم : في أي شيء تتكلم ؟ قال : في الزهد ، قال : في أي شيء ؟ قال في الدنيا : فنفض يده وقال : ظننت أنه يتكلم في شيء ، والدنيا لا شيء ، إيش يزهد فيها .

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته ، أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله ؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال المضغ وتبقي على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقلها في المعدة ، ثم تنتهي إلى التئن والقدر ، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا ، إذ لا نسبة للمتناهي إلى مالا نهاية له ، والدنيا متناهية على القرب ، ولو كانت تنمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لانسبة لها إلى نعيم الأبد ، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكثرة غير صافية ، فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد ، فإذا لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه ، ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتداً به ، ولا يراه شيئاً معتداً به إلا لقصور معرفته ، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة ، فهذه تفاوت درجات الزهد ، وكل درجة من هذه أيضاً لها درجات ، إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقة في الصبر ، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده .

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضاً على ثلاث درجات : (الدرجة السفلى) أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار ، إذ فيها « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه لصدرت رواء » (١) ، فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا ، فإن الخلاص من الآلام يحصل بمجرد العدم . (الدرجة الثانية) أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الجور والقصور وغيرها ، وهذا زهد الراجين ، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الآلام بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له (الدرجة الثالثة) وهي العليا : أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى ؛ وهو الذي أصبح وهوومه هم واحد ؛ وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى ؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود ؛ وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه ، وطلب غير الله من الشرك الخفى ، وهذا زهد

(١) حديث « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه لصدرت رواء » أخرجه أحمد من حديث ابن عباس « التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غني ، ومؤمن فقير ... الحديث ، وفيه : « أن حبست بمدك محبسا فظيما كريها ، أو صلت إليك حتى سأل من العرق ما لو ورده ألف بعير أسكته » أخرجه أحمد من حديثه عنه رواء ، وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد : حديثه مثله .

المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه ، وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالخور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن ، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره ، ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الخور والقصور متسع في قلوبهم ، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به ، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك لذة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق .

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نستغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل . فنقول : المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لأحاديث الأقسام وبعضها أجمل للجمل . أما الإجمال في الدرجة الأولى : فهو كل ماسوى الله ، فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا ، والإجمال في الدرجة الثانية : أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها . وفي الدرجة الثالثة : أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ لهما ترجع جميع حظوظ النفس . وفي الدرجة الرابعة : أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه إذا أوال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيسكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر . وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل ﴿ اعلوا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى ﴿ وإنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ ثم رد السكلى إلى واحد في موضع آخر فقال ﴿ ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المسأوى ﴾ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا ، فينبغي أن يكون الزهد فيه . وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى .

فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة ، لأنه إنما يريد البقاء ليمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء ؛ فإن من أراد شيئا أراد دوامه ، ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة ، فإذا رغب عنها لم يردّها ، ولذلك لما كتب عليهم القتال ﴿ قالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ فقال تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ أى لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا ، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنين ، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه بمبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله

أو نيل رتبة الشهادة ، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة ، حتى إن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للبوت على فراشه كان يقول : كم غررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموات موت العجائز ، فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات ، هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وأما المنافقون ، ففتروا ، من الزحف خوفا من الموت فقليل لهم ، وإن الموت الذين تفترون منه فانه ملائكم) فليبارهم البقاء على الشهادة استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فسارحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون ، فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذى بايعوا به ، فهذا بيان المزهود فيه .

وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه ، فقال بشر رحمه الله تعالى : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى : الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف ، فبقدر ماتلك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة ، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي المهيجة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل : الزهد في الدنيا هو القناعة ، وهذا إشارة إلى المال خاصة . وقال الثوري : الزهد هو قصر الأمل ، وهو جامع لجميع الشهوات ، فإن من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس : إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه ، وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطا في الزهد . وقال أويس أيضا : الزهد هو ترك الطلب للمضمون ، وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث : حب الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول ، والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة ، وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ، ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات ، فإن من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة ، وقد طولوها حتى ينقضى عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها ، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن : الزاهد الذى إذا رأى أحدا قال ، هذا أفضل منى ، فذهب إلى أن الزهد هو التواضع ، وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد . وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا بمن يقول : الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال . وقد كان يوسف بن أسباط يقول : من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد .

وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة ، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة ، وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه ، فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته ، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته ، وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة ، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف ، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف ، فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه

فلا يكون إلا واحدا ولا يتصور أن يختلف ، وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل : ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال : سمعنا في الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل ، وقد فصل مرة وقال : من تزوج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا لجعل جميع ذلك ضدا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ فقال : هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال : إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف الزهود فيه ؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة ، كما قاله إبراهيم بن أدهم ، فالفرض : هو الزهد في الحرام . والنفل : هو الزهد في الحلال . والسلامة : هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد ، إذ قيل لمالك بن أنس : ما الزهد ؟ قال : التقوى ، وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه ، إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات ، لاسيما خفايا الرياء فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سماسة العلماء ، بل الأحوال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تنتهي ، فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان : أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك ؟ قال : وما الذي تجدد ؟ قال : توسدك الحجر : أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم ، فرمى الحجر وقال : خذه مع ما تركته لك . وروى عن يحيى بن زكريا عاينهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللبس ، فسأله أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى ، آثرت على الدنيا ، فبيكي ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه . وقال أحمد رحمه الله تعالى : الزهد زهد أويس ، بلغ من العرى أن جلس في قوصرة . وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط لإنسان فأقامه صاحب الحائط ، فقال : ما أقتنى أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتعم بظل الحائط ، فإذا درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها ، وأقل درجاته : الزهد في كل شبهة ومحذور . وقال قوم : الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحذور ، فليس ذلك من درجاته في شيء ، ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن .

• فإن قلت : مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى ؟ فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ، ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ، ولا بقاء إلا بضروريات النفس ؛ فهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله ؛ فإن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه ؛ فالمشتغل بعلم الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ، ولا غرض لك في تنعم ناقتك بالذات ، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك ، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب ، وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن ، فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى ، فذلك لا يناقض الزهد ، بل هو شرط الزهد ، وإن قلت : فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع ؛ فاعلم أن ذلك لا يضررك إذا لم يكن قصدك التلذذ ، فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حامله إلى زوال ألم العطش ، ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك

ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد ، فلا يكون القلب منصرفا إليه ؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنفس الأسحار وصوت الأطيوار ، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ، ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه ، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه مأوه فكان لا يرفعه من الشمس ، ويشرب الماء الحار ويقول : من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط ، فإنه وإن كان شافا فمذته قريبة والاحتفاء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد ، لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما الناس منهم يكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم ؛ فالفضول كالحليل المسقومة مثلا . إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفة بركوبها وهو قادر على المشى والمهم كالأكل والشرب ، ولنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر ، وإنما ينحصر المهم الضروري ، والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته ، فلا بد من بيان وجه الزهد فيه ، والمهمات ستة أمور : المطعم ، والملبس ، والمسكن ، وأثاثه ، والمنسكح ، والمال . والجاه يطلب لأغراض . وهذه الستة من جهاتها ، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة .

(الأول المطعم) ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض ، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد ؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به ، وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله ؛ أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل ، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يتدخر من غذائه لعشائه ، وهذه هي الدرجة العليا . (الدرجة الثانية) أن يتدخر لشهر أو أربعين يوما . (الدرجة الثالثة) أن يتدخر لسنة فقط ، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ، ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال ؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الاخذ من أيدي الناس ، كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة ؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد ، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار ، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلى مد واحد ؛ وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة ، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب ، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ، ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلى خبز البر غير منخول ، فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله . وأما اللحم : فأقله الملح أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أى دهن كان ، وأعلى اللحم أى لحم كان ، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين ، فإن صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا ، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائما ، وأوسطه

أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب ، وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه ، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربيع المهلكات ، ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم :
قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم مصباح ولا نار . قيل لها : فهم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالأسودين التمر والماء ^(١) . وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم .

وقال الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل الخوص ويلعق أصابعه ويأكل على الأرض . ويقول : إنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد ، وأجلس كما تجلس العبيد ^(٢) .

وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لكم ، إنه من طلب الفردوس فخير الشعر له والنوم على المزابل مع الكلاب خير .

وقال الفضيل ماصبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر ^(٣) وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول : يا بني إسرائيل ، عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر ، فإنكم لن تقوموا بشكره . وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربيع المهلكات فلا نعيده .

ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال : أما إنني لست أحرمه ولكن أتركه تواضعاً لله تعالى ^(٤) .

وأقوى عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال : اعزلوا عني حسابها . وقد قال يحيى ابن معاذ الرازي : الزاهد الصادق قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره ، والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ؛ والعبادة حرفته والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى .

(المهم الثاني) الملابس . وأقل درجته : ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة . وهو كساء يتغطى به ، وأوسطه : قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه . أن يكون معه منديل وسراويل . وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد . وشرط الزاهد : أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه . بل يلزمه القعود في البيت . فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع ألوان الزهد من حيث المقدار . أما الجنس فأقله المسوح

(١) حديث عائشة : كانت تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار ... الحديث « أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة : كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوتهم دخان . . الحديث . وفي رواية له : ما يوقد فيه نار . ولأحمد : كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوتهم نار . وفي رواية له : ثلاثة أهلة .
(٢) حديث الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار الحديث ، تقدم دون قوله « إنما أنا عبد » فإنه ليس من حديث الحسن ، إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم .

(٣) حديث : ماصبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر ، تقدم .

(٤) حديث : لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده ... الحديث ، تقدم .

الحشنة وأوسطه الصوف الحشن وأعلام القطن الغليظ . وأما من حيث الوقت ، فأقصاه ما يستر سنة ، وأقله ما يبق يوما ، حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه ، وأوسطه ما يتناسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبق أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد ، وإلا إذا كان المطلوب خشونته ، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه ؛ فن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به ، فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للدنيا ، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس : قال أبو بردة : أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي ما لبس » ^(٢) ، وقال عمرو بن الأسود العنسي : لا ألبس مشهورا أبدا ، ولا أنام بليل أبدا على دثار أبدا ، ولا أركب على مأثور أبدا ، ولا أملأ جوفى من طعام أبدا فقال عمر : من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود ^(٣) . وفي الخبر « ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبا ^(٤) » واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم ^(٥) .

وكانت قيمة ثوبه عشرة ^(٦) وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا ^(٧) واشترى سراويل بثلاثة دراهم ^(٨) . وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف ^(٩) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ . وفي الخبر : كان قيصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات ^(١٠) . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته مائتا درهم ^(١١) فكان أصحابه يلبسونه ويقولون

(١) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت . قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . رواه الشيخان وقد تقدم في آداب الميثة ، (٢) حديث « إن الله يحب المتبذل لا يبالي ما لبس » لم أجده أصلا . (٣) حديث عمر « من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود » رواه أحمد بإسناد جيد . (٤) حديث « ما من عبد لبس ثوب شهرة ... الحديث » رواه ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله « وإن كان عنده حبيبا » . (٥) حديث . اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم . أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة ، قال دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم ... الحديث ، وإسناده ضعيف .

(٦) حديث : كان قيمة ثوبه عشرة دراهم ، لم أجده . (٧) حديث : كان إزاره أربعة أذرع ونصفا . أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسل : كان رداه رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، ومرضه ذراعتان ونصف . الحديث ، وفيه ابن لهيعة . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة : كان له إزار من لسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدي .

(٨) حديث : اشترى سراويل بثلاثة دراهم ، المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم تقدم عند أبي يعلى ، وشراؤه السراويل منه أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه ، قال الترمذي : حسن صحيح .

(٩) حديث : كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ ، تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشمة والبرد والحبرة . وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء : رأيته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حال الجن وقال : رأيته على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحال . وفي الصحيحين من حديث عائشة : أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن ، وتقدم في آداب الميثة . ولأبي داود والترمذي والمسان من حديث أبي رمة : وعليه بردان أخضران ، سككت عليه أبو داود واستقر به الترمذي . وللبزاز من حديث قدامة الكلبي : وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف ، قال الذهبي .

(١٠) حديث : كان قميصه كأنه قميص زيات . أخرجه الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف : كان يكثر دهن رأسه واسبرج لحية حتى كان ثوبه ثوب زيات . (١١) حديث : لبس يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته مائتا درهم اهداه له المقنن ثم نزعه ... الحديث .

يارسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا - وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ، ثم نزعها وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ، ثم حرم لبس الحرير والديباج . وكأنه إنما لبسه أولا تأكيداً للتحريم ، كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعها ^(١) لحرم لبسه على الرجال ، وكما قال لعائشة في شأن بريرة : « اشترطني لأهلها الولاء » ^(٢) ، فلما اشترطته سعد عليه السلام المنبر لحزمه ، وكما أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح ^(٣) وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميسة لها علم ، فلما سلم قال : شغلني النظر إلى هذه ، اذهبوا بها إلى أبي جهم واثقوني بأنيبجانيتها ^(٤) يعني كساءه ، فاختر لبس الكساء على الثوب الناعم ، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه ، فلما سلم قال : « أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فإني نظرت إليه في الصلاة ، ولبس خاتما من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمى به فقال : شغلني هذا عنكم ، نظرة إليه ونظرة إليكم » ^(٥) ، وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة ثعلبين جديدين ؛ فأعجبه حسنهما ، فخر ساجدا وقال : « أعجبنى حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يمقتني » ، ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه ^(٦) . وعن سنان بن سعد قال : حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال : انظروا ما أحسنها ! ما أليها ! ، قال : فقام إليه أعرابي فقال يا رسول الله هبها لي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبخل به ، قال : فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى ، فلبس صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكاة ^(٧) . وعن جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل ، فلما نظر إليها بكى وقال : يا فاطمة ؛ تجزعي مرارة الدنيا لنعيم الآبد ، فأنزل الله عليه ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى » ^(٨) وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من خيار أمتي فيما أنبأني الملا الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة راحة الله تعالى ، ويبسكون سرا من خوف عذابه ، مؤتمهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة ، يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان ؛ أجسامهم في الأرض وأفئدتهم عند العرش » ^(٩) فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس وقد أوصى أمته عامة باتباعه ، إذ قال : « من أحبني فليستن بسنتي » ^(١٠) ، وقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » ^(١١) ، وقال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة وقال : « إن أردت اللحد في قبالك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعني ثوبا حتى ترقيعه » ^(١٢) ، وعنه على قيص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بمعضها من آدم .

- (١) حديث : لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعها . متفق عليه وقد تقدم . (٢) حديث قال لعائشة في شأن بريرة : « اشترطني لأهلها » . الحديث « متفق عليه من حديثها . (٣) حديث : أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها . أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع . (٤) حديث : صلى في خميسة لها علم . الحديث ، متفق عليه ، وقد تقدم في الصلاة . (٥) حديث : لبس خاتما فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال : « شغلني هذا عنكم » . الحديث « تقدم . (٦) حديث : احتذى ثعلبين جديدين فأعجبه حسنهما . الحديث ، تقدم . (٧) حديث سنان بن سعد : حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار . الحديث ، رواه أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله : وأمر أن يحاك له أخرى ، فهي عند الطبراني فقط ، وفيه زمعة بن صالح ضعيف ، ويقع في كثير من نسخ الإحياء : « سار بن سعد وهو غلط » . (٨) حديث جابر : دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى . الحديث . أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف . (٩) حديث إن من خيار أمتي فيما أنبأني الملا الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة راحة ربهم ، ويبسكون سرا من خوف عذابه . الحديث ، تقدم ، وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضمه . (١٠) حديث « من أحبني فليستن بسنتي » تقدم في النكاح . (١١) حديث « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين » . الحديث « رواه أبو داود والترمذي وصححه ، وابن ماجه من حديث الربيع بن سارية . (١٢) حديث قال لعائشة : « إن أردت اللحد في قبالك ومجالسة الأغنياء » أخرجه الترمذي وقال غريب ، والحاكم وصححه من حديث عائشة ، وقد تقدم .
- (٣٠ — إحياء علوم الدين — ٤)

واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كفيه من الرسغين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من ريشه . وقال الثوري وغيره : ألبس من الثياب مالا يشرك عند العلماء ولا يحقره عند الجهال ، وكان يقول : إن الفقير ليثر بي وأنا أصلي فأدعه يحوز ، ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعاليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يحوز . وقال بعضهم قوّمث ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق . وقال ابن شبرمة : خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته . وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ، ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة : ثوب لله وهو ما يستر العورة ، وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه ، وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه . وقال بعضهم : من رق ثوبه رق دينه . وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهما ، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قصيص ومزرتحتة ، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف : أول الناسك الذي ، وفي الخبر ، البذاذة من الإيمان ، وفي الخبر « من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة في ثخات الياقوت ، وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي . ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ ، فقال : انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق — وكان عليه ثياب رفاق ، وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزته ، فجعل يتكلم في الزهد ، فوضع أبي ذر راحته على فيه وجعل يضرب به ، فغضب ابن عامر ، فشكا إلى عمر فقال : أنت صنعت بنفسك ، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرم الله وجهه : إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقبض بهم الغنى ولا يزرى بالفقر فقره . ولما عوتب في خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقبض به المسلم . ونهى صلى الله عليه وسلم عن التمتع وقال : « إن الله تعالى عابدا ليسوا بالمتنعين »^(١) ، ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا فقيل له : أنت الأمير وتفعل هذا ؟ فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء ، وأمرنا أن نحقق أحيانا^(٢) . وقال على لعمر رضى الله عنهما : إن أردت أن تلحق بصاحبك فارفع القميص ونكس الإزار واخشف النعل وكل دون الشبع . وقال عمر : اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقيصر ، وقال على كرم الله وجهه : من تريا بزي قوم فهو منهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن من شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون في الكلام^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقه ، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، وما أسفل من ذلك ففي النار ، ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا^(٤) ، وقال أبو سليمان الداراني : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلبس الشعر من أمتي إلا مرام أو أحق^(٥) ، وقال الأوزاعي : لباس الصوف في السفر سنة ، وفي الحضر بدعة . ودخل محمد بن واسع

(١) حديث : نهى عن التمتع وقال : « إن الله تعالى عابدا ليسوا بالمتنعين » أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وقد تقدم .
 (٢) حديث فضالة بن عبيد : نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء ، وأمرنا أن نحقق أحيانا . أخرجه أبو داود بإسناد جيد .
 (٣) حديث « إن من شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم ... الحديث » رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف .
 (٤) حديث « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقه ... الحديث » رواه « أولئك شرار أمتي » وقد تقدم .
 (٥) حديث أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي : كلا الحديثين محفوظ .
 (٥) حديث أبي سليمان « لا يلبس الشعر من أمتي إلا مرام أو أحق » لم أجده له إسنادا .

على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف ؛ فقال له قتيبة : مادعاك إلى مدرعة الصوف ؟ فسكت فقال : أكلهم ولا يجيئني . فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي ، أو فقرا فأشكوري . وقال أبو سليمان : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه : أن وار عورتك من الأرض ، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحداً سوى السراويل ؛ فإنه كان يتخذ سراويلين ؛ فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة ، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه : مالك لا تلبس الجيد من الثياب ؟ فقال وما للعبد والثوب الحسن ، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبداً . ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي . وقال الحسن لفرقد السبخي : تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك ، بلغني أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا : وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفها ويلبسها ، فقلت : إنك تسكس خيرا من هذا ؛ فقال : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة ، لجعل يحيى ابن معين يحدث بها ويبيكي .

(المهم الثالث) المسكن ، وللزهد ، فيه أيضا ثلاث درجات (أعلاها) أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة . (وأوسطها) أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف أو خص أو ما يشبهه (وأدناها) أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة ؛ فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرج منه هذا القدر عن آخر درجات الزهد ، فإن طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن ؛ فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو الطين أو بالآجر ، واختلاف قدره بالسعة والضيق ، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكاً أو مستأجراً أو مستعاراً ، والزهد مدخل في جميع ذلك . وبالجمله كل ما يراى للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة ، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته ، وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى ، وأقل الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جداً ، وقد قيل : أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد ، يعني بالتدريز : كف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلا والتشييد : هو البنيان بالجص والآجر ، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد^(١) . وقد جاء في الخبر دياتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه كان قد علا بها^(٢) . ومر عليه السلام بجنبذة معلاة فقال لمن هذه ؟ قالوا لفلان ، فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر ، فذهب فهدمها ؛ فرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالموضع فلم يرها . فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير^(٣)

(١) حديث : كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد . أما شل الثياب من غير كف فروى الطبراني والمالك أن عمر قطع مافضل عن الأصابع من غير كف وقال . هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما البناء في الصحابين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة : فصفوا النخل قبل المسجد وجعلوا عضاديه الحجارة ... الحديث ، ولها من حديث أبي سعيد : كان المسجد على عريش فوقف المسجد . (٢) حديث : أمر العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها . رواه الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « اهدمها ... الحديث » وهو منقطع .

(٣) حديث : مر بجنبذة معلاة فقال « لمن هذه ؟ » فقالوا : فلان ، فلما جاءه الرجل أعرض عنه ... الحديث . أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ : فرأى قبة مفرقة الحديث ، والجنبذة القبة .

وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ^(١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الماء والطين ^(٢) ، وقال عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصاً ، فقال : ما هذا ؟ ، قلنا خص لنا قد وهى فقال : أرى الأمر أعجل من ذلك ^(٣) ، واتخذ نوح عليه السلام بيتاً من قصب ، فقيل له : لو بنيت ؟ فقال : هذا كثير لمن يموت ، وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محرز وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له : لو أصلحته ؟ فقال : كم من رجل قدمنا وهذا قائم على حاله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة ^(٤) ، وفي الخبر : كل نفقة في الأرض يؤثر عليها إلا ما أنفق في الماء والطين ^(٥) ، وفي قوله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ إنه الرياسة والتطاؤل في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم : كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حر أو برد ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله : اتسع في السماء ^(٧) ، أى في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بخص وأجر ، فكبر وقال : ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون ؛ يعنى قول فرعون ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ يعنى به الآجر ، ويقال : إن فرعون هو أول من بنى له بالخص والآجر ، وأول من عمله هامان ، ثم تبعهما الجبارة ، وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعاً في بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنيًا من الجريد والسعف ، ثم رأيت من رهص ، ثم رأيت الآن مبنيًا باللبن ، فكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهص ، وكان أصحاب الرهص خيراً من أصحاب اللبن . وكان من السلف من يبني داره مراراً في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان ، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه ، فإذا رجع أعاده ، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهى عادة العرب الآن ببلاد اليمن ، وكان ارتفاع بناء السقف قامه وبسطة . قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف . وقال عمرو بن دينار : إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك : إلى أين يا أفسق الفاسقين ؟ وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال : لولا نظر الناس لما شيدوا فالتظر إليه معين عليه . وقال الفضيل : إن لم أعجب من بنى وترك ، ولكن أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البرازين ، يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير دينكم .

- (١) حديث الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة . . . الحديث ، رواه ابن حبان في الثقات ، وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسلًا . والطبراني في الأوسط من حديث عائشة : من سأل عنى أوسره أن ينظر إلى فليتنظر إلى أشعث شاحب مشر لم يضع لبنة على لبنة . . . الحديث ، وإسناده ضعيف .
- (٢) حديث : إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الماء والطين ، رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد ، خضره في الطين والابن حتى يبنى . . . (٣) حديث عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصاً اتفاد وهى الحديث . رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه .
- (٤) حديث : من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة أن يحمله ، رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه إير وانقطاع .
- (٥) حديث : كل نفقة العبد يؤثر عليهم إلا ما أنفق في الماء والطين ، رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الارت بإسناد جيد بافظ : إلا في التراب أو قال في البناء . . . (٦) حديث : كل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد ، رواه أبو داود من حديث أس بإسناد جيد بافظ : إلا مالا ، يعنى مالا بد منه .
- (٧) حديث قال للرجل الذى شكى إليه ضيق منزله : اتسع في السماء ، قال المصنف : أى في الجنة . رواه أبو داود في المراسيل من رواية اليسع بن المنيرة قال : شكى خالد بن الوليد فذكره ، وقد وصله الطبراني فقال عن اليسع بن المنيرة عن أبيه عن خالد ابن الوليد ، إلا أنه قال : ارفع إلى السماء واسأل الله السعة ، وفي إسناده ابن .

(المهم الرابع) أثاث البيت ، وللزهد فيه أيضا درجات (أعلاها) حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفي ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز، وهذا حكم كل أثاث ، فإنه إنما يراد المقصود ، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة . ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخنزف في كل ما يكفي فيه الخنزف ولا يبال بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به (وأوسطها) أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد ، كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها ، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف (وأعلاها) أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس ، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول، ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف ^(١) . وقال الفضيل : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة من آدم حشوها ليف ^(٢) . وروى : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس ، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام ، فدمعت عيناه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما لذي أبكاك يا ابن الخطاب ؟ قال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك ، وذكرت وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أما ترى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ، قال : بلى يا رسول الله ؟ قال : فذلك كذلك ^(٣) ، ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال : يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال : إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا ، فقال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا ، فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له : مامعك من الدنيا ؟ فقال : معى عصا أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها ، ومعى جرابي أحمل فيه طعامي ، ومعى قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ، ومعى مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة ، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى ، فقال عمر : صدقت رحمك الله وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها ستر وفي يديها قلبين من فضة ، فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي ، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أبو رافع فقال : من أجل التستر والسوارين ، فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت : قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى ، فقال : اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة ، فباع القلبين بدرهمين ولصف وتصدق بهما عليهم ، فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال : بآبي أنت قد أحسنت ^(٤) ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكه

(١) حديث عائشة : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف . رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، وابن ماجه . (٢) حديث : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ووسادة من آدم حشوها ليف . رواه الترمذي في الدلائل من حديث حفصة بقصة العبادة ، وقد تقدم ، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه . (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه ... الحديث ، متفق عليه من حديثه ، وقد تقدم .

(٤) حديث : قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع ... الحديث ، لم أره يحوط ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد : أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع ، فقالت فاطمة لعل : أنظر فأرجعه . الحديث رواه النسائي من حديث ثوبان باسناد جيد قال : ==

وقال « كلما رأيت ذكرك الدنيا أرسلني به إلى آل فلان »^(١) ، وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية ؛ فما زال يتقلب ليلته ، فلما أصبح قال لها « أعيدي العباءة الخلقعة ونحي هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة »^(٢) ، وكذلك أتته دنائير خمسة أو ستة ليلا فيبيتها ، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل . قالت عائشة رضى الله عنها : فنام حينئذ حتى سمعت غطيظه ثم قال « ما ظن محمد بربه لو اتى الله وهذه عنده »^(٣) ، وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار مالا حدم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط : كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه .

(المهم الخامس) المنكح ، وقد قال قائلون : لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته ، وإليه ذهب سهل ابن عبد الله وقال : قد حجب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف زهد فيهن ؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال : كان أزهد الصحابة على بن أبي طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية . والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال : كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغوم ، والمرأة قد تكون شاغلا عن الله . وكشف الحق فيه : أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح ، فيكون ترك النكاح من الزهد ، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب ، فكيف يكون تركه من الزهد ؟ وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فائدة واسكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إلىهن والانس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد ، فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلا ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات ، واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره ، إذ لم تكن هي المقصد والمطلب ، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء ، لأن في ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله ، فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى ، وهذا ما عناه سهل لا محالة ، ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن^(٤) فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرّد لذة الوقاع والنظر ، ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء ، فأكثر الناس يشغلهم

== جاءت ابنة هبيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فتخ من ذهب .. الحديث . وفيه : أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب . وفيه « يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار » وأنه خرج ولم يقعد ، فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بهنما عبد فأعتقته ، فلما سمع قال « الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار » .

(١) حديث : رأى على باب عائشة سترًا فهتكه ... الحديث . أخرجه الترمذي وحسنه ، والنسائي في الكبرى من حديثها . (٢) حديث : فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا . وفيه : كان ينام على عباءة مثنية ... الحديث ، رواه ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت : دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراشا رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إلى بفراش أحشود صوف ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هذا .. » الحديث . وفيه : أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته ، وفيه بحال بن سعيد مختلف فيه ، والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الدجائل .

(٣) حديث : أتته دنائير خمسة أو ستة عشاء فيبيتها فسهر ليله .. الحديث ، وفيه « ما ظن محمد بربه لو اتى الله وهذه عنده » أخرجه أحمد من حديث عائشة بأسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه « يا عائشة ، ما فعلت بالذهب » جاء ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة لجعل يلقبها بيده ويقول « ما ظن محمد .. » الحديث « وزاد « انفقها » ورواية : سبعة أو تسعة دنائير ، وله من حديث أم سلمة بأسناد صحيح : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شام الوجه ، قالت : لحبت ذلك من وجع ، فقلت : يا بني الله ، مالك شام الوجه ؟ فقال « من أجل الدناير السبعة التي أتتنا أمس أمسينا وهي في خصم الفراش » وفي رواية « أمسينا ولم تنفقها » (٤) حديث : كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن ، تقدم في النكاح

كثرة النسوان ، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فليترك واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك .

قال أبو سليمان : الزهد في النساء : أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة .

وقال الجنيد رحمه الله : أحب للبريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث والتزوج . وقال : أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمة ؛ فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا .

(المهم السادس) ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو المال والجاء : أما الجاء فعناء ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال ، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجته وافترق إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يخدم بخدمته ، وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاء ؛ وهذا له أول قريب ولكن يتأدى به إلى هاوية لا عمق لها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم ، فأما النفع فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر ، وإنما يحتاج إلى الجاء في قلب من يخدم بغير أجرة ، وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاء في بلد لا يكمل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان ، وقدر الحاجة فيه لا يضبط لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب ، والخائض في طلب الجاء سالك طريق الهلاك ، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار ، فكيف بين المسلمين ، فأما التوهّمات والتقدير التي تتحوّل إلى زيادة في الجاء على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة ، إذ من طلب الجاء أيضا لم يخل عن أذى في بعض الأحوال ، فمعالج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاء ، فإذا طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا ، واليسير منه داع إلى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحتزن من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعنى القليل منه ، فإن كان كسوبا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب ، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سقفه وقام ، هذا شرط الزهد ؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقربائهم جميعا ، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد ، فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد . وقولنا : إنه خرج من حدّ الزهاد نعني به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودّة لا يناله ، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة ، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل ، وقد قال أبو سليمان : لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء : معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه . كل ذلك في عياله ، نعم لا ينبغي أن يجيهم أيضا فيما يخرج عن حدّ الاعتدال ، وليتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين ، لأن ذلك من الزينة لا من الحاجة ، فإذا ما يضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل ، والمقتصر على الضرورة دواء

نافع ، وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره ، فن احتاط فإنما يحتاط لنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرق الناجية لا محالة . والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن يلنسب إلى الدنيا ، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط . ويدل عليه ما روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه ، فرجع مهموما ، فأوحى الله تعالى إليه : لو سألت خليلك لأعطاك ، فقال : يارب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئا ، فأوحى الله تعالى إليه : ليس الحاجة من الدنيا . فإذن قدر الحاجة من الدين ، وما وراء ذلك وبال في الآخرة ، وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه ، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيا كلونه ، وربما يكونون أعداء له ، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينهم عليها ، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه ، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيد به بما يشتهي حتى تظهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاء والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراعاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصده الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ، ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة . فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا ، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة ، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كمن ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين ، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم بيدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره ، فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب مخصوصا به لا بطريق السراية إليه من غيره ، فهذا أول عذاب يلقيه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى ، وعند الحجاب تسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب . قال الله تعالى ﴿ كلا لمنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ه ثم لمنهم لصالو الجحيم ﴾ فترتب العذاب بالنار على ألم الحجاب ، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار ، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ؟ فنسأل الله تعالى أن يقرر في أسماعتنا ما نفث في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قيل له : أحبب من أحببت فإنك مفارقة (١) . وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر :

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ما هو ناجية

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه لإهلاك دود القز نفسه : رفضوا الدنيا بالسكينة ، حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتهم قاتم مجانين ، ولو رأوا خياركم قالوا

(١) حديث : نفث في روعه أحب من أحببت فانك مفارقة ، تقدم .

ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا اشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض لهم المال الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساد ، والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ . وقال تعالى ﴿ فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ ذلك مبالغهم من العلم ﴿ فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احلني معك في سياحتك ، فقال : أخرج مالك والحقني . فقال : لا أستطيع ، فقال عيسى عليه السلام : بعجب يدخل الغنى الجنة - أو قال بشدة - وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات : ملكان بالشرق وملكبان بالمغرب ، يقول أحدهم بالشرق : يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً . ويقول اللذان بالمغرب ، أحدهما : لدوا للوث وابنوا للخراب . ويقول الآخر : كلوا وتمتعوا بطول الحساب .

بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ؛ فإن ترك المال وإظهار الحشونة سهل على من أحب المدح بالزهد ، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له ، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة ، بل لابد من الزهد في المال والجاء جميعاً حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة ، كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال : وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يقهون بذلك على الناس ليهدي إليهم مثل لباسهم ، لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقر وافيعطوا كما تعطى المساكين ، ويحتجون لنفوسهم بأتباع العلم وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعملة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق ، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعموا بتصفية أسرارهم ولا تهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوا حالاً لهم ، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله ؛ فإذا من معرفة الزهد أمر مشكل ، بل حال الزهد على الزاهد مشكل .

وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات (العلامة الأولى) أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ بل ينبغى أن يكون بالضد من ذلك : وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده (العلامة الثانية) أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه (العلامة الثالثة) أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله ، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح ، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان ، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ، ولذلك قيل لبعضهم : إلى ماذا أفضى بهم الزهد؟ فقال : إلى الأنس بالله ؛ فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان .

وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما ، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها ، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام :

اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي .

وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه شغل عن الناس — وهذا مقام العاملين . ومن شغل بربه شغل عن نفسه — وهذا مقام العارفين . والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين ، ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم ، ولا يستدل بإمساكه قليلاً من المال على فقد زهده أصلاً .

قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان : أكان داود الطائي زاهداً ؟ قال : نعم . قلت : قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين ديناراً فأنفقها في عشرين سنة ، فكيف كان زاهداً وهو يمسك الدنانير ؟ فقال : أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ، وأراد بالحقيقة الغاية ، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه ، وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجراً كما فعله المسيح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيباً وإن قل ، فإن أمثالنا لا يستجري على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه . وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علينا أن الله تعالى لا يتعاطفه شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتماداً على الجود المجاوز لكل كمال .

فإذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم ، وذلك لتلبية الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة : مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها .

وقيل : علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطاً أو أعمر مسجداً .

وقال يحيى بن معاذ . علامة الزهد : السخاء بالموجود .

وقال ابن خفيف : علامته وجود الراحة في الخروج من الملك . وقال أيضاً : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف .

وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفاً بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم .

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سري : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه .

وقال النصر أباذي : الزاهد غريب في الدنيا ، والعارف غريب في الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث : عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة . وقال أيضاً الزاهد الله يسعطك الخل والخرذل ، والعارف يشمك المسك والعنبر . وقال له رجل : متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك ، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضاً : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها ويلتفت شعرها ويحرق ثوبها ، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السري : مارست كل شيء من أمر الزهد فملت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإنني لم أبلغه ولم أطلقه .

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشركه في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا .

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت . الرافع السماء بغير عمد ، المقدر فيها أرزاق العباد . الذي صرف أعين ذوى القلوب والألباب ، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ما عداه والاعتماد على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق ، وأنه مامن ذرة إلا إلى الله خلقها ، ومامن دابة إلا على الله رزقها ؛ فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

والصلاة على محمد قانع الأباطيل ، الهادى إلى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

(أما بعد) فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالي درجات المقربين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل ، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عايتها شرك في التوحيد ، والتشاكل عنها بالكيفية طعن في السنة وقدح في الشرع ، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير في وجه العقل ، وانغماس في غمرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سمسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا . ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقديم ، ثم نردفه بالتوحيد في الشطر الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

بيان فضيلة التوكل

أما من الآيات ، فقد قال تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ وأعظم بمقام موسوم بحجة الله تعالى صاحبه ، ومضمون كفاية الله تعالى ملابسه ، فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه : فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب . وقال تعالى ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل : هو المكذب لهذه الآية . فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ وقال عز وجل ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ أى عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذبجابه والتجأ إلى

ذمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . وقال تعالى ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر . حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه . وقال تعالى ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ وقال عز وجل ﴿ والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ وقال عز وجل ﴿ يدبر الأمر مامن شفيح إلا من بعد إذنه ﴾ وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار .

وأما الأخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهياتهم ، فقيل لي : أترضيت ؟ قلت : نعم ، قيل : ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب . قيل : من هم يا رسول الله ، قال الذين لا يكتبون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة وقال . يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم اجعله منهم ، فقام آخر فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : سبقك بها عكاشة ^(١) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو ونخاصا وتروح بطانا ^(٢) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب : ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها ^(٣) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : من سره أن يسكن أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه ^(٤) ، ويروى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا إلى الصلاة ، ويقول : بهذا أمرني ربي عز وجل ، قال عز وجل ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ ^(٥) الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : لم يتوكل من استرقى واكتوى ^(٦) .

وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقدرى إلى النار بالمنجنيق : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، وفاء بقوله حسبى الله ونعم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ ايرى ، فأنزل الله تعالى ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ، مامن عبد يعتصم بي دون خلقى فتكديه السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا .

وأما الآثار . فقد قال سعيد بن جبير : لدغتنى عقرب فأقسمت على أمى المسترقين ، فساوات الراقى يدي التى لم تلدغ .

(١) حديث ابن مسعود : أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل . . . الحديث . رواه ابن منبج بإسناد حسن ، وافق عليه الشيخان من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير . . . الحديث . أخرجه الترمذى والمالك وصحاحه من حديث عمر ، وقد تقدم . (٣) حديث : من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة . . . الحديث . أخرجه الطبراني في الصغرى وابن أبى الدنيا ، ومن طريقه البيهقى في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصير ولم يسمع منه ، وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم . (٤) حديث : من سره أن يسكن أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه . رواه الحاكم والبيهقى في الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

(٥) حديث : كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا إلى الصلاة . ويقول : بهذا أمرني ربي . قال تعالى ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ رواه الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية . ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه . (٦) حديث : لم يتوكل من استرقى واكتوى . أخرجه الترمذى وحسنه والذہاني في الكبير والطبراني واللفظ له ، إلا أنه قال : أو من حديث المنيرة بن شعبة ، وقال الترمذى : من اكتوت أو استرق فقد برئ من التوكل . وقال النسائي : ما توكل من اكتوى أو استرق .

وقرأ الخواص قوله تعالى ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ إلى آخره ، فقال : ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى منامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك . وقال يحيى بن معاذ : فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد . وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل ؟ فقال لى : ليس هذا العلم عندى ولكن سأل ربى من أين يطعمنى ؟ .

وقال هرم بن حيان لأويس القرنى : أين تأمرنى أن أكون ؟ فأوما إلى الشام . قال هرم : كيف المعيشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة . وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكبلا وجدت إلى كل خير سبيلا . نسأل الله تعالى حسن الأدب .

بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من باب الإيمان ، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من - علم هو الأصل و - عمل - هو الثمرة و - حال - هو المراد باسم التوكل .

فلنبداً ببيان العلم الذى هو الأصل وهو المسمى إيماناً فى أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوى سمي يقيناً ، ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذى يترجمه قولك (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) والإيمان بالقدره التى يترجم عنها قولك (له الملك) والإيمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك (وله الحمد) فمن قال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) تم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازماً لقلبه غالباً عليه ، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة ؛ ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها ، فإذن لا نتعرض إلا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لا ساحل له ، فنقول .

للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر . ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا فإن له قشرتين ، وله لب ، وللب دهن هو لب اللب ، فالرتبة الأولى من التوحيد : هى أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله) وقلبه غافل عنه أو منكراً له كتوحيد المنافقين . والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام . والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار . والرابعة : أن لا يرى فى الوجود إلا واحداً ، وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ؛ فالأول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان . والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه غال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه الشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضمف

بالمعاصى عقده ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلما ، وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تتحل عقده . والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا إذا انكشف له الحق كما هو عليه . ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ، لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذ لم يفارق المتكلم العامى فى الاعتقاد بل فى صنعة تليق الكلام الذى به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد ؛ فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثانى كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب . وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مزمع المذاق ، وإن نظر إلى باطنه فهو كريبه المنظر ، وإن اتخذ حطباً أطفأ النار وأكثر الدخان ، وإن ترك فى البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مدموم الظاهر والباطن ؛ لكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت : والقشرة السفلى هى القلب والبدن . وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينفع بها حطباً لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التى تحصل بانسراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه ، إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وكما أن اللب نفيس فى نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .

هـ فإن قلت . كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحد وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهى كثيرة ؛ فكيف يكون الكثير واحداً ؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات . وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر فى كتاب ، فقد قال العارفون : إفشاء سر الربوبية كفر ، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة ، نعم ذكر ما يسر سورة استبعادك ممكن . وهو أن الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد ؛ فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد ، وكل من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه ، والفرق بينهما أنه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفرق وكأنه فى عين الجمع ، والمثلثات إلى الكثرة فى تفرقه ، فكذلك كل ما فى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو باعتبار واحد من

الاعتبارات واحد ، وباعتبارات آخر سواء كثير ، وبعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينفه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ، ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك . وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر ، والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال : فيماذا أنت ؟ فقال : أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل وقد كان من المتوكلين ؛ فقال الحسين : قد أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الفناء في التوحيد ؟ فكان الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال .

« فإن قلت : فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه ، فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه ، وليس التوكل أيضا مبنيا عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث . وأما الأول وهو النفاق فواضح وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في عالم الكلام ، وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذي يبنى عليه التوكل ، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط بالتوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله : أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه ثقته وعليه انكالك ، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغى به أن يترقى إلى قلبك شائبة الشرك بسبيين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثاني الالتفات إلى الجمادات ، أما الالتفات إلى الجمادات فسكاعتقادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم في نزول المطر ، وعلى البرد في اجتماع الغيم ، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها : وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ قيل : معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجوننا . ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يتحرك محرك ، وكذلك محرك ، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل ؛ فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي الالتفات من أخذ لتحز رقبتك فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الخبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول . لولا القلم لما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب ، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والخبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب ، بل هذا تمثيل في جفك لاعتقادك أن الملك

الموقع هو الكاتب التوقييع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فإذا انكشف لك أن جميع مافي السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأناك في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره ؛ فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حزن رقبتك وإن شاء عفا عنك ، فكيف لا تخافه ، وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ، ويقول له أيضا نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ، وعند هذا زل أقدام الاكثرون إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا ، وعرفوا أن غلط الضعفاء في ذلك كغلط النمل مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ، ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود لليباض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدة قوتها ، فكذلك من لم يشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوق في الطريق على الكاتب وهو جهل محض ، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسييحها لله تعالى ومهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ، ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز بالأصوات ، فإن الحارثريك فيه ، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم ، وإنما أريد به سميع يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي .

فإن قالت : فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقرئت ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ؟ فاعلم أن لكل ذرة في السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر ﴾ الآية ، ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والمملوك ، وإفشاء السراوم ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار ملك قد نوجى بخفائيه فنادى بسرره على ملا من الخائن ، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (١) ، بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكون ولا يضحكون . ولما نهى عن إفشاء سر القدر (٢) ولما قال « إذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا » (٣) ، ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار (٤) . فإذا عن حكايات مناجاة ذرات الملك والمملوك لأرباب المشاهدات مانعان (أحدهما) استحالة إفشاء السر (والثاني) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكننا في المثال الذي كنا فيه - وهي حركة القلم -

(١) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ... الحديث » تقدم غير مرة . (٢) حديث النهي عن إفشاء سر القدر : رواه ابن عدى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر « القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره » لفظ أبي نعيم ، وقال ابن عدى « لا تسكلموا في القدر فإنه سر الله الحديث » وهو ضعيف . وقد تقدم .
(٣) حديث « إذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث » أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء ، وتقدم في العلم . (٤) حديث : أنه خص حذيفة ببعض الأسرار ، تقدم .

نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ؛ ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن حروفا وأصواتا ، ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للسكاغذ وقد رآه اسود وجهه بالخبر : ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد ؟ فلم سودت وجهك ؟ وما السبب فيه ؟ فقال الكاغذ : ما أنصفتني في هذه المقالة ، فإنني ماسودت وجهي بنفسي ولكن سل الخبر فإنه كان مجموعا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا ، فقال : صدقت ، فسأل الخبر عن ذلك ؟ فقال : ما أنصفتني فإنني كنت في المحبرة وادعنا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها ، فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد ، واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادي وفرق جمعي وبددني كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لا على ؟ فقال صدقت ، ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراج الخبر من أوطانه فقال : سل اليد والأصابع فإنني كنت قصبا نابتا على شط الأنهار متنزها بين خضرة الأشجار ، فجاءتني اليد بسكين ففتحت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أبيي ، ثم برتني وشقت رأسي ، ثم غمستني في سواد الخبر ومرارته وهي تستخدمني وتمشي على قمة رأسي ، ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك ، ففتح عني وسل من قهري ، فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه ؟ وإنما أنا مركب مسخر ركبي فارس يقال له القدرة والعزة ، فهي التي ترددني ، وتجول بي في نواحي الأرض ، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ، فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم ، فسل القدرة عن شأني فإنني مركب أزجني من ركبي ، فقال صدقت ، ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت : دع عنك لومى ومعاتبى ، فكم من لأم ملوم ، وكم من ملوم لا ذنب له ، وكيف خفي عليك أسرى ؟ وكيف ظننت أني ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك ، وما كنت أحركها ولا استسخرها ، بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أني ميتة أو معدومة ، لأنى ما كنت أنحرك ولا أحرك حتى جاءني موكل أزجني وأرهقني إلى ما تراه منى ، فكانت لي قوة على مساعدته ، ولم تكن لي قوة على مخالفته ، وهذا الموكل يسمى الإرادة ، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله ، إذ أزجني من غمرة النوم وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأى ، فقال : صدقت ، ثم سأل الإرادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقا لم تجد عنه خلاصا ولا مناصا ، فقالت الإرادة : لا تعجل على فاعل لنا عذرا وأنت تلوم ، فإن ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت وما انبعثت ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر جازم ، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطراب فإن مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا أدري بأى جرم وقعت عليه وسخرت له وألزمت طاعته ، لكنى أدري أنى في دعة وسكون ما لم يرد على هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته لإزاما ، بل لا يبقى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة ، لعمرى مادام هو فى التردد مع نفسه والنحير فى حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه أزججت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك ،

فإني كما قال القائل :

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراجلون هم

فقال صدقت، وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً لهم ومعاتباً إياهم على استنهاز الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة ، فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكن أشعلت ، وقال القلب : أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت ، وقال العلم : أما أنا فنتش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى ، فكأن هذا اللوح قبل خالياً عني ، فسل القلم عني لأن الخط لا يكون إلا بالقلم ، فعند ذلك تتعج السائل ولم يقنعه جواب وقال : قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازل ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكني كنت أطيّب نفساً بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً لا في الفؤاد وعذراً ظاهراً في دفع السؤال : فأما قولك : إني خط ونقش ، وإنما خطي قلم فليست أفهمه فإني لا أعلم قلماً إلا من القصب ، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطاً إلا بالحبر ، ولا سراجاً إلا من النار ، وإني لا أسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئاً : أسمع جمجمة ولا أرى طحناً : فقال له القلم : إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف ، واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة : فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد . واعلم أن الدوالم في طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثاني عالم الملكوت وهو ورأى ؛ فإذا جاوزتني انتهيت إلى منزله وفيه المهابة الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ، ولا أدري كيف تسلم فيها ، والثالث هو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ، ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزلة القدرة والإرادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ؛ لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء ، فلا هي في حد اضطراب الماء ، ولا هي في حد سكون الأرض وثبوتها ، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة ؛ فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت ؛ فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعج ؛ وإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي ، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء ، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام : لو ازداد يقيناً لمشي على الهواء (١) ، لما قيل له إنه كان يمشي على الماء ، فقال السالك السائل : قد تحيرت في أمرى واستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدري أطيع قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا ؟ فهل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع باباً من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ﴿ اقرأ وربك

(١) حديث : قيل له إن عيسى يمشي على الماء ، قال : لو ازداد يقيناً لمشي على الهواء ، تقدم .

الأكرم • الذي علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم ﴿ فقال السالك : لقد فتحت بصري وحدقت ، فوالله ما أرى قصباً ولا خشباً ، ولا أعلم قلماً إلا كذلك ، فقال العلم : لقد أبعدت النجعة ، أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذرات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلبه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي ، ولا قلبه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولا خطه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مختثاً بين خولة التنزيه وأثوثة التشبيه ، مذبذباً بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ؟ ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلبه ولوحه وخطه ؟ فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق آدم على صورته ، الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكان مشبهاً مطلقاً ، كما يقال : كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلعب بالتوراة ، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكان منزهاً صرفاً ومقدساً خلاً ، واطو الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجدد على النار هدى ، ولعلك من سبرات العرش تنادى بما نودى به موسى ﴿ إني أنا ربك ﴾ فلما سمع السالك من الدلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه مختث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه ناراً من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيتته الذي في مشكاة قلبه يسكاد يعنى ولو لم تمسه نار ، فلما نفخ فيه العلم بجذته اشتعل زيتته فأصبح نوراً على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره فأنكشف له القلم الإلهي ، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه : ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكان له في كل قلب رأساً ولا رأس له ، ففضى منه العجب وقال : نعم الرفيق العلم ، لجراه الله تعالى عن خيرا ، إذ الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم : فإني أراه قلماً لا كالأقلام ؛ فعند هذا ودع العلم وشكره وقال : قد طال مقامى عندك ومرادى لك ، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه ، فسافر إليه وقال له : ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ماتبعث به الإرادات إلى إشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات ؟ فقال : أو قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سأله فأحالك على اليد ؟ قال : لم أنس ذلك . قال : فجوابي مثله جوابه . قال : كيف وأنت لا تشبهه ؟ قال القلم : أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ قال نعم . قال فسل عن شأن الملقب بيمين الملك فاني في قبضته ، وهو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر ؛ فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة . فقال : فمن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى ﴿ والسماوات مطويات بيمينه ﴾ ؟ قال : نعم . قال : والأقلام أيضاً في قبضة يمينه هو الذي يرددها ، فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه ، بل لا تحوى مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه ، والجملة فيه أنه يمين لا كالإيمان ، ويد لا كالأيدي ، وأصبع لا كالأصابع ؛ فرأى القلم محزكاً في قبضته ، فظهر له عذر القلم ، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم ؟ فقال : جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحسالة على القدرة ، إذ اليد لا تحكم لها في نفسها وإنما

محركها القدرة لا محالة ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقق عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت : إنما أنا صفة فأسأل القادر ، إذ العمدية على الموصوفات لأعلى الصفات ، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة (لا يستل عما يفعل وهم يستلون) فغشيته هيبة الحضرة ، فخر صغقا يضطرب في غشيته ، فلما أفاق قال : سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ، وما لى إلا أن أسألك وأنضرع إليك وأبتهل بين يديك ، فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك واحمل عقدة من لسانى لأثنى عليك ؛ فنودى من وراء الحجاب : إياك أن تطمع فى الثناء وتزبد على سيد الأنبياء ، بل إرجع إليه فما آتاك نخذه وما نهاك عنه فانته عنه ، وما قاله لك فقله ؛ فإنه ما زادنى هذه الحضرة على أن قال « سبحانك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (١) ، فقال : لاهى ، إن لم يكن للسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع فى معرفتك ، فنودى : إياك أن تتخطى رقاب الصديقين ، فارجع إلى الصديق الأكبر فاقن به ؛ فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأبهم اقتديتم اهتديتم ، أما سمعته يقول : العجز عن درك الإدراك إدراك ؛ فيكفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا ؛ فعند ذلك رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتبته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها : اقبلوا عذرى وإنى كنت غريبا حديث العهد بالدخول فى هذه البلاد والكل داخل دهشة ، فما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل ، والآن قد صبح عندى عذركم وانكشف لى أن المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار ، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون فى قبضته وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ؛ فلما ذكر ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له : كيف يكون هو الأول والآخر وهما وصفان متناقضان ، وكيف يكون هو الظاهر والباطن ؛ فالأول ليس بآخر ، والظاهر ليس بباطن ؛ فقال : هو الأول بالإضافة إلى الموجودات ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر ، فهو آخر فى المشاهدة أول فى الوجود ، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس ، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت ، فهذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل : أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد .

هـ فإن قلت : قد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتنى على الإيمان بعالم الملكوت ، فمن لم يفهم ذلك أو يحجده فما طريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له : إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس ، فلازموا ضياع عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فإن قال : وأنا منهم فإنى لا أهتمدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال : إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس ، فإنهم قالوا : ما نراه لا نثق به ، فلم نلنا نراه فى المنام . فإن قال : وأنا من جملتهم فإنى شك أيضا فى

(١) حديث « سبحانك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » تقدم .

المحسوسات فيقال : هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه ، فيترك أيا ما قلائل ، وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء : هذا حكم الجاحد . وأما الذى لا يحدد ولكن لا يفهم ، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التى يشاهد بها عالم الملكوت ، فإن وجدوها صحيحة فى الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحل بالابصار الظاهرة ، فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه ؛ فإن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كله بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإن فى عالم الشهادة أيضاً توحيدا ، إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين ، والبلد يفسد بأمرين ، فيقال له على حد عقله . إله العالم واحد والمدبر واحد ، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فيكون ذلك على ذوق مارآه فى عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله ، وقد كاف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عاداتهم فى المحاورة .

هـ فإن قلت : فشل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول : نعم ؛ فإن الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف فى إثارة الأحوال إلا أنه فى الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالباً ، ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده . وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا ، كما أن الذى يرى إنسانا فى وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا فى تفصيل خلقته ، وما مثال المكشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامرى ؛ فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقول فرعون ﴿ لا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ بل ﴿ قالوا إن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فافض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ فإن البيان والكشف يمنع التغير وأما أصحاب السامرى لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان ، فلما نظروا إلى بجل السامرى وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ ونسوا أنه لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ؛ فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لا محالة إذا نظر إلى بجل ، لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا نجد فيه اختلافا وتضادا أصلا .

فإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات ، وكل ذلك ظاهر إلا فى حركات الإنسان فإنه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخرا ؟ فأعلم أنه لو كان مع هذا إيمان أن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء ، لسكان هذا منزلة القدم وموقع الغلط ، ولكن علم أنه يفعل ما يشاء وإذا شاء إن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه ، إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية ، وإذا لم تكن إليه المشيئة فهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة إلى مقدرها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى الخائفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة . فالمشيئة تحدث ضرورة فى القلب . فهذا ضرورات ترتب بعضها على بعض . وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف

القدرة إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة ، فهو مضطر في الجميع
 فإن قلت : فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار ، وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبوراً مختاراً؟ أقول :
 لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور ، فهو إذن مجبور على الاختيار ، فكيف يفهم هذا من لا يفهم
 الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحاً وجيزاً يليق بما ذكره متطفلاً وتابعا فإن هذا الكتاب لم يقصد به إلا
 علم المعاملة ، ولكنى أقول لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه ، إذ يقال : الإنسان يكتب بالأصابع
 ويتنفس بالرئة والحجارة ويحرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الحرق في الماء والتنفس والكتابة ، وهذه
 الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ، ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات :
 فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلاً طبيعياً ، ونسمى تنفسه فعلاً إرادياً ، ونسمى كتابته فعلاً اختيارياً ،
 والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لا محالة
 وقد يكون الحرق بعد التخطى ضرورياً ، والتنفس في معناه فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق
 الماء إلى ثقل البدن ؛ فهما كان الثقل موجوداً وجد الانخراق بعده وليس الثقل إليه ، وكذلك الإرادة ليست إليه ،
 ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطراراً ، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تغميض
 الأجفان اضطراراً فعل إرادى ، ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض
 ضرورة ، وحدثت الحركة بها ، ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة ، فقد التحق هذا
 بالفعل الطبيعي في كونه ضرورياً . وأما الثالث - وهو الاختيار - فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق ، وهو الذي
 يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتارة لا يشاء ، فيظن من هذا أن الأمر إليه ، وهذا للجهل بمعنى
 الاختيار فلنكشف عنه وبيانه : أن الإرادة تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك ، والأشياء تنقسم إلى ما تحكم
 مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد ، وإلى ما قد يتردد العقل فيه ؛ فالذي نقطع به من غير
 تردد أن من يقصد عينك مثلاً بإبرة أو بدنك بسيف ، فلا يكون في عليك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق ، فلا جرم
 تنبعث الإرادة بالعلم ، والقدرة بالإرادة ، وتحصل حركة الأجفان بالدفع ، وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية
 وفكرة ، ويكون ذلك بالإرادة ، ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج إلى
 روية ففكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك ، فإذا حصل بالفكر والرؤية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذي يقطع
 به من غير روية ففكر ، فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان ؛ فإذا انبعثت لفعل ماضٍ للعقل
 أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير ، أى هو انبعاث إلى ماضٍ للعقل أنه خير وهو عين تلك
 الإرادة ، ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه ، إلا أن الخيرية في دفع
 السيف ظهرت من غير روية بل على البديهية وهذا افتقر إلى الروية ، فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهى التى
 انبعثت بإشارة العقل فيماله في إدراكه توقف ، وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر
 الشرين ، ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان
 أن يحرق رقبته نفسه مثلاً لم يمكنه لا لعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة
 وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقاً ، وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه
 مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق ؛ فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد؛ لأن

تردده بين شر الشرين ؛ فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شرا وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه ، كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلا وإن مهلكا ولا يبالي ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه ، فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوققت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبعث له داعية البتة ، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري ، فإنما هو محل ويجرى لهذه الأمور ، فأما أن يكون منه فسكلا ولا ، فإذا معنى كونه مجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لأمته ، ومعنى كونه مختارا أنه محل لإرادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا وحدث الحكم أيضا جبرا فإذا هو مجبور على الاختيار ، ففعل النار في الإحراق مثلا جبر محض ، وفعل الله تعالى اختيار محض ، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار ، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة ، لأنه لما كان فنا ثالثا وائتموافيه بكتاب الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه ، وفعل الله تعالى يسمى اختيارا بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد ، فإن ذلك في حقه محال ، وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز ، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه ،

هـ فإن قلت : فهل تقول إن العلم ولد الإرادة ، والإرادة ولدت القدرة ، والقدرة ولدت الحركة ، وأن كل متأخر حدث من المتقدم ؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى ، وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية ، وهو الأصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فإنهم وقفوا على كنه معناه ، والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيهه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق ، وبيان ذلك يطول ، ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب الشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة ، وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ، ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق وال لزوم ، وكذلك جميع أفعال الله تعالى ، ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهاى فعل المجانين - تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا . وإلى هذا أشار قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقوله تعالى (وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث ، وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخر إلا لا انتظار شرطه ، والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال لا يوصف بكونه مقدورا ، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ، ولا يتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم ، وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ، ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق ، بل كل ذلك بحكمة وتديير ، وتفهم ذلك عسير ، ولكننا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثلا يقرب مبادئ الحق من الأنفهام الضعيفة ، وذلك بأن

نقدر إنسانا محدثا قد انغمس في الماء إلى رقبته ، فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاقيه ، فقدرة القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط وهو غسل الوجه ، فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث ، فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيب ، إذ يقول : كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل ، بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فإذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل بضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم ، وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقى لها لا بغسل الوجه ، والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء ، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة ، فهكذا يذنب أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة ، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات ، فلترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل ، فإن الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ، ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد ، واستيفاء ذلك في عمر نوح محال ، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه ، وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله ، وما أخف مؤنته على اللسان ! وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ! وما أعز حقيقة ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم .

هـ فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع : ومعنى التوحيد : أن لا فاعل إلا الله تعالى ؛ ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد ؛ فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ؟ وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟ فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد ، وإن كان له معنيان ويكون الاسم بمحلا مرددا بينهما لم يتناقض ، كما يقال : قتل الأمير فلانا ، ويقال : قتله الجلاد ، ولكن الأمير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر ؛ فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر ؛ فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد . ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذى خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم ، فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط ، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمتخرع ، وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط ، كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا ؛ لأن القتل ارتباط بقدرتها ولكن على وجهين مختلفين ، فلذلك سمي فاعلا لها ، فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ، ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه ، فقال الله تعالى في الموت ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ ثم قال عز وجل ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ وقال تعالى ﴿ أفرأيت ما تخرجون ﴾ أضاف إلينا ثم قال تعالى ﴿ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنزلنا فيها حبا وعنبا ﴾ وقال عز وجل ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ وكان النافع جبريل عليه السلام ، وكما قال تعالى ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ قيل في التفسير : معناه إذا قرأه عليك جبريل . وقال تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه ، والتعذيب هو عين

القتل ، بل صرح وقال تعالى ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى ﴾ وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ، ولكن معناه : وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى ﴿ الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ثم قال ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ وقال ﴿ عليه البيان ﴾ وقال ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ وقال ﴿ أفرايتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام : إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا ، فيقول ، يارب ، أذكر أم أنثى ، أسوى أم معوج ؟ فيقول الله تعالى ما شاء ويخلق الملك ^(١) ، وفي لفظ آخر : ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة . وقد قال بعض السلف : إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ، ولذلك سمي روحا ، وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم ، فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرّد ، وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ، ثم قال ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ وقال ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة ، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لما عرفت ربي ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحي والمميت ، ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين ، ففي الخبر : أن ملكي الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة : أنا أحي الموتي ، فأوحى الله تعالى إليهما : كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع ، وأنا المميت والمحي لا يميت ولا يحيي سواي ^(٢) ، فإذا الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الذي ناوله التمرة : خذها ، لو لم تأتها لأنتك ^(٣) ، أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها ، وكذلك لما قال النابت : أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد ، فقال صلى الله عليه وسلم : عرف الحق لأهله ^(٤) ، فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ، ومن أضافه إلى غيره فهو المتجاوز والمستعير في كلامه ، وللتجاوز وجه كما أن للحقيقة وجهها ، واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق ، وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد ، فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس

(١) حديث : وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا . . الحديث ، رواه البزار وابن عدى من حديث عائشة : إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول : يارب ماذا ... الحديث ، وفي آخره : فإني شيء إلا وهو يخلق معي في الرحم ، وفي سنده جهالة . وقال ابن عدى : إنه منكر ، وأسلمه متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه . (٢) حديث : إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة : أنا أحي الموتي ، فأوحى الله إليهما : أن كونا على عملكما ... الحديث ، لم أجده أصلا . (٣) حديث : قال الذي ناوله التمرة : خذها لو لم تأتها لأنتك ، أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل ابن شريحيل ، ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح . (٤) حديث : عرف الحق لأهله ، تقدم في الزكاة .

وقالوا : إنَّ الفاعل قد وضعته أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل إلا الله ، فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز : أى تتجاوز به عما وضعه اللغوي له ، ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصدا أو اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «أصدق بيت قاله الشاعر قول أبيد : * ألا كل شيء ما خلا الله باطل *» (١) ، أى كل ما لا قوام له بنفسه - وإنما قوامه بغيره - فهو باعتبار نفسه باطل ، وإنما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه ، فإذا لاحق بالحقيقة إلى الحى القيوم الذى ليس كمثل شيء ، فإنه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته ، فهو الحق وما سواه باطل ، ولذلك قال سهل : يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون ، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا : كن الآن كما لم تكن فإنه اليوم كما كان .

فإن قلت : فقد ظهر الآن أن الكل جبر ، فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا ، وكيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه فى كتاب الشكر فلا نطول بإعادته ، فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة ، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ، ولا يتم حال التوكل كما سيأتى إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل ، وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول ، فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه . وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضدف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعتقاهم وعلم أعلهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعزفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ، ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة ، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر عن بلى به ، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عن أنعم الله به عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور ، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدره وإيمان وكفر وطاعة ومعصية ، فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغى وكما ينبغى وبالتقدير الذى ينبغى ، وليس فى الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لسكان عجزا يناقض الإلهية ، بل كل فقر وضرر فى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة وكل نقص فى الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره ، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة ، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة ، وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم ، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل ، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران ، وفداء

(١) حديث «أصدق بيت قالته العرب بيت أبيد : * ألا كل شيء ما خلا الله باطل *» متفق عليه من حديث أبي هريرة بألفاظ « قاله الشاعر » وفى رواية لمسلم « أشعر كلمة تكلم بها العرب » .

أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل ، وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس ، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة ، فقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا ، وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص ، فكذلك الأمر في التفاوت الذى بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة ، فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه ، وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذى تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكشفون .
والحاصل أن الخير والشر مقضى به ، وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره ، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك .
ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التى هى أصول مقام التوكل ، ونرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشرط الثانى من الكتاب

في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان ما قاله الشيوخ في حد التوكل ، وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والمعين ، وبيان التوكل بقدر الادخار وبيان التوكل في دفع المضار ، وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوى وغيره ، والله الموفق برحمته .

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من : علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العلم .
فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله والعمل ثمرته ، وقد أكثر الخائفون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم ، وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ، ولا فائدة في النقل والإكثار ، فلنكشف الغطاء عنه ونقول :

التوكل مشتق من الوكالة ، يقال : وكل أمره إلى فلان أى فوضه إليه واعتمد عليه فيه ، ويسمى الموكل إليه وكيلاً ، ويسمى المفوض إليه متوكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يهتم فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً ، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده . ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتأليب فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلاً عليه ولا واثقاً به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة . أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الخيل شيء أصلاً . وأما القدرة والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يدا من ولا يخاف ولا يستحي ولا يخبى ، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به : وأما الفصاحة فهى أيضاً من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما استجراً القلب عليه وأشار إليه : فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس : وأما منتهى الشفقة فيكون باعثاً له على بذل كل ما يقدر

عليه في حقه من المجهود ، فإن قدرته لا تغني دون العناية به إذا كان لا يهتم أمره ولا يبالي به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك ؛ فإن كان شاكا في الأربعة أو في واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكل منه لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بقي منزوع القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه ، والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر ، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله ، فإنه يحصل له يقين بتمت الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية ، وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقدرهم بياناً وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى ، فإن ثبت في نفسك كشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإن الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة ، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيبه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين ، فإن من يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله ، ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه جماد في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحويه وإن كان قادراً عليه ، كما أنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السنور أسداً وإن كان قادراً عليه ، ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعه الميت في فراش أو المبيت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات ، وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعيف قلبي يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل ، وقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه ، إذ لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته ، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام ﴿ أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ فالتمس أن يكون مشاهداً لحياة الميت بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ؛ وذلك لا يكون في البداية أصلاً ، وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب المال والمذاهب ، فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده ، وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلاً ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين ، إلا أنهم معرضون عنه ، فإذا الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها ، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل ، كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب ، وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى ؛ وقد قيل : مكتوب في التوراة : ملعون من ثقته لإنسان مثله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم

« من استعز بالعبيد أذله الله تعالى (١) » ، وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلا فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) ما ذكرناه : وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالاته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل (الثانية) وهي أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها ، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها ، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أماه ، وأول خاطر يخطر في قلبه أمه فإنها مفزعه ، فإنه قد وثق بكفالاتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طوبى بتفصيل هذه الحاصل لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلا في ذهنه ، ولكن كل ذلك وراء الإدراك ، فمن كان بالله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كاف به كما يكف الصبي بأمه فيكون متوكلا حقا : فإن الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول : أن هذا متوكل وقد فنى في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته ، بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكاف والسكسب وليس فانيا عن توكله لأن له التفاتا إلى توكله وشعورا به ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده ، وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل : ما أدناه ؟ قال : ترك الأمان . قيل : وأوسطه ؟ قال ترك الاختيار ، وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه (الثالثة) وهي أعلاها : أن يكون بين يدي الله تعالى في حركانه وسكنانه مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهو الذي قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات ، وأن كلا يحدث جبرا فيكون باثنا عن الانتظار لما يجرى عليه ، ويفارق الصبي فإن الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها ، بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفتحه وتسقيه ، وهذا المقام في التوكل يشتر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل ، فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق ، والمقام الثاني لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط .

« فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر ، والمقام الثاني والثالث أعزها ، والأول أقرب إلى الإمكان ، ثم إذا وجد الثالث والثاني فداومه أبعد منه ، بل يكاد لا يكون المقام الثالث في درامه إلا كصفرة الوجع ، فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض ، كما إن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض . والوجع عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تمنحى عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة ، فإن البشرة ستر رقيق تراه من وراءه حمرة الدم ، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم ، وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم ، وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوما ويومين ، والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول .

(١) حديث « من اعتر بالعبيد أذله الله » أخرجه الترمذي في الضعفاء ، وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر ، وأورده الترمذي في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي وقال : لا يتابع على حديثه ، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال : يخالف في روايته .

ه فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم إنَّ المقام الثالث ينفي التدبير رأساً مادامت الحالة باقية ، بل يكون صاحبها كالمبهوت . والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهاال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط . والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسننه دون صريح إشارته ، فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له : لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل بالحالة بالتدبير للحضور ، ولا يكون هذا مناقضاً توكله عليه ، إذ ليس هو فزعاً منه إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره ، بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له ؛ إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر ؛ فقوله وأما المعالوم من عادته واطراد سننه : فهو أن يعلم من عادته أن لا يحاج الخصم إلا من السجل ، فتمام توكله إن كان متوكلاً عليه : أن يكون معولاً على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها : وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاطبته ؛ فإذا لم يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ، ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصاً في توكله فكيف يكون فعله نقصاً فيه ، نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسننه وعادته وقصد ناظراً إلى حاجته فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة ، وقد كان فزعه إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسننه ، وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري ، وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتي تفصيله في الأعمال ، فإذا فزع المتوكل إلى حوله وقوته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لو لا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى ؛ فإذا لم يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إنَّ الوكيل جعله معتمداً لحاجته ، وعرفه ذلك بإشارته وسننه ، فإذا لا حول ولا قوة إلا بالوكيل ، إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقاً حوله وقوته ، بل هو جاعل لها مفيداً في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله ، وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد ، فإذا لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً ، فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله (١) ، وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ؟ وهيئات فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد ، ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة (لا إله إلا الله) وثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى ، إذ في هذه الكلمة إضافة إلى شيتين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه ، فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيتين لتعرف به ثواب (لا إله إلا الله) بالإضافة إلى هذا ، وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبيين ، فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات ، وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين ، وإلى اللبين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله : تقدمت في الدعوات .

صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة (١) ، وحيث أطلق من غير الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع ، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع ، والمعاد به المقيد بالعمل الصالح ، فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضا حديث ولكنه حديث نفس ، وإنما الصدق والإخلاص وراهما ، ولا ينصب سرير الملك إلا للمقربين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلا بالملك ، أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال ﴿ على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ﴾ ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد في ذكر الماء والظل والفواكه والأشجار والخور العين ، وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ، ويتصور ذلك للبهائم على الدوام ، وأين لذات البهائم من لذة الملك ، والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ، ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة ، أفترى أن أحوال البهائم - وهي مسية في الرياض متمتعة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد - أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوبة - من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين ، هيات هيات ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حمارا أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام ، وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه ، وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة ، فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب ، وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة ، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة ، وهؤلاء هم الذين يقال فيهم ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة ، فتركها الطلب للعجز . وأما الإنسان ففي قوته ذلك ، والقادر على نيل الكمال أخرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال . وإذا كان هذا كلاما معترضا فلنرجع إلى المقصود فقد بينا معنى قول (لا إله إلا الله) ومعنى قول (لا حول ولا قوة إلا بالله) وإن من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل .

ه فإن قلت : ليس في قولك (لا حول ولا قوة إلا بالله) إلا نسبة شيئين إلى الله ، فلو قال قائل ، السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول : لا ، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوزا ، فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة آدميين بل هما من خلق الله تعالى ، فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بجدة نظره ، فهي مهلكة خطيرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرا وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى ، فن تجاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذى يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان (إحداهما) النظر

(١) حديث « من قال لا إله إلا الله صادقاً مخلصاً من قلبه وجبت له الجنة » رواه الطبراني من حديث زيد بن أرقم ، وأبو هريرة من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .

إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيوم والمطر وسائر الجمادات (والثانية) النظر إلى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجعها ، فإذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق ، وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليتبين أن شيئاً منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال ، فقد قال أبو موسى الدبلي : قلت لأبي يزيد : ما التوكل ؟ فقال : ما تقول أنت ؟ قلت : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ماتت لك ذلك شرك . فقال أبو يزيد : نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل ، فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث ، وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذي هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة ، وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغض أنواع العلم ووراءه سر القدر ، وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطاً في المقام الأول من التوكل ؛ فقد احترز أبو بكر رضي الله عنه في الغار إذ سد منافذ الحيات ^(١) إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال : إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه ، وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغييره لا سر يرجع إلى نفسه ، والنظر في هذا مجال ، ولكن سيأتى بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل ، فإن حركة السر من الحيات هو الخوف ، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات ، إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله ، فإن احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير .

وسئل ذو النون المصري عن التوكل ؟ فقال : خلع الأرباب وقطع الأسباب ، نخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقل له : زدنا ! فقال : إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية ، وهذا إشارة إلى التبرى من الحول والقوة فقط .

وسئل حمدون القصار عن التوكل ؟ فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك داني دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك ، وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة ، وأن في المقادير أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة .

وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل ؟ فقال : التعلق بالله تعالى في كل حال ، فقال السائل : زدني ! فقال : ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك ، فالأول عام للمقامات الثلاث ، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، إذ كان سؤاله سبباً يقضى إلى سبب وهو حفظ جبريل له ، فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لذلك ، وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره ،

(١) حديث : إن أبا بكر سد منافذ الحيات في الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم . تقدم .

وهو حال عزيز في نفسه ، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز .

وقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ، ولعله يشير إلى المقام الثاني ، فسكونه بلا اضطراب : إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطراب بلا سكون : إشارة إلى فزعته إليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها .

وقال أبو علي الدقاق . التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن إلى وعده ، والمسلم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحكم يتبع الوعد ، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك ؛ وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه فلا نطول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل ، فهذا ما يتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه .

بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم بورث الحال ، والحال يثمر الأعمال ، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ، بل تكشف الغطاء عنه ونقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ، وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جاب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض ، فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة وهو جاب النافع أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه ، فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

(الفن الأول : في جاب النافع) فنقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظنا يوثق به ، وموهم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه .

(الدرجة الأولى) المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيتته ارتباطا مطردا لا يتخاف ، كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمذ اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ومد اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله ، فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء ، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبيعا دون الخبز ، أو يخلق في الخبز حركة إليك ، أو يسخر ملكا ليضغه لك ويوصله إلى مودتك : فقد جهلت سنة الله تعالى ، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام : فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يسكر ولا يمكن إحصاؤه ، أليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجحف في الحال وتفاج ؟ وكيف تعمل على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ؟ وكيف تعمل على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى

من يغلبك عليه أو يبعث حية تزجرك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه ولتعمل ، فإذا كان هذا حاله وعليه فليمتد اليده فإنه متوكل .

(الدرجة الثانية) الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا ، كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا في التوكل ، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق ، ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص .

• فإن قلت : فهذا سعى في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة . فأعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين (أحدهما) أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهد ما وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى (والثاني) أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة ؛ فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجترئ به فيجيا به بجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل ، وعلى هذا كان يعمل الخواص ونظراؤه من المتوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول : هذا لا يقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض ، وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش ، والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة ؛ فإن المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام ، وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتتكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ، ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي ، فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية ، لأنه مظهر ظنا ليس مقطوعا به ، لأنه يحتمل أن لا يتخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ، ولا يحتمل أن يتحرك الطعام بمضوغا إلى فيه ، فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ، ولهذا نقول : لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقة طارق فيه وجلس متوكلا ، فهو آثم به ساع في هلاك نفسه ، كما روى أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال : لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتيني ربي برزقي ، فقعد سبعة فمات يموت ولم يأتته رزق ، فقال : يارب إن أحييتني فأنتي برزقي الذي قسمت لي وإلا فأقبضني إليك ، فأوحى الله جل ذكره إليه . وعزني لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقع بين الناس . فدخل المصر وقعد ، فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب ، فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه . أردت أن تذهب حكمتي بزهدي في الدنيا ! أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي ، فإذا التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل ، ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية ، فعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب .

فإن قلت: ما قولك في الفعود في البلد بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأنه كفعل صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكو زفعله حراما، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب وإنما قد يتأخر عنه، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على المرت: فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله، فهو أفضل، وهو من مقامات التوكل؛ وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه، فإن الرزق يأتيه لا محالة، وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء: وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه، كما لو هرب من الموت لأدركه، وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيا، ولقال له: يا جاهل، كيف أخلقك ولا أرزقك؟ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والاجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رزاق ولا يميت إلا الله تعالى. وقال صلى الله عليه وسلم: لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال (١) وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تززع ولا تخلص ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم؛ فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الحق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي: المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكثرون. وقال بعضهم: العبيد كلهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، وبعضهم يتعب وانتظار كالتيجار، وبعضهم بامتهان كالصناع، وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الوسطة (الدرجة الثالثة) ملازمة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها، وهو الذي فيه الناس كلهم: أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح، فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والانسكال على الأسباب، فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطير والكي بالإضافة إلى إزالة الضرر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب، وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها. وقال سهل في التوكل: إنه ترك التدبير وقال: إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه، وإنما حجبهم بتدبيرهم، ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية، فإذا ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج، وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعليه وهو الانسكال على مسبب الأسباب، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل. وأما المظنونات

(١) حديث «لو توكلتم على الله حق توكله... الحديث» وزاد في آخره «ولزالت بدعائكم الجبال» وقد تقدم قريبا دون هذه الزيادة، ورواه الإمام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل بإسناد فيه لين «لوعرقت الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال» ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسل دون قوله «لمشيتم على البحور» وقال: هذا منقطع.

فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا ، والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات :

(الأول) مقام الخواص ونظرائه ، وهو الذى يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فرقه ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك ، فإن الذى يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بغيره ويموت جوعا ، فذلك ممكن مع الزاد كما أنه ممكن مع فقده .

(المقام الثاني) أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأول ، ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالقعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة ، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذى يستخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد ، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم .

(المقام الثالث) أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب ، وهذا السعى لا يخرج أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته ، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة ، بل يكون نظره إلى السكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ، بل يرى كسبه وبضاعته وكمايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع ، فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك ؟ وإلى ماذا يميل ؟ وبم يحكم ؟ ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو ليفترق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه منه منقطع ؛ لحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته ، والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضى الله عنه لما ببيع بالخلافة أصبح آخذاً بالاثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى ، حتى كرهه المسلمون وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقتت الخلافة النبوة ؟ فقال : لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين ، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطيبب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ، ويستحيل أن يقال : لم يكن الصديق في مقام التوكل أفن أولى بهذا المقام منه ؟ فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره ، فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ، ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا ، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد - وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما وكان من المتوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق : كنت أكتسب في كل يوم دينارا ولا أبيت منه دانقا ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام ، بل أخرجه كله قبل الليل . وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بمحضته وكان يقول : أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي . واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل ، فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ، ولكن يقوى بالحال والعلم ، كتوكل المكتسب ؛ وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل

إليهم فهذا أقوى في توكلهم ، لكنه بعد اشتغال القوم بذلك فقد صار لهم سوقا ، فهو كدخول السوق ، ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق .

هـ فإن قلت : فما الأفضل أن يقعد في بيته ، أو يخرج ويكتسب ؟ فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب في الصبر والانسكال على الله تعالى ، فالعود له أولى . وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى ، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب ، وتركه أهم من ترك الكسب ، وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم : كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه ، فردّه ، فلما ولي قال له أحمد : الحقه وأعطه فإنه يقبل ، فلحقه وأعطاه فأخذه ، فسأل أحمد عن ذلك ؟ فقال : كان قد استشرفت نفسه فرد ، فلما خرج انتقطع طمعه وأيس فأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره : رأيت الحضر ورضي بصحبتي ولكنني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصا في توكلتي ، فأذن المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا .

هـ فإن قلت : فما علامة عدم انكاله على البضاعة والكفاية ؟ فأقول : علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارتها أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه ، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا ، فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده ، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه ، وكان بشر يعمل المغازل فتركها ، وذلك لأن البعادي كاتبه قال : بلغني أنك استعنت على رزقك بالمغازل ، رأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها . وقيل : تركها لما نوهت باسمه وقصد لاجلها . وقيل : فعل ذلك لما مات عياله ، كما كان لسفنيان خمسون دينارا يتجر فيها ، فلما مات عياله فترها .

هـ فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول : بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة ، وأن الذين كثرت بضاعتهم فسروا وهلك فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته فهو خير له فلهمله لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعا ، فيذبح أن يعتقد أن الموت جوعا خيره في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته ، فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ، ففي الخبر « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيبا حزينا يتطير بجواره وابن عمه : من سبقني ؟ من دهاني ؟ وماهي إلا رحمة رحمه الله بها^(١) » ولذلك قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا : فإنني

(١) حديث « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه ، إلا أنه قال « إن العبد لا يصرف على حاجة من حاجات الدنيا ... الحديث » بنحوه .

لا أدري أيهما خير لي ، ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ؛ ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الخوارى : لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فإنني ما شئمت منه رائحة ، هـ. ذا كلامه مع علق قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال : ما أدركته ، ولعله أراد إدراك أقصاه ، وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد : لم يكمل حال التوكل ؛ فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور - كما سبق - وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبنى على أصولها من الإيمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين ، ولذلك قال سهل : من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد .

* فإن قلت : فهل من دواء ينفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية ؟ فأقول : نعم ، هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان ، وحسن الظن تلقين الله تعالى : قال الله تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾ فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ، ولذلك قيل : الشفيق بسوء الظن مولع ، وإذا انضم إليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلمين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالسلبية ، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل ، فقد حكى عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الإمام : لو اكتسبت لكان أفضل لك ، فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا ، فقال في الرابعة : يهودى في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين ، فقال : إن كان صادقا في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك ، فقال : يا هذا لو لم تكن إماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق وقال إمام المسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال : يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك .

وينفع حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية : أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه ، وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا ، كما روى عن حذيفة المرعشى وقد كان خدما إبراهيم بن أدهم ، فقبل له : ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال : بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ، ثم دخلنا الكوفة فأورينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلى إبراهيم وقال : يا حذيفة ، أرى بك الجوع ، فقلت : هو ما رأى الشيخ ، فقال : على بدواة وقرطاس ، لجئت به إليه فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود إليه بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى ، وكتب شعرا :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها فكى الضمين لنصفها يا بارى
مدحى لغيرك لى نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال : اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك ، فخرجت فأول من لقينى كان رجلا على بغلة . فناولته الرقعة فأخذها ، فلما وقف عليها بكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت : هو في المسجد الفلاني ، فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار ، ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة

فقال : هذا نصراني ، فحُت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال : لا تمسها فإنه يحىء الساعة ، فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم .

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري : جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا ، فحدثني نفسي بالخروج فخرجت إلى الوادي لعل أجد شيئا يسكن ضعفى ، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها ، فوجدت في قلبي منها وحشة وكأن قائلا يقول لى : جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة ، فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت ، فإذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قطرة وقال : هذه لك ، فقلت كيف خصصتني بها ؟ قال : أعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق ، فنذرت إن خلصني الله تعالى أن أنصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين ، وأنت أول من لقيته ، فقلت : افتحها ، ففتحتها فإذا فيها سميد مصرى ولوز مقشور وسكر كعاب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقات رد الباقي إلى أصحابك هدية منى إليكم ، وقد قبلتها ، ثم قلت في نفسي : رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي .

وقال بمشاد الدينورى ، كان على دين فاشتغل قلبي بسببه ، فرأيت في النوم كأن قائلا يقول : يا بنخيل ، أخذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما . وحكى عن بنان الجمال قال : كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعى زاد ، فجاءتني امرأة وقالت لى : يا بنان ، أنت حمال نحمل على ظهرك الزاد وتوهم أنه لا يرزقك ، قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخلا في الطريق فقلت في نفسي : أحمله حتى يحىء صاحبه فرمى يعطينى شيئا فأرده عليه ، فإذا أنا بذلك المرأة فقالت لى : أنت تاجر تقول عسى يحىء صاحبه فأخذ منه شيئا ثم رمت لى شيئا من الدراهم وقالت : أنفقها ، فاكفيت بها إلى قريب مكة .

وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه ، فأنبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا : هو ذا يحىء النفير فمشتري ما يوافق ، فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا : إنها تصلح له ، فقالوا لصاحبها . بكم هذه ، فقال : إنها ليست للبيع ، فألحوا عليه فقال : إنها لبنان الجمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، فحملت إلى بنان وذكرته له القصة .

وقيل : كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعهم قرص فقال : إن أكلته مت ، فوكل الله عز وجل به ملكا وقال : إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره ، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت البادية بغير زاد فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسي أنى سكنت واتكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها ، فحفرت لنفسى في الرمل حفرة وارىت جسدى فيها إلى صدرى ، فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا : يا أهل المرحلة ، إن الله تعالى وليا حبس نفسه في هذا الرمل فألحقوه ، فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية .

وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فإذا هو بقائل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتملم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة ، فجاءه عمر فقال له . لى قد اشتقت إليك فما الذى شغلك عنى ؟ فقال : لى قرأت القرآن فاغنائى

عن عمر وآل عمر ، فقال عمر . رحمتك الله فما الذى وجدت فيه ، فقال وجدت فيه ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ فقلت رزق في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فبكى عمر وقال ، صدقت ، فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه ،

وقال أبو حمزة الخراساني : حججت سنة من السنين فبينما أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعني نفسي أن أستغيث ، فقلت لا والله لا أستغيث ، فما استتممت هذا الحاطر حتى مر برأس البئر رجلاً ، فقال أحدهما الآخر تعالى حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد ، فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر ، فهممت أن أصبح فقلت في نفسي : إلى من أصبح هو أقرب منهما وسكنت فبينما أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في مهمة له كنت أعرف ذلك ، فتعلقت به فأخرجني ، فإذا هو سبع ، فتر وهتف بي هاتف : يا أبا حمزة أليس هذا أحسن ، نجيناك من التلف بالتلف ، فشيت وأما أقول :

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى وأغنييتي بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبدت شاهدي إلى غايي واللفظ يدرك باللفظ
تراميت لي بالغيب حتى كأنما تبشرني بالغيب أنك في الكف
أراك وبني من هيتي لك وحشة فتؤنسني باللفظ منك وبالعطف
وتحيي محبا أنت في الحب حتفه وذا نجيب كون الحياه مع الختف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر ، وإذا قوى الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر ، وقوى الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه : ثم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات ، وإلا فلا يتم أصلاً .

بيان توكل المعيل

اعلم أن من له عيال فحماكه يفارق المنفرد ، لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين (أحدهما) قدرته على الجوع أسبوعاً من غير استشراف وضيق نفس (والآخر) أبواب من الإيمان ذكرناها ، من جعلتها : أن يطيب نفساً بالموت إن لم يأت رزقه ، علمها بأن رزقه الموت والجوع ، وهو إن كان نقصاً في الدنيا فهو زيادة في الآخرة ، فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له : وهو رزق الآخرة ، وأن هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضياً بذلك وأنه كذا قضى وقدر له ، فهذا يتم التوكل المنفرد ، ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ، ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن انفق ذلك نادراً ، وكذا سائر أبواب الإيمان ، فإذا لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث ، كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب ، فأما دخول البوادي وترك الديال نوكلًا في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلًا في حقهم فهذا حرام ، وقد يفضى إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم ، بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله ، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقاً وغنيمة في الآخرة ، فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضاً عيال عنده ، ولا يجوز له أن يضيقها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة ، فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل ، ولذلك روى أن أبا تراب النخشي نظر إلى صوفي متديده إلى قشر بطيخ ليأكاه بعد ثلاثة أيام . فقال له . لا يصلح لك التصوف . الزم السوق أى لا تصوف إلا مع التوكل .

ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام ، وقال أبو علي الروذباري : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام : أما جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب ، فإذا بدنه عياله وتوكله فيها يضر يبدنه كتوكله في عياله ؛ وإنما يفارقهم في شيء واحد : وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله ، وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة الرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والامصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر ، والتوكل في الامصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي ، وكل ذلك ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا ، وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلا الجن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ، ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والمملوك تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب ، فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه ، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ، ثم لما انفصل سبط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرابا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ؟ إذا صار بحيث يوافق الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ ، فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فإنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشتة ببلوغه بل زادت ، فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب ، فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقة مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه ، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرفقة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة ، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة ، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا ، ولو رأوه يتيم لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه ، فما روى إلى الآن في سنى الخصب يتيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص ، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض ، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم ؟ فينجر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

« فإن قلت : الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه ، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون : هو مثلنا فليجتهد لنفسه ؟ فأقول : إن كان هذا القادر بطلا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى ؛ فما للبطل والتوكل ؟ وإن كان مشغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته ، وإنما عليه أن لا يخلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس ، وما روى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فوات جوعا ولا يرى قط ، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه ، فإن من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ، ومن اشتغل بالله عز وجل ألقي الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها ، فقد دبر الله تعالى الملك والملوك تدييرا كافيا لأهل الملك والملوك . فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدير واشتغل به وآمن ونظر إلى مدير الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم مادبره تدييرا يصل إلى المشتغل به الحلول والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لاحالة ، وقد يقع ذلك أيضا في بعض الأحوال لكن دبره تدييرا يصل إلى كل مشغول بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لاحالة ، والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية ، فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التمتع على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة ، وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب ، وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا ، وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب : فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته ، فلذلك لا يطعن إلى اضطرابه بل إلى مدير الملك والملوك تدييرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب ؛ فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال : وددت أن أهل البصرة في عيالي ، وأن حبة بدينار . وقال وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقي لظننت أني مشرك ؛ فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه ، وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل ، فأياك أن تجمع بين الإفلاسين : الإفلاس عن وجود المقام ذوقا ، والإفلاس عن الإيمان به علما ؛ فأذن عليك بالقناعة بالزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لاحالة وإن فررت منه ، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدي من لا تحسب ، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحسم الطير ولذائد الأفعمة ؛ فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته ، وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه ؛ فإن الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق ، بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء . قال الله تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وأسرار السماء لا يطلع عليها ، ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال : ماذا تطلبون ؟ قالوا : نطلب الرزق ، فقال : إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه . قالوا : نسأل الله . قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه ، فقالوا : ندخل البيت وتوكل وننظر ما يكون . فقال : التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى

الحرّاز : كنت في البادية فنالني جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما ، فقلت : ليس هذا من أفعال المتوكلين ، فطالبتني أن أسأل الله صيرا ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول :

ويزعم أنه منا قريب وأنا لانضيق من أنانا
ويسألنا على الإقتار جهدا كأننا لانراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى : كان مطمئنا النفس أبداً واثقا بالله عز وجل ؛ فإن أسوأ حاله أن يموت ، ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئنا فإذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب ، والذي ضمن رزق القائمين بهذه الأسباب التي دبرها صادق ، فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك ، ولا تكن في توكلك متنتظرا الأسباب بل لمسبب الأسباب ، كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فإنه أصل حركة القلم ، والحركة الأولى واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه ، وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد أو يقعد في الأمصار وهو خامل . وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم فإذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ ، وشرب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام ، بل يأتيه أضعافه ، فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب ، فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن ؛ فإن الكسب يمنع عن السير بالفسكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطى على نيل الثواب ، ومن نظر إلى مجارى سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ، ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيمًا عن الأحق المرزوق والعاقل المحروم فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه ، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه : فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهلهم البهائم

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وفقروا في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويجهتدوا في أن لا يغفلوا عن واحد منهم ، وأمر مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا رلا تتعلقوا بغلماننا إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم : فن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج تبعته بسلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم له عقبته في ميعاد معلوم عندي ولكن أخفيه ، ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فإني أختصه بخدمة سنوية في الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ، ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ، ومن أخطأه غلمانا فما أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان

ولا قائلاً لئله أوصل إلى رغيفاً فإن غداً أستوزره وأفوض ملكي إليه فانقسم السؤال إلى أربعة أقسام : قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة ؛ وقالوا : من اليوم إلى غد فرج ! ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فأذوهم وأخذوا الرغيفين ، فسبقت العقوبة إليهم في الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوفاً للعقوبة ولأن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة ، وقسم قالوا : لئنا نجلس بمراى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولأن أخذوا رغيفاً واحداً ونقنع به ؛ فلعلنا نفوز بالخلعة فنفازوا بالخلعة ؛ وقسم رابع اختفوا في زوايا الميادين وانحرفوا عن مراى أعين الغلمان وقالوا : إن اتبعونا وأعطينا فنحن رغبنا برغيف واحد ، وإن أخطأونا فأسبنا شدة الجوع الليلة ، فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة التقرب عند الملك ، فما نفعهم ذلك ، إذ اتبعهم الغلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفاً واحداً ، وجرى مثل ذلك أياماً حتى اتفق على الدور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفطيش ، فباتوا في جوع شديد ، فقال اثنان منهم : لئنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطبق الصبر ، وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة ، فهذا مثال الخلق ، والميادين هو الحياة في الدنيا ، وباب الميادين الموت ، والميعاد المجهول يوم القيامة ، والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة المتوكل إذا مات جائداً راضياً من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة ، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، والمتعلق بالغلمان هو المعتدى في الأسباب ، والغلمان المستخرون هم الأسباب ، والجالس في ظاهر الميادين بمراى الغلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون ، والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الدور ، فإن مات واحد منهم جائداً راضياً فله الشهادة والقرب من الله تعالى ، وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتغالهم ، وساح في البوادي ثلاثة ، وتسخط منهم اثنان ، وفاز بالقرب واحد ، ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة ، وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف .

(الفن الثاني في التعرض لأسباب الادخار) فمن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب ، فله في الادخار ثلاثة أحوال (الأولى) أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائداً ، ويلبس إن كان عارياً ، ويشترى مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً ، ويفرق الباقي في الحال ، ولا يأخذه ولا يتخذه إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيتخذه على هذه النية . فهذا هو الوفي ؛ وجب التوكل تحقيقاً وهي الدرجة العليا (الحالة الثانية) المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل : أن يتخير لسنة فما فوقها ، فهذا ليس من المتوكلين أصلاً ؛ وقد قيل . لا يتخير من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة ، والفملة ، وابن آدم (الحالة الثالثة) أن يتخير لأربعين يوماً فما دونها ، فهذا : هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين ؟ اختلفوا فيه : فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل . وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوماً ويخرج بما يزيد على الأربعين . وقال أوطالب المكي : لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضاً ، وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل ، فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له ، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة ، وتلك الرتبة لها بداية

ونهاية ، ويسمى أصحاب النهايات : السابقين ، وأصحاب البدايات : أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات ، وكذلك السابقون ، وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين ، فلا معنى للتقدير في مثل هذا ؛ بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل ؛ وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس ، فإن ذلك كالممتنع وجوده ؛ أما الناس فتفاوتون في طول الأمل وقصره ، وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات ، وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان ، وبينهما درجات لا حصر لها ، فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة ، وتقييده بأربيعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام : بعيد ؛ فإن تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعد كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور ، كما قال عليه السلام : إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا ^(١) ، لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها مذكر ، فإذا ما وراء السنة لا يدخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب ، فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب ، فإن أسباب الدخل في الارتفاعات والركوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ، ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله ، ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما في الرتبة ، ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ، فالأفضل أن لا يدخر أصلا ، وإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر ، وقد روى في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن يغسله فغسله وكفناه ببردته ، فلما دفنه قال لأصحابه : إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية ، قلنا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : كان صواما قواما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه ، وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : بل أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ^(٢) ، الحديث ، وليس السكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك ، فإن ادخاره لا يتقص الدرجة ، وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق ، فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والمكر فالادخار له أولى ، بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيًا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى ، لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه ، والمخدور ما يشغل عن الله عز وجل ، وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التجار بترك تجارتهم ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لها بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى ، وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب ، فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته ، كما أن صواب القوى ترك الادخار ،

(١) حديث « خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي بإسناد ضعيف جدا وهو باطل .

(٢) حديث : أنه قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسامة فغسله وكفنه ببردته : أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ... الحديث . وفي آخره « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » لم أجد له أصلا ، وتقدم آخر الحديث قبل هذا .

وهذا كله حكم المنفرد ؛ فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جـبـراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم ، وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل ، لأن الأسباب تتكرر عند تكرار السنين ؛ فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه ، وذلك يناقض قوة التوكل ، فالتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى ، واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة . وقد ادخر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لعياله قوت سنة (١) ، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئاً لغد ، (٢) ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا » (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تنجأ » (٤) ، اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم ، وقد كان يصبر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول : « ما يدريني لعل لا أبلغه » (٥) ، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم لو آخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره ، ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعلماً للأقوياء من أمته ، فإن أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوته ، وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله ، ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته ، بل أخبر : « إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » (٦) ، تطييباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات ، فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم عليه اختلاف أصنافهم ودرجاتهم ، وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، ويدل على ما روى أبو أمامة الباهلي : أن بعض أصحاب الصفة توفي فما وجد له كفن ، فقال صلى الله عليه وسلم : « فثشوا ثوبه » فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم : « كيتان » (٧) . وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخاف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه ، وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين : (أحدهما) أنه أراد كيتين من النار ، كما قال تعالى ﴿ تكوى بها جماهم وجنوحهم وظهورهم ﴾ وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبس (والثاني) أن لا يكون ذلك عن تلبس ، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه ، وذلك لا يكون عن تلبس ، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة ، إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدره من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن التدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل ، فيشهد له ما روى عن بشر . قال الحسين المغازلي من أصحابه : كنت عنده ضحوة من النهار ، فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين ، فقام إليه بشر ، قال : وما رأيته قام لأحد غيره ، قال : ودفع إلى كفا من دراهم وقال : اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب ، وما قال لي قط

(١) حديث : ادخر لعياله قوت سنة ، متفق عليه ، وتقدم في الزكاة . (٢) حديث : نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً لغد : تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها . (٣) حديث : نهى بلالا عن الادخار وقال : « أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا » رواه البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال : دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر ، فقال ذلك . وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة ، وكلها ضعيفة . وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز ، فلم أره .

(٤) حديث قال لبلال : « إذا سئلت فلا تمنع ، وإذا أعطيت فلا تنجأ » رواه الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو ثقة . (٥) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال تيمم مع قرب الماء ويقول : « ما يدريني لعل لا أبلغه » أخرجه ابن أبي الدنيا في صبر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف . (٦) حديث : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه » ... الحديث أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمر وقد تقدم . (٧) حديث أبي أمامة : توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخل إزاره ، فقال صلى الله عليه وسلم : « كيتان » رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

مثل ذلك ، قال : فحُثت بالطعام فوضعتة فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره ، قال : فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير ، فأخذ الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف ، فعجبت من ذلك وكرهته له ، فقال لي بشر : لعلك أنكرت فعله ؟ قلت : نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن ، فقال : ذاك أخونا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فإئما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار .

(الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف) اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأسا ؛ أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في بجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المسائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منهى عنه ، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة ، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ، ومظنونة ، وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة السكى والرقية ؛ فإن السكى والرقية قد تقدم به على المحذور دفعا لما يتوقع ، وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك السكى والرقية والطيرة ، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة ، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع ، وكذلك كل ما في معناها من الأسباب ، نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهييجا لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من السكى بخلاف الجبة ، ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان ، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر ، قال الله تعالى ﴿ فاتخذوه كيلا واصبر على ما يقولون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنصبرن على ما أذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ وقال تعالى ﴿ نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وهذا في أذى الناس ، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب ، فترك دفعها ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه ، ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعاقته على الدين ، وترتب الأسباب ههنا كترتها في الكسب وجلب المنافع فلانطول بالإعادة ، وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال ، فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت سنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهل البعير وقال توكلت على الله ، اعقلها وتوكل ^(١) ، وقال تعالى ﴿ خذوا حذرکم ﴾ وقال في كيفية صلاة الخوف ﴿ وليأخذوا أسلحتهم ﴾ وقال سبحانه ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ وقال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ فأسر بعبادى ليلا ﴾ والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب ، واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر ^(٢) ، وأخذ السلاح في الصلاة فليس دافعا قطعاً كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعاً ، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع ، وإئما الموهوم هو الذى يقتضى التوكل تركه .

هـ فإن قلت : فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك . فأقول : وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه فلا يلغى أن يتحرك ذلك المقام ؛ فإنه وإن كان صحيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء

(١) حديث « اعقلها وتوكل » أخرجه الترمذى من حديث أنس ، قال يحيى الأنطاني : منكر . ورواه ابن خزيمة في التوكل ، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضميرى بإسناد جيد « قيدها » . (٢) حديث : اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر ، تقدم في قصة اختفائه في النار عند إرادة الهجرة .

بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطا في التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها .

• فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أني قد وصلت إليها ؟ ، فأقول : الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه : أن يسخر لك كلب هو معك في إهابك يسمى الغضب ، فلا يزال بعضك وبعض غيرك ، فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا بإشارتك وكان مسخرا لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع ، وكلب دارك أولى أن يكون مسخرا لك من كلب البوادي ، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك ، فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخر الكلب الظاهر .

• فإن قلت : فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق ، فبأي اعتبار يكون متوكلا فأقول : يكون متوكلا بالعلم والحال ، فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه ؛ فكم من باب يغلق ولا ينفع ، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفات ، وكم من أخذ سلاحه يقتل أو يغاب ؛ فلا تتكل على هذه الأسباب أصلا بل على مسبب الأسباب ، كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتسكل على نفسه وسجله بل يتسكل على كفاية الوكيل وقوته ، وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول : اللهم إن سلطت على مافي البيت من يأخذه فهو في سبيك وأنا راض بحكمك ، فإن لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها ، أو عارية ووديعة فتستردها ، ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري ، وكيفما قضيت فأنا راض به ، وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له ، بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب ؛ فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه عنه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ، ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى ، وإن لم يجده بل وجدته مسروقا نظر إلى قلبه ، فإن وجدته راضيا أفرحا بذلك عالما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه ، وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقا في دعوى التوكل ؛ لأن التوكل مقام بعد الزهد ، ولا يصح الزهد إلا لمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي ، بل يكون على العكس منه ، فكيف يصح له التوكل ؟ نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس ، وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب بيده ، فقد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوى ؛ فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها ؛ فإنها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير .

• فإن قلت : فكيف يكون التوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت ، وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه ، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله ، وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده ، وإنما ذلك في

المأكل وفي كل مال زائد على قدر الضرورة ؛ لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد ، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والامتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع ، والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل ، ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد ، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين .

« فإن قلت : فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لا يشتهي فلم أمسكه وأغلق الباب عليه ، وإن كان أمسكه لأنه يشتهي لحاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهي ؟ فأقول : إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع ، ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه ، فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر ؛ فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه ، لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به ، فيقول : لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني ، فبمثل هذا الظن يتصور أن يتدفع عنه الحزن ، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب ، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفا ، وهو كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فإن قدم إليه الغذاء فرح وقال : لولا أنه يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربه إلى ، وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال : لولا أن الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه ، وكل من لا يعتد لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب ، فإنه لا يدرى أي الأسباب خير له ، كما قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا ؛ فإنني لا أدرى أيهما خير لي ؛ فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق فإنه لا يدرى أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة ، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان ، وكم من غنى يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا !

بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه (الأول) أن يغلق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتناسك من الجيران الحفظ مع الغلق ، وكجمعه أغلaca كثيرة ؛ فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشده بشرط ويقول : لولا السكاب ما شددته أيضا (الثاني) أن لا يترك في البيت متاعا يحرض عليه السارق فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ، ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال : خذها لا حاجة لي إليها . قال : لم ؟ قال : يوسوس إلى العدو أن اللص يأخذها ، فكأنه احترز من أن يعصى السارق : ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ، ولذلك قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها (الثالث) أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول : ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو في سبيل الله تعالى ، وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة ، وإن لم يشترط الفقر فهو أولى ، فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير (لاحداها) أن يكون

ماله مانعا من المعصية ، فإنه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل (والثانية) أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما ينوب حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوب دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامثل قوله صلى الله عليه وسلم « انصرا أخاك ظالما أو مظلوما »^(١) ، ونصر الظالم : أن تمنعه من الظلم ، وعفوه عنه لإعدام للظلم ومنع له ، وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلي . ولكن يتحقق بالزهد نيته ، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعة دراهم لأنه نواه وقصده ، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له^(٢) ، لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع ، فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه ، فلو خلق لكان ثوابه على فعله ، وفعله لم ينعدم ، فكذلك أمر السرقة (الرابع) أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول : لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ، ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل ، فلا يبالغ في طلبه وفي إسائة الظن بالمسلمين ؛ وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه ، فإنه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة ، فإن أعيد عليه ، فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل ، وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم ، لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين :

وقد روى أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ، ثم قال . في سبيل الله تعالى ، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين لجاء رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن ناقتك في مكان كذا فلبس لعله وقام ، ثم قال : استغفر الله وجلس ، فقيل له : ألا تذهب فتأخذها ؟ فقال : إني كنت قلت في سبيل الله .

وقال بعض الشيوخ : رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وأدخلني الجنة وعرض على منازل فيها فرأيتها ، قال : وهو مع ذلك كئيب حزين ! فقلت : قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين ! فتنفس الصعداء ثم قال : نعم إني لأزال حزينا إلى يوم القيامة . قلت : ولم ؟ قال إني لما رأيت منازل الجنة رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت ، ففرحت بها ، فلما هممت بدخولها نادى منادى من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هي لمن أمضى السبيل ، فقلت وما لمضاه السبيل ؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه ، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيت لك .

وحكى عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه ، فأنذبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به ، فقال له كم كان في هميانك ؟ فذكر له ، لحمله من البيت ووزنه من عنده ، ثم بعد ذلك أعليه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحاً معه ، فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب ، فأبى وقال خذوه حلالا طيبا ، فما كنت لأعود في مال أخرجه في سبيل الله عز وجل ، فلم يقبل ، فألحوا عليه ، فدعا ابنه وجعل يصره صررا ويبعث به إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء .

فهكذا كانت أخلاق السلف ، وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه فيعطيه فقيرا آخر ، وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات (الخامس) وهو أقل الدرجات

(١) حديث « انصرا أخاك ظالما أو مظلوما » متفق عليه من حديث أس ، وقد تقدم . (٢) حديث « من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام ... الحديث » لم أجده أصلا .

أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات ، وبطل زهده ، ولو بالغ بطل أجره أيضا فيما أصيب به ؛ ففى الخبر « من دعا على ظالمه فقد انتصر »^(١) . وحكى أن الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلى ، فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه ، فجاءه قوم يعزونه فقال : أما إني قد كنت رأيته وهو يخله : قيل : وما منعك أن تزجره ؟ قال : كنت فيما هو أحب إلى من ذلك - يعنى الصلاة - فجعلوا يدعون عليه فقال : لا تفعلوا وقولوا خيرا فإني قد جعلتها صدقة عليه .

وقيل لبعضهم فى شيء قد كان سرق له : ألا تدعو على ظالمك ؟ قال : ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه . قيل : أرايت لو رد عليك ؟ قال : لا آخذه ولا أنظر إليه لاني كنت قد أحللت له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال : ما ظلمني أحد ، ثم قال : إنما ظلم نفسي ، ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا .

وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف فى ظلمه ، فقال : لا تغرق فى شتمه ، فإن الله تعالى ينتصف للحجاج من انتك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه .

وفى الخبر « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم »^(٢) ، (السادس) أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى ، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقضا فى دنياه لانقصا فى دينه ، فقد شكوا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال : إن لم يكن لك غم أنه قد صار فى المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين .

وسرق من على بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكى ويحزن ، فقال : أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال : لا والله ولكن على المسكين أن يستل يوم القيامة ولا تكون له حجة .

وقيل لبعضهم : ادع على من ظلمك ، فقال : إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه ، فهذه أخلاق السلف رضى الله عنهم أجمعين .

(الفن الرابع : فى السعى فى إزالة الضرر كدواوة المرض وأمثاله) اعلم أن الأسباب المزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب ، أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهى الأسباب الظاهرة فى الطب ، وإلى موهوم كالسكى والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف الموت . وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين ، وأقواها السكى ، وبأيه الرقية ، والطيرة آخر درجاتها ، والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق فى ملاحظة الأسباب ، وأما الدرجة المتوسطة وهى المظنونة كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع ، بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص فهى على درجة بين الدرجتين ، ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » تقدم . (٢) حديث « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة . . . الحديث » تقدم .

وسلم وقوله وأمره به ؛ أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام ^(١) » ، يعنى الموت . وقال عليه السلام « تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء ^(٢) » . وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : « هي من قدر الله ^(٣) » ، وفي الخبر المشهور « مامرت بملا من الملائكة إلا قالوا مرأمتك بالحجامة ^(٤) » ، وفي الحديث أنه أمر بها وقال « احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبيخ بكم الدم فيقتلكم ^(٥) » ، فذكر أن تبيخ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى ، وبين أن إخراج الدم خلاص منه ، إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفي خبر مقطوع « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة ^(٦) » ، وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى بالحجامة ^(٧) ، وقطع لسعد بن معاذ عرقا ^(٨) أى فصدته ، وكوى سعد بن زرارة ^(٩) ، وقال لعلى رضى الله تعالى عنه وكان رمد العين « لا تأكل من هذا ، يعنى الرطب » وكل من هذا فإنه أوفق لك ^(١٠) » ، يعنى سابقا قد طبخ بدقيق شعير . وقال لسهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تأكل تمرأوأنت أرمد » فقال : « إني آكل من الجانب الآخر » فتبسم صلى الله عليه وسلم ^(١١) . وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ^(١٢) قيل : السنا المكي .

(١) حديث « مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام » رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله « إلا السام » وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله « عرفه » . . . إلى آخره ، وإسناده حسن ، وللترمذى وصححه من حديث أسامة بن شريك « إلا الهرم » والطبراني في الأوسط والبخاري من حديث أبي هريرة « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » ولمسلم من حديث جابر « لكل داء دواء » . (٢) حديث « تداووا عباد الله . . . » رواه الترمذى وصححه ، وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك . (٣) حديث : سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال « هي من قدر الله . . . » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي خزيمة ، وقيل عن أبي خزيمة عن أبيه ، قال الترمذى : وهذا أصح . (٤) حديث « مامرت بملا من الملائكة إلا قالوا مرأمتك بالحجامة » رواه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ، ورواه ابن ماجه من حديث أس بن سند ضعيف . (٥) حديث « احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين . . . الحديث » أخرجه البخاري من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ، ورفعه الترمذى بلفظ « إن خير ما تحتجمون فيه سبع عشرة . . . الحديث » دون ذكر التبيخ ، وقال : حسن غريب ، وقال البخاري : إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ، وابن ماجه من حديث أس بن سند ضعيف « من أراد الحجامة فليتجر سبعة عشر . . . الحديث » .

(٦) حديث « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة » رواه الطبراني من حديث معقل بن يسار ، وابن حبان في الضعفاء من حديث أس بن ماجه واحد مختلف على راويه في الصحابي ، وكلاما فيه زين العمى وهو ضعيف . (٧) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة . أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعرابي حين سأله « تداووا . . . الحديث » وسيأتى في قصة علي وصهيب في الحجية بعده . (٨) حديث : قطع عرقا لسعد بن معاذ ، أخرجه مسلم من حديث جابر قال : رعى سعد في أكله لحسه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقم . . . الحديث . (٩) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة ، رواه الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ، ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل . (١٠) حديث قال لعلى وكان رمدا « لا تأكل من هذا . . . الحديث » رواه أبو داود والترمذى وقال : حسن غريب ، وابن ماجه من حديث أم المنذر . (١١) حديث قال لسهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تأكل تمرأوأنت أرمد . . . الحديث » تقدم في آفات اللسان . (١٢) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ، أخرجه ابن عدى من حديث عائشة وقال : إنه منكر ، وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين .

وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها ^(١) . وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدغ رأسه فكان يغلفه بالخناء ^(٢) . وفي خبر : أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها خناء ، وقد جعل على قرحة خرجت به ترابا ^(٣) ، وما روى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر ، وقد صنف في ذلك كتاب وسمى طب النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات ؛ أن موسى عليه السلام اعتل بعله فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته ؛ فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرئت ، فقال : لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء ، فطالت علته فقالوا له : إن دواء هذه العلة معروف مجرب ، وإنا نتداوى به فنبأ ، فقال : لا أتداوى ، وأقامت علته ، فأوحى الله تعالى إليه : وعزني وجلالي لأبرأتك حتى تتداوى بما ذكره لك ، فقال لهم : داووني بما ذكرتم ، فداووه فبرأ ، فأوجس في نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟ .

وروى في خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكاة يمجدها ، فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم باللبن فإن فيهما القوة ، قيل هو الضعف عن الجماع . وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم ، فأوحى الله تعالى إليه : مرهم أن يطعموا نساءهم الحبلى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع ، إذ فيه يصور الله تعالى الولد ، وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل ، والنفساء الرطب .

فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجري سنته بربط المسببات بالأسباب لإظهار الحكمة ، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب ، فسكا أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء ، والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا في أحد أمرين (أحدهما) أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلي واضح يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص ، فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول (والثاني) أن الدواء يسهل ، والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخرى في الباطن وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال . وأما زال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة ، وقد يتفق من العوارض ما يوجب داء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر في هذين الشيئين ، وإلا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب ، وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخييره ، وترتيبه بحكم حكيمته وكمال قدرته ، فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء ؛ فقد روى عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يارب ، بمن الداء والدواء ؟ فقال تعالى : مني . قال : فما يصنع الأطباء ؟ قال : يأكلون أرزاقهم ويعطيون نفوس

(١) حديث أنه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها ، رواه الطبراني بإسناد حسن من حديث جبة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب ففشى عليه فرماه أناس ... الحديث ، وله في الأوسط من رواية سعيد بن مسرة وهو ضعيف عن أس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى تمجج كفا من شونيز وشرب عليه ماء وعسلا ، ولأبي هبل والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ماسم ، وفيه جابر الجعفي ضيفه الجمهور .

(٢) حديث : كان إذا نزل عليه الوحي صدغ رأسه فينقله بالخناء ، أخرجه البزار وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة ، وقد اختلف في إسناده على الأحوس بن حكيم : كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها خناء ، رواه الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى ، قال الترمذي : غريب .

(٣) حديث : جعل على قرحة خرجت بيده ترابا ، رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة : كان إذا اشتكى الإنسان الفؤاد منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ، ووضع سفيان بن عيينة الراوى سبابته بالأرض ثم رفعها وقال « بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا » .

عبادى حتى يأتى شفاى أو قضائى ؛ فإذا معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال ، كما سبق فى فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع ، فأما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيه .

« فإن قلت : فالسكى أيضا من الأسباب الظاهرة للنفع . فأقول : ليس كذلك ، إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقى المبردات للحرور . وأما السكى فلو كان مثلها فى الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه ، وقبلها يعتاد السكى فى أكثر البلاد ، وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب ؛ فهذا من الأسباب الموهومة كالرقى ، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه إحراق النار فى الحال مع الاستغناء عنه فإنه مأمّن وجع يعالج بالسكى إلا وله دواء يغنى عنه ليس فيه إحراق ، فالإحراق بالنار جرح مخزّب للبنية مخذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يستمستهما غيرهما ، ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى (١) . وكل واحد منهما بعيد عن التوكل . وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالسكى فامتنع ، فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتى اكتوى ، فكان يقول . كنت أرى نوراً وأسمع صوتاً وتسلم على الملائكة ، فلما اكتويت انقطع ذلك عني ، وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت ، ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى ، فرد الله تعالى عليه ما كان يحمد من أمر الملائكة . وقال لمطرف بن عبد الله : ألم تر إلى الملائكة التى كان أكرمى الله بها قد ردها الله تعالى على ! بعد أن كان أخبره بفقدها ؛ فإذا السكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالتوكل لأنه يحتاج فى استنباطه إلى تدبير ، ثم هو مذهب موهوم ، ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها ، والله أعلم

بيان أن ترك التداوى قد يحمّد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل

وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تداؤوا من السلف لا ينحصر ، ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر ، فربما يظن أن ذلك نقصان ، لأنه لو كان كالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا يكون حال غيره فى التوكل أكمل من حاله .

وقد روى عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قيل له : لو دعونا لك طبيباً ؟ فقال : الطبيب قد نظر إلى وقال : إني فعال لما أريد . وقيل لأبي الدرداء فى مرضه : ما تشكى ؟ قال : ذنوبى . قيل : فما تشتهى ؟ قال : مغفرة ربى قالوا ألا ندعو لك طبيباً ؟ قال : الطبيب أمرضى وقيل لأبى ذر وقد رمدت عيناه : لو داويتهما ؟ قال : إني عنهما مشغول ؛ فقيل : لو سألت الله تعالى أن يعافيك ؟ فقال : أسأله فيما هو أهم على منهما .

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج ، فقيل له لو تداويت ؟ فقال : قد هممت ثم ذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيراً وكان فيهم الأطباء ، فهلك المداوى والمداوى ، ولم تغن الرقى شيئاً . وكان أحمد بن حنبل يقول : أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وإن كان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضاً إذا سأل .

(١) حديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى ، رواه البخارى من حديث ابن عباس « وأنهى أمى عن السكى » وفى الصحيحين من حديث عائشة : رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرقية من كل ذى حمة .

وقيل لسهل : متى يصح للعبد التوكل ؟ قال : إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه .

فإذا منهم من ترك التداوى وراه ، ومنهم من كرهه ، ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالههم إلا بحصر الصوارف عن التداوى . فنقول : إن لترك التداوى أسبابا (السبب الأول) أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ، ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة ، وتارة بحس وظن ، وتارة بكشف محقق ، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب ، فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لعائشة رضى الله عنها في أمر الميراث : إنما هن أختك ، وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى ، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله ، وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به (السبب الثاني) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته وإطلاع الله تعالى عليه ، فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله ، وعليه يدل كلام أبي ذر إذ قال : إني عنهما مشغول . وكلام أبي الدرداء إذ قال : إنما أشتكى ذنوبي ، فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ، ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته ، أو كالحائف الذى يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له : ألا تأكل وأنت جائع ؟ فيقول : أنا مشغول عن ألم الجوع ، فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طعنا فيمن أكل ، ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له : ما القوت ؟ فقال : هو ذكر الحى القيوم ، فقيل : إنما سألناك عن القوام ؟ فقال : القوام هو العلم . قيل : سألناك عن الغذاء ؟ قال : الغذاء هو الذكر . قيل : سألناك عن طعمة الجسد ؟ قال : مالك وللجسد . دع من تولاه أولا يتولاه آخرا : إذا دخل عليه علة فردده إلى صانعه ، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها (السبب الثالث) أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفخ جار مجرى السكى والرقية ، فيتركه المتوكل ، وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال : ذكرت عادا وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى . أى أن الدواء غير موثوق به ، وهذا قد يكون كذلك في نفسه ، وقد يكون عند المريض كذلك لقلته بممارسته للطب وقلة تجربته له ، فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ، ولا شك في أن الطبيب المجرب أشد اعتقادا في الأدوية من غيره ، فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد ، والاعتقاد بحسب التجربة ، وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد ، هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لا أصل له ، وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب ، غير صحيح في البعض ، ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى السكل نظرا واحدا ، فيرى التداوى تعمقا في الأسباب كالسكى والرقى ، فيتركه (السبب الرابع) أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، أو ليجرب نفسه في القدرة على الصبر . فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره . فقد قال صلى الله عليه وسلم : نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء . وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء ^(١) ، وفي الخبر : إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار

(١) حديث : نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل . الحديث ، رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف ، وقد تقدم مختصرا ، ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال : صحيح على شرط الشيخين .

فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، لا يزيد ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من يخرج أسود محترقا ^(١) ، وفي حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « تحبون أن تكونوا كالجر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون ^(٣) » ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه ، تجد المؤمن أصح شىء قلبا وأمرضه جسما ، وتجد المنافق أصح شىء جسما وأمرضه قلبا ، فليسا عظم الشاء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتتموه لينالوا ثواب الصبر عليه ، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أن الحق أغاب على قلبه من أن يشغله المرض عنه ، وإنما يمنع المرض جوارحه ، وعادوا أن صلاتهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ، ففي الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة : اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمل فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لخيرا من له وودما خيرا من دمه ، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ^(٥) » ، فقيل : معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ وكان سهل يقول : ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات . وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها ، وكان يداوى الناس منها ، وكان إذا رأى العبد يصلى من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يعجب من ذلك ويقول : صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما ، وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل في شىء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف ، ومن لم يدخل في شىء فهو أفضل ، لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يستل عنه لم أخذه؟ ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه . وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأن ذرة من أعمال القلوب : مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، والمرضى لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا . وقال سهل رحمه الله علل الأجسام رحمة الله وعلل القلوب عقوبة .

السبب الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها ، فيرى المرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشى على الأرض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة ^(٦) » ، وفي الخبر « حمى يوم كفارة سنة ^(٧) » ، فقيل لأنها تهد قوة سنة وقيل للإنسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى جميعها ويحذف من كل واحد ألما فيكون كل

(١) حديث « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه ... الحديث » رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف . (٢) حديث : من طريق أهل البيت : إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ... الحديث ، ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرج له ولده في مسنده ، والطبراني من حديث أبي عتبة « إذ أراد الله بهد خيرا ابتلاه ، وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا » وسنده ضعيف . (٣) حديث « تحبون أن تكونوا كالجر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون » أخرجه ابن أبي عاصم في الأحاد والثاني ، وأبو ليم وابن عبد البر في الصحابة ، والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة ، وهو صدر حديث « إن الرجل تكون له الميزة عند الله ... الحديث » ، وقد تقدم . (٤) حديث « إن الله يقول للملائكة : اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمل فإنه في وثاقي ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر ، وقد تقدم . (٥) حديث « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » تقدم ولم أجده مرفوعا .

(٦) حديث « لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمضى على الأرض كالبردة ما عليه خطيئة » أخرجه أبو يلى وابن هدى من حديث أبي هريرة ، والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال « الصداق » بدل « الحمى » والطبراني في الأوسط من حديث ألس « مثل المريض إذا صبح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفائها ولونها » وأسانيده ضعيفة . (٧) حديث « حمى يوم كفارة سنة » رواه القضاة في مسند القضاة من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال « ليلة » بدل « يوم » .

لم كفارة يوم . ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحصى ، سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محمدا فلم تسكن الحصى تفارقه حتى مات رحمه الله ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحصى لا تزالهم ^(١) ولما قال صلى الله عليه وسلم « من أذهب الله كريمة لم يرض له ثوابا دون الجنة » ^(٢) ، قال فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى . وقال عيسى عليه السلام ، لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطايا . وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال : يا رب ارحمه فقال تعالى : كيف أرحمه فيما به أرحمه — أى به أكفر ذنوبه — وأزيد في درجاته .

السبب السادس : أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان ، أو طول الأمل والتسويق في تدارك الفات وتأخير الخيرات ، فإن الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصي ، وأقلها أن تدعو إلى التمتع في المباحات ، وهو تضييع الأوقات وإهمال للريح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات ، وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبيه بالأمراض والمصائب ، ولذلك قيل : لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة . وقد روى « أن الله تعالى يقول : الفقر يجنى والمرض قيدي أحبس به من أحب من خلقي ، فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأى خير يزيد عليه ؟ ولم يذبح أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصي ، فقد قال بعض العارفين للإنسان : كيف كنت بعدى ؟ قال : فى عافية ، قال : إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت فى عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوا من المعصية ؟ ما عوفى من عصى الله وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيد : ما هذا الذى أظهوره ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم ، فقال : كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد .

وقال تعالى ﴿ من بعد ما أراكم ماتحبون ﴾ قيل العوافى ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ وكذلك إذا استغنى بالعافية . قال بعضهم : إنما قال فرعون : أبا ربكم الأعلى لطول العافية ، لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية - لعنه الله - ولو أخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » ^(٣) ، وقيل : الحصى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويق .

وقال تعالى ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها . ويقال : إن العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت : يا غافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تجيب .

(١) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحصى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محمدا . . الحديث ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار : أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد جيد : أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله : أرايت هذه الأمراض تصيبنا مالنا فيها قال « كفارات » قال أبى : وإن قلت ؟ قال « فإن شوكة فافوقها » قال : فدعا أبى أن لا يفارقه الوعك حتى يموت . . الحديث ، ولطبرانى فى الأوسط من حديث أبى بن كعب أنه قال : يا رسول الله ، ما جزاء الحصى ؟ قال : تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق ، فقال : اللهم لى أسألك حى لا تمنى خروجي فى سبيلك ولا خروجي إلى بيتك ولا لمسجد نبيك . . الحديث ، والإسناد مجهول ، قاله على بن المدينى . (٢) حديث « من أذهب الله كريمة لم يرض له ثوابا دون الجنة » تقدم المرفوع منه دون قوله : فلقد كان فى الأنصار من يتمنى العمى . (٣) حديث « أكثروا ذكر هاذم اللذات » أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب ، والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال . وقالوا : لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوما أن يرقع روعة أو يصاب ببلية حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم « عرض عليه امرأة لحكى من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل ولأنها ممرضة قط ، فقال لا حاجة لي فيها (١) » . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ما أعرفه ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم « إليك عني من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا (٢) » ، لأنه ورد في الخبر « الحى حظ كل مؤمن من النار (٣) » .

وفي حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما : قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة (٤) » ، وفي لفظ آخر « الذى يذكر ذنوبه فتحزنه » ، ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب ، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا لأنفسهم مزيدا فيها لا من حث رأوا التداوى نقصانا ؟ وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم ؟ .

بيان الرد على من قال : ترك التداوى أفضل بكل حال

فلو قال قائل : إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره وإلا فهو حال الضعفاء ، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ؟ فيقال : ينبغى أن يكون من شروط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبغ الدم .

فإن قيل : إن ذلك أيضا شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيا عن نفسه ، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فإن قال : وذلك أيضا شرط التوكل ؟ فيقال : ينبغى أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجنة وهذا لا قائل به .

ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته . ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا ، فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم : لاندخل على الوباء فنلقى بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى : بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال : نرجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه : أنفر من قدر الله تعالى ، قال عمر : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، فقال : أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان : إحداهما نخصة : والآخرى مجذبة ، أليس إن رعى النخصة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجذبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا : نعم ، ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه - وكان غائبا - فلما أصبحوا جاء

(١) : حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل : فإنها ممرضة قط ، فقال « لا حاجة لي فيها » أخرجه أحمد من حديث أس بن جوده بإسناد جيد .
(٢) : حديث : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ، ما أعرفه ؟ فقال « إليك عني » . الحديث « رواه أبو داود من حديث عامر البراء أخى الخضر بن جوده ، وفي إسناده من لم يسم . (٣) : حديث « الحى حظ كل مؤمن من النار » رواه البزار من حديث عائشة ، وأحمد من حديث ابن أمية والطبراني في الأوسط من حديث أنس ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود ، وحديث أنس ضعيف وبانيها حسان . (٤) : حديث أنس وعائشة : قيل يا رسول الله ، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة » لم أتف له على إسناد .

عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال : عندى فيه يأمر المؤمنين شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : الله أكبر ، فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ^(١) ، ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذا كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل ؟ .

• فإن قلت : فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء في الطب الهواء ، وأظهر طرق التدوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح ، وهذا لا يدل على المقصود ، ولكن الذى ينقدح فيه - والعلم عند الله تعالى - أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له ، فإنه إذا كان فيه غمونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن ، فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذى استحکم من قبل ، ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرق والطيرة وغيرهما ، ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيًا عنه ، ولكن صار منهيًا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص الأصحاء في الخروج لما بقى في البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ، ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهم بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيقًا ، وخلاصهم منتظر كما أن خلاص الأصحاء منتظر ؛ فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعًا بالخلاص وهو قاطع في إهلاك الباقين ، والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضًا والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه . فهذا هو الذى ينقدح عندنا في تعليل النهى وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فإنه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافقروا إلى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإعانة ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وبهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف ^(٢) لأن فيه كسرا لقلوب بقية المسلمين وسعيًا في إهلاكهم . فهذه أمور دقيقة فن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر مما سمعه ، وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك .

فإن قلت : ففي ترك التدوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التدوى لينال الفضل ؟ فنقول : فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليسكفها ، أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات ، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة ، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين ، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهوما كالرقى ، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التدوى وكان التدوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع ؛ فإلى هذه المعاني رجعت الصور في ترك التدوى ، وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون

(١) حديث عبد الرحمن بن موفد : إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه ... الحديث ، وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه بلنهم أن بالنام وباء ... الحديث ، رواه البخارى . (٢) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف : رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد جيد ، ومن حديث جابر بإسناد ضعيف ، وقد تقدم .

مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدانها ، فإنه لم يمكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ، ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أن الرغبة في المال نقص ، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كالا فهي أيضا نقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه ، فاستواء الحجر والذهب أكمل من الحرب من الذهب دون الحجر ، وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده ، وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم لا خوفه على نفسه من إمساكه ، فإنه كان أعلى رتبة من أن تضره الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (١) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة ، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لأمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف ادخار الأموال فإن ذلك يعظم ضرره . نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ، ومن حيث أنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصي وذلك منهي عنه ، والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك ، وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا ، لحكم التداوى في مقصوده كحكم الكسب ، فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها ، وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه ، فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل في بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والنيات ، وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في التوكل إلا ترك المؤهومات كالكي والرقى فإن ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالمتوكلين .

بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتمانه

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات : لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمان أسلم عن الآفات .

ومع هذا فلا إظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة :

الأول : أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لا في معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن الطبيب أوجاعه ، وكان أحد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول : إنما أصف قدرة الله تعالى في .

الثاني : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة ، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعيم . قال الحسن البصري : إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى ،

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روى أنه قيل لعلي في مرضه رضي الله عنه كيف أنت ؟ قال : بشر ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية ، فقال : أتجلد على الله ؟ فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه

(١) حديث : أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها . تقدم ، وانظره : عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .

عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرني على البلاء ، فقال له صلى الله عليه وسلم : لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية ^(١) .

فهذه النيات يرخص في ذكر المرض ، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام - كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة - . ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى ، فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه ، لأنه ربما يؤهم الشكاية ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزبد في الوصف على الموجود من العلة ، ومن ترك التداوى توكلًا فلا وجه في حقه للإظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء ، وقد قال بعضهم : من بث لم يصبر ، وقيل في معنى قوله (فصبر جميل) لا شكوى فيه . وقيل ليعقوب عليه السلام : ما الذي أذهب بصرك ؟ قال : مر الزمان وطول الأحزان فأوحى الله تعالى إلي . تفرغت لشكواي إلى عبادي ، فقال : يارب أتوب إليك : وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالا : يكتب على المريض أنينه في مرضه ، وكانوا يكرهون أنين المريض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل : ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه ، لجعل الأنين حظه منه .

وفي الخبر : إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فإن حمد الله وأثنى بخير دعوا له وإن شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون ^(٢) . وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام ، فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم ، منهم : فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول : أشتى أن أمرض بلا عواد ، وقال : لا أكره العلة إلا لأجل العواد . رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

كل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه . يتلوه إن شاء الله تعالى : كتاب المحبة والشوق والانس والرضا . والله سبحانه وتعالى الموفق .

كتاب المحبة والشوق والانس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتة ، وصفي أسراهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعسكوف على بساط عزته ، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته ، ثم

(١) حديث : مرض على نفسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : اللهم صبرني على البلاء ، فقال : لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية « تقدم مع اختلاف » . (٢) حديث : « إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده ... الحديث » تقدم .

كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنهه جلالة حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته ، فكلم اهتزت للملاحظة كنهه الجلال غشيها من الدهش ما غبر في وجه العقل وبصيرته ، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرق في بحر معرفته ، ومخرقة بنار محبته ، والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا ،

أما بعد : فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالطوبى والصبر والزهد وغيرها ، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال : لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فحال إلا مع الجنس والمثال . ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه . ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر .

ونحن نذكر في هذا الكتاب : بيان شواهد الشرع في المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، ثم بيان معنى الشوق ، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان خقيقته ، ثم بيان أن الدعاء وكره المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض ، وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته ؟ فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ؛ إذ قال أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما »^(١) ، وفي حديث آخر : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما »^(٢) ، وفي حديث آخر : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »^(٣) ، وفي رواية : « ومن

(١) حديث أبي رزين العقيلي : أنه قال يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » أخرجه أحمد بزيادة في أوله . (٢) حديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » معلق عليه من حديث أس بلفظ ، لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ، وذكره بزيادة . (٣) حديث : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » وفي رواية : « ومن نفسه » متفق عليه من حديث أس ، واللفظ أسلم دون قوله « ومن نفسه » وقال البخاري « من والده وولده » وله من حديث عبد الله بن هشام : قال عمر يا رسول الله لآنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي ، فقال : « لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك » فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي ، فقال : « الآن يا عمر » ،

نفسه ، كيف وقد قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ﴾ الآية . وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي »^(١) ، ويروى أن رجلا قال : يا رسول الله إني أحبك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « استعذ للفقر ، فقال إني أحب الله تعالى ، فقال استعذ للبلاء »^(٢) . وعن عمر رضى الله عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلى هذا الرجل الذي تور الله قلبه لقد رأيت بين أبيه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ماترون »^(٣) .

وفي الخبر المشهور : إن إبراهيم عليه السلام قال للملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يمت خليله ؟ فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه ؟ فقال يا ملك الموت الآن فأقبض^(٤) ، وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه : اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد^(٥) ، وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : ما أعددت لها ، فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب^(٦) ، قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الداراني : إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة ، فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم المرأى من النور ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال أنتم المقربون أنتم المقربون . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم في الثلج فقلت أما تجد البرد ؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد . وعن سري السقطي : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فلا ينهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا .

(١) حديث « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه » الحديث . أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقال حسن غريب .
(٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك ، فقال « استعذ للفقر ... » الحديث . أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن منفل بلفظ « فأعد للفقر تحمفا » دون آخر الحديث وقال حسن غريب . (٣) حديث عمر قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ... الحديث ، أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد حسن .
(٤) حديث : إن إبراهيم قال للملك الموت إذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله ... الحديث ، لم أجده أصلا .
(٥) حديث « اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك ... » الحديث . تقدم . (٦) حديث قال أعرابي يا رسول الله متى الساعة ؟ قال « ما أعددت لها ... » الحديث « متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه .

وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروجه في الآخرة . وقال يحيى ابن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ؟ وجهه يدهش العقول فكيف وده ؟ ووده ينسى مادونه فكيف لطفه ؟ وفي بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب فبحق عليك كن لى محباً . وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب . وقال يحيى بن معاذ : إلهى إني مقيم بفنائك مشغول بثنائك ، صغيراً أخذتني إليك وسربلتني بمعرفتك وأمكننتني من لطفك ونقلتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترًا وتوبة وزهدًا وشوقًا ورضا وحبًا تسقينى من حياضك وتهمنى فى رياضك ملازمًا لأمرك ومشغوفًا بقولك ، ولما طر شاربي ولاح طائرى فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلى ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك هممة لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف . وقد ورد فى حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل فى حصر حاصر وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض فى تحقيق معناه فلم يستغل به .

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطالب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة فى نفسها ، ثم معرفة شروطها وأسبابها ، ثم النظر بعد ذلك فى تحقيق معناها فى حق الله تعالى :

فأقول ما ينبغى أن يتحقق ؛ أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يجب الإنسان إلا ما يعرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماديل هو من خاصية الحى المدرك . ثم المدركات فى انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلآئمه ويلذه ، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه ، وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ . فكل ما فى إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما فى إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً . فإذا ن كل لذى محبوب عند الملتذ به ، ومعنى كونه محبوباً أن فى الطبع ميلاً إليه ، ومعنى كونه مبغوضاً أن فى الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملتذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقاً . والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوى سمي مقتاً . فهذا أصل فى حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته (الأصل الثانى) أن الحب لما كان تابعاً للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة فى بعض المدركات ، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين فى الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ، ولذة الأذن فى النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، ولذة الذوق فى الطعوم ، ولذة اللمس فى اللين والنعومة .

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة ، أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبيب إلى من دنيا كم ثلاث : الطيب والنساء وجعل قرة عينى فى الصلاة (١) » ، فسمى الطيب محبوباً ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه ؛ بل للشم فقط ، وسمى النساء محبوبات ولا حظ فهن إلا للبصر واللمس دون

(١) حديث « حبيب إلى من دنيا كم ثلاث : الطيب ، والنساء ... الحديث » أخرجه النسائى من حديث أنس دون قوله « ثلاث » وقد تقدم .

الشم والذوق والسمع ، وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان ، فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس - حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب - فإذا قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات ، فلا مشاحة فيه وهيات ، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكا من العين ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة - كما سيأتي تفصيله - فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا .

(الأصل الثالث) أن الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه ، وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه ؟ هذا بما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته . والحق أن ذلك متصور وموجود ، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها ، وبيان أن المحبوب الأول عند كل حي : نفسه وذاته ، ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ، ونفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب ، وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده ؟ وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ؟ فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويسكره الموت والقتل ، لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت ، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ، ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم في الحياة . ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء ، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء ، فالهلاك والعدم بمقوت ودوام الوجود محبوب . وكما أن دوام الوجود محبوب فكالم الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فافد للكمال . والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه . والهلاك والعدم بمقوت في الصفات . وكمال الوجود كما أنه بمقوت في أعمال الذات ووجود صفات الكمال محبوب ، كما أن دوام أصل الوجود محبوب . وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى (وإن تجدد لسنة الله تبديلا) .

فإذا كان المحبوب الأول الإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه . فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها ، والمال محبوب لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكماله وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حفظه في دوام الوجود وكماله بها ، حتى إنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه ، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له ، فلنفرط حبه في بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا . نعم لو خير بين قتله وقتل ولده - وكان طبعه باقيا على اعتداله - آثر بقاء نفسه على بقاء ولده ، لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق ، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه للكمال نفسه فإنه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملًا بكمالهم ، فإن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجنح المسكل للإنسان ، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة . فإذا كان المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام

ذلك كله ، والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب .

السبب الثاني : الإحسان ؛ فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تجعل لفاجر على يدا فيحبه قلبي (١) ، إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرارا لا يستطاع دفعه ، وهو جلبة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها . وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة . وهذا إذا حقق رجوع إلى السبب الأول ، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود ، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب ، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب يكون سببا في دوام صحة الأعضاء ، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لآلذاته بل لأنه سبب الصحة وكذلك العلم محبوب والاستاذ محبوب ، ولكن العلم محبوب لذاته والاستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب . وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام . فإذا رجع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه . فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ، ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه .

السبب الثالث : أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه ، وذلك كحب الجمال والحسن ، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها . ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة . فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبا لذاته ، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لا يشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري (٢) والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطياف المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل ، حتى إن الإنسان لتتفرج عنه الغيوم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر . فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع ، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله جميل يحب الجمال (٣) .

(الامل الرابع) في بيان معنى الحسن والجمال ؛ اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون ، وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان ، فإن الحسن الاغلب على الخلق حسن الإبصار ، وأكثر التفاتهم

(١) حديث « اللهم لا تجعل لسفاح على يدا فيحبه قلبي » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس : من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع ، وقد تقدم . (٢) حديث : كان يعجبه الخضرة والماء الجاري ... أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري ، وإسناده ضعيف . (٣) حديث « إن الله جميل يحب الجمال » رواه مسلم في أثناء حديث لابن مسعود .

إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا ملونا مقدّر فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محروبا . وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخاقه وامتزاج البياض بالحرة . فإننا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن ، بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن ، فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ؟ ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة . وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح ، فما معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء ؟ فلا بد من البحث عنه . وهذا البحث يطول ، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء لجأله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له ، فإذا كان جميع كالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال ، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر ، فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كثر وفز عليه ، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ، ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده . لحسن كل شيء في كماله الذى يليق به . فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ، ولا تحسن الآوانى بما تحسن به الثياب ، وكذلك سائر الأشياء .

فإن قلت : فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لا تفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات ، وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ، ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس ؟ فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال : هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة ، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير ، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الحسن بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته ، وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا ، بل حب أرباب المذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم ؛ حتى أن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدّ العشق فيحمله ذلك على أن تنفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه . فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب ، وليت شعري من يحب الشافعى مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ؟ ولو شاهدته ربما لم يستحسن صورته ، فاستحسناته الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة ، فإن صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين وانهاضه لإفادة علم الشرع ولنبشره هذه الخيرات في العالم ، وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة ، فأما الحواس فقاصرة عنها . وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضى الله عنه ويفضله على غيره ، أو يحب عليا رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له ، فلا يحبه إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره . فمعلوم أن من يحب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يحب تنظمه ولحه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ، ولكن بقي ما كان الصديق به صديقا وهي الصفات المحمودة التى هى مصادر السير الجميلة ، فكان

الحب بافيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور . وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته ، لجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ، ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة . وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لأجله فإذا كان الجمال موجود في السير ، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحسوب مصدر السير الجميلة ، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس ، حتى إن الصبي الخلق وطبعه إذا أردنا أن نحبب إليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة . فهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه ، فهل غلب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابع التي لا تدرك بالحواس ؟ بل لما وصف الناس حاتميا بالسخاء ووصفوا خالدًا بالشجاعة أحببتهم القلوب حبا ضروريا ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم ، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعده المزار ونأى الديار . فإذا لم يكن حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه ، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهى قط لإحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب ، والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتترك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ؛ فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشامصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .

السبب الخامس : المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم ، فأنعارف منها اتلف وماتناكر منها اختلف (١) ، وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب فإذا ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب : وهو حب الإنسان وجود نفسه وكمال بقاءه . وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقاءه ودفع المهلكات عنه . وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه . وحبه لكل ما هو جميل في ذاته ؛ سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة . وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن . فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد أضاف الحب لا محالة ، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوبا لا محالة غاية الحب ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات السكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات . فلقبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى ، وحب الرسول

(١) حديث « فأنعارف منها اتلف » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم في آداب الصحبة .

صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحبة المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بحملتها ولا يوجد في غيره إلا أحادها ، وأنها حقيقة في حق الله تعالى ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له . ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقاً ، وبأن التحقيق يقتضى أن لا يحب أحداً غير الله تعالى .

فأما السبب الأول : وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها ، وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله ، فهو المخرج الموجد له وهو المبقى له وهو المكمل لوجوده بخلاق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه ذو خلق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ، بل هو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته . وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته ، وكل ما سواه قائم به . فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقاً موجداً ومخترعاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً لغيره ، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه ، والمحبة ثمرة المعرفة فتعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها . وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ؟ ومعلوم أن المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيجب بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل ، وكل ما فى الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإن السكل من آثار قدرته ، ووجود السكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهم العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها ، وهو خطأ محض إذا انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة ، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى ، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق . فإذا كان حب الإنسان نفسه ضرورياً لحبه لمن به قوامه أولاً ودوامه ثانياً فى أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضرورى ، إن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهراته ومحسوساته ، وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التمتع به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطاق أرضه إلا من يقرب إلى شبه الملائكة ، فينظر فيه بقدر قربته فى الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم ،

وأما السبب الثانى : وهو حبه من أحسن عليه فراساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدته بمعونته وانتدب لنصرته

وقع أعداءه وقام بدفع شر الأشرار عنه وانهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده . وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فليست أعداها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ، ولكننا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى . ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكانك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فإنك تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذى أنعم بخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك ؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلط الله عليه الدواعى وقدر في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا في التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل ، وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطارا مجرى الماء في جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته محسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر ، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه ، أما الإحسان إلى غيره فحال من المخلوقين ، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له البذل إما آجل وهو الثواب وإما عاجل وهو المنة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قابو الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكما أن الإنسان لا يلقى ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقى في يد إنسان إلا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده ، وأما أنت فليست مقصودا بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال ، فقد استسخر في القبض للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا ألبتة . فإذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين .

(أحدهما) أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار مجرى خازن الأمير فإنه لا يرى محسنا بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك . فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى في نفسه أن يحظه دينا ودنيا في بذله فبذله لذلك . (والثاني) أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يمد البائع محسنا لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر ، وليس من شرط العوض أن يكون عينا متمولا بل الحظوظ كلها أعواض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان في الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل ، وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على العالمين إحسانا إليهم ولاجلهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز ، ومنه في حق غيره محال ويمتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض ، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان ، فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله تعالى ، إذ الإحسان

من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده ، وأما غيره فيستحق المحبة على الإنسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته .

وأما السبب الثالث : وهو حبك المحسن في نفسه وإلى لم يصل إليك إحسانه . وهذا أيضا موجود في الطباع . فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق مهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك ؛ فإنك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلا إلى الأول وهو الحب ، ونفرة عن الثاني وهو البغض ، مع أنك آيس من خير الأول وآمن من شر الثاني لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما ؛ فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك ، وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب ، فإن الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق ؛ أولا : بإيجادهم ، وثانيا : بتكاملهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم ، وثالثا : بترقيهم وتعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ، ورابعا : بتكاملهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم .

ومثال الضروري من الأعضاء : الرأس والقلب والكبد ، ومثال المحتاج إليه : العين واليد والرجل . ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة .

ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان . الماء والغذاء . ومثال الحاجة : الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد : خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائد الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة .

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش . فإذا هو المحسن ؛ فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ؛ فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان ، فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى .

وأما السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذات الجمال لاحظ ينال من وراء إدراك الجمال ؛ فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع ، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة ، والأول يدركه الصبيان والبهائم ، والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركونهم فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا . وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال ، فإن كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب . ومثال هذا في المشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوى المكارم السنية والأخلاق المرضية ، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدرك . نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه ، حتى إذا دل القاب عليه مال القلب إليه فأحبه ، فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو الصديق رضي الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن مظهر له منهم ، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم ، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل

حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجل ، وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا . وأجل المعلومات هو الله تعالى ، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى ، وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به .

فإذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور (أحدها) علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . (والثاني) قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة (والثالث) تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر ، وبمثل هذا يجب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى .

أما العلم : فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكالاً للوصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه ، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما تقتضاه معيشته . والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية .

وأما صفة القدرة : فهي أيضاً كمال والعجز نقص ، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيد ، حتى إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة على وغاله رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضرورياً للمتعصف به فإنه نوع كمال ، فأنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقواهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقنعهم للخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره — مأمتهى قدرته ؟ وإنما غاية أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضراً ولا نفعاً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ، ولا يحتاج إلى عتد ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق بقدرته ، فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها ، فلا قدرة له على ذرة منها . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وب نفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك . ولو سيطر بعوضاً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لاهلكه ، فليس للعبد

قدرة إلا يتمكن مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذى القرنين إذ قال (إنا مكنا له في الأرض) فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا يتمكن الله تعالى إياه في جزء من الأرض ، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غيرة من تلك المدرة ، ثم تلك الغيرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه ، فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر ، السموات مطويات بيمينه والأرض وملسها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته ، إن أهلكتهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملسكه ذرة . وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعي بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا .

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقديس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة ، والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزّهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقديس والتنزه إلا للواحد الحق الملك والقدوس ذى الجلال والإكرام

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال في حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب . وشرح وجوه التقديس والتنزه في حقه عن النقائص بطول وهو من أسرار علوم المسكاشفات فلا نطوّل بذكره . فهذا الوصف أيضا إن كان كاملا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته إلا له ، وكال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ، كما أن للفرس كمالا بالإضافة إلى الحمار والإنسان كمالا بالإضافة إلى الفرس . وأصل النقص شامل للكل وإنما يتفاوتون في درجات النقصان .

فإذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ند له ، الفرد الذي لا ضد له ، الصمد الذي لا منازع له ، الغني الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض ، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذي لا أول لوجوده ، الأبدى الذي لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجناد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، والمتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال ، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الألسنة ، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ولا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ^(١) ، وقال سيد الصديقين رضي الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك لإدراك . سبحانه من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته فليت شعري من ينسكرك إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا ؟ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال

(١) حديث « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » تقدم .

والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أن ينكر كون الله تعالى موصوفاً بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوباً بالطبع عند من أدركه ؟ فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ؛ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان لأن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أود الأوداء إلى من عبدني بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها . وفي الزبور : من أظلم ممن عبدني لجنة أو نار لو لم أخلقجنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أطاع . وهـ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا : نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم : مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتهم . ومر بقوم آخرين كذلك فقالوا : نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله فقال : أنتم أولياء الله حقاً معكم أمرت أن أقيم . وقال أبو حازم : إني لاستحي أن أعبدته للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وكالاجير السوء إن لم يعط لم يعمل . وفي الخبر « لا يكون أحدكم كالاجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل ، ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل » (١) .

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل . ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه ، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح . وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه . وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا ، وقد يكون خفياً حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فالتعارف هو التناسب ، والتناكر هو التباين . وهذا السبب أيضاً يقتضى حب الله تعالى للمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة ، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعتد عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك .

فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالافتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللفظ وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة . فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالممكن بل بالصفات .

وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها آدمي فهي التي يوحى إليها قوله تعالى ﴿ ويسئلك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ ولذلك أسيجد له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى ﴿ إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله

(١) حديث « لا يكون أحدكم كالاجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل » لم أجده أصلاً .

عليه وآله وسلم « إن الله خلق آدم على صورته ^(١) ، حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام « مرضت فلم تعدنى فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبي فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده ^(٢) » وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى « لا يزال يتقرب العبد إلى النوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به ^(٣) » وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم : أنا الحق . وضل النصارى فى عيسى عليه السلام فقالوا : هو الإله وقال آخرون منهم تذرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون : اتحد به . وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون . ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد فى قول القائل :

لا زلت أنزل من وداك منزلا تتحير الالباب عند نزوله

فلم يزل يعدو فى وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقي أصوله حتى تشقت قدماه وتورمتا ومات من ذلك . وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا . فهذه هى المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة فى حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفى أعلى الدرجات لافى أدناها ، فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى ففقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ، ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غير لمشاركه إياه فى السبب ، والشركة نقصان فى الحب وغض من كماله . ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه ، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ولا شريك له فى ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك ممكنا ، فلا جرم لا يكون فى حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته . فهو المستحق - إذا لاصل المحبة - والكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا .

بيان أن أجل اللذات وأعلامها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها فى نيلها المقتضى طبعها الذى خلقت له فإن هذه الغرائز ما ركبت فى الإنسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأسر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لنيتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الإبصار والاستماع والشم ، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركتها . فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى ﴿ أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى

(١) حديث « إن الله خلق آدم على صورته » تقدم . (٢) حديث قوله تعالى « مرضت فلم تعدنى » فقال : وكيف ذاك ! قال : مرض فلان ... الحديث « تقدم . (٣) حديث قوله تعالى « لا يزال يتقرب العبد إلى النوافل حتى أحبه ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالاسامى فإن الاصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الالفاظ وهو عكس الواجب ، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة ، كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية ، وإلا فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تدم ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها . كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها . وليس ينبغي أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغم به ، وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقةرة . فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما تعلمه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الطبع إذا أتى عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ، ثم ليست لذة العلم بالحرارة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدير أمر الحاق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وإن جهله تقاض طبعه أن يفحص عنه ، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره في رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألد من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألد من علمه بباطن أسرار الوزير ، وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وجهه له أكثر لأن لذته فيه أعظم . فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكل والأشرف والأعظم فالعلم به ألد العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها . وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزيناها ومبدئها ومعيدنها ومدبرها ومربتها ؟ وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟ فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الإطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات والأدما وأطيبها وأشهاها ؟ وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها ، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين أن العلم لذيد ، وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتديره في مملكته - من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين - فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوات والغضب ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا ، كمخالفة لذة الواقع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة . وهي مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة ، ومخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه في الجمال . وإنما تعرف أقوى

الذات بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألد عنده من الروائح الطيبة ، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمتع اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل ، فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل . فهذا معينا صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول :

الذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس ، وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأذن ولا لللسان ولا للذوق ، والمعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة ، وإن كان على الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أيا ما كثيرة : فاختياره للرياسة يدل على أنها ألد عنده من الطعومات الطيبة . نعم النافص الذي لم تسكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي ، أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألد من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق ، وغاية العبارة عنه أن يقال ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفسك والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحققر الخلق الذين يرأسهم لعله بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوبا بالكدورات التي لا يتصور الخلو عنها ، وكونه مقطوعا بالموت الذى لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام ملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية من المزاحمات والمكدرات متسعة المتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها ، إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذى هو أمر ربانى سماوى ، وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعدمها فلا . ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ الآية . ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر « إن الشهيد يتمنى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء ^(١) » .

فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه ، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض . وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منزلاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرم

(١) حديث « ان الشهيد يتمنى أن يرد في الآخرة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى ... الحديث » متفق عليه من حديث أس واذ تقدم ، وليس فيه « وان الشهداء يتمنون أن يسكنوا علماء ... الحديث »

ونسعة معارفهم ، وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم ، فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوى السكال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لا تكون لهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى السكال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة ، فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وأسكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفة من نال رتبة المعرفة وذاتها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة ، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الواقع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنبن ، لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة ، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين المذتين ، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف . ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها ، فإنها أيضا معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية ، فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرجه وسروره ، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى . فهذا القدر ينبغي على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء وأنه لا لذة فوقها .

ولهذا قال أبو سليمان الداراني : إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له : أخبرني يا أبا محفوظ أى شيء هاجبك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق ؟ فسكت فقال : ذكر الموت ، فقال : وأى شيء الموت ؟ فقال : ذكر القبر والبرزخ ، فقال : وأى شيء القبر ؟ فقال : خوف النار ورجاء الجنة ، فقال : وأى شيء هذا ؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوبا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال : ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان ويشربان ، قلت : فأنت ؟ قال : علم الله قلة رغبتى في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه . وعن علي بن الموفق قال : رأيت في النوم كأنى ادخلت الجنة ، فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملسكان عن يمينه وشماله يلقيانه من جميع الطيبات وهو يأكل ، ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا ، قال : ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف ، فقالت لرضوان : من هذا ؟ قال : معروف الكرخي عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين : بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لرابعة : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواكا

وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذا كما

ولعلمها أرادت بحب الهوى : حب الله لإحسانه إياها وإنعامه عليها بحفظ العاجلة ، وبمجه لما هو أهل له : الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها ؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما ، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (١) ، وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إني أقول يارب يا الله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب ؛ وهل رأيت جليسا ينادي جليسه ؟ وقال : إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة ؛ أي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنونا أو كفرا . فقص العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط ، فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفى لهم منها ، وإذا حصلت انمحقت الهوم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها ، فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لسكال نعيمه وبلوغة الغاية التي ليس فوقها غاية ، وليت شعر من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل ؟ وأي معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم ؟ بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

ككأن قلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأيتك العين أهوائ
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائ
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا ديني ودنياي
ولذلك قال بعضهم :

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إشار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والذكاح ، فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط .

ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما ذكره : وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو ، حتى يكون ذلك عنده الذ من سائر الأشياء ، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحققر معها لذة اللعب ، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ، ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر ، وهي آخر لذات الدنيا وأعلامها وأقواها كما قال تعالى ﴿ اعلوا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر ﴾ الآية . ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحققر معها جميع ما قبلها ، فكل متأخر فهو أقوى ، وهذا هو الأخير ، إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز ، وحب النساء والزينة في سن البلوغ ، وحب الرياسة بعد العشرين ، وحب العلوم بقرب الأربعين ، وهي الغاية العليا وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة ؛ فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون ﴿ إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون ﴾ .

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال ؛ كالصور المتخيلة والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى ما لا يدخل في الخيال ، كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها . ومن رأى إنساناً ثم غص بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها ، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للتخيلة ، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ، فإن صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً ، وهو كشخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء ؛ فإنه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف . فإذا الخيال أول الإدراك والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال وهو غاية الكشف ، وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين ، بل لو خلق الله هذا الإدراك السكامل المكشوف في الجهة أو الصدر مثلاً أستحق أن يسمى رؤية .

وإذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضاً في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان (إحداهما) أولى (والثانية) استكمال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين التخييل والمرئي ، فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية . وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف ، وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر والمرئي ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخييل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غاب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار . والقول في سبب كونها حجاباً يطول ولا يليق بهذا العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ ان تراني ﴾ وقال تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ أي في الدنيا والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج ^(١) . فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، غير منفكة عنها بالسكلية وإن كانت متفاوتة ، فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتقصيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد . نعوذ بالله من ذلك . ومنها ما لم يذته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتقصيل فيعرض على النار عرضاً يجمع منه الخبث الذي هو متدنس به ، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين . كما وردت به الأخبار . سبعة آلاف سنة ^(٢) وإن ترتحل نفس عن

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج في الصحيح ، هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة ، في الصحيحين : أنها قالت من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ولمسلم من حديث أبي ذر : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال « نورا نورا » وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد : ما زلت له منكراً . وقال ابن خزيمة : في القلب من صحة إسناده شيء ، مع أن في رواية لأحمد في حديث ابن ذر « رأيت نورا نورا » رجال إسناده رجال الصحيح . (٢) حديث « ان أقصى المسكت في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة » أخرجه الترمذي المسكين في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة « إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل السكائر من أمق . . . الحديث » وفيه « وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة » وإسناده ضعيف .

هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما ، وإن قلت ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها ، فإذا أكل الله تطهيرها وتركيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة - وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه فإنه واقع بعد القيامة ؛ ووقت القيامة مجهول - فعند ذلك يشتغل بصفاته ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غيرة ولا قرة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما عليه كان انكشاف تجلى المرآة بالإضافة إلى ما تخيله . وهذه المشاهدة والتجلى هي التي تسمى رؤية ، فإذا الرؤية حق ، بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان ، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الارباب علوا كبيرا ، بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة ، فتراه في الآخرة كذلك . بل أقول : المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كالالكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة ، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح ، كما ضربناه من المثال في استكمال الخيال بالرؤية . فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة لأنها هي بعينها لا تفرق منها إلا في زيادة الكشف ، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف ، ولهذا لا يهوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا ، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرع ، ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ؟ ومن لا يزرع الحب فكيف يحصد الزرع ؟ فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة ، فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر ، إذ تختلف لا محالة بكثرتها وقوتها وحسنها وقوتها وضعفها ، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة ^(١) ، فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر ، بل لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره ، ولما فضل من الناس بسر وقر في صدره فضل لا محالة بتجل انفرديه ، وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح ؛ وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا ؛ فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب ؛ وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابعة : ما تقولين في الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار . فبينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة . وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه

(١) حديث « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة » أخرجه ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الإسناد وفي الميزان للذهبي أن الدارقطني رواه عن الحاملي عن علي بن عبدة وقال الدارقطني إن علي بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة .

في الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة ، إذ ليس يستأنف لاحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به ؛ كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق برؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته ، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي ، فن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره ، بل ربما يتأذى به . فإذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته ؛ فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان .

فإن قلت : فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها ، لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها ؟ فاعلم أن هذا الاستحقاق للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة ، فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ؟ وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ؟ فللمعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولا لذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ، ولا للذة اللس باليد إلى لذة الوقاع .

ولإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول : لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب (أحدها) كمال جمال المعشوق ونقصانه ، فإن اللذة في النظر إلى الأجل أكمل لا محالة . (والثاني) كمال قوة الحب والشهوة والعشق ؛ فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه . (والثالث) كمال الإدراك ، فليس التذاذ برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعده كالتذاذ بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد . (والرابع) اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ؛ فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بهمهم من المهمات .

فقدّر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب وزنايب تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة مامن مشاهدة معشوقه ، فلو طرأت على الفجأة حالة انتهك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذبات وبقي سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات ، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها ، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة . فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به ، والعقارب والزنايب مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن ، وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى المآل الأعلى والتفاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياضة والتفاتة إلى اللعب بالعصفور ، والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها البتة . نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وأعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ، واسكن يكون ذلك

كأبرق الخاطف وقلبا يدوم ؛ بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينغصه ، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت ، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنما العيش عيش الآخرة (وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ، ولا يكره إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فإن المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له ، فالإحاطة بكنهه جلال الله محال ، فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقوته ؛ كثرت النعيم في الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثرت البذر وحسن ، كثرت الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ، ولا يزرع إلا في صعيد القلب ، ولا حصاد إلا في الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله »^(١) ، لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتوسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب ، ويستدعى ذلك زمانا لا محالة ، فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالغيا إلى منتهى ما يسر له ، ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر ، فهذا سبب كراهة الموت وحبّه عند أهل المعرفة .

وأما سائر الخلق فنظروهم مقصور على شهوات الدنيا إن اتسعت أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت . وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة . والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ، ومعنى العشق فإنه المحبة المفرطة القوية ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ، ومعنى لذة الرؤية ، ومعنى كونها ألد من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان ، كما لم تكن الرياضة ألد من المطعومات عند الصبيان .

هـ فإن قلت : فهذه الرؤيا محلها القلب أو العين في الآخرة ؟ فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه ، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ، ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو جبهته ، بل يقصد الرؤيا ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها ، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له ، والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين ، هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع^(٢) والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليسكون لفظ الرؤية والنظر ، وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره ، إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا للضرورة والله تعالى أعلم .

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى ، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادته لقاءه ، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه ، وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من

(١) حديث « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله » أخرجه إبراهيم الحربي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهادي عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله » ووالد المطلب عبد الله بن حوطب يختلف في صحبته ولأحمد من حديث جابر « أن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإجابة » والترمذي من حديث أبي بكر : أنه رجلا قال يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم . (٢) حديث « رؤية الله في الآخرة حقيقة » متفق عليه من حديث أبي هريرة : أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ... الحديث » .

غير منغص ومكتر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة ، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة ، وأما قوة الحب واستيلائه حتى ينتهي إلى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بسببين (أحدهما) قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء لا يتسع للنخل مثلا ما لم يخرج منه الماء (ما جعل الله لرجل من قابلين في جوفه) وكما أن الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه . وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ، وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الخل المصوب فيه . وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى (قل الله ثم ذرهم في خوضهم) وبقوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) بل هو معنى قولك « لا إله إلا الله » أي لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإنه معبود ، فإن العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به . وكل محب فهو مقيد بما يحبه . ولذلك قال الله تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) وقال صلى الله عليه وسلم « أبغض إله عبد في الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله خلاصا دخل الجنة » (١) ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله ، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ، ومن هذا حاله فالدينا سبحانه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدم على المحبوب ، فما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبد الآباد ، فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والممتلكات حتى إن المنفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسفار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعصر لنقصان حب الله تعالى بسببه ، فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولا يوثق أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب زوجها ، فالدينا والآخرة ضربتان وهما كالمشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا أوضح من الإبصار بالعين ، وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء . فما ذكرناهما من المقامات كالآخرة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله ، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما . ثم ينتج ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط ، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام ، الطهور شطر الإيمان (٢) ، كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة .

(السبب الثاني) لقوة المحبة « قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلائها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شوائب الدنيا وعلائقها بحرى بحرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني . ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلا حيث قال (ضرب الله مثلا كلمة

(١) حديث « من قال لا إله إلا الله خلاصا دخل الجنة » تقدم . (٢) حديث « الطهور شطر الإيمان » أخرجه مسلم .
حديث أبي مالك من الأشعري وقد تقدم .

طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿ وإليها الإشارة بقوله تعالى ﴾ (إليه يصعد الكلم الطيب) أي المعرفة ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالآدم وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ثم لإدامة طهارته ، فلا يراد بالعمل إلا لهذه المعرفة ، وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل ، فالعلم هو الأول وهو الآخر ، وإنما الأول علم المعاملة وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جليلة الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعثها المحبة بالضرورة ، كما أن من كان معتدلاً المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ، فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته .

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى (الأقوياء) ويكون أول معرفتهم بالله تعالى ، ثم به يعرفون غيره . وإلى (الضعفاء) ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل . وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ وبقوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ ومنه نظر بعضهم حيث قيل له : بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربي ولولا ربي لما عرفت ربي ، وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى ﴿ سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ الآية ويقول عز وجل ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ﴾ وبقوله تعالى ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ وبقوله تعالى ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكير والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر .

فإن قلت : كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيرادها في الكتب ، وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ؛ وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس ، والمسانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشغاب أبوابه الخارجة عن الحصر والهاية ، إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ﴾ فالخوض فيه الغاس في بحار علوم المكاشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبية لجنسه فنقول :

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلتتكم فيها ولنترك الأعلى ، ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقها وأعظمها ولننظر في عجائبها ، فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها - أعني بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات - فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى

فلسكها الذى هى مركوزة فيه ، فإنه لانسبة لها إليه وهى فى السماء الرابعة ، وهى صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ، ثم السموات السبع فى الكرسي كحلقة فى فلاة ، والكرسى فى العرش كذلك . فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير ، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها ! بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار ! فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « الأرض فى البحر كالإصطبل فى الأرض »^(١) ، ومصدق هذا عترف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء بجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ، ثم انظر إلى الآدمى المخلوق من التراب - الذى هو جزء من الأرض - وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجرى مجراه ، فانظر فى البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومها ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة فأثبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ؟ ودبر فى بطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره فى سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغذائية والجاذبة والدافعة والماسكة والمهاضمة ما ركب فى سائر الحيوانات ، هذا فى شكله وصفاته ، ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الإنسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان ، وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدّد الرأس ، وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه فى واحد منها ، ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم ، وكيف عليه المص والتجرع للدم ، وكيف خلق الخرطوم مع دقته بجوفا حتى يجرى فيه الدم الرقيق ويذهب إلى بطنه وينتشر فى سائر أجزائه ويغذيه ، ثم كيف عرفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آله ، وخلق له السمع الذى يسمع به خفيف حركة اليد وهى بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ، ثم إذا سكنت اليد يعود ، ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه

وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لمالم تحتل حدقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار - خلق للبعوض والذباب يدين فتتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه . وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر ، وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شبك الأهداب ، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار . وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعليها كيفية التصقيل باليدين ، ولأجل ضعف أبصارها تراها تنهافت على السراج لأن بصره ضعيف فهى تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه فى بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضىء ، فلا يزال يطلب الضوء ويرمى بنفسه إليه فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهها ، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها ، بل صورة الآدمى فى الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش فى التنهات على النار ، إذ تلوح للآدمى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدرك أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك

(١) حديث « الأرض فى البحر كالإصطبل فى الأرض » لم أجده أصلاً .

هلا كما مؤبدا ، فليت كان جهل الآدمي بجهل الفراش ، فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة ، ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : « إني ممسك بمحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش »^(١) ، فهذه لمعة عجيبية من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات ، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته ، فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى .

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره ، فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى لإلهها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ، وكيف استخرج من لعبها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ، ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأفذار ، وطاعتها لواحد من جماتها هو أكبرها شغفا وهو أميرها ، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها - حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة - لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع ، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المستدس ، فلا تبنى بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مستدسا ، لخاصية في الشكل المستدس يقصر فهم المهندسين عن دركها ، وهو أن أوسع الأشكال وأحوها : المستديرة وما يقرب منها ، فإن المربع يخرج منه زوايا ضالعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيق الزوايا فتبقى فارغة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضالعة فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المستدس ، وهذه خاصية هذه الشكل ، فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفًا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتنأ بعيشه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه !

فاعتبر بهذه اللعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فإن القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ، ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه ، بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى ، فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة بالحاصلة بأسهل الطريقين ، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة ، فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فابذ الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون في أصل الحب لا اشتراكهم في أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات

(١) حديث « إني ممسك بمحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش » متفق عليه من حديث أبي هريرة « مثل ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بمحجزكم وأنتم تفتنون فيه » لفظ مسلم وأتبعه البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر « وأنا آخذ بمحجزكم وأنتم تفتنون من يدي » .

والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها ، وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين ، والمتخيلون هم الضالون ، والعارفون بالحقائق هم المقربون . وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى ﴿ فَمَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ الآية . فإن كنت لاتفهم الأمور إلا بالأمثلة فانضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول : أصحاب الشافعي مثلاً يشتركون في حب الشافعي - رحمه الله - الفقهاء منهم والعوام ، لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ، ولكن العامي يعرف علمه بجملاً والفقير يعرفه مفصلاً ، فتكون معرفة الفقير به أتم وإعجابه به وحببه له أشد ، فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لآحالة ومال إليه قلبه ، فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لآحالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه ، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعتة ازداد به معرفة وازداد له حبا ، وكذا سائر الصناعات والفضائل . والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة بجملة ويكون له بحسبه ميل بجملة ، والبصير إذا قش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لآحالة ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامي يعلم ذلك ويعتقده : وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى في البعوض - مثلاً - من عجائب صنعه ما يذهل به عقله ويتحير فيه ليه ويزداد بسببه لآحالة عظمة الله وجلاله وكال صفاته في قلبه فيزداد له حبا ، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله ، وازداد به معرفة وله حبا . وبجر هذه المعرفة - أعني معرفة عجائب صنع الله تعالى - بجر لاساحل له ، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لآحصر له ، وبما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته ، إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء . وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه . فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة . والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة . ولذلك قال تعالى ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه . وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلها لمعنى لاتفهمه إلا بهشال : وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخطط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات ، لحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة ، إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لانعرفه ، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات

لأنه شيء من الحواس الخمس ، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل ما في العالم سواء لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ، ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدبر ونبات وشجر وحيوان وسما وأرض وكوكب وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا ، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة - وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد ، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته . والموجودات المدركة لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس لها يشهد إلا شاهد واحد وهو ما أحسنا به من حركة يده ؛ فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله ؛ إذ كل ذرة فإنها تتأدى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة ، فإنه نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فأنهت العقول ودهشت عن إدراكه .

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان (أحدهما) خفاؤه في نفسه وغوصه وذلك لا يخفى مثاله (والآخر) ما يتناهى وضوحه ، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لاختفاء النهار واستتاره ولكن لشدة ظهوره فإن بصر الخفاش ضعيف يبهه نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره .

فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراف والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفاؤه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى أنه لا ضده عسر إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر . ومثاله : نور الشمس المشرق على الأرض ، فإننا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الإشراف لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما ، فإننا لا نشاهد في الاسود إلا السواد وفي الابيض إلا البياض ، فأما الضوء فلا ندركه وحده ، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور ، هذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر غيره ، انظر كيف تصور استبهاام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ؟ فانه تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانتهت السموات والأرض وبطل الملك

والمسكوت ، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين . ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشئيين في الدلالة ، ولكن دلالتيه عامة في الأشياء على فسق واحد ، ووجوده دائماً في الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب في قصور الأفهام .

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله . وأفعاله أثر من الآثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها . ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر ، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره ، كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف . وكل العالم تصنيف الله تعالى ، فنظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له ، وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله ، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبدا لله ، فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وإنه فنى عن نفسه . وإليه الإشارة بقول من قال : كنا بنا فنييننا عنا فبقينا بلا نحن . فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر ، أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهومة موصلة للغرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيههم . فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في العصباء عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم شهواته وقد أنس بمدركانه ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس ، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجبها انطلق لسانه بالمعرفة طبعها فقال « سبحان الله » وهو يرى طول النهار نفسه وأعضائه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الانس بها ، ولو فرض أنه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فأمند بصره إلى السماء والأرض والآثار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لحيف على عقله أن يظهر لعظم تعجبه من شهادة المعجائب لمخالفتها .

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة ، فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطالب حماره ، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتصة . فهذا سر هذا الأمر فليحقق . ولذلك قيل :

فقد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمر
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار . أما الاعتبار فيمكن في إثباته ماسبق في إثبات الحب ، فكل محبوب يشواق إليه في غيبته

لا محالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه ، فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر والموجود لا يطلب . ولكن بيباه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، فأما ما لا يدرك أصلا فلا يشتاق إليه ، فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه ولا يتصور أن يشتاق إليه ، وما أدرك بكأله لا يشتاق إليه ، وكأل الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوما للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات .

فنقول مثلا : من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية ، فلو انمحي عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق إليه ، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية ، فعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله ، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ، وتتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه (والثاني) أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته ، وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط .

والوجهان جميعا متصوران في حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية — وإن كان في غاية الوضوح — فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحا غاية الاتضاح ، بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات ، فإن الخيالات لا تفتقر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات ، وهي مكدرات للعارف ومنغصات ، وكذلك يضاف إليها شواغل الدنيا ، فإتمام كمال الوضوح بالمشاهدة وتتمام إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين . فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما (الثاني) أن الأمور الإلهية لانهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة . والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلا ، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة .

والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن في الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات يوم : يا رب إن أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقاءك فأعطني ذلك فقد أضربني القلق ، قال : فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال : يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبته ، فقلت يا رب تهت في حبلك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلني ما أقول ، فقال قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك . فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة .

وأما الشوق الثاني فيشبه : أن لا يكون له نهاية لافي الدنيا ولا في الآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لانهاية له . ولا يزال العبد عالما بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه ، لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال ، فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون الطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبدا لا يباد ،

وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل : وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا ، فإن كان ذلك غير مبدول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام . وقوله سبحانه وتعالى ﴿ نورهم يسع بين أيديهم وبأيمنهم يقولون ربنا آتّم لنا نورا ﴾ محتمل لهذا المعنى : وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ، ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه . وقوله تعالى ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم - قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾ يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقا ، فأما أن يتجدد نور فلا ، والحكم في هذا برجم الظنون مخطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به ، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا . فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى ، فما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك » (١) ، وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرني عن أخص آية - يعني في التوراة - فقال : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم لأشد شوقا . قال : ومكتوت إلى جانبها : من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ، فقال أبو الدرداء : أشهد أني لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا . وفي أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى قال ياداد أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني وجليس لمن جالسنى ومؤنس لمن أنس بذكري وصاحب لمن صاحبني ومختار لمن اختارني ومطيع لمن أطاعني ، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحبته حبا لا يتقدمه أحد من خلقى ، من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني ؛ فافضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلهرا إلى كرامتي ومصاحبتى وبجالستى ، وانلسوا بي أو أنسكم وأسارع إلى محبتكم ، فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نبيي ومحمد صفى ، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى .

وروى عن بعض السلف : أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادة من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم وبذكرونى وأذكركم وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حدثت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم همتك ، قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخللا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم واقترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامى وتملقوا إلى يالعمى فبين صارخ وبك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشكون من حبي ، أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقلاتها لهم . والثالثة : أقبل بوجهى عليهم ، فترى من أقبلت عليه يعلم ما أريد أن أعطيه ؟ .

وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه : ياداد إلى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق إلى ،

(١) حديث : أنه كان يقول فى دعائه « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

قال : يارب من المشتاقين إليك ؟ قال : إن المشتاقين إلى الذين صفيهم من كل كدر ونهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إلى خرقا ينظرون إلى ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سماءى ، ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا سجدوا لى ، فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى وأباهى بكم أهل الشوق إلى فإن قلوبهم لتضىء فى سماءى للملائكتى كما تضىء الشمس لأهل الأرض ، يادادود إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فاتخذتهم لنفسى محدثى ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقتا ينظرون به إلى يزدادون فى كل يوم شوقا ، قال داود : يارب أرنى أهل محبتك ، فقال : يادادود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول ، فإذا أتيتهم فأقرهم منى السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فإنكم أحبابى وأصفيانى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم . فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ؟ ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم فإنكم أحبابى وأصفيانى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة ؟ قال : فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترئ على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا فى شىء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتمم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا علينا بجودك . وقال الآخر : من نطمة خلقتنا ومنذت علينا بالتفكر فى عظمتك أفيجترئ على الكلام من هو مشغول بعظمتك متفكر فى جلالك ؟ وطلبنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كلت السنننا عن دعائك ؛ لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك ؛ وفرغتنا للاشتغال بك ، فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هى النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترئ العبد على سيده ؟ إذ أمرتنا بالدعاء بجودك - فهب لنا نورا نرتدى به فى الظلمات من أطباق السموات وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لا حاجة لنا فى شىء من خلقك فامن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامن علينا باشتغال القلب بك عن كل شىء ودونك . فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتهم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فإنى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال دارد : يارب بيم نالوا هذا منك ؟ قال : بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بى وبمناجاتهم لى وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشغل بشىء من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقى ، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إلى نظر الناظر

بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقربه من نور وجهي ، إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا فعلت ذلك به يادادود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحبها إليه لا يفتر عن الاشتغال بي ، يستعجلني القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلق لا يرى غيري ولا أرى غيره ، فلو رأيت يادادود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكرى أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي يزداد خوفاً وعبادة ، وعزتي وجلالي يادادود لأقعدنه في الفردوس ولا شفين صدره من النظر إلى حتى يرضى وفوق الرضا .

وفي أخبار داود أيضاً . قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي ماضركم إذا احتجبت عن خلق ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى بعيون قلوبكم ، وما ضرركم مازويت عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم ، وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التستم رضائي . وفي أخبار داود أيضاً : إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبني ، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبها لا يجتمعان في قلب . يادادود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أما ما استبان لك بما وافق محبتي فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه حقاً على أني أسارع إلى سياساتك وتقويمك وأكن قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألني وأعينك على الشدائد وإن قد حلفت على نفسي أني لا أئيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلغاء كنفه بين يدي وأنه لا غنى به عني . فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فإن قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها ، أضف الأشياء إلى لاتضاد عملك فتكون متعنياً ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتي حداً فليس لها غاية ، ومتى طلبت مني الزيادة أعطتك ولا تجد للزيادة مني حداً ، ثم أعلم بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب ، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ضعني بين عيذك وانظر إلى ببصر قلبك ولا تنتظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجب عقولهم عني فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها فإن حلفت بعزتي وجلالي لأفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسوية ، تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريد ، فلو علم أهل محبتي منزلة المريد عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها . يادادود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيدا ، ومن كتبته عندي جهيدا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين . يادادود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محنتي لا تؤيس عبادي من رحمتي ، اقطع شهوتك لي فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلق ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتي ، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عني فإن لم أرض الدنيا لحبيبي ونزوته عنها . يادادود لا تجعل بيني وبينك عالماً يحجبك بسكره عن محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريد ، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة في الإفطار فإن محبتي للصوم إدمانه . يادادود تحبب إلى بمعاودة نفسك منعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقري على ثوابي إذا مننت عليك به وإن أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي .

أوحى الله تعالى إلى داود : يادادود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماثوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي . يادادود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين علي

يادارد أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عني ، وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عني ، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلى ، فهذه الأخبار ونظائرها بما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك ، ولتقدم الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . ثم تلا ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ ^(١) ، ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام ، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب » ^(٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » ^(٣) ، وقال عليه السلام : « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به » ^(٤) ، الحديث . وقال زيد بن أسلم : « إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اعمل ما شئت فقد غفرت لك . وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر .

وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط . وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس ، والجمال موافق أيضاً ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر .

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً ، بل الأسماء كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً ، حتى إن اسم « الوجود » الذي هو أعم الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد ، بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع . وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما ، لأن يكون فيه أصلاً ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلق ، وهذا التباعد في سائر الأسماء أظهر كالعلم والإرادة

(١) حديث أنس : « إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة . (٢) حديث : « إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب » . الحديث . أخرجه الحاكم وصححه اسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود . (٣) حديث : « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله « ومن أكثر ... إلى آخره » ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة . (٤) حديث : « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق . وواضح اللغة إنما وضع هذه الأسماء أولاً للخلق فإن الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق ، فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل . والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائمتها ، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كالأفتلند بنيله ، وهذا محال على الله تعالى ، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال يمكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبداً وأزلاً ، ولا يتصور تجرده ولا زواله ، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فقال بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه ، على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره ، فمن لا يحب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته ، فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل ، لحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب ، وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له كما قال تعالى « لا يزال عبيد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه ، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه .

ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه ، إما لينصره بقوته أو ليسترخ بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهي أسباب طعامه وشرابه ، فيقال : إن الملك يحبه ، ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملائمة له . وقد يقرب عبداً ولا يمنع من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق المرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك وافر الحظ من قرب ، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلاً ، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال : قد أحبه ، وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال : قد توصل وحبيب نفسه إلى الملك . فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول . وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى ، والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشرائط ، والتخلق بمسكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغير ، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً إذ صار قريباً بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال ، بل لا يزال في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال .

ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعاً ، وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر ، بل القرب في الصفات أيضاً كذلك ، فإن التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والاستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائماً

في التغسير والترقي إلى أن يقرب من أستاذه ، والاستاذ ثابت غير متغير ، فكذلك ينبغي أن يفهم ترقى العبد في درجات القرب ، فكما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ، ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله . نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال ، فإنه لا نهاية لكمال ، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حد محدود فلا مطمع له في المساواة ، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتنا لا نهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

فإذن محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه .

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاند له ، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته ، وإذا أدرك منه شيئا يلذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى .

فإن قلت : محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول : يستدل عليه بعلاماته . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه » قيل : وما اقتناه ؟ قال : لم يترك له أهلا ولا مالا ^(١) ، فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام : لم لا تشترى حمارا فتركبه ؟ فقال : أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار . وفي الخبر : « إذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فإن صبر اجتبه وإن رضى اصطفاه » ^(٢) وقال بعض العلماء : إذا رأيتك تحبه ورأيتك يبتليك فاعلم أنه يريد أن يضافيك . وقال بعض المريدين لأستاذه : قد طولت بشيء من المحبة ، فقال : يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواء فآثرت عليه إياه ؟ قال : لا ، قال : فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيها عبدا حتى يبلوه . وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « إذا أحب الله تعالى عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه وأمره وينهاه » ^(٣) ، وقد قال : « إذا أراد الله تعالى بعبده خيرا بصره بعيوب نفسه » ^(٤) ، فأخص علامات محبة الله تعالى فإن ذلك يدل على حب الله تعالى له .

وأما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدير لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمستد لظواهره وباطنه والجاعل همومه هما واحدا والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته . فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد . فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله تعالى فإنها أيضا من علامات حب الله تعالى للعبد .

القول في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى ، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبس الشيطان

(١) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه » الحديث . أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني وقد تقدم .
(٢) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتبه » الحديث . ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرج له ولده في مسنده . (٣) حديث « إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه » الحديث . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ « إذا أراد الله بعبده خيرا » . (٤) حديث « إذا أراد الله بعبده خيرا بصره بعيوب نفسه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أس بن زيادة فيه بإسناد ضعيف . (٢٤ - أحياء علوم الدين - ٤)

وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى مالم يتمتعها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة . والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح . وتدل تلك الآثار الفاضلة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار . وهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام ، فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقائه ، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محباً للموت غير فاز منه ، فإن الحب لا يثقل عاينه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وآله وسلم : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ^(١) ، وقال حذيفة عند الموت : حبيب جاء على فاقة لا أفlech من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود . وقد شرط الله سبحانه حقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله ، حيث قالوا إنا نحب الله لجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال تعالى ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ﴾ وقال عز وجل ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مريء والباطل خفيف وهو مع خفته وبيء ، فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدرتك ، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت وإن تعجزه . وروى عن إسحق بن سعد بن أبي وقاص قال : حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا ندعو الله ؟ نخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال : يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ويقر بطني ، فإذا لقيتك غدا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنيك ، فأقول : فيك يارب وفي رسولك ، فتقول صدقت قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط ^(٢) قال سعيد بن المسيب : أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله . وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان : لا يكره الموت إلا مريب ، لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد : أنحب الموت ؟ فكأنه توقف فقال لو كنت صادقاً لأحببته ، وتلا قوله تعالى ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ فقال الرجل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يتمنين أحدكم الموت ^(٣) ، فقال : إنما قاله لاضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه .

فإن قلت : من لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محباً لله ؟ فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد ، وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإن الناس متفاوتون في الحب . ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما تزوج أخته فاطمة من سالم مولاة عاتبة قريش في ذلك وقالوا : أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى ؟ فقال : والله لقد أنكحته إياها

(١) حديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة . (٢) حديث إسحق بن سعد بن أبي وقاص قال : حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا ندعو الله ؟ نخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال : يارب إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجدع أنفي وأذني . الحديث « أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد . (٣) حديث « لا يتمنين أحدكم الموت لاضر نزل به ... الحديث » متفق عليه من حديث أس وقد تقدم .

وإني لأعلم أنه خير منها ، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا : وكيف وهى أختك وهو مولاك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليُنظر إلى سالم ^(١) » ، فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .

وأما السبب الثاني للكراهة : فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبته عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق ، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا ، وعلامته الدؤوب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه . وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار فقال (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ومن بقى مستقرا على متابعة الهوى فحجوبه ما يهواه ، بل يترك المحب هوى نفسه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأنك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب ، كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى ، فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سؤفت به إلى النهار وقالت : يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا ، حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه يخرج منك ولدين وجاعلها نبيين ، فقالت : أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلني طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى ، فعندها سكنت إليه . فإذا من أحب الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفى هذا المعنى قيل أيضا :

وأنك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى : علامة الحب إثارة على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبيا ، وإنما الحبيب من اجتذب المناهى : وهو كما قال ، لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى (يحبهم ويحبونه) وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه ، وإنما عدوه نفسه وشهوته فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهوته .

(١) حديث أبي حذيفة بن عتبة : أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتقه ترضى في ذلك . وفيه : فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليُنظر إلى سالم » لم أره من حديث حذيفة وروى أبو أمامة في الحلية المرفوع منه من حديث عمر : أن سالما يحب الله حقا من قلبه ، وفي رواية له « إن سالما شديد المحبة لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ما عصاه » وفيه عبد الله بن لهيعة .

ولذلك قال تعالى ﴿ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾ .

فإن قلت : فالعصيان هل يضاد أصل المحبة ؟ فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها ، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره ؟ وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه . ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة . ويدل عليه ما روى أن نعيمان كان يؤتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيحده في معصية يرتكبها إلى أن أتى به يوما لحده ، فلغنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله ^(١) ، فلم يخرج به بالمعصية عن المحبة . نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين : إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا ، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي . وبالجمل في دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل : إذا قيل لك أنتحب الله تعالى ؟ فاسكت ، فإنك إن قلت : لا ، كفرت وإن قلت : نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء : ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك .

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به ، فعلاقة حب الله ؛ حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه ، فإن من يحب إنسانا يحب كلب محله . فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة في الحب فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لأنه كلامه ، فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه ، فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الآخرة والصحة ولذلك قال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لله تعالى ^(٢) ، وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله ، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله . وحكى عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال : فسمعت قائلا يقول في المنام : إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتاي ، قال : فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فماودت إلى حالي . وقال ابن مسعود : لا يذغبي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل - رحمه الله تعالى عليه - علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بنض الدنيا ، وعلامة بنض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة .

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التمجيد ويغتني هذه الليل وضاء الوقت بانقطاع العوائق ، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعيم بمناجاته ، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث الذي عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته ؟ قيل لإبراهيم بن آدم وقد نزل من الجبل : من أين أقبلت ؟

(١) حديث : أتى نعيمان يوما لحده فلغنه رجل قال : ما أكثر ما يؤتي به ؟ فقال : لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله ، أخرجه البخاري ولفظ تقدم . (٢) حديث : أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ... الحديث ، تقدم .

فقال : من الانس بالله . وفي أخبار داود عليه السلام : لا تستأنس إلى أحد من خلق ، فإنما أقطع عنى رجلين رجل استبطأ ثوابي فانقطع ورجلا نسينى فرضى بحاله ، وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران ، ومهما أنس بغير الله كان يقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته . وفي قصة برخ - وهو العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام - أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : إن برخا نعم العبد هو لى إلا أن فيه عيبا ، قال : يارب وما عيبه ؟ قال : يعجبه نسيم الأسفار فيسكن إليه ومن أحببى لم يسكن إلى شيء وروى أن عابدا عبد الله تعالى فى غيضة دهر طويلا فنظر إلى طائر وقد شش فى شجرة يأوى إليها ويصفر عندها ، فقال : لو حوت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال : ففعل ، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق لأحظنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا . فإذا علامة المحبة كمال الانس بمناجاة المحبوب وكمال التمتع بالخلوة به وكال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة . وعلامة الانس بصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة ، كالذى يخاطب معشوقه ويناجيه ، وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان فى صلاته ووقع الحريق فى داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو فى الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والانس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الانس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مرارا ، مثل العاشق الولهان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه فى الباطن بذكر حبيبه . فالحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال : هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضى الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبى بكر : الحب لا يسأم من حديث حبيبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فيها أنا ذا موجود لمن طلبنى . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك ؟ فقال : إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ : من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضا : من لم تسكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب ؛ يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق .

ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين : إن لله عبادا أجبره واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحفظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما ، وما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فيحسن تدبيره لهم . وحق الحب إذا رجع من غفلته فى لحظة أن يقبل على محبوبه ويشغل بالعتاب . ويسأله ويقول : رب بأى ذنب قطعت برك عنى وأبعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى وبمتابعة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة ، وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه . ومهما لم ير الحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل السكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته ، ويذكر قوله ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ .

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعيها كما قال بعضهم : كابدت الليل عشرين سنة . ثم تنعمت به

عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحب دوام النشاط والدعوى بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه . وقال بعضهم : العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء : والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل . فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات ، فإن العاشق لا يستثقل السعى في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه . ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشغل به ، فهكذا يكون حب الله تعالى ، فإن كل حب صار غالبا قهر لا محالة ما هو دونه ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه ، وقيل لبعض المحبين - وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء - لما كان سبب حاله هذه في المحبة ؟ فقال : سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبك بقلي كله وأنت معرض عني بوجهك كله ! فقال له المحبوب : إن كنت تحبني فأيش تنفق علي ؟ قال : ياسيدي أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك فقلت : هذا خلق الخلق وعبد لعبد فكيف بعيد لمعبود ؟ فكل هذا بسببه .

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله رحيا بهم شديدا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه كما قال الله تعالى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب الله صارف ، وبه وصف الله أوليائه إذ قال الذين يكفون بحبي كما يكلف الصبي بالشئ ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكفه ، ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا ، فانظر إلى هذا المثال فإن الصبي إذا كلف بالشئ لم يفارقه أصلا ، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه ، فإن نام أخذه معه في ثيابه ، فإذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه . فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ، ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه ، إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين كما قال تعالى في الأبرار (إن الأبرار لفي نعيم) ثم قال (يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسليم عينا يشرب بها المقربون) فإذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذي هو المقربون . والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان ، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال (إن كتاب الأبرار لفي عليين) ثم قال (يشهده المقربون) فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون ، وكما أن الأبرار يحدون الميزان في حالهم ومعرفة بهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم ، فكذلك يكون حالهم في الآخرة (ما خلقتكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . كما بدأنا أول خلق نعيده) وكما قال تعالى (جزاء وفاقا) أى وافق الجزاء أعمالهم فقبل الخالص بالصرف من الشراب وقبول المشوب بالمشوب . وشوب كل شراب على قدر ماسبق من الشوب في حبه وأعماله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فمن كان حبه في الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والخور العين والقصور : مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان ؛ فهناك تنتهى لذته في الآخرة لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذذ عينه . ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق : أنزل (في مقعد

صدق عند ملك مقتدر ﴿ فالأبرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان . والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب ^(١) ، ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال ﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ كما قال تعالى ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾ .

ومنها أن يكون في حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم ، وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك ، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب والخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشد من بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد ، وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين ^(٢) إذ سمع قوله تعالى ﴿ ألا بعدا لنفوس - ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به ، فحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب ، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد ، ولا يبي الخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإذا قلنا أن درجات القرب لانهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استوى يوماء فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون ^(٣) ، وكذلك قال عليه السلام : إنه ليغان على قلبي في اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة ^(٤) ، وإنما كان استغفاره من القدم الأول فإنه كان بعدا بالإضافة إلى القدم الثاني ، ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب ، كما روى أن الله تعالى يقول : إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيق مناجاتي . فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، فأما الخصوص فيحبهم عن المزيد مجرد الدعوى والمعجب والركون إلى مظهر من مبادئ اللطف ، وذلك هو المسكر الحفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ، ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته سمع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في سياحة وكان على الجبل : كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا

قد وهبنا لك ما فالت فهب لنا ما فالت منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يبق يوما وليلة وطرات عليه أحوال ثم قال : سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت .

ثم خوف السلو عنه فإن المحب يلزمه الشوق والطلب الحديث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد ، فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجوعه . والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر ، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، فإذا

(١) حديث : أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب « أخرجه البخاري من حديث أنس بسند ضعيف ، مقتصر على الشار الأول ، وقد تقدم ، والشرط الثاني من كلام أحمد بن أبي الحواري ، ولعله أدرج فيه .
(٢) حديث : شيبني هود « أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة . (٤) حديث : من استوى يوماء فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون « لأعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت : يا رسول الله أوصني ، فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد . (٤) حديث : إنه لبنان على قاي « متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلاو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان ، فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان ، وكما أن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة ، فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلاو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان . ثم خوف الاستبدال به بآلة قال القلب من حبه إلى حب غيره ، وذلك هو المقت والسلاو عنه مقدمة هذا المقام والإعراض والحباجب مقدمة السلاو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملا له لوظائف الأرواد أسباب هذه المعاني ومقدماتها . وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت - نعوذ بالله منه - وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الجذر منها بصفات المراقبة دليل صدق الحب ، فإن من أحب شيئاً خاف لا محالة فقده فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب بما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين : من عبد الله تعالى بمخبة من غير خوف ملك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيجاش ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ومكنه وعلمه ، فالمحب لا يخلو عن خوف والخائف لا يخلو عن محبة ، ولكن الذي غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة ويعد من المحبين ، وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكر الحب ، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب . فقد روى في بعض الأخبار : أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فهام في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصاً سبعة أيام لا يلتفت بشيء ولا يلتفت به شيء ، فسأل له الصديق ربه تعالى فقال : يارب أنقصه من الذرة بعضها ، فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيتاه جزءاً من مائة ألف جزء من المعرفة ، وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئاً من المحبة في الوقت الذي سألني هذا ، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيتك ، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ما أصابه من ذلك ، فقال : سبحانك يا أحكم الحاكمين أنقصه بما أعطيتك ، فأذهب الله عنه جملة الجزء ، وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد	عن الأحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب	كان فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت	عن الأبصار إلا للشهيد
يزرى الأعياد في الأوقات تجري	له في كل يوم ألف عيد
وللأحباب أفراح بعيد	ولا يجحد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتاً يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره . وهي هذه الأبيات :

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم	خلوا بقرب الماسجد المتفضل
عراصا بقرب الله في ظل قدسه	تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهي	ومصدرهم عنها لما هو أكمل

تروح بعز مفرد من صفاته وفي حل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ماتدق صفاته وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكنم من علمي به ما يصونه وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطي عباد الله منه حقوقهم وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه إلى أهله في السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له ، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا ، فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعبارة الدنيا ، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها ، وبطلت الأسواق والمعايش ، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم ، ولكن الله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له في الخير أسراراً وحكماً ، ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته .

ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحجوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيره على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويريد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه في العقبي وتتجمل عليه البلوى في الدنيا . نعم قد يكون للحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه واضطرب أحواله فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور ، وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه . فالقادر على السكتان يقول :

وقالوا : قريب ، قلت : ما أنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان في حجرى ؟

فقال منه غير ذكر بخاطر يهيج نار الحب والشوق في صدرى ا

والعاجز عنه يقول :

يخفى فيبسى الدمع أسرار ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضاً :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكنم ؟

وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بعداً أكثرهم إشارة به . كأنه أراد : من يكثر التعريض به في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو عمقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه - ممن كان يذكر المحبة - فرآه مبتلى ببلاء فقال : لا يحبه من وجد ألم ضره فقال الرجل : لكننى أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره ، فقال ذو النون : ولكننى أقول : لا يحبه من شعر نفسه بحبه ، فقال الرجل : أستغفر الله وأتوب إليه .

فإن قلت : المحبة منتهى المقامات وإظهارها لإظهار للخير فلماذا يستنكر ؟ فاعلم أن المحبة محدودة وظهورها محمود أيضاً وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار ، وحق المحب أن ينم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله . وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب ، بل ينبغي أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته اطلاع غيره فشارك في الحب

وقادح فيه ، كما ورد في الإنجيل : إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك . فالذى يرى الخفيات يحزبك علانية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك . فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال : يا أخى له محبوبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين ! فهذا الذى رأيت من مجانينهم . وما يكره : التظاهر بالحب ، بسبب أن المحب إن كان عارفا - وعرف أحوال الملائكة في حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس المحبين في مملكته وأن حبه أنقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين : عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيئا ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها : فبلغت صفحا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء ، فقلت : من أنتم فقالوا : نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا منذ ثلاثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره ، قال : فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه في جهنم .

فإذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس أسانه عن التظاهر بالدعوى . نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته ؛ كما حكى عن الجنيد أنه قال : مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا ، فوصف لنا طيب حاذق . فأخذ قارورة مائة فنظر إليها الطيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى : أراه بول عاشق ! قال الجنيد : فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدي ، ثم رجعت إلى السرى فأخبرته ، فتبسم قال : قاتله الله ما أبصره ! قلت : يا أستاذ وتبين المحبة في البول ! قال : نعم . وقد قال السرى مرة : لو شئت أقول : ما ألبس جلدى على عظمى ولا سل جسمى لإحبه ! ثم غشى عليه . وتدل الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدمات الغشية . فهذه مجامع علامات الحب وثمراته .

ومنها : الأناشيد والرضا - كما سيأتى .

وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ، وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق . نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه . والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ، ولذلك قال الجنيد : الناس في محبة الله تعالى عام وخاص ، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ؛ فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك . ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبه إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم ، نعم من الناس من يحب هواه . وعدوا الله إبليس - وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل - فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات ، أو يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حفظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله في أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال : يا دوسيت - أى يا حبيب - فقيل له : قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا ؟ فقال فى أذن القائل سرا : لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا : فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس : وقد

قال أبو تراب التنخشي - في علامات المحبة - أبياناً :

لا تخدعن فللحييب دلائل	ولديه من تجف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه	وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة	والفقر لإكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أى ترى من عزمه	طوع الحبيب وإن ألم العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسماً	والقلب فيه من الحبيب بلايل
ومن الدلائل أن يرى متفهماً	لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفاً	متحفظاً من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمراً	في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه	جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً	نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى	من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكياً	أن قد رآه على قبيح فعايل
ومن الدلائل أن تراه مسلماً	كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضياً	بملكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى	والقلب محزون كقلب الشاكر

بيان معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة ، إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على الحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته ، فإذا غلب عليه التطمع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه ، وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقاً وهو بالإضافة إلى أمر غائب ، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد ؛ استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنساً ، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزول والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفاً . وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات ، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها ، فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال ، حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق ؟ فقال : لا إنما الشوق إلى غائب ، فإذا كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا اللطاف .

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة ، كما حكى أن إبراهيم بن آدم نزل من الجبل فقيل له : من أين أقبلت ؟ فقال : من الأنس بالله ، وذلك لأن الأنس بالله يلزمه التوحش من غير الله ، بل كل

ما يعرق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روى أن موسى عليه السلام لما كلفه ربه مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغيابة ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ماسواه . ولذلك قال بعض الحكماء فى دعائه : يا من آتسنى بذكره وأوحشنى من خلقه ، وقال الله عز وجل لداود عليه السلام : كن لى مشتاقا وبنى متأنسا ومن سواى مستوحشا وقيل لرابعة : بهم نلت هذه المنزلة ؟ قالت : بتركى ما لا يعينى وأنسى بمن لم يزل . وقال عبدالواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال : يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك ، الوحدة رأس العبادة ، فقلت يا راهب ما أقل ما تجده فى الوحدة ؟ قال : الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم ، قلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى ؟ قال : إذا صفا الود وخلصت المعاملة ، قلت : ومتى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع لهم فصارهما واحد فى الطاعة ، وقال بعض الحكماء : عجا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا ؟ عجا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك ؟ .

فإن قلت : فما علامة الأنس ؟ فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معايشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر ، فإن خالط فهو كمنفرد فى جماعة ومجتمع فى خلوة ، وغريب فى حضر وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة وغائب فى حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بعذوبة الذكر ، كما قال على كرم الله وجهه فى وصفهم : هم قوم هم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلأنوا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهد .

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ، ولذة معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحد بن غالب ، يعرف بنلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبى الحسن التورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا ، وقال : ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور . وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على الفشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر ، فإن المحسوسات وكل ما يدخل فى الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب ، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عنده غير مقبول وقد قيل :

الأنس بالله لا يحويه بطال وليس يدركه بالحول محتمل
والأنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة لله عمال

بيان معنى الانبساط والإدلال الذى تثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينقصه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر نوعا من الانبساط فى الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى ، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجرامة وقلة الهيبة ولكنه محتمل من أقيم فى مقام الأنس ، ومن لم يقم فى ذلك المقام ويتشبه بهم فى الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر .

ومثاله : مناجاة برخ الأسود الذى أمر الله تعالى كلمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى إسرائيل ؛

بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسقى لهم فى سبعين ألفا ، فأوحى الله عز وجل إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعوننى على غير يقين ويأمنون مكبرى ، ارجع إلى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له ، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف ، فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيهِ تراب من أثر السجود ، فى شملة قد عقدتها على عنقه ، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين أخرج فاستسقى لنا . فخرج فقال فى كلامه : ما هذا من فعالك ولا هذا من حليك ؟ وما الذى بدالك أنقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نفذ ما عندك أم اشتد غضبك على المذنبين ؟ أأنت كنت غفارا قبل خلق الخطائين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالمعطف ، أم تريد أنك تمتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ، قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب ، قال : فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفنى ؟ فهم موسى عليه السلام به ، فأوحى الله تعالى إليه : إن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات . وعن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة فبقى فى وسطها خص لم يحترق ، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة ، فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخصب ، قال : فأتى بشيخ فقال : يا شيخ ما بال خصك لم يحترق ؟ قال : إني أقسم على ربى عز وجل أن لا يحرقه ، فقال أبو موسى رضى الله عنه : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يكون فى أمى قوم شعبة رهوسهم ، دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم ^(١) ، قال : ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار ، فقال له أمير البصرة : انظر لا تحترق بالنار ، فقال : إني أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقنى بالنار ، قال : فاعزم على النار أن تطفأ ، قال : فعزم عليها فطفئت . وكان أبو حفص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاق مدهوش فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ فقال : ضل حمارى ولا أملك غيره ، قال : فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره ، قال : فظهر حماره فى الوقت ومز أبو حفص رحمه الله .

فهذا وأمثاله يجرى لذوى الانس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الانس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم أشياء هى كفر عند العامة . وقال مرة . لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد فى أحوالهم بذلك . وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه
تأهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم فى عز ما تأهوا

ولا تستبعدون رضا عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلفت مقامهما ، فى القرآن تنبيهات على هذه المعانى لو فطنت وفهمت ، لجميع قصص القرآن تنبيهات لاولى البصائر والابصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار ، فإنما هى عند ذوى الاعتبار من الاسماء .

وأول القصص . قصة آدم عليه السلام وإبليس أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا فى الاجتناب والعصمة . أما إبليس فأبأس عن رحمة ، وقيل لأنه من المبعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه ﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ .

(١) حديث الحسن عن أبي موسى « يكون فى أمى قوم معنة رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الإعراض عن عبد والإقبال على عبد ، وهما فى العبودية سيات ولكن فى الحال مختلفان ، فقال ﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنده تلهى ﴾ وقال فى الآخر ﴿ أمان استغنى فأنت له تصدى ﴾ وكذلك أمره بالعودة مع طائفة ، فقال عز وجل ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم ﴾ حتى قال ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ .

فكذلك الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون بعض . فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام ﴿ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ وقوله فى التعليل والاعتذار لما قيل له ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ فقال ﴿ ولهم على ذنب ﴾ وقوله ﴿ إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ﴾ وقوله ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن فى بطن الحوت - فى ظلمات ثلاث - ونودى عليه إلى يوم القيامة ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ . قال الحسن : العراء هو القيامة . ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ .

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق فى الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وقد قال ﴿ منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ فكان عيسى عليه السلام من المفضلين والإدلاله سلم على نفسه ، فقال ﴿ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس .

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه ، فقال ﴿ وسلام عليه ﴾ .

وانظر كيف احتل لإخوة يوسف ما فعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى ﴿ إذ قالوا ليوסף وأخوه أحب إلى أيننا منا ﴾ إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض ، وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع - فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزيز فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر ، حتى قيل يحى من ديوان النبوة وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته فى الجوارح فعفا عنه . فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام : يارأس العابدين ويا ابن حجة الزاهدين إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة فوعزنى وجلالى لأن أخذته عصفة من عصفاى عليه لا تركته مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده ، فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا كنيها من رمل ، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال : إلهى وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تنب على وكيف أستعصم ؟ إن لم تعصمنى لا عودن ، فأوحى الله تعالى إليه : صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد تبت عليك وأنا التراب الرحيم ، وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه .

وفي الخبر : إنّ الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشقى على الهلكة كم من ذنب واجهته به غفرته لك قد أهلكك في دونه أمة من الأمم . فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به المشيئة الأزلية .

وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل ، فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه ، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول ﴿ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ وتارة يتعرف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد - ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي : الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه ، أو معرفة صفاته وأسمائه ، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده : ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث القرآن فقال : من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن (١) ، لأنّ منتهى التقديس أن يكون واحداً في ثلاثة أمور ؛ لا يكون حاصلًا منه من هو نظيره وشبهه . ودل عليه قوله ﴿ لم يلد ﴾ ولا يكون حاصلًا من هو نظيره وشبهه . ودل عليه قوله ﴿ ولم يولد ﴾ ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلًا له ولا فرعًا من هو مثله . ودل عليه قوله ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ويجمع جميع ذلك قوله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وجملته تفصيل قول : لا إله إلا الله ، فهذه أسرار القرآن ولا تنهاى أمثال هذه الأسرار في القرآن ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : تورا القرآن والتسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين ، وهو كما قال ، ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فسكره وصفًا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر . وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار ، فكان حريصاً على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ما تستحق معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه . . فهذا ما أردنا ذكره من معنى الانس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وماورد في فضيلته

اعلم أنّ الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الأكثرين ، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين ، فقد أنكر منكرون تصوّر الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا : إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فيذنب أن يرضى بالكفر والمعاصي وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى . ولو انكشف هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل (٢) ، فلنبداً ببيان فضيلة الرضا ، ثم بحكايات أحوال الراضين ،

(١) حديث « من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن » أخرجه أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه . (٢) حديث دعائه لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » متفق عليه دون قوله « وعلمه التأويل » ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم .

ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوّره فيما يخالف الهوى ، ثم نذكر ما يظنّ أنه من تمام الرضا وليس منه كثير الدعاء والسكوت على المعاصي .

بيان فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقد قال تعالى ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وقال تعالى ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ فكما أن مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان .

وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك ^(١) » فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته ، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فإنما سأله الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الآمان لما ظفروا بنعيم النظر ، فلما امرؤ بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب . وقال الله تعالى ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال بعض المفسرين : يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ؛ إحداها : هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخنى لهم من قرة أعين ﴾ والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلا وهو قوله تعالى ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ والثالثة : يقول الله تعالى : إني عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أي من النعيم الذي هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد .

وأما من الأخبار : فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه « ما أنتم » فقالوا : « مؤمنون » فقال « ما علامة إيمانكم » فقالوا : « نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء » فقال « مؤمنون ورب الكعبة ^(٢) » وفي خبر آخر أنه قال « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ^(٣) » وفي الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل ^(٥) » وقال أيضاً « إذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فإن صبر اجتبه وإن رضى اصطفاه » وقال أيضاً « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتي أجنة فيطيطرون من قبورهم إلى

(١) حديث « إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك » أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه لبر وفيه « فيتجلى لهم يقول أنا الذي صدقتم وعدي وأنعمت عليكم نعمتي وهذا محل إكرامى فسلوني فيسألونه الرضا ... الحديث » ورواه أبو دلى باللفظ « ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك ... الحديث » ورجاله رجال الصحيح (٢) حديث : سأل طائفة من أصحابه « ما أنتم » فقالوا : « مؤمنون فقال « ما علامة إيمانكم ... الحديث » تقدم .

(٣) حديث : أنه قال في حديث آخر « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » تقدم أيضاً . (٤) حديث « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به » أخرجه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد باللفظ « وقع » وقال صحيح وقد تقدم (٥) حديث « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل » رواه في أمالي المحامل بإسناد ضعيف من حديث علي بن أبي طالب ومن طريق المحامل رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حسابا ، فتقول لهم : هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا صراطا ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئا ، فتقول الملائكة : من أمة من أئمتنا ؟ فيقولون : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فتقول : ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا ، فيقولون : خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله ، فيقولون : وماهما ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا (٢) .

وفي أخبار مرسى عليه السلام : إن بني إسرائيل قالوا له : سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا ، فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت ما قالوا ، فقال : ياموسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم . ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر ما لله عز وجل عنده ، فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه (٣) .

وفي أخبار داود عليه السلام : ما لأوليائي والهم بالدنيا ، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ، يادادود إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يقتمون .

وروى أن موسى عليه السلام قال : يارب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله ، فأوحى الله تعالى إليه : إن رضاى فى كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره ، قال : يارب دلني عليه ، قال : فإن رضاى فى رضاك بقضائى . وفى مناجاة موسى عليه السلام : أى رب أى خلقك أحب إليك ؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب سألنى ، قال : فأى خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال : من يستخيرنى فى الأمر فإذا قضيت له سخط قضائى . وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال : أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى (٤) ، ومثله فى الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى (٥) ، وفى الخبر المشهور : يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقت له للخير وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقت له للشر وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف (٦) .

وفى الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكأ إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ما أراد ، ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكو ، هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات

(١) حديث « إذا كان يوم القيامة أُنبت الله لطائفة من أمتي أجنته فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها » رواه ابن حبان فى الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلى من حديث أنس مع اختلاف ، وفيه حميد بن على القيسى سائط ماله والحديث منكر مخالف للقرآن ، وللأحاديث الصحيحة فى الورد وغيره . (٢) حديث « أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » تقدم . (٣) حديث « من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ما لله عنده . . . الحديث » أخرجه الحاكم من حديث جابر وصححه بلهظ « منزلته » و « منزلة الله » . (٤) حديث « قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائى . . . الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصرا على قوله « من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليتمس ربا سوائى » . (٥) حديث « قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا . . . الحديث » لم أجده بهذا اللفظ ، والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة « خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبیین . . . الحديث » وإسناده ضعيف . (٦) حديث « يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقت له الخير وأجريت الخير على يديه . . . الحديث » أخرجه ابن شاهين فى شرح السنة عن أبى أمامة بإسناد ضعيف .

والارض وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد ، وعزتي وجلالي لأن تأجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأخونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون - يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الارض لا ينطق ولا يرفع رأسه - فقال له بعض ولده : يا أبت ! أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهايته عن هذا ! فقال : يا بني إني رأيت ما لم تروا ، وعلمت ما لم تعلموا ، إني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني ما لا أعلم . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله لم لأفعله ، ولا قال فى شيء كان ليته لم يكن ، ولا فى شيء لم يكن ليته كان ، وكان إذا خاصمنى مخاصم من أهله يقول دعوه لو قضى شيء لكان (١) . وروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد ، فإن سلمت لما أريد كفيتهك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أنعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد .

وأما الآثار : فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما . أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز : ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر ، وقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : ما يقضى الله . وقال ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك وقال عبد العزيز بن أبي رواد : ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل ولا فى لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله بن مسعود : لأن ألحس جرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد بن واسع . فقال : إني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج فى عيني .

وروى فى الإسرائيليات : أن عابدا عبد الله دهما طويلا فأرى فى المنام : فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة ؛ فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها ، فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة . فقال : أما لك عمل غير ما رأيت ؟ فقالت : ما هو والله إلا ما رأيت لأعرف غيره ، فلم يزل يقول : تذكرى ، حتى قالت : خصلة واحدة هى فى ؛ إن كنت فى شدة لم أهن أن أكون فى رخاء ، وإن كنت فى مرض لم أهن أن أكون فى صحة ، وإن كنت فى الشمس لم أهن أن أكون فى الظل ، فوضع العابد يده على رأسه وقال : أهذه خصلة ؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد .

وعن بعض السلف : إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضى الله عنه . ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء . وقال الثورى يوما عند رابعة : اللهم ارض عني ، فقالت : أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال : أستغفر الله ، فقال جعفر بن سليمان الضبعي : فتنى يسكون العبد راضيا عن الله

(١) حديث أنس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ... الحديث . متفق عليه وقد تقدم .

تعالى ؟ قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الخوارى : قال أبو سليمان الداراني إن الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبده بما رضى العبيد من مواليهم قلت : وكيف ذاك ؟ قال : أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه . قلت : نعم ، قال : فإن محبة الله من عبده أن يرضوا عنه . وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل بحسبته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الغم والحزن في الشك والسخط (١) .

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم أن من قال : ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور ؟ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة ، فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين .

(أحدهما) أن يبطل الإحساس بالآلم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها . ومثاله : الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بالآلم ذلك لشغل قلبه . بل الذي يحجم أو يخلق رأسه بحديدة كالة يتألم به ، فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ المزج والحجام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه ، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه . هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه ؟ وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل ، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الآلم العظيم بالحب العظيم ، فإن الحب أيضاً يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الآلم ، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال ، فمن ينكشف له شيء منه فقد يهره بحث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه . فقد روى أن امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحك ، فقيل لها : أما تجددين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجعه . وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه ، فقيل له في ذلك فقال : يادوست ضرب الحبيب لا يوجع !

(وأما الوجه الثاني) فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه يريد له - أعني بعقله - وإن كان كارها بطبعه ، كالذي يلتبس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله ، فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الآلم . وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضياً بها . ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه . هذا إن كان

(١) حديث « إن الله بحسبته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود لا أنه قال « ينسفه » وقد تقدم .

يلاحظ انشباب والإحسان الذي يجازى به عليه ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ الحب في مراد محبوبه ورضاء لا معنى آخر وراءه ، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا ، وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد توأصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر ، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأفذار والأخبار بدايته من نقطة مذرة ونهايته جيفة قدرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة . وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين الحسيسة التي تغلط فيما ترى كبيرا ، فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا ، فإذا تصوّر استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدى الذي لا منتهى لسكّاله المدرك بعين البصيرة التي لا يعثرها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت ؟ حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف ؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم .

فقد قال شقيق البلخي : من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها ؟ وقال الجنيد : سألت سريرا السقطي هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا ، قلت وإن ضرب بالسيف ؟ قال : نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة - ضربة على ضربة . وقال بعضهم : أحببت كل شيء يحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحارث : مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس ، فتبعته فقلت له : لم ضربت ؟ فقال لأنني عاشق ، فقلت له ولم سكت ؟ قال لأن معشوقى كان بمحذائى ينظر إلى ، فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟ قال فزعم زعقة خرميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازى - رحمه الله تعالى - إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم ، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله ؟ إذا لاحظت جلاله هابت وإذا لاحظت جماله تاهت ! وقال بشر : قصدت عبادان في بدايتى فإذا برجل أعشى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى لو قطعنى إربا إربا ما ازددت له إلا حبا ؟ قال بشر فما رأيت بعد ذلك نفمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . وقال أبو عمرو ومحمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام ، كانوا إذا جاءوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابا وفي يده مديّة وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول والموت من ألم التفرق أجمل
قالوا الرحيل فقلت لست براحل لمكن مهجتي التي ترحل

ثم بقر بالمديّة بطنه وختم ميتا ، فسألت عنه وعن أمره فقيل لي إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا . ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دلى على أعبد أهل الأرض ؟ فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول إلهى متعتنى بهما ما شئت أنت ، وسلبتنى ما شئت أنت ، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد

وجده عليه حتى قال بعض القوم : لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث ، فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سرورا أبدا منه ، فقيل له في ذلك فقال ابن عمر : إنما كان حزني رحمة له ، فلما وقع أمر الله رضينا به . وقال مسروق . كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالدريك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خبأهم والكلب يحرسهم ، قال : فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال : عسى أن يكون خيرا ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل : عسى أن يكون خيرا ، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم ، قال : وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات السكالب والحير والديكة ، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى . فإذا من عرف خفي لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال . وروى أن عيسى عليه السلام مر برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنين بفالج وقد تنأثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه ، فقال له عيسى : يا هذا أى شيء من البلاء أراه مصروفا عنك ؟ فقال : يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته ، فقال له : صدقت هات يدك ، فمسأله يده فإذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة ! وقد أذهب الله عنه ما كان به ، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه . وقطع عروة بن الزبير رجله .. من ركبته - من أكلة خرجت بها ثم قال : الحمد لله الذي أخذ مني واحدة وإيماءك لأن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ، ثم لم يدع ورده تلك الليلة . وكان ابن مسعود يقول : الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيتهما ركبت ؟ إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل . وقال أبو سليمان الداراني : قلت قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فمالى منه إلا مشام الريح ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا . وقيل لعارف آخر : هل نلت غاية الرضا عنه ؟ فقال : أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضا قد نلته ، لو جعلني جسرا على جهنم يعبر الخلائق على إلى الجنة ثم ملأني جهنم - تحلة لقسمه وبدلا من خليقته - لاحتببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه . وهذا كلام من علم أن الحب قد استغرق همه حتى منعه الإحساس بألم النار ، فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشهاده حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار . واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظن أن ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذباري : نلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمشقي : قول فلان : وددت أن جسدي قرص بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه ؛ ما معناه ؟ فقال : يا هذا إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف ، قال : ثم غشى عليه . وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد - قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته - فدخل عليه مطرف وأخبره الجلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله ، فقال : لم تبكي ؟ قال : لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة ! قال : لا بئس فإن أحبب إلى الله تعالى أحبه إلى ! ثم قال : أحدثك شيئا لعل الله أن ينفعك به ، واكنتم على حتى أموت ، إن الملائكة تزورني فأنس بها وتسلم على فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ! فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيا به ؟ قال : ودخلنا على سويد بن متعبه نعوذه ، فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف ، فقالت له امرأته : أهلى

فداؤك ما نطعمك . ما نسقيك ؟ فقال : طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ولا أسبيغ شرابا منذ كذا ، فذكر أياما ، وما يسرنى أنى نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة - وقد كان كف بصره - جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا - وكان بحجاب الدعرة - قاله عبد الله بن السائب : فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفنى وقال : أنت قارئ أهل مكة ؟ قلت : نعم ، فذكر قصة قال في آخرها : فقلت له : يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك ! فتبسم وقال : يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصرى ! وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر ، فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ، فقال : اعتراض عايبه فيما قضى أشد على من ذهاب ولدى . وعن بعض العباد أنه قال : إني أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة - وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب - فقيل له : وما هو ؟ قال : قلت مرة لشيء كان ، ليت له لم يكن . وقال بعض السلف : لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلى من أن أقول لشيء قضاء الله تعالى سبحانه ليت له لم يقضه . وقيل لعبد الواحد بن زيد : ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة ، فقصدته فقال له : يا حييبي أخبرني عنك هل قنعت به ؟ قال : لا ، قال أنست به ؟ قال : لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال : لا ، قال فإنما مزبدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال لولا أنى أستحي منك لأخبرتكم بأن معاملتكم خمسين سنة مدخولة ! ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعد في طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزبدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزبد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلى رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة ، فقال من أنتم ؟ فقالوا محبرك ، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال ما بالكم ادعيتهم محبري إن صدقتم فاصبروا على بلأى !

والشبلى رحمه الله تعالى :

إن المحبة للرحمن أسكرنى وهل رأيت محبا غير سكران ؟

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقي الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه ، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ، ولو كان بها شلل ظل يوارئها ؛ يعنى بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به ، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه . وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقبل للسرى ، احترق السوق وما احترق دكانك ! فقال الحمد لله ، ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتى دون المسلمين ! فتأب من التجارة وترك الخانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله .

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين (أحدهما) الرضا بالآلم لما يتوقع من الثواب الموجود كالرضا بالقصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . (والثاني) الرضا به لا لحظ ورامه بل لسكوته مراد المحبوب ورضا له ؛ فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب ، فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه . كما قيل :

* فما لجرح إذا أرضاكم ألم *

وهذا يمكن مع الإحساس بالآلم ، وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الآلم ، فالقياس والتجربة والمشاهدة

دالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكره من فقد من نفسه ! لأنه إنما فقد سببه وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه .

وقد روى عن عمرو بن الحارث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي ، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية ، وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى : أحسنت والله ياسيدي أفتأذنين لي أن أموت ! فقالت : مت راشدا ! قال : فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فيه وغمض عينيه ، فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد : رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة ، فالتفت إليه الصبي وقال له : إلى متى ذا التفاق الذي تظهر لي ؟ فقال : قد علم الله أني صادق فيما أوردته ، حتى لو قات لي مت لمت ، فقال : إن كنت صادقا فمت ، قال : فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا . وقال سمنون المحب : كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا ، فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه ! قال فدهش الرجل وسقطت المعلقة من يده وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه ! فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا مكان قولك - آه . وحكى عن محمد ابن عبد الله البغدادي قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

من مات عشقا فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت !

ثم رمى بنفسه إلى الأرض ، فخلوه ميتا . فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربانية أو في من كل جمال ، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال . نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنفحات الموزونة ، فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا ، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا . وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به ، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع . فأما الدعاء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام - على ما نقلناه في كتاب الدعوات - تدل عليه . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى المقامات من الرضا . وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ وقال تعالى ﴿ رضوا بأن يسكنوا مع الخوالب وطبع على قلوبهم ﴾ وفي الخبر المشهور « من شهد منكرا فرضى به فكأنه قد فعله » وفي الحديث « الدال على الشر كفاعله »^(١) ، وعن ابن مسعود إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه وقيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به وفي الخبر « لو أن عبدا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر بالمعرب كان

(١) حديث « الدال على الشر كفاعله » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا .

شريكا في قتله ^(١) ، وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوقى الشرور فقال تعالى ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبدئها في الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ^(٢) ، وفي لفظ آخر : ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل ما يفعل .

وأما بغض الكفار والفجار والإتكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ وقال تعالى ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا ﴾ وفي الخبر : إن الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن ^(٣) ، وقال عليه السلام : المرء مع من أحب ^(٤) ، وقال : من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة ^(٥) ، وقال عليه السلام : أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ^(٦) ، وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة ، وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فلا نعيده .

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى ^(٧) فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد ؟ فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قريش حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض ، بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضيه به من وجه ؛ إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه ، فتكره موته من حيث إنه مات عدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك . وكذلك المعصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته ؛ فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه بمقتوا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال :

(١) حديث « لو أن رجلا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر في المغرب كان شريكا في قتله » لم أجده أصلا بهذا اللفظ ولا بن عدي من حديث أبي هريرة « من حضر معصية فسكرها فسكرها فسكرها فسكرها فسكرها » وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف . (٢) حديث « لا حسد إلا في اثنتين ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم . (٣) حديث « إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق ... الحديث » لم أجده أصلا . (٤) حديث « المرء مع من أحب » تقدم . (٥) حديث « من أحب قوما ووالاهم حشر معهم » أخرجه الطبراني من حديث أبي قريظة وابن عدي من حديث جابر « من أحب قوما على أعمالهم حشر في زميرتهم » زاد ابن عدي « يوم القيامة » وفي طريقه إسماعيل بن يحيى الضعيف .

(٦) حديث « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » رواه أحمد وتقدم في آداب الصحبة . (٧) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله رواها الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص « من ساءل ابن آدم رضا بما قسم الله عز وجل ... الحديث » وقال غريب وتقدم حديث « أرض بما قسم الله لك تبكئ أغنى الناس » وحديث « إن الله يقسطه جعل الروح والفرح في الرضا » وتقدم في حديث الاستخارة « واقتدر لي الخير حيث كان ثم رضني به » وحديث « من رضى من الله بالقليل من الرزقي رضى منه بالقليل من العمل وحديث « أسألك الرضا بالقضاء ... الحديث » وغير ذلك .

فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه . إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني ، وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لي . حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوا لي ، فكل من أحبه أعلم أيضاً أنه عدوي ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي . ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة . فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول : أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة - فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك ! وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، ولكنه كان مرادك منه ؛ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للوقت ، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصا في تدبيرك وتعويقا في مرادك ، وأنا كاره لفوات مرادك ، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما ببغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا ببغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا . وأما ببغضه لك فإن أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ، ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك ، فهو يموت عندى لمفته إياك ، وبغضه ومقته لك أيضا عندى مكروه من حيث أنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضى . وإنما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه ، وأما إذا كان مكروها لا من حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لاتناقض فيه ، ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ، ونظائر ذلك لا تحصى .

فإذن تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجزه ذلك إلى حب المعصية ويجزه الحب إلى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلا ؛ ليجزه الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم . ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره ، يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه . وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده - أعني تسليط دواعي المعصية عليه - يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته . فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادي من أبغده الله عن حضرته - وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته - فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره . والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقينا بغضا إلى جميع المحبين - موافقة للمحسوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده .

بهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر - الذي لا رخصة في إفشائه - وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به . فمن قال : ليس الشر من الله ، فهو جاهل وكذا من قال : إنها جميعا منه - من غير افتراق في الرضا والكراهة - فهو أيضا مقصر . وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ؛ فالأولى السكوت والتأدب بأدب

الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم « القدر سر الله فلا تفشوه »^(١) ، وذلك يتعلق بعلم المكاشفة . وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه .

وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف . كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش ، وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبته مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبته الله تعالى وأمر به . وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل - واستقصيناه في كتاب التوكل - فهو أيضا لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى ، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا ، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار - أي في معرض الشكوى - وذلك في الصيف فأما الشتاء فهو شكر ، والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الاطعمة وعيها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع ، والسكل من صنع الله تعالى . وقول القائل : الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة ، كل ذلك قاذح في الرضا ، بل ينبغي أن يسلم التدبير لمديره والمملكة لمالكها ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فإني لأدري أيهما خير لي .

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدر في الرضا

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون^(١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال ؛ بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا متعهدين لهم فبهلكون هزالا وضرا ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف^(٢) ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف - وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل - وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار عما لا بد من الفرار منه . وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها - لأجل التنفير عن المعصية - ليست مذمومة . فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك : قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد ! قيل : وكيف ؟ قال : هو بلد تزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله . ولما قدم خراسان قيل له : كيف رأيت بغداد ؟ قال : ما رأيت بها إلا شرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ! ولا ينبغي أن تظن أن ذلك

(١) حديث « القدر سر الله فلا تفشوه » أخرجه أبو يعلى في الحاشية من حديث ابن عمر وابن عدى في السكامل من حديث مائة وكلاما ضعيف .

(٢) حديث : النهي عن الخروج من بلد الطاعون . تقدم في آداب السفر . (٣) حديث : لأنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف . تقدم فيه .

من الغيبة ؛ لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستنصر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة - وقد كان مقامه ببغداد - يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدق بستة عشر دينار - كل يوم دينار كفارة لمقامه . وقد ذم العراق جماعة : كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له : أين تسكن ؟ فقال : العراق ، قال : فما تصنع به ؟ بلغني أن مامن أحد يسكن العراق إلا قبض الله قرينا من البلاء . وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشروفيه الداء العضال . وقد قيل : قسم الخير عشرة أجزاء ؛ فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق ، وقسم الشر عشرة أجزاء ؛ على العكس من ذلك . وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند الفضيل بن عياض لجماء صوفي متدبر بعبادة ، فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال : أين تسكن ؟ فقال : بغداد ؛ فأعرض عنه وقال : يأتينا أحدهم في زى الرهبان فإذا سألناه أين تسكن قال في عش الظلمة ؟ وكان بشر بن الحارث يقول : مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش . وكان يقول : لا تقتدوا في المقام بها ! من أراد أن يخرج فليخرج . وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد أثر في نفسى ! قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالنغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهدهم زاهد وشريرهم شرير .

فهذا يدل على أن من بلى ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها ، بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى ﴿ ألم تسكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه ، بل ينبغي أن يكون منزوع القلب منها قائما على الدوام ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبون الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فإذا لم يكن في شيء من أسباب نقص الدين ألبته رضا مطلق لإلزام حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى ، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال .

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال لا أختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله تعالى ؛ ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا . واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط ، فقال الثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم ، واليوم وددت أني مت ، فقال له يوسف لم ؟ قال لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء ، فقال سفيان لم ؟ قال لعل أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا ، فقيل لو هيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا ، أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى ، فقبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب السكبة .

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما أنا محبوب والمحبة متعوب . وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة ؟ فقال أنا كل السبعة . وكان يقول إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا ، قيل وكيف وأنت شخص واحد ؟ قال لأنى رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام ؟ فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه ! وحكى عن الخضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولى لله تعالى إلا عرفته

إلا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه . وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى ، فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك ! قيل لحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى ، فقال وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه . قيل لحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك ، فقال نعم ، دعوت نفسي إلى الله فجمحت على فزمت عليها أن لأشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد - في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر - مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينه لا يطرف ، قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشى على الماء والمشى في الهواء فرضوا بذلك وإن أعوذ بك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك وإن أعوذ بك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإن أعوذ بك من ذلك ، حتى عدّ نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ، ثم التفت فرآني فقال : يحيى ! قلت : نعم ياسيدي ، فقال : مذ متي أنت ههنا ؟ قلت : منذ حين ، فسكت ، فقامت ياسيدي حدثني بشيء فقال : أحدثك بما يصلح لك ، أدخلني في الفلك الأسفل فدورني في الملكوت السفلى وأراني الأرضين وما تحتهما إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوّف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ، أوقفني بين يديه فقال : سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ؟ فقلت : ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه ! فقال : أنت عبيد حقا تعبدني لأجلى صدقا لأفعلن بك ولأفعلن فذكر أشياء . قال يحيى : فهالني ذلك وامتلات به وعجبت منه فقلت : ياسيدي لم لاسأله المعرفة به ؟ وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت ، قال : فصاح بي صيحة وقال : اسكت ويلك ! غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواء . وحكى أن أبا تراب التخشبي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدينه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدهته فقال له أبو تراب يوما لورأيت أبا يزيد ؟ فقال : إني عنه مشغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله ، لو رأيت أبا يزيد ، هاج وجد المريد فقال : ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغثنني عن أبي يزيد ؟ قال أبو تراب : فهاج طبعي ولم أملك نفسي ، فقلت : ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة ! قال : فهبت الفتى من قوله وأنكره فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره ؟ فعرف ما قلت ، فقال : احملني إليه ، فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا على تل تنتظره ليخرج إلينا من الغيضة - وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع - قال : فزبنا وقد قلب فروة على ظهره فقامت للفتى : هذا أبو يزيد فانظر إليه ! فنظر إليه الفتى فصعق ، فركناه فإذا هو ميت ، فتماونا على دفنه فقلت لأبي يزيد : ياسيدي نظره إليك قتله ، قال : لا ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه ، فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله ، لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك . ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت ثم قال : إن لله عبادا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ؛ ولكن لا يفعلون ، قيل لم ؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب ، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يستطاع ذكرها ، حتى قال : ولو سألوهم أن لا يقيم الساعة لم يقيمها . وهذه أمور ممكنة في أنفسهم فلم يحفظ بشيء منها ، فلا يذنبني أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة والفضل عظيم وعجائب الملك والملكوت

كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له . ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ما وراء ذلك ، فإن عنده فوق ذلك أضعافاً مضاعفة ، فإن سكنت إلى ذلك حجبك به ، وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الامثل فالأمثل . وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتسعين في الهواء ، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشنخشن ويتثنى معهن فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوماً ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال ، وقيل لي : انظر إليهن ، قال : فسجدت وغمضت عيني في سجدتي لثلاث أنظر إليهن وقلت : أعوذ بك مما سواك لا حاجة لي بهذا ، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني .

فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينسكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق بحال الإيمان عليه ، بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونسبيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهراً وباطناً ، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصناً بحصن الخمول : فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهي أعز موجود في الاتقياء من الناس . وبعد تصفية القلب عن كورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادئ الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديد إذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرأة ، فنظر المنكر إلى مافي يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهرها ، وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال .

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه ، وبئس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى ، بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئاً رآه من مبادئ الطريق ، كما قيل لبشر : بأى شيء بلغت هذه المنزلة ؟ قال : كنت أكره الله تعالى حالي . معناه : أسأله أن يكتم علي ويخفي أمري . وروى أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له : ادع الله تعالى لي ، فقال : يسر الله عليك طاعته ، قلت زدني ، قال وسرّها عليك . فقيل معناه سرّها عن الخلق ، وقيل معناه سرّها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها . وعن بعضهم أنه قال أفلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليبلغني شيئاً كان أهم الأشياء علي ، قال فرأيت أنه غلب علي همتي ولا أن قلت له يا أبا العباس علمني شيئاً إذا قلته حجبته عن قلوب الخليفة فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة ، فقال قل اللهم أسبل علي كسيف سترك وحط علي سرادقات حجبك واجعلني في مكنون غيبك واجبني عن قلوب خلقك ، قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك ، فزات أقول هذه الكلمات في كل يوم ، فحكى أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن - حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به - فكانت راحته ركود قلبه ، واستقامة حاله في ذله ونحوه . فهكذا حال أولياء الله تعالى ، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا ، والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرفعات والطبائسة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة . وغيره الله تعالى على أوليائه تأني الإخفاءهم كما قال تعالى أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري . وقال صلى الله عليه وسلم : رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره (١)

(١) حديث « رب أشعث أغبر ذي طمرين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعاني القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلماها . وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارا إذا ذل واحتضم لم يحس بالذل ، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه ، فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته . فقل هذا القلب يرجي له أن يستنشق مبادئ هذه الروائح ، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمانا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله ، فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤمنا بهم فمسي أن يحشر مع من أحب . ويشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل أين ينبت الزرع ؟ قالوا في التراب ، فقال بحق أقول لكم لا تنبت الحبة إلا في فلب مثل التراب . ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة ، حتى روى أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيد دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك ، فقال : قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت . وعنه أيضا أنه قال نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فتشئت على قلبي ، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعة فوقها وخرجت ، وجعلت أمشي قليلا قليلا . فلحقوني فنزعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجدوني ضربا ، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي .

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل ، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق بجاس أبي يزيد ، فقال له يوما : أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه ، فقال أبو يزيد : ولو صمت ثلاثمائة سنة وقت ليها ما وجدت من هذا ذرة ! قال : ولم ؟ قال : لأنك محجوب بنفسك ، قال فلهذا دواء ؟ قال : نعم ، قال : قل لي حتى أعمله ، قال : لا تقبله ، قال : فاذكره لي حتى أعمل ، قال : اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخللة مملوءة جوزا ، واجمع الصبيان حولك وقل : كل من صفعتي صفقة أعطيته جوزة ، وادخل السوق وطف الاسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك ، فقال الرجل : سبحان الله ! تقول لي مثل هذا ! فقال أبو يزيد : قولك سبحان الله ، شرك ، قال : وكيف ؟ قال : لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبجت ربك ! فقال : هذا لا أفعله ولكن دلني على غيره ! فقال : ابتدي بهذا قبل كل شيء . فقال : لا أطيقه ، قال : قد قلت لك إنك لا تقبل ؟ . فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ، ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله ، فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا . فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا .

وهذه أمور جليلة في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعتد نفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله

عليه وآله وسلم ، لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف ^(١) ، وقد قال عليه السلام : ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ولا يراى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة أثر أمر الآخرة على الدنيا ^(٢) ، وقال عليه السلام : لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال : إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، وإذا رضى لم يدخله رضاء في باطل ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له ^(٣) ، وفي حديث آخر : ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود : العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وخشية الله في السر والعلانية ^(٤) ، فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأولى الإيمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يحمد مالا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عليه وراء الإيمان ؛ وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : إنما اتخذ الخلق من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون لهم غيرى ولا يؤثر على شيئاً من خلقى وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً وإن قطع بالمنشير لم يجد لمس الحديد ألماً . فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات ؟ وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوتة في الزيادة والنقصان لا حصر له . ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله تعالى عنه : إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتى وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم ^(٥) ، وفي حديث آخر : إن الله تعالى ثلثائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ، فقال أبو بكر : بارسول الله هل في منها خلق فقال : كلها فيك يا أبا بكر وحبها إلى الله تعالى السخاء ^(٦) ، وقال عليه السلام : رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتى في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجىء بأمتى فوضعت في كفة فرجع بهم ^(٧) ، ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال : لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى ^(٨) يعنى نفسه .

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ، ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة ، وعلى هذا فهو مفضل فعلى بن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجده أصلاً . (٢) حديث : ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ... الحديث ، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادى ضعفه ابن مهين والنسائي ورواه ابن حبان واسم أبيه عبد الواحد . (٣) حديث : لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال : إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، ... الحديث أخرجه الطبراني في المعجم بلفظ : ثلاث من أخلاق الإيمان ، وإسناده ضعيف . (٤) حديث : ثلاث من أوتيهن فقد أوتى ما أوتى آل داود : العدل في الرضا والغضب ، غريب بهذا اللفظ ، والمروفي : ثلاث منجيات ، فذكرهن بنحوه وقد تقدم . (٥) حديث : لأنه قال للصديق : إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتى . . . الحديث ، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف . (٦) حديث : إن الله تعالى ثلثائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ... الحديث ، أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعاً عن الله : خلقت بضعة عشر وثلثائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ، ومن حديث ابن عباس : الإسلام ثلثائة شريعة وثلاثة عشر شريعة وفيه وفي السكندر من رواية المنيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه باللفظ : الإيمان وللبرار من حديث عثمان بن عفان : إن الله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة ... الحديث ، وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة .

(٧) حديث : رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتى في كفة فرجحت بهم ... الحديث ، أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف . (٨) حديث : لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ... الحديث ، متفق عليه وقد تقدم .

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قال سفيان : المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال غيره : دوام الذكر ، وقال غيره إيثار المحبوب وقال بعضهم : كراهية البقاء في الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها . وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتنع اللسان عن عبارته . وقال الجنيد : حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة . وقال : كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة . وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذلل لغير الله . وقيل للشبلي رحمه الله : صف لنا العارف والمحبة ؛ فقال : العارف إن تكلم هلك ، والمحبة إن سكنت هلك ، وقال الشبلي رحمه الله :

يا أيها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني أنت بما مر بي عليم
ولغيره : عجب لمن يقول ذكرت إني وهل أنسى فأذكر مانسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالتي وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفد الشرب وما رويت ؟
فليت خياله نصب لعيني فإن قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوما : من يدلنا على حبيبنا ، فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إني إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي . وقيل : تكلم سمنون يوما في المحبة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات . وقال إبراهيم بن أدهم : إلهي إنك تعلم أن الجنة لا ترن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وأنستني بذكرك وفرغتني للتفكير في عظمتك ، وقال السري رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والاحق يغدو ويروح في لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش . وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إني لأحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين . وسئل عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال : الرضا عن الله تعالى والحب له . وقال أبو يزيد : الحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة : إنما يجب من مولاه . وقال الشبلي : الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم . وقيل المحبة أن تمحو أرك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك ، وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح . وقال الحوَّاص : المحبة نحو الإرادات واحتراق الصفات والحاجات . وسئل سهل عن المحبة فقال عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للبراد منه . وقيل معاملة المحب على أربع منازل : على المحبة والهبة والحياء والتعظيم ، وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين المنزلتين ببقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره في الدنيا وتروجه في الآخرة : وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول - وهي باكية والدموع على خدها جارية - والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لا اشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقاءه ، قال

فقلت لها ؛ فعلى ثقة أنت من عمالك ؟ قالت لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه ؟ وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي . يا داود هذه إرادتي في المدبرين على فكيف إرادتي في المقبلين علي ، يا داود أخرج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عني وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عني وأجل ما يكون عبدى إذا رجع إلى : وقال أبو خالد الصفار لقي نبي من الأنبياء عابدا فقال له ؛ إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه ، أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلي رحمه الله : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكرى للذاكرين ، وجنتى للمطيعين ، وزيارتى للمشتاقين ، وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله من أنس بحبيبه رضى فعله ومن اشتاق إليه جد في مسيره . وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقاه لمن يراني ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بسكى يونس عليه السلام حتى عمى ، وقام حتى انحنى ، وصلى حتى أفعد ، وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لحضته إليك شوقا مني إليك . وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال ؛ المعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيق والعلم سلاحى والصبر ردائى والرضا غنيمتى والعجز غفري والزهد حرقى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حبي والجهاد خلقى وقرة عيني فى الصلاة (١) ، وقال ذو النون سبحان من جعل الأرواح جنود مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتافوا إلى الله تعالى ، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة ، وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا وقال بعض المشايخ رأيت فى جبل اللكام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات ، فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والأنس والشوق والرضا ، فلتقتصر عليه والله الموفق للصواب .

تم كتاب المحبة والشوق والأنس ، يتاوه كتاب النية والإخلاص والصدق .

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربح المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان الموقنين ، ونقر بوحدة نيته لإقرار الصادقين ، ونشهد أن لا إله

(١) حديث على : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال ؛ المعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني ... الحديث . ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أجد له إسنادا .
(٤٦ - إحياء علوم الدين - ٤)

إلا الله رب العالمين ، وخالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين ، فقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ فما الله إلا الدين الخالص المتين ، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين ، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالتاس كلهم هلكت إلا العالمون ؛ والعالمون كلهم هلكت إلا العاملون ، والعالمون كلهم هلكت إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عبث ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للتناق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق عبث ، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا ﴿ وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ وليت شعري كيف يصح نيته من لا يعرف حقيقة النية ؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه ؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتنا العبد إلى النجاة والخلاص .

ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب :

(الباب الأول) في حقيقة النية ومعناها .

(الباب الثاني) في الإخلاص وحقائقه .

(الباب الثالث) في الصدق وحقيقته .

الباب الأول في حقيقة النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية ، وبيان حقيقة النية ، وبيان كون النية خيرا من العمل ، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس ، وبيان خروج النية عن الاختيار .

بيان فضيلة النية

قال الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ والمراد بذلك الإرادة هي النية . وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات واسأل الله عن النية » فكانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرت به إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرت به إلى ما هاجر إليه (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفيين الله أعلم بنيته (٢) » ، وقال تعالى ﴿ إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ فجعل النية سبب التوفيق . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (٣) » ، وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية : وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد لي عمل أعمالا حسنة فتصعد الملائكة في صحف محتمة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة »

(١) حديث « إنما الأعمال بالنيات ... الحديث » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم . (٢) حديث « أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفيين الله أعلم بنيته » أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة . (٣) حديث « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

فإنه لم يرد بها فيها وجهى ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا إنه لم يعمل شيئا من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الناس أربعة : رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سواء ^(٢) ، ألا ترى كيف شرکه بالنية في محاسن عمله ومساويه . وكذلك في حديث أنس بن مالك : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال : إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطينا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا نخصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة ! قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا ؟ قال ، حبسهم العذر فشرکوا بحسن النية ^(٣) ، وفي حديث ابن مسعود : من هاجر يبتغى شيئا فهو له ، فهاجر رجل فتزوج امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس ^(٤) ، وكذلك جاء في الخبر : إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار ^(٥) ، لأنه قاتل رجلا يأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته . وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم : من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله مانوى ^(٦) ، وقال أبي : استعنت رجلا يغزو معي فقال : لا حتى تجعل لي جملا ، فجعلت له ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له ^(٧) ، وروى في الإسرائيليات ، أن رجلا مربكثبان من رمل في نجاعة فقال في نفسه : لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقته به ، وقد ورد في أخبار كثيرة : من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ^(٨) ، وفي حديث عبد الله بن عمرو : من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها ^(٩) ، وفي حديث أم سلمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيداء فقلت : يا رسول الله يكون فيهم المكروه والأجير فقال : يحشرون على نياتهم ^(١٠) وقال عمر رضي الله

(١) حديث : « إن العبد يعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة ... الحديث » أخرجه الدارقطني من حديث أسد بإسناد حسن
(٢) حديث : « الناس أربعة : رجل آتاه الله علما ومالا ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري بإسناد جيد بلفظ : « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر ... الحديث » وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه : « وأما الدنيا لأربعة نفر ... الحديث » وقال حسن صحيح .

(٣) حديث أسد : « إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ... الحديث » أخرجه البخاري مختصرا وأبو داود . (٤) حديث ابن مسعود : « من هاجر يبتغى شيئا فهو له » هاجر رجل فتزوج امرأة منافكان يسمى مهاجر أم قيس : أخرجه الطبراني بإسناد جيد . (٥) حديث : « إن رجلا قتل في سبيل الله فسكران يدعى قتيل الحمار » لم أجد له أصلا في الموصولات ، وإنما رواه أبو اسحق الفراء في السنن من وجه مرسل . (٦) حديث : « من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله مانوى » أخرجه النسائي من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة ، (٧) حديث أبي : استعنت رجلا يغزو معي فقال لا حتى تجعل لي جملا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له » أخرجه الطبراني في مستند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا لغزو وسمى له ثلاثة دنائير فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره التي سمي » . (٨) حديث : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » متفق عليه وقد تقدم . (٩) حديث عبد الله بن عمرو : « من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه » . الحديث : أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله : « وفارقها أرغب ما يكون فيها » ودون قوله : « وفارقها أزهد ما يكون فيها » وفيه زيادة ولم أجد من حديث عبد الله بن عمرو . (١٠) حديث أم سلمة : « في الجيش الذي يخسف بهم » يحشرون على نياتهم » أخرجه مسلم وأبو داود وقد تقدم .

عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما يقتل المقتتلون على النيات ^(١) ، وقال عليه السلام : إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ^(٢) ، وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يبعث كل عبد على ما مات عليه ^(٣) ، وفي حديث الأحنف عن أبي بكر : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فاقامتا والمقتول في النار ، قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : لأنه أراد قتل صاحبه ^(٤) ، وفي حديث أبي هريرة : من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أدائه فهو زان ، ومن ادان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنثن من الجيفة ^(٦) .

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى . وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز : اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي : البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل . وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل ، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير . وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يداني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فإنني لأحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله ، ف قيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كعامله . وكذلك قال بعض السلف وإن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت ولاتهم بمعصية وانتهت إلى غير لثم . وقال أبو هريرة يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبأوا أخباركم ﴾ يبكي ويرددها ويقول إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا . وقال الحسن إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير ، وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله ، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه ، فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى ، فإن صلحت نيته فبالحرى أن يصلح ما دون ذلك

(١) حديث « إنما يقتل المقتتلون على النيات » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ « إنما يبعث » ورواه في فوائده أسماء بلفظ « إنما يبعث المسلمون على النيات » ولا ينسب ما جاء من حديث أبي هريرة « إنما يبعث الناس على نياتهم » وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه .

(٢) حديث « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم : فلان يقاتل الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوعاً في الصحيحين من حديث أبي موسى « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ، (٣) حديث جابر « يبعث كل عبد على ما مات عليه » رواه مسلم . (٤) حديث الأحنف عن أبي بكر : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فاقامتا والمقتول في النار متفق عليه . (٥) حديث أبي هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أدائه فهو زان » أخرجه أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرًا على قصة الدين ، دون ذكر : الصداق . (٦) حديث « من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك » ... الحديث » أخرجه أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من حديث اسحق بن أبي طلحة مرسلاً .

فإذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق .

بيان حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم ، وعمل (العلم) يقدمه لأنه أصله وشرطه (والعمل) يتبعه لأنه ثمرته وفرعه ، وذلك لأن كل عمل أعنى كل حركة وسكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة . ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض إما في الحال أو في المآل ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلتزم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فيحتاج إلى جواب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار المنافي عن نفسه ، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشئ المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها ، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة - وليس ذلك من غرضنا - ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه ، إذا المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولقد الداعية المحركة إليه ، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة - وأعنى به نزوعا في نفسه إليه وتوجهها في قلبه إليه - ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا ؟ فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول ، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشئ موافقا له ، فإذا جازمت المعرفة بأن الشئ موافق ولا بد وأن يفعل ، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل ، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل . فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوي ، والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل ، إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتماعا في فعل واحد ، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانتهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع ؟ وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاوناً . فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام : فلنذكر لكل واحد مثالا واسما .

أما الأول : فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجهز ، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه ، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضاراً فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه ، فانهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال : نيته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبه إخلاصاً ، بالإضافة إلى الغرض الباعث ، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وبمازجته .

وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد . ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شئ بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد . ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة

فيعتقها الفقير وقرابته ، وعلم أنه لو لا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لو لا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر ، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب ، في قضاء حاجته ، وفقير أجني فيرغب أيضا فيه . وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حية ، ولو لا الحية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة ، وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول . فلنسم هذا « مرافقة للبوابع » ، والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكل قوى بمجرعهما على إلهاض القدرة . ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل مالا ينفرد أحدهما به . ومثاله في غرضنا أن يقصد قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه ، ويقصد الأجني الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ، ثم يقصد القريب الفقير فيعطيه ، فيكون الباعث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر : وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ، ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ، ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصديق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب . ولنسم هذا الجنس « مشاركة » ،

والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل . ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوى على الحمل ، ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل ، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فانفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس ، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا بخاليا لم يفتر عن عمله ، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه ، فهو شوب تطرق إلى النية . ولنسم هذا الجنس « المعاونة » ،

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا . وسندكر حكمها في باب الإخلاص . والغرض الآن بيان أقسام النيات ، فإن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل « إنما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع :

بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله »^(١) ،

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، والعمل ظاهر ، ولعمل السر فضل . وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد ؛ لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر ، وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف ، لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل ، بل ليس كذلك فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم ، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيرا من عمله . وقد يقال : إن معناه أن النية بمجرد العمل بمجرده دون النية ، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد ، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا ، والنية بمجرد العمل خير ؛ وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير ، بل المعنى أن كل طاعة تنظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل ، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل ،

(١) حديث « نية المؤمن خير من عمله » أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سميان ، وكلاما ضعيفا ،

فمعناه : نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته ، والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل ، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما ؛ فهذا معناه .

وأما سبب كونها خيرا ومترحجة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود . فن قال : الخبز خير من الفاكهة ، فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب ، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة ، وسعادتها وتنعمها ببقاء الله تعالى ، فالمقصد لذة السعادة بقاء الله فقط ، ولن يتنعم ببقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له . فالأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له ، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوط بها ، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما . وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه ، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى ترشح الصفة وتقوى بسببها . فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكيداً لميله ورسخ وعسر عليه النزوع ، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق . بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زبراً ودفعاً في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي . وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة ، والشروع كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة . وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ، وإن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح ، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون ، لأن القلب هو الأصل المتبوع فكانه الأمير والراعي والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع . فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه ، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد » (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم أصلح الراعي والرعية » (٢) ، وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى ﴿ لن ينال لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى

(١) حديث « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد » متفق عليه من حديث النعمان بن بهير وقد تقدم .

(٢) حديث « اللهم أصلح الراعي والرعية » تقدم ولم أجده .

منكم) وهى صفة القلب . فن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب لإرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكسب على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود ، وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة ، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر إلى المعدة ، فما يلاقى عين المعدة فهو خير وأنفع .

فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب ، فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكد الرقة في قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا ، لأن من مسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوبا - لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة ، وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه ، وما ساءى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا ، فيقال : العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا ، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قهرها وهى صفة الرياء التى هى من الميل إلى الدنيا . فهذا وجه كون النية خير من العمل .

وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية الحسنات ، وإنما الإتمام بالعمل يزيد بها تأكيدا ، فليس المقصود من إراقة دم قربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها لإثارة لوجه الله تعالى ، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فـ (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) والتقوى ههنا صفة القلب ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : إن قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا - كما تقدم ذكره - لأن قلوبهم فى صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة فى طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد وإنما فاروقهم بالآبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات . وبهذه المعانى تفهم جميع الأحاديث التى أوردناها فى فضيلة النية فأعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا تطول بالإعادة .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه - فهى ثلاثة أقسام : معاصى وطاعات ومباحات .

(القسم الأول) المعاصى ، وهى لا تتغير عن موضعها بالنية ، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام : إنما الأعمال بالنيات ، فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية ، كالذى يعتاب إنسانا مراعاة لقلب

غيره ، أو يطعم فقيرا من مال غيره ، أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام ؛ وقصده الخير . فهذا كله جهل ، والنية لا تؤثر في إخراجها عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية . بل قصده الخير بالشر - على خلاف مقتضى الشرع - شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع ، وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خير ؟ هيهات ، بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى ؛ فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل ، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل ! قيل : يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال : نعم الجهل بالجهل . وهو كما قال ، لأن الجهل بالجهل يستد بالكلية باب التعلم ، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ، ورأس العلم : العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل : الجهل بالجهل . فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا ، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم ، والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه ﴿ فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يعذر الجاهل على الجهل ، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ، ولا للعالم أن يسكت على علمه (١) .

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار ؛ المشغولين بالفسق والفجور القاصرين منهم على عماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى ، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى ، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ، ويتسلل ذلك ، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه ، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألف سنة ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، ثم العجب من جهله حيث يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين ؛ فإن استعمله هو في الفساد والمعصية منه لا مني وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير . وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلم يحسن ذلك في قلبه ، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه : وليت شعري ما جوابه عن وهب سيفنا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ؛ ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى ، فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات ، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي . وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ثلثمائة خلق من تقرب إليه

(١) حديث « لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يعمل للجاهل أن يسكت على جهله . . الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله « لا يعذر الجاهل على الجهل » وقال « لا ينبغي » بدل « ولا يعمل » وقد تقدم في العلم .

بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء ^(١) ، فليت شعري لم حرم هذا السخاء ؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فيذبح أن يسعى في سلب سلاحه لأن يمتد به غيره ؟ والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى ! فمن لا يزال مؤثرا لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته ؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يتردد إليهم ، فلورأوا منه تقصيرا في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه ، وإذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه ، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر ، وقد تعوذ جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل ، حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يسأله ، فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو لا يذكره ، حتى قال . بلغني أنك طيبت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أتملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم . فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم . وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطياسة والأحكام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعنى الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها ، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران .

فإذن قوله عليه السلام : إنما الأعمال بالنيات ، يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي ؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد ، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها - كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة .

(القسم الثاني) الطاعات . وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها . أما الأصل : فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل : فبكثرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها ^(٢) ، كما ورد به الخبر .

ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين (أولها) أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله ، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور أن يكرم زائره ^(٣) ، (وثانيها) أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى (وربطوا) (وثالثها) الترهيب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات ، فإن الاعتكاف كف - وهو في معنى

(١) حديث : أن لله ثلثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء ، تقدم في كتاب المحبة والوفاء .

(٢) حديث : تضعيف الحسنة بعشر أمثالها ، تقدم . (٣) حديث : من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره ، أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان والبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسووا بإسناد صحيح وقد تقدم في الصلاة .

الصوم - وهو نوع ترهب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رهبانية أمتي القعود في المساجد »^(١) ، (ورابعها) عكوف الهم على الله ولزوم السر للفسكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد (وخامسها) التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روى في الخبر « من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى »^(٢) ، (وسادسها) أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر ، إذ المسجد لا يخلو عن يسيء في صلاته أو يتعاطى مالا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته (وسابعها) أن يستفيد أخا في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة ، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله (وثامنها) أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمه ، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال : أخا مستفادا في الله ، أو رحمة مستنزلة ، أو علما مستظرفا ، أو كلمة تدل على هدى ، أو تصرفه عن ردى ، أو يترك الذنوب خشية أو حياء .

فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتل نيات كثيرة ، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدته في طلب الخير وتشمره له وتفكر فيه . فهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات .

(القسم الثالث) المباحات : وما من شيء من المباحات إلا ويحتل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهمله عن سهو وغفلة ، ولا يذنبغي أن يستحققر العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذي قصد به ؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « حلالها حساب وحرامها عقاب »^(٣) ، وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه »^(٤) ، وفي خبر آخر « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنثن من الجيفة » فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية .

فإن قلت : فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله ؟ فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفي سائر الاوقات يتصور أن يقصد التنعيم بلذات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الاقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة ، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الاجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن ، ولا موراخرى لا تخصي . وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنثن من الجيفة في القيامة إلا القصد الاول وهو التلذذ والتنعيم فإن ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه ، ومن

(١) حديث « رهبانية أمتي القعود في المساجد » لم أجده أصلا . (٢) حديث « من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى » هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق ولطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجه » وإسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح » . (٣) حديث « حلالها حساب وحرامها عذاب » تقدم . (٤) حديث معاذ « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه » لم أجده إسنادا .

نوقش الحساب عذب . ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره ، وناهيك خسرانا بأن يستمجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى . وأما النية الحسنة فإنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ^(١) ، وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرا لله إلا طيب الرائحة ، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم ، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المختابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه ، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاجترار منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾ أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر ، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فقد قال الشافعي رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله . فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطاب الخير غالبية على قلبه . وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء .

والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه ، ولهذا قال بعض العارفين من السلف : إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكل وشرب ونوم ودخول إلى الخلاء ، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين ، فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه وتطبيب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا بأكله ونكاحه ، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ، ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله ، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيجعل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته ، وينوى ذلك بسكوته عن الجواب . ففي الخبر « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول : يارب هذه أعمال ما عملتها قط ؟ فيقال : هذه أعمال الذين اغتابوك وأذكوك وظلموك ^(٢) » ، وفي الخبر « إن العبد ليؤا في القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة . فتقول الملائكة : قد فنيت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من

(١) حديث « إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه ... الحديث « ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله ابن سلام « ما لي أحكم لو اشتري ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته » وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين : أن عمر رأى حلة صبراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة ... الحديث « (٢) حديث « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة ... الحديث » وفيه « هذه أعمال الذين اغتابوك ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيب بن سعد البلوي مختصرا « إن العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتفرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تشمر » وفيه ابن لهيعة .

سيأتهم ثم صكوا له صكا إلى النار^(١) ، وبالجملة فيايك ثم إياك أن تستحق شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقال بعض السلف : كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جار لي فتحرّجت ثم قلت : تراب وما تراب ! فتربته فتهتف بي هاتف : سيعلم من استخف بتراب جاره ما يلقي غدا من سوء الحساب . وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوّه ، فسأله عن ذلك فقال : إني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله . وقد قال الحسن : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول : بيني وبينك الله ! فيقول : والله ما أعرفك ؟ فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطا من ثوبي !

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين ، فإن كنت من أولى العزم والنهي ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك ، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولا أنك لم تتحرك ، وماذا تقصد ، وما الذي تتال به من الدنيا ، وما الذي يفوتك من الآخرة ، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة ؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك ، ثم راقب أيضا قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة ، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يطلع عليه ، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار

فقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين ، وكان أجيرا لقوم فقدّموا له رغيفا - إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده - فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام ، فقال : إني أعمل لقوم بالآجرة وقدّموا إلى الرغيف لا تقوى به على عملهم ، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله ، فإن ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ، ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل فساكنني حتى لعق أصابعه ثم قال : لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان : من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد ، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكره لوعله . فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية ، فإن لم تحضره النية توقف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار .

بيان أن النية غير داخلية تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات ، فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله : نويت أن أدرس لله أو أكل لله . ويظن ذلك نية وهيئات ! فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر ، والنية بمعزل من جميع ذلك . وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا . والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول الشبان : نويت أن أشتري الطعام وأميل إليه ، أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي ، فذلك محال . بل لا طريق إلى اكتساب

(١) حديث « ان العبد ليواني القيامة بمسكات أمثال الجبال » وفيه « ويأتى قد ظلم هذا وشم هذا ... الحديث » تقدم مع اختلاف

صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قدم يقدر عليه وقد لا يقدر عليه . وإنما تنبعث النفس إلى الفعل لإجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده . وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين ، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالاعمال . فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولادنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة ، إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوي الولد ؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح ^(١) اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه ، وهو حديث محض ليس بنية . نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا لإيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره ، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركت تلك الرغبة وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد ، فإذا انتهزت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا ، فإن لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان .

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية ، حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال : ليس تحضرني نية . ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدري ، فقالت : أجيء بالمرأة ؟ فسكت ساعة ثم قال : نعم ، فقيل له في ذلك فقال : كان لي في المدري نية ولم تحضرني في المرأة نية فتوقفت حتى هياها الله تعالى . ومات حماد بن سليمان . وكان أحد علماء أهل الكوفة . فقيل للثوري : ألا تشهد جنازته ؟ فقال : لو كان لي نية لفعلت . وكان أحدهم إذا سئل عملا من أعمال البر يقول : إن رزقني الله تعالى نية فعلت . وكان طاوس لا يحدث إلا بنية ، وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ، ولا يسئل فيبتدئ ، فقيل له في ذلك قال . أفتحبون أن أحدث بغير نية ؟ إذا حضرته نية فعلت . وحكى أن داود بن المحبر لما صنف : كتاب العقل ، جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال : مالك ؟ قال : فيه أسانيد ضعاف ، فقال له داود : أنا لم أخرجها على الأسانيد ، فانظر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت ، قال أحمد : فردده على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال : جزاك الله خيرا فقد انتفعت به . وقيل لطاوس : ادع لنا فقال : حتى أجد له نية . وقال بعضهم : أنا في طلب نية لعبادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد . وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه : ألا تعرض عليه العشاء ؟ قال : ليس من نيتي .

وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية ، وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية لعلهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لاسبب قرب ، وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه : نويت ، بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله تعالى ، فقد تيسر في بعض

(١) حديث « إن النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » تقدم في آداب النكاح .

الأوقات وقد تتعذر في بعضها . نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته . وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تيسر للراغب في الدنيا ، وهذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عن يتعاطاها . ونيات الناس في الطاعات أقسام : إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار . ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة ، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتمظيمه لذاته وجلاله لا لأمر سواه ، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا ، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة ، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه - كالأجير السوء - ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله . وأما عبادة ذوى الآلئاب فإنها لا تتجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجلاله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعم في الجنة فإنهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتعتم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ! بل أشد ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين ، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبيتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء ، فعصى أكثر القلوب عن إبطار جمال الله وجلاله يضاهي عصى الخنفساء عن إدراك جمال النساء بأنها لا تشعر به أصلا ولا تلتفت إليه ، ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت اليهن (ولا يزالون مختلفين - كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم) . حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له : كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني ، ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال : يا رب كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك وأعمال إلى . ورؤى الشبلى بعد موته في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد : قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة ؟ فقال أى خسارة أعظم من خسران لقائى .

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غاب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء ، فإننا نقول : من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات . وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم ، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل . ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له . بل لو مل العبادة

لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إني لاستجيم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق . وقال علي كرم الله وجهه : رَوْحُوا الْقُلُوبَ فَإِنِهَا إِذَا أَكْرَهَتْ عَمِيَتْ . وهذه دقائق لا يدركها إلا سماء العلماء دون الحشوية منهم ، بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وإنما يبتغي به أن يعيد أوقاف قوته ليحتمل المعالجة بالضد ، والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس بجانا ليتوصل بذلك إلى الغلبة ، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه ، وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكثر عليه فيقهره . فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على اطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغي للمريد أن يضمّر إنكاراً على ما يراه من شيخه ولا للتعلم أن يعترض على أستاذه ، بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته ومالا يفهمه من أحوالها يسلمه لها إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .

الباب الثاني : في الإخلاص وفضيلته وحقائقه ودرجاته

فضيلة الإخلاص

قال الله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقال ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ وقال تعالى ﴿ إلا الذين تابوا وأصبحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغفل عن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله ^(١) ، وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ظنّ أبي أنّ له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم ^(٢) ، وعن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي ^(٣) ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل واهتموا لقبول فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل « أخلص العمل يحزك منه القليل ^(٤) ، وقال عليه السلام « ما من عبد يخلص لله العمل أرباباً يوم لا تظهر تبايع الحكمة من قلبه على لسانه ^(٥) ،

الباب الثاني في الإخلاص

(١) حديث « ثلاث لا يغفل عن قلب رجل مسلم : إخلاص العمل لله » أخرجه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير .
(٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه : أنه ظن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم » رواه النسائي وهو عند البخاري بالنظر « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم » . (٣) حديث الحسن سرسلاً « يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي » رويناه في جزء من مسلمات القزويني مسلاً يقول كل واحد من رواه : سألت فلاناً عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وحما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف . (٤) حديث أنه قال لمعاذ « أخلص العمل يحزك منه القليل » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع . (٥) حديث « ما من عبد يخلص لله أرباباً يوم لا تظهر تبايع الحكمة من قلبه على لسانه » أخرجه ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم .

وقال عليه الصلاة والسلام : أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول : يارب كنت أقوم آباء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك . ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول : يارب كنت أتصدق به آباء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك . ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول : يارب أسرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك ، قال أبو هريرة ، ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم نخذي وقال : يا أبا هريرة أركلك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة ^(١) ، فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال : صدق الله إذ قال (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) الآية

وفي الإسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا : إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى ، فغضب لذلك وأخذ رأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها ، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال : أين تريد رحمتك الله ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة ، قال : وما أنت وذاك ؟ تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفترغت لغير ذلك ؟ فقال : إن هذا من عبادتي ، قال : فإني لا أتركك أن تقطعها ، فقال له فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس : أطلقني حتى أكلبك ، فقام عنه فقال إبليس : يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك ، وما تعبدما أنت وما عليك من غيرك والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعدهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها ، فقال العابد لا بد لي من قطعها ، فناذره للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له : هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع ؟ قال : وما هو ؟ قال : أطلقني حتى أقول لك ، فأطلقه فقال إبليس : أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس ؟ قال : نعم ، قال : فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها ، فتفكر العابد فيما قال وقال : صدق الشيخ ، لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة ، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له ، فرجع العابد إلى متعبده فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا . فغضب وأخذ رأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له : إلى أين ؟ قال : أقطع تلك الشجرة فقال : كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها ، قال : فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال : هيهات ، فأخذه إبليس وصرعه ، فإذا هو كالصفرور بين رجله وقعد إبليس على صدره وقال : لتذهبن عن هذا الأمر أو لا ذبحنك ؟ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به ، قال : يا هذا غلبتني فحل عني وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن ؟ فقال : لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك ، وهذه المرة غصبت لنفسك وللدنيا فصرعتك .

(١) حديث « أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم ... الحديث » قد تقدم .

هذه الحكايات تصديق قوله تعالى ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ، ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن صحّت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى . وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب السخيتاني ، تخلص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صني له ومن خلط خلط عليه . ورؤى بعضهم في المنام فقيل له : كيف وجدت أعمالك فقال : كل شيء عملته لله وجدته ، حتى حبة رمان لقطنها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات ، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيت في كفة السيئات ، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوبا فقلت : موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها ؟ فقيل لي : إنه قد وجه حيث بعثت به ، فإنه لما قيل لك : قدمات ، قلت : في لعنة الله ، فبطل أجرك فيه ، ولو قلت : في سبيل الله ، لوجدته في حسناتك . وفي رواية قال : وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرم إلى فوجدت ذلك لا على ولا لي . قال سفيان - لما سمع هذا - ما أحسن حاله ؟ إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ ، الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم . وقيل : كان رجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم ، فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه يجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش ، فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت التوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله تعالى بالإخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا : أن أطلقوا الحرّة فقد وجدنا الدرّة . وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرق أرضه بعد العصر من يوم عرفة ، فتر به بعض إخوانه من الأبدال فسأره بشيء فقال أبو عبيد : لا ، فتر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني ، فقلت لأبي عبيد : ما قال لك ؟ فقال : سألتني أن أحج معه ، قلت : لا ، قلت : فهل فعلت ؟ قال : ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججبت معه لأجله تعرّضت لمقت الله تعالى ، لأنى أدخل في عمل الله شيئا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة . ويروى عن بعضهم قال : غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة ، فقلت أشتريها فأتتفع بها في غزوى فإذا دخلت مدينة كذا بعثتها فربحت فيها ، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه : اكتب الغزاة ، فأملى عليه ، خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ، ثم نظر إلى وقال : اكتب فلان خرج تاجرا ، فقلت . الله الله في أمرى ! ما خرجت أنجر وما معى تجارة أنجر فيها ما خرجت إلا للغزو ، فقال : يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت : لا تكتبوني تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى ؟ فقال : اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى . وقال سري السقطي رحمه الله تعالى : لأن تصلى ركعتين في خلوة تخلصهما خيلك من أن تكتب سبعين حديثا أو سبعمئة بعلو وقال بعضهم : في إخلاص ساعة نجاه الأبد ولكن الإخلاص عزيز . ويقال : العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص . وقال بعضهم : إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا ، أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم ، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه

الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط . وقال الجنيد : إنَّ الله عبادة عقلوا فلهما عقلوا عملوا فلهما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع . وقال محمد بن سعيد المروزي : الأمر كله يرجع إلى أصليين : فعل منه بك ، وفعل منك له ، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل . فإذا أنت سعدت بهذين وفزت في الدارين .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أنَّ كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ، ويسمى الفعل المصنوع المخلص : إخلاصا . قال الله تعالى ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث . ومن كل ما يمكن أن يمتزج به ، والإخلاص بضاده الإشراف ، فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص في التوحيد بضاده التشريك في الإلهية . والشرك - منه خفي ومنه جلي وكذا الإخلاص . والإخلاص وضده يتواردان على القلب فحله القلب وإنما يكون ذلك في القصد والنيات . وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث ، فهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المنوى ، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص . ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أنَّ الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ، ومن كان باعته مجرد الرياء فهو معرض للهلاك - ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربيع المهلكات - وأقل أموره ماورد في الخبر من « إن المرأى يدعى يوم القيامة بأربع أسام : يامرائى ياخذع يا مشرك يا كافر (١) » .

ولأنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس . ومثال ذلك أن يصوم ليذتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب . أو يعتق عبد ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده ، أو يهرب عن عدو له في منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما . أو ليغزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهية العساكر وجرحها . أو يصلى بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله . أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزا بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بعز العلم عن الاطماع . أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث . أو تكفل بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمة وأفرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقا في الدنيا . أو كتب مصحفنا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه . أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء . أو ترضى ليتنظف أو يتبرد . أو اغتسل لتطيب رائحته . أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد أو اعتكف في المسجد ليخفف كراء المسكن . أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرغ لاشغاله فلا يشغله الأكل عنها . أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه . أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض . أو يشيع جنازة ليشيع جناز أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فهما كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى

(١) حديث : « ان المرأى يدعى يوم القيامة : يامرائى ياخذع ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السيرة والإخلاص وقد تقدم .

ولكن انضاف إليه خطرة من هذه المخاطر ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك . وقد قال تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك » ، وبالجمل ، كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب - قل أم كثر - إذا تطرق إلى العمل تسكدر به صفوه وزال به إخلاصه . والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس . فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا . وذلك لعزة الإخلاص وعسر تقيية القاب عن هذه الشوائب ، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى . وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة - كما سبق في النية - وبالجمل ؛ فإما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ، ولكل واحد حكم آخر - كما سذكروه - وإنما الإخلاص تخلص العمل عن هذه الشوائب كلها - قليلها وكثيرها - حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه . وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يجب الأكل والشرب أيضا ، بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلية ، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى ، ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له إلا الله تعالى . فكل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته ، فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على التدور ، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ، فالذى يغلب على نفسه : الدنيا والعاق والرياسة - وبالجمل غير الله - فقد اكسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا . فإذا علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذا ذلك يتيسر الإخلاص . وكمن أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول لأنى تأخرت يوما لعذر فصليت في الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى في الصف الثانى ، فعرفت أن نظر الناس إلى فى الصف الأول كان مسرقي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر . وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ وبقوله تعالى ﴿ قل هل تنبشكم بالآخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء ، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء ، والشیطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وترى الواعظ يمين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه ،

وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أفرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول : إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المئاب واغتمامك لفوات الثواب محمود ، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه في الآخرة من انفراده . وليت شعري لو اغتم عمر رضى الله عنه بتصدى أبى بكر رضى الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودا أو مذموما ؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما ، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل ، بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر . فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك ؟ وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به ، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور ، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد . وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها ، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يفرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر .

بيان أقوال الشيوخ في الإخلاص

قال السوسى : الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج لإخلاصه إلى إخلاص . وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ؛ وهو من جملة الآفات . والخالص : ما صفا عن جميع الآفات ، فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلية جامعة محيطية بالغرض ، وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقيل لسهل : أى شئ أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب . وقال رويم : الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين . وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا . والعابد لأجل التمتع بالشهوات في الجنة مغلول ، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الإخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق لذوى الأبواب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الإنسان إلا لحظ ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضي أبو بكر البافلاى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال : هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق ، ولسكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء ، وهذا لا يعدّه الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة السجود للحضرة الإلهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه ؛ لمركبتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان رؤية

الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط . وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ؛ ولذلك قال بعضهم : الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه ؛ فإنه إشارة إلى مجزؤ الإخفاء . وقد قيل : الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العلائق . وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب . وهذا إشارة إلى مجزؤ نفي الرياء . وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال ؟ فقال : الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يحمده عليه أحد . وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص . وقال الجنيد : الإخلاص تصفية العمل من الكدورات . وقال الفاضل : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الإخلاص دوام المراقبة ونسيان المظوظ كلها . وهذا هو البيان الكامل والأفاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة .

وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الإخلاص فقال : أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت (١) ، أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا .

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلى وبعضها خفى وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فأنذرك منه مثالا .

فنقول : الشيطان يدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا في صلاته ؛ ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له : حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك ! فتخشع جوارحه ، وتسكن أطرافه ، وتحسن صلاته ؛ وهذا هو الرياء الظاهر ؛ ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين .

الدرجة الثانية : يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان . فيأتيه في معرض الخير ويقول : أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك ، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت ، فأحسن عملك بين يديه فحسب مقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة ! وهذا أغص من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول ، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه ؟ فهذا محض التلبس ، بل المقتدى به هو الذى استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه

(١) حديث : سئل عن الإخلاص فقال : أن تقول : ربى الله ثم تستقيم كما أمرت . لم أره بهذا اللفظ ولا ترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قال : يارسول الله حدثني بأمر أعظم به قال : قل ربى الله ثم استقم ، وهو عند مسلم بلفظ : قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : قل آمنت بالله ثم استقم .

فأما هذا فحوض النفاق والتليس ، فن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتليسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به .

الدرجة الثالثة : وهي أدق مما قبلها ، أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمجاهدة للغير محض الرياء ، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملاء ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته ، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملاء ، ويصلي في الملاء أيضا كذلك . فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملاء فلا يكون قد فرق بينهما ، فالتفات في الخلوة والملاء إلى الخلق . بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة ، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلا والملاء وهيات بل زوال ذلك بأن يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملاء جميعا ، وهذا من شخص مشغول بهم بالخلق في الملاء والخلا جميعا ، وهذا من المكائد الخفية للشيطان .

الدرجة الرابعة : وهي أدق وأخفى ، أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له : اخشع لأجلهم ، فإنه قد عرف أنه قد تفتن لذلك فيقول له الشيطان : تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه ، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع ، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلالة لكانت هذه الخطرة تالزمه في الخلوة ولكان لا يختص بحضورها بحالة حضور غيره ، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر بما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملاء ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (١) ، كما ورد في الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته ، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمسين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب ، فإن هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية ، أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الإخلاص بسببه ، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص ، بل من يتعكف في مسجد معمور نظيف حسن العبارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويسكر عليه من فضائل الاعتكاف ، وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الأناس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر ، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص لعمرى الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة . فمنها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه . ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير . وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا .

(١) حديث « الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة » تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء .

ولهذا قيل : ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل ، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها ، فإن الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغترارها كنظر السوادى إلى حمرة الدينار الممقوه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه ، وقيراط من الخالص الذى يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر الغبي . فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم . ومداخل الآفات المنتزقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا ، والفتن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل .

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه ؟ أما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب ، وظاهر الأخبار يدل على أنه لا ثواب له ^(١) ، وليس تخلوا الأخبار عن تعارض فيه . والذى ينقدح لمسافيه - والعلم عند الله - أن ينظر إلى قدر قوة الباعث . فإن كان الباعث الدينى مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفرض للعقاب . نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب . وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الدينى وهذا لقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ ولقوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد . وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها . فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها . فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة ، وأحدهما مهلك والآخر منج ، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما . فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته ، فيكون بعد تناولها كأنه لم يتناولها ، وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده ، فإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد إلى ما كان

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال : وليس تخلوا الأخبار عن تعارض رواء أبو داود من حديث أبي هريرة : أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتلى في سبيل الله وهو يبتلى مرضا من مرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأجر له ... الحديث » وللنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن : رأيت رجلا غزا يلبس الأجر والذكر ماله ؟ فقال « لا شيء له » فأعادهما - ثلاث مرات - يقول « لا شيء له » ثم قال « لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتنى به وجهه » وللمزمذى وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة : الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال « له أجران أجر السر وأجر العلانية » وقد تقدم في ذم الجاهل والرياء .

فلم يكن له ولا عليه ، وإن كان الفعل مما يقتربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها »^(١) ، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيقه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة . ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . نعم يمكن أن يقال : إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص ، وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ما . وعندى : أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ، ويبعد أن يقال : إدراك هذه التفرقة يحبط بالسكينة ثواب جهادهم . بل العدل أن يقال : إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوى هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب . نعم لا يساوى ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا ؛ فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة .

فإن قلت : فالآيات والأكابر تدل على أن شوب الرياء يحبط للثواب ، وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيحب أن يحمده ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)^(٢) وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أدنى الرياء شرك »^(٣) ، وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره ممن عملت له »^(٤) ، وروى عن عبادة « أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل لي عملا فأشرك معي غيره ودعت نصيبى لشريكى ، وروى أبو موسى : أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه فأيهم في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتسكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »^(٥) ، وقال عمر رضي الله عنه : تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملا دفتى راحلته ورقا . وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من هاجر يبتغى شيئا من الدنيا فهو له »^(٦) ، فنقول : هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله « من هاجر يبتغى شيئا من الدنيا » وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها ، وأما لفظ الشركة حيث ورد فطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له

(١) حديث « أتبع السيئة الحسنة تمحها » تقدم في رياضة النفس وفي التوبة . (٢) حديث طاوس وعدة من التابعين : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيحب أن يحمده ويؤجر فنزلت (فمن كان يرجو لقاء ربه) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلًا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء ، (٣) حديث معاذ « أدنى الرياء شرك » أخرجه الطبراني والحاكم وتقدم . (٤) حديث أبي هريرة « يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره ممن عملت له » تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة « من عمل عملا أشرك فيه معي غيره تركته وشريكه » وفي رواية مالك في الموطأ « فهو له كله » . (٥) حديث أبي موسى « من قاتل لتسكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » تقدم فيه . (٦) حديث ابن مسعود « من هاجر يبتغى شيئا من الدنيا فهو له » تقدم في الباب الذي قبله .

ولاعليه ، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ، ثم إن الإنسان عند الشركة أبدا في خطر فإنه لا يدري أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ أى لا يرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط ، ويجوز أن يقال أيضا : منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص فى الغزو . وبعيد أن يقال : من كانت داعيته الدينية بحيث ترجحه إلى مجرد الغزو - وإن لم يكن غنيمة - وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداها غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء - لإعلاء كلمة الله والغنيمة - لأثواب له على غزوه البتة ، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فإن هذا حرج فى الدين ومدخل لليأس على المسلمين ، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور ، فيكون تأثير هذا فى نقصان الثواب ، فأما أن يكون فى إحباطه فلا . نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى ، وذلك نمسا يخفى غاية الخفاء . فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ فى الاحتياط ، فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وبأها أكثر من ثوابها . وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر ، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة . ولذلك قال سفيان رحمه الله : لا أعتد بما ظهر من عملى . وقال عبد العزيز بن أبى رواد . جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت فى شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسى فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ، لئنه لالى ولا على . ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا . وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف فى أعماله فتكلم أبو سعيد فى الإخلاص يوما - يريد إخلاص الحركات - فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطلبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها فى أكثر أعماله فيتركها ، فقال أبو سعيد : لا تفعل إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد فى تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل ؟ وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك .

الباب الثالث : فى الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الصدق يهتدى إلى البر والبر يهتدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهتدى إلى الفجور والفجور يهتدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ^(١) ، ويكفى فى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴾ وقال

الباب الثالث فى الصدق

(١) حديث : إن الصدق يهتدى إلى البر ... الحديث ، متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

(واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا) وقال تعالى (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا) وقال ابن عباس : أربع من كنّ فيه فقد ربح ؛ الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر . وقال بشر ابن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصورا الدينوري في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ورحمني وأعطاني مالم أؤمل ، فقلت له : أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق وأقبح ما توجه به الكذب . وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم : ما رأيت صادقا ! فقال له : لو كنت صادقا لعرفت الصادقين . وعن محمد بن علي الكتاني قال : وجدنا دين الله تعالى مبنيًا على ثلاثة أركان ؛ على الحق والصدق والعدل ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثوري في قوله تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) قال : هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود من صدقني في سريره صدقته عند المخلوقين في علانيته . وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة ، فقال الشبلي : إن كان صادقا فالله تعالى ينجيّه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة - ولا يتم بعضها إلا ببعض - الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى في الأعمال ، وطيب المطعم . وقال وهب بن منبه : وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها : لا كنز أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أشين من الجهل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفكر ، ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا سيئة أخزى من الكبر ، ولا دواء ألين من الرفق ، ولا داء أوجع من الخرق ، ولا رسول أعدل من الحق ، ولا دليل أنصح من الصدق ، ولا فقر أذل من الطمع ، ولا غنى أشقى من الجمع ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا معيشة أهنأ من العفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد المروزي : إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى امرأة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق : احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق . وقيل لدى النون : هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقیل

وقيل لسهل : ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه ؟ فقال : الصدق والسخاء والشجاعة . فقيل : زدنا ، فقال : التقى والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن السكّال فقال : قول الحق والعمل بالصدق ^(١) ، وعن الجنيد في قوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) قال : يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا أمر على خطر .

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان : صدق في القول ، وصدق في النية والإرادة ، وصدق في العزم ،

(١) حديث ابن عباس : سئل عن السكّال فقال : قول الحق والعمل بالصدق . لم أجده بهذا اللفظ ،

وصدق في الوفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها ، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق . ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . (الصدق الأول) صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبئ عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ الفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كالان :

(أحدهما) الاحتراز عن المعارض : فقد قيل : في المعارض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه ، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك ، فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه الله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه ، لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه ، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى غيره ^(١) ، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد ، وليس هذا من الكذب في شيء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا ^(٢) » ، ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فهما صح قصده وصدقت نيته وتجزدت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ، ثم التعريض فيه أولى . وطريقه ما حكى عن بعضهم ، أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته : خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا ، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدق وأفهم الظالم أنه ليس في الدار . فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعارض أيضا إلا عند الضرورة (والكمال الثاني) أن يراعى معنى الصدق في الفاظه التي يناجي بها ربه كقوله (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأماني الدنيا وشهواته فهو كاذب . وكقوله (إياك نعبد) وقوله : أنا عبد الله ، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صادقا ، ولو طواب يوم القيامة بالصدق في قوله : أنا عبد الله ، لعجز تحقيقه فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا لدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله . وكل ما تفيد العبدية فهو عبده كما قال عيسى عليه السلام : يا عبيد الدنيا ! وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحيلة وعبد الخيصة ^(٣) » ، فسمى كل من تفيد قلبه بشيء عبدا له .

وإنما العبد الحق - لله عز وجل - من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا ، فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا خللت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبه وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد

(١) حديث : كان إذا أراد سفرا ورى غيره : متفق عليه من حديث كعب بن مالك . (٢) حديث « ليس بكاذب من أصلح بين الناس ... الحديث » متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم . (٣) حديث « تعس عبد الدينار ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

إلا الله تعالى ، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يمتنع أيضا عن إرادته الله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى . وهذا عبد عتق عن غير الله فصاح حراً ، ثم عاد وعتق عن نفسه فصاح حراً . وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركة تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى ، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض ، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى . فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى ، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا : فهذا هو معنى الصدق فى القول .

(الصدق الثانى) فى النية والإرادة : ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا . كما روينا فى فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال : فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعالى : كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ^(١) . فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه فى إرادته ونيته . وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد فى القصد . وكذلك قول الله تعالى ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر . وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يمتنع ما يقول فكذب فى دلالاته بقرينة الحال على ما فى قلبه ، فإنه كذب فى ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به ، فيرجع أحد معانى الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا .

(الصدق الثالث) صدق العزم : فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول فى نفسه . إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه - أو بشطره ، أو إن لقيت عدوا فى سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت ، وإن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق . فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التماس والقوة كما يقال : لفلان شهوة صادقة . ويقال : هذا المريض شهوته كاذبة ، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة ، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى . والصادق والصديق هو الذى تصادف عزمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد : بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضى الله عنه : لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر - رضى الله عنه - فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم ، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبى بكر رضى الله عنه ، وأكد ذلك بما ذكره من القتل .

ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف ؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهى به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ذرايعه لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه ، بل فى الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبى بكر الصديق .

(الصدق الرابع) فى الوفاء بالعزم ، فإن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم

(١) « حديث الثلاثة : حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت ... الحديث » تقدم .

والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وماجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ فقد روى عن أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع ! قال : فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ فقال : وإها لريح الجنة ! إني أجد ريحها دون أحد . فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون مابين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر : ما عرفت أختي إلا بثيابه ، فنزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (١) ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير - وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبة ومنهم من ينتظر ﴾ (٢) وقال فضالة بن عبيد : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ، ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته - قال الراوى : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم - ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عاثر فقتله فهو في الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة ، ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة (٣) ، وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملا من الناس فعودا فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ وقال بعضهم : إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا . وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث ، فإن الناس قد تسخروا بالعزم ثم تسكع عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال : لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لا أجده الآن لاني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم . وقال أبو سعيد الخزاز : رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى : ما الصدق ؟ قلت : الوفاء بالعهد ، فقالا لى : صدقت ، وعرجا إلى السماء .

(الصدق الخامس) في الأعمال ، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجتر الباطن إلى تصديق الظاهر ، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن

(١) حديث أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . الحديث . في قتاله بأحد حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول (رجال صدقوا) الآية أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى في الكبرى وهو عند البخارى مختصرا ان هذه الآية نزلت في أنس بن النضر . (٢) حديث : وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد ولما رأى هذه الآية . أخرجه أبو يعقوب في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا . (٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب : الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان . . . الحديث ، أخرجه الترمذى وقال حسن .

المرائي هو الذي يقصد ذلك ، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مرائيا لياهم ، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلائية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره . ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا في دلالة الظاهر على الباطن .

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص ، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي واجعل علانيتي سالحة (١) ، وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وأنشدوا :

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلان سرا فما له على سعيه فضل سوى السكت والعنا

فما خالص الدينار في السوق نافع ومغشوشه المردود لا يقتضى المنا

وقال عطية بن عبد الغافر : إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدى حقا . وقال معاوية بن قرة : من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار . وقال عبد الواحد بن زيد : كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمال الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ، ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلائية منه . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهى عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة . ويبكى . وقال أبو يعقوب النهرجورى : الصدق موافقة الحق في السر والعلائية . فإذا تساوى السريرة للعلائية أحد أنواع الصدق .

(الصدق السادس) وهو أعلى الدرجات وأعزها ؛ الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور . فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقا فيه ، كما يقال : فلان صدق القتال . ويقال : هذا هو الخوف الصادق ، وهذه هي الشهوة الصادقة . وقال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ ومثل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقبل له : سألتك عن الإيمان ؟ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية (٢) .

ولنضرب للخوف مثلا : فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ،

(١) حديث « اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي ... الحديث » تقدم ولم أحده . (٢) حديث أبي ذر : سألت عن الإيمان فقرأ قوله تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجدها أسادا .

ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة ، أما تراه إذا خاف ، سلطانا أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنقص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره ، حتى لا ينتفع به أهله وولده ، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفا من درك المحذور . ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها »^(١) ، فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوى ، فإذا قوى سمى صادقا فيه . فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : « أحب أن أراك في صورتك التى هى صورتك » فقال لا تطيق ذلك قال : « بل أرني » فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق - يعنى جوانب السماء - فوق النبي صلى الله عليه وسلم مخشيا عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا » قال : وكيف لو رأيت إسرافيل ؟ إن العرش لعلى كاهله ، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى ولأنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع^(٢) يعنى كالصفور الصغير ، فأنظر ما الذى يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد ؟ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أسرى بنى وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى »^(٣) ، يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير ، وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما : « لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حتى فى دين الله . وقال مطرف : « ما من الناس أحد إلا وهو أحق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر فى جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير »^(٤) ، فالصادق إذن فى جميع هذه المقامات عزيز . ثم درجات الصدق لانهية لها وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقا . قال سعد بن معاذ : ثلاثة أما فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف : ماصليت صلاة منذ أسلمت لحذت نفسى حتى أفرغ منها ، ولا شيعته جنازة لحذت نفسى بغير ما هى قائمة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها ، وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلا علمت أنه حق ، فقال ابن المسيب : ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا فى النبي صلى الله عليه وسلم . فهذا صدق فى هذه الأمور ، وكم قوم من جلة الصحابة قد ادوا الصلاة وانبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ ؟ فهذه هى درجات الصدق ومعانيه . والكلمات المسأورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعانى نعم قد قال أبو بكر الوراق : الصدق ثلاثة : صدق التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى ﴿ والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون ﴾ وصدق الطاعة لأهل العلم

(١) حديث « لم أر مثل النار نام هاربها الحديث » تقدم . (٢) حديث : قال لجبريل « أحب أن أراك فى صورتك التى هى صورتك » فقال : لا تطيق ذلك ... الحديث . تقدم فى كتابه الرجاء والخوف أنصر من هذا ، والذى ثبت فى الصحيح أنه رأى جبريل فى صورته مرتين . (٣) حديث « مررت ليلة أسرى بنى وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله ... الحديث » أخرجه محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإبادى ضعفه الجمهور وقال البيهقى ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطار وهذا مرسل . (٤) حديث « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر فى جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير » لم أجده له أصلاً فى حديث مرافيع .

والورع ، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض - وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام - وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك غيرك فقال تعالى (هو اجتباكم) وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إني إذا أحببت عبداً ابتليته بآيات لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه ، فإن وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبيباً ، وإن وجدته جزوعاً يشكوني إلى خلق خذله ولا أبالي . فإذا من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً وكراهة اطلاع الخلق عليها .

تم كتاب الصدق والإخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة ، والحمد لله .

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجتاحت ، المطالع على ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب على النقيير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطوّل بالعفو عن من معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنتظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجة لحابت وخسرت ، فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت ، واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان والشرح ، وببمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات ونأدبت ، وبحسن هدايته انجلت عن ألقاب ظلمات الجهل وانقشعت ، وبتأييده وانصرته انقطعت مكائد الشيطان واندمت ، وبلاطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت ، وبتيديره تيسرت من الطاعات ما تيسرت ، فنه العطاء والجزاء والإبادة والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

أما بعد : فقد قال الله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) وقال تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) وقال تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقال تعالى (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم يظلمون) وقال تعالى (يوم تجمد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه) وقال تعالى (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون

(٥٠ - إحياء علوم الدين - ٤)

في الحساب ويطالبون بثاقيل الذر من الخطرات واللحظات ، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الانفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته ، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ فربطوا أنفسهم أولا بالمشاركة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة . ثم بالمعاقبة . فكانت لهم في المرابطة ست مقامات ، ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ، ولكن كل حساب فبعد مشاركة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاقبة والمجاهدة . فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

المقام الأول من المرابطة : المشاركة

اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها ﴾ وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة . والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكياها كما يستعين التاجر بشريكه وعلامة الذي يتجر في ماله ، وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه أو يعاتبه رابعا ؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم يرم منها إلا الحياة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجوق وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ، ثم كيفما كانت فصيرها إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر ، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير . ولذلك قيل :

أشد الغم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

لحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والنضيق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها ، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهر نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل . فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته . فيقول للنفس : مالي بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وإنسا في أجلى وأنعم على به ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا ، فاحسبي

أنك قد توفيت ثم قد رددت فأياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها وأعلى يانفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لادهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار ، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نذرها وبغشاء ظلامها وهي الساعة التي عصي فيها فيناله من الهول والفرع ما لو قسم على أهل الجنة لتنقص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه (١) ، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته ، وناهيك به حسرة وغنا ، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم في أن تعمري خزانتي ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميل إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرتة لا يطاق وإن كان دون ألم النار . وقد قال بعضهم : هب أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ فهذه وصيته لنفسه في أوقاته .

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة . وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء ، فيوصيها بحفظها عن معاصيها (أما العين) فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه ، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها ؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء ، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن (أما اللسان) فلا تله منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنابته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتركبة النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللحن والدعاء على الأعداء والمباراة في الكلام وغير ذلك - مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله - مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر : فنطق المؤمن ذكر ونظيره عبارة وصمته فكرة و ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (وأما البطن) فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال

كتاب المحاسبة والمراقبة

(١) حديث « ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة من حسناته ... » الحديث بطوله لم أجده أصلا .

واجتناب الشهوات ، ويمتنع من الشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة . ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها . هكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء . واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ، ثم النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها ، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، والله عليه في ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذر ما مغبة الإهمال ويعظمها كما يعظم العبد الآبق المتمرد : فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المراقبة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل . والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله التحذير قال الله تعالى (واعلموا أن الله يعلم ما أنتم تعملون فاحذروه) وهذا للمستقبل . وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) ذكر ذلك تحذيراً وتنبهاً للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت : أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه ، إذا أردت أسراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضه وإن كان غيا فأنته عنه ^(١) . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : السكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واللاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(٢) ، دان نفسه : أي حاسبها . ويوم الدين : يوم الحساب . وقوله (أننا لمدينون) أي لمحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيبوا للعرض الأكبر . وكتب إلى أبي موسى الأشعري : حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجدها في كتاب الله؟ قال : ويل لديان الأرض من ديان السماء ؛ فعلاء بالذرة وقال : إلا من حاسب نفسه ، فقال لكعب : يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه . وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال : من دان نفسه يعمل لما بعد الموت . ومعناه : وزن الأمور أولاً وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فبأشرفها .

المراقبة الثانية : المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظاتها

(١) حديث عبادة بن الصامت « إذا أردت أسراً فتدبر عاقبته ... الحديث » تقدم .

(٢) حديث « السكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث » تقدم .

بالعين السكاكة فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولندكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها .

(أما الفضيلة) فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه »^(١) . وقال عليه السلام : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٢) . وقد قال تعالى ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ وقال الله تعالى ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى ؛ فسأله عن تفسيره فقال : كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيبا على فلا أبالي بغيره . وقال أبو عثمان المغربي : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الجريري : أمرنا هذا مبني على أصلين ؛ أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهرك قائما . وقال أبو عثمان : قال أبو حنيفة ، إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يغترنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان بكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ؟ فدعا بمدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد . ودفع إلى الشاب مثل ذلك ، قال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حي في يده ، فقال : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد إذ الله مطلع على كل مكان ، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا : حق لك أن تكرم . وحكى أن زليخا لما خات بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف : مالك ؟ أنتستحين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار ! وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له : ألا تستحي ؟ فقال : ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب ؟ قالت : فأين مكوكبها ؟ وقال رجل للجنيديم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بملكك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيدي : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل : وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة ، قيل له : ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله عز وجل وإنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمى فراقبوني ، والذين انثنت أصلاهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الله تعالى . وقال المرتضى : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة وانقطة . ويروى أن الله تعالى قال للملائكة : أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن علي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أمرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ فقال معناه : ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وترؤد لمعاده . وسئل ذو النون : بهم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب

(١) حديث : سأل جبريل عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه » متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم . (٢) حديث : « اعبد الله كأنك تراه » الحديث ، تقدم .

له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي : عظمي ، فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثوري عليك بالمراقبة من لا تخفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء من يملك الوفاء ، وعليك بالحذر من يملك العقوبة . وقال فرقد السنجي إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فمرسنا في بعض الطريق فاتحدر عليه راع من الجبل فقال له ياراعى بعنى شاة من هذه الغنم ، فقال إني مملوك ، فقال قل لسيدك أكلها الذئب ؟ قال فأين الله ؟ قال فبكي عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه ، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يشمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب . أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاتة إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه . وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطاع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت يقينا - أعنى أنها خلت عن الشك - ثم استولت بعد ذلك على القلب فهورته ؛ قرب علم لاشك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليقين ، فراقبتهم على درجتين .

(الدرجة الأولى) مراقبة المقربين من الصديقين ؛ وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا ، وهذه مراقبة لانطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب . أما الجوارح فإنها تتعطل عن الالتفات إلى المباحات فضلا عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد . بل يستد الرعية من ملك كلبه الراعى ، والقلب هو الراعى ، فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذي صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم . ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عيذه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه ، حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال لمن عاتبه : إذا مررت بي فركني . ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة للملوك الأرض . حتى إن خدام الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص

الرجل في الفسك فيه ويمشي فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له . وقد قيل لعبد الواحد ابن زيد : هل تعرف في زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال : ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة ! فما كان إلا سريعا حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت يا عتبة ؟ فقال من موضع كذا - وكان طريقه على السوق - فقال : من لقيت في الطريق ؟ فقال : مارأيت أحدا . وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام : أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم ، فتقدمت إليه فأردت أن أكله فقال : ذكر الله تعالى أشهى ! فقلت وحدك ؟ فقال : معي ربي وملكاى ! فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له ، فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال : أكثر خلقك شاغل عنك . فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه . فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبلي على أبي الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء . فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال : من سنور كانت لنا ، فكانت إذا أزدت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي على الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري - المعروف بالزاهد - إن في صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما ؟ فدخلت صورا وأنا جائع عطشان وفي وسطى خرقة وليس على كتفي شيء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلين القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب ، فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما علي السلام ! فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال : يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقي من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير ، يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا ؛ قال : فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى ، فلما كان وقت العصر قلت : عظمى ! فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة ، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئا ولا شربا ، فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى : أحلفهما أن يعطاني لعل أن أتفنع بعظماهما ، فرفع الشاب رأسه وقال لي : يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكر الله رؤيته وتقع هيبتة على قلبك ، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله ، والسلام ؛ قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

(الدرجة الثانية) مراقبة الورعين من أصحاب اليقين ؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتألف إلى الأحوال والأعمال ، إنما مع ممارسة الأعمال لا تغلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة .

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات ؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك ، لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء ، فإن

مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به ، لا حياء منه . فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى .

ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجمله جميع اختياراته ، وله فيها نظران : نظر قبل العمل ، ونظر في العمل (أما قبل العمل) فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله تعالى أمضاء ، وإن كان لغير الله استجيا من الله وانكشف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعزفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته . وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حدّ البيان واجب محتوم لا يحصى لاحد عنه ، فإن في الخبر : إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول : لم ؟ والثاني كيف ؟ والثالث : لمن ؟ ^(١) ومعنى لم ، أى لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك ؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له : كيف فعلت هذا ، فإن لله في كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له : كيف فعلت أبعلم بحق أم بجهل وظن ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له . لمن عملت أوجه الله خالصا وفاء بقولك ، لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله ؟ أو لمرامة خلق مثلك نخذ أجرك منه ؟ أم عملته لنتال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ؟ أم عملته بسهر وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك ؟ وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقى وعقابي إذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيري أما سمعتنى أقول (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتنوا عند الله الرزق واعبدوه) ويحك أما سمعتنى أقول (ألا لله الدين الخالص) فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابا وليستكن الجواب صوابا ، فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد التثبت ، ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ : إن الرجل ليسئل عن كل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه ^(٢) ، وقال الحسن ، كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وثبت فإن كان لله أمضاء . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر . وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان : اتق الله عند همك إذا هممت ^(٣) ، وقال محمد بن علي : إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كخاطب ليل . فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فمضى لم يعرف نفسه وربّه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته ، فلا يسلم في هذه المراقبة . بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسنون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هياتا بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كنت ركعتان من عالم

(١) حديث : ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثاني كيف . والثالث لمن ، لم أقف له على أصل .

(٢) حديث : قال لمعاذ : إن الرجل ليسأل عن كل عينيه . . . الحديث ، تقدم في الذى قبله . (٣) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن : اتق الله عند همك إذا هممت ، أخرجه أحمد . والمآكم وصححه وهذا التقدير منه موقوف وأوله مرفوع تقدم .

أفضل من ألف ركعة من غير عالم ، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواقع الغرور فيتق ذلك ، والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه ؟ فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة ، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران . لحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجراحة ، فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به ، فإن الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت ، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه . ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعين بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى ، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين ، وليفتقر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عنى عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادى . فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدّة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى ، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقبتها وهى شهوات الدنيا ؟ فلتكن همة المريد أولا في أحكام العلم ، أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل السكامل عند مجوم الشهوات » (١) ، جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات . ولذلك قال عليه السلام : « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا » (٢) ، فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الأدنى به حتى يعتمد إلى محوه ومحقة بمقارفة الذنوب ، ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعصار ، فإنّ الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات النائرة فى اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجزدوا لفقه الدنيا الذى ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفى الخبر : « أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المنتبث » (٣) ، ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم . فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه معجبا برأيه وكان بمن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : « فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض فى شبهه بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ » (٤) وقوله عليه السلام : « إياكم والظن فإنّ الظن كذب الحديث » (٥) ، وأراد به ظنا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه . ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه : اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابها على فأتبع الهوى وقال عيسى عليه

(١) حديث « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر المدنى ضعفه الجمهور . (٢) حديث « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا » تقدم ولم أجده . (٣) حديث « أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المنتبث » لم أجده . (٤) حديث « فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ... الحديث » تقدم . (٥) حديث « إياكم والظن ... الحديث » تقدم .

السلام ، الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه ^(١) ، وقد كان من دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم ^(٢) ، فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق ، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتثنا على عبده ﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ وأراد به العلم وقال تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إن علينا للهدى ﴾ وقال ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ وقال ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ .

وقال على كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونعم طارد الهم اليقين ، وعافية الكذب الندم ، وفي الصدق السلامة ، رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرا النقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه وزرق يطلبك فإن لم تأت أنتك ، وإن كنت جازعا على ما أصيب بما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان فإنما الأمور أشباه ، والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تسكرن به فرحا وما فالك منها فلا تتبعه نفسك أسفا ، وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله « ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فإذا نظر الأول للرافب نظره في الهم والحركة أمى الله أم للهوى ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يرائى بشيء من عمله ، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخرة والآخرة أثر الآخرة على الدنيا ^(٣) ، وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ^(٤) » .

النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل ، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه ، وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب . فإن كان قاعدا مثلا فينبغي أن يقدم مستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم « خير المجالس ما مستقبل به القبلة ^(٥) » ولا يجلس متربعا إذ لا مجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه ، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول : هكذا تجالس الملوك ؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعا وإن كان ينم . فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة - مع سائر الآداب التي ذكرناها في موضعها - فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة .

فإذا لم يخلو العبد إما أن يكون في طاعة ، أو في معصية ، أو في مباح .

فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات .

(٢) حديث « قال عيسى الأمور ثلاثة ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .

(٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم » لم أجده . (٣) حديث « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٤) حديث « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » تقدم . (٥) حديث « خير المجالس ما مستقبل به القبلة » أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم .

وإن كان في معصية فراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير .

وإن كان في مباح فراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة والشكر عليها .

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بليّة لا بدّ له من الصبر عليها ونعمة لا بدّ له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة . بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرة أو محذور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته . ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل الأعمال ليستغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ﴿ ولا تنس نصيحتك من الدنيا ﴾ .

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة . فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاة . وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضى الله فيها ؟ وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه . فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري ، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام « لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث : تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم ^(١) » ، وما روى عنه أيضا في معناه « وعلى العاقل أن تكون له أربعة ساعات ساعة يذاجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للطعم والمشرب ^(٢) » ، فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات . ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح . والناس فيه أقسام :

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه - كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر - وهذا مقام ذوى الالباب .

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكرهة ويلاحظون وجه الاضطراب إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين .

وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق ، فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع ، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى

(١) حديث أبي ذر « لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث : تزود لمعاد ... الحديث » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه صل الله عليه وسلم قال إنه في صحف موسى وقد تقدم . (٢) حديث « وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يذاجي فيها ربه ... الحديث » وهي بجهة حديث أبي ذر الذي قبله .

الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا .
 وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص ، فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ،
 ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ
 والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى ، وأن من ذم شيئا من خلق الله بغير إذن فقد ذم الله ، ولذلك قال النبي
 صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر »^(١) ، فهذه المراقبة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام
 والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهج لمن أحكم الأصول .

المراقبة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل . ولندكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقةها

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ وهذه إشارة إلى
 المحاسبة على ماضى من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل
 أن توزنوا ، وفي الخبر : أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصنى فقال « أمستوص أنت ؟ » فقال
 نعم ، قال « إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانتبه عنه ، وفي الخبر وينبغي للعاقل أن
 يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾
 والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب
 إليه في اليوم مائة مرة »^(٢) وقال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾
 وعن عمر رضى الله عنه ، أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم؟ وعن ميمون
 ابن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريك يتحاسبان بعد
 العمل . وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس
 أحب إلى من عمر ، ثم قال لها كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز علي من عمر . فانظر كيف
 نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها ! وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته - فتدبر
 ذلك - فجعل حائطه صدقة لله تعالى ، ندما ورجاء للدعوى بما فاته ^(٣) ،

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بئيك وغلانك ما يكفونك هذا ،
 فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكره ؟ وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله ، وإنما خف الحساب
 على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .
 ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيهات
 حيل بيني وبينك ! وهذا حساب قبل العمل ، ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا ؟
 والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا ! وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى
 عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعتة يقول - وبينى وبينه جدار - وهو في الحائط ؛ عمر

(١) حديث « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « إني لأستغفر الله
 وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » تقدم غير مرة . (٣) حديث أبي طلحة : حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حائطه صدقة .
 تقدم غير مرة .

ابن الخطاب أمير المؤمنين بنحج ! والله لمتقين الله أو ليعذبك . وقال الحسن في قوله تعالى ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ قال : لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ؛ ماذا أردت بكلمتي ؟ ماذا أردت بأكثي ؟ ماذا أردت بشريتي ؟ والفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه . وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدا قال لنفسه ؛ ألسنت صاحبة كذا ، ألسنت صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا . وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى في موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح . وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعاقق أبقارها ، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلاها ، فقلت لنفسى يا نفس أى شيء تريدن ؟ فقالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا قلت : فأنت في الآمنية فاعمل . وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول ؛ رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكياله ، رحم الله امرأ نظر في ميزانه ، فما زال يقول حتى أبكاني . وحكى صاحب للأخنف ابن قيس قال : كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل ، الدعاء ، وكان يحىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه : يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ .

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها - كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخسارة لهم في فواته ! ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل ، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ؟ ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان ، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض ، ورجحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي . وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله نفسه الأمانة بالسوء ، فيحاسبها على الفرائض أولا فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتغذيتها ومعاتبها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فترط - كما يصنع التاجر بشريكه - وكما أنه يفتش في حساب الدنيسا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغيب في شيء منها فينبغى أن يتق غيبته النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة مكارة ، فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس . وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبت عليه وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه .

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون . أما بعضها : فبالغرامة والضمان ، وبعضها : برد عينه . وبعضها

بالعقوبة لها على ذلك . ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة . كما نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقعة وكان محاسبا لنفسه ؛ فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ؟ ثم خر مغشيا عليه فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأعلى ! فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ؛ ولورمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والمساكن يحفظان عليه ذلك ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ .

المراطة الرابعة

في معاينة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارنة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارنة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته . هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم : أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذهما ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست . وروى أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فكثرت كذاك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذي أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم ، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيات هيات ! رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود في صومعتي لا يكون والله ذلك أبدا ! فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت ؛ فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره . ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكربي يقول : أصابني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة ، فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا لحدثني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء وأدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت : واعجبا أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجد في المسارعة وأجد الوقوف والتأخر ! آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه ! وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس ، ويحكى أن غزوان رابا موسى كانا في بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فاطم عينه حتى بقرت وقال : إنك للحاظلة إلى ما يضرك . ونظر بعضهم نظرة واحدة امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينقص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بفرقة فقال : متى بذيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عمالا يعنيك ؟ لا عاقبتك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا : إنه نائم ، فقال : أنوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ؟ ثم ولى منصرفا فأتبعناه رسولا وقلنا له : ألا نوقظه لك ! فجاء الرسول وقال : هو أشغل من أن يفهم عنى شيئا ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : أفلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء ! وما يدريك أن هذا ليس وقت

نوم ؟ تسكمين بما لا تعلين ؟ أما إن لله على عهدا لا أنقضه أبدا ! لا أوسدك الأرض لنوم حولي إلا لمرض حائل أو لعقل زائل ، سواة لك أما تستحين ! كم توبخين ؟ وعن غيئك لانتنتين ؟ قال : وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكانى ، فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد ؛ فقام سنة لم يمت فيها ، عقوبة للذى صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه : ذوق ! ونار جهنم أشد حرا ! أجيفة بالليل بطالة بالنهار ؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأتاه فقال : غلبتني نفسى ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ، ثم قال لأصحابه : تزودوا من أخيكم ، فجعل الرجل يقول له : يا فلان ادع لى ! يا فلان ادع لى فقال ! النبي صلى الله عليه وسلم وعلمهم ، فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم سدده ، فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مأبهم ^(١) وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيف أعطيها شهواتها ؟ ودخل ابن السماك على داود الطائى حين مات - وهو في بيته على التراب - فقال : يا داود بيحت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبة : أن رجلا تعبد زما ، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتا يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرّة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه وقال : منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك ! فنزل إليه ملك وقال : يا ابن آدم ؛ ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس : كنا في غزاة لنا لخصم العدو ، فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول : أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا فقلت لى ؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ! ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى ؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ! والله لا عرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك ! فقلت لأرمقته اليوم ، فرمقته لحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فأنكشفوا فكان في موضعه ، حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل ، فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيت صريعا ، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبي طلحة : لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك . وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول : ماذا عملت اليوم ؟ وعن مجمع : أنه رفع رأسه إلى السطح فوق بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه : ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا ؟ وأنكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه فتتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه : ويحك ! إنما أريد بك الخير . ورأى محمد بن بشر داود الطائى ، وهو يأكل عند إفطاره خبزا بغير ملح فقال له : لو أكلته بملح فقال : إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داود ملحا مادام في الدنيا .

فكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ، ثم تهمل

(١) حديث طلحة : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه : ونار جهنم أشد حرا . . . الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أو مهمل ، ولا أدرى من طلحة هذا .

نفسك وهي أعظم عدوك وأشد طغيانا عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهالك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنقص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

المرابطة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت ، وإن رآها تتواني بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بثقليل الأوراد عليها ويلزمها فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط ؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى ، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة ، وآخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصديق بجميع ماله . كل ذلك مرابطة للنفس ومواخذة لها بما فيه نجاتها .

فإن قلت : إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها ؟ فأقول : سبيلك في ذلك أن تسمعها ماورد في الأخبار من فضل المجتهدين ^(١) ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله يجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعا . إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهد ، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتنع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدره ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهي به أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالى من ذلك .

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى ومأمى بمرضى ^(٢) » ، قال الحسن : أجهدتهم العبادة ! قال الله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة) قال الحسن : يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله ! وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ^(٣) » ، ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة : ما بال عبادي مجتهدين ، فيقولون : إلهما خوفهم شيئا يخافوه وشوقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه ! فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو رأي عبادي لكانوا أشد اجتهادا ، وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » وله والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح « رحم الله رجلا قام من الليل فعلى وأيقظ امرأته » واقرمذى من حديث بلال « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ... الحديث » وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك .

(٢) حديث « رحم الله أقواما تحسبهم مرضى وما بمرضى » لم أجده أصلا في حديث مرفوع لاسكن رواء أحمد في الزهد موثوقا على علي في كلام له قال فيه : ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض . (٣) حديث « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن بسر وفيه بقية رواء بصيغة « عن » وهو مدلس واقرمذى من حديث أبي بكر « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن . صحيح وقد تقدم

طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهم كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تغطونه بأرجلكم ، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط ، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفرشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكك رقابهم ، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم ، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك والله ما سلوا من الذنوب . ولا نجوا إلا بالمغفرة . ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه ، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم ، فقال عمر له : يافتي ما الذي بلغ بك ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض ، فقال : سألتك بالله إلا صدقتي فقال : يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فرجبتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عند ذهبي وحجرها ، وكأنني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظلمات لذلك نهاري وأسهرت ليلي ، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال أبو نعيم : كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز ف قيل له في ذلك فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوما فقال : إن في سقف بيتك جذعا مكسورا . فقال : يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف . وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة ا ف قيل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى ، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه متفتختان من طول الصلاة ا وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له . وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا : الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله في جوف الليل ، وبجالة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحز حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول : كرامتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له : إن الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا ؟ فقال : إنما أنا عبد يملك لا أدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به . وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة ، حتى أقعد من رجله فكان يصلي جالسا ألف ركعة ، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال : عجبت للخلقة كيف أرادت بك بدلا منك ا عجبت للخلقة كيف أنست بسواك ا بل عجبت للخلقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ا وكان ثابت البناني قد حبيت إليه الصلاة فكان يقول : اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فأذن لي أن أصلي في قبري . وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السرى ا أنت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤى مضطجعا إلا في علة الموت . وقال الحارث بن سعد : مر قوم براهب قرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده ، فكلموه في ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأهل وهم غافلون ، قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم ؟ فبكي القوم عن آخرهم . وعن أبي محمد المغازلي قال : جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم يتم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجله ، فعبر عليه أبو بكر السكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بهم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطني فأعاني على ظاهري ، فأطرق السكتاني ومشى مفكرا . وعن بعضهم قال : دخلت على فتى الموصل فرأيت قدمه كفيه

يبكى - حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه - فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة ! فقلت : ولم بالله يا فتاح بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دما فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال : على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع ؟ قال : فرأيت بعد موته في المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : غفر لي ، فقلت له : فماذا صنع في دمرعك ؟ فقال : قربني ربي عز وجل وقال لي : يا فتاح الدمع دلي ماذا ؟ قلت : يارب على تخلفي عن واجب حقك ، فقال : والدم على ماذا ؟ فقلت على دموعي أن لا تصح لي ، فقال لي يا فتاح ما أردت بهذا كله ، وعزتي وجلالي لقد صعد حافظك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة . وقيل إن قوما أرادوا سفرا لحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته ، فقالوا يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق ؟ فأومأ برأسه إلى السماء ، فعلم القوم ما أراد ، فقالوا يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا فإن النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث ، فعجب القوم من كلامه فقالوا يا راهب علام الخلق غدا عند مليكهم ؟ فقال على نياتهم ، فقالوا أوصنا ، فقال تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية . ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديت به يا راهب فلم يجبني فناديت به الثانية فلم يجبني فناديت به الثالثة فأشرف على وقال يا هذا ما أنا يا راهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته ، وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وإليه قائم ، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب ، وأما أنا فسكاب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم ! فقلت يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله تعالى بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخى لم يقطع الخلق عن الله تعالى إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل المعاصي والذنوب ، والعاقلة من رعى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه . وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إني إذن لفارغ . وكان أويس القرني يقول هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة ، وإذا كانت الليلة الآتية قال هـذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في سجدة . وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتنهأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رفقت بنفسك ! قال الرفق أطلب ! دعني أحب قليلا وأتعم طويلا . وخج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وكان سفيان الثوري يقول عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقي . وقال عبد الله بن داود كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل . وكان كهيم بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يا مأوى كل شر ! فلهذا ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان يبكى ويقول ذهب نصف عملي . وكانت ابنة الريح بن خثيم تقول له يا أبت مالي أرى الناس يسامون وأنت لا تهام ؟ فيقول يا ابنتاه إن أباك يخاف البيسات . ولما رأت أم الريح ما يلقى الريح من البكاء والسهرة نادته يا بني لعلك قتلت قتيلا ! قال نعم يا أماه ، قالت : فمن هو حتى نطأ به أهله فيعفوا عنه ؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنه ، فيقول : يا أماه هي نفسي . وعن عمر - ابن أخت بشر بن الحارث - قال سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لأمي ، يا أختي جوفي وخواصري تضرب على ، فقالت له أمي يا أخى أتأذن لي حتى أصليح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحصاه يرم جوفك ! فقال لها ويحك ! أخاف أن يقول أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدري إيش

أقول له ، فبكيت أمي وبكي معها وبكيت معهم . قال عمر : ورأت أمي ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمي : يا أخى ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي عما أرى بك ! فسمعتة يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني ولذا ولدتنى لم يدر نديها على . قال عمر وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار . وقال الربيع . أتيت أويسا فوجدته جالسا حتى صلى الفجر ، ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نؤامة ومن بطن لا تشبع ! فقلت حسبي هذا منه ، ثم رجعت . ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبد الله مالى أراك كأنك مريض ؟ فقال وما لا ويس أن لا يكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم ابن آدم فوجدته قد صلى العشاء فتعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا لحاك ذلك في صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مصطجعا ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البناني أدركت رجلا كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عينيه فكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد سمنون في كل يوم خمسمائة ركعة . وعن أبي بكر المطوعى قال كان وردى في شبيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه قل هو الله أحد ، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة - شك الراوى ، وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لاتسكت لعلك يا بنى أصبت نفسا لعلك قنات قتيلا ؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لعامر ابن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظما الهواجر فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبا ولا مثل النار نام هاربا وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فإذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي فإذا جاء الليل قال من غاف أدبج وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار . ويروى عن رجل من أصحاب على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال صليت خلف على رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعنا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحن بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين - يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا فى مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قوى فوالله لا زحفن بك زحفا حتى يكون الكل منك لأمنى فإذا دخلت القبرة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابتي وكان يقول أظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوتنا كلا والله لنزاحمهم عليه زحاما

حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن سالم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا . وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام ، وأنه مات وهو ساجد ، وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي . وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضى الله عنها . أسلم عليها ، فغدوت يوما إليها فإذا هي تصلى صلاة الضحى ، وهي تقرأ ﴿ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ وتبكي وتدعو وتردد الآية ، فقمت حتى ملكت وهي كما هي ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت : أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو . وقال محمد بن إسحاق : لما ورد علينا عبد الرحمن ابن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم ، عليهم غيرة الخاشعين ، وقيل للحسن : ما بال المنهجين أحسن الناس وجوها ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهي خلقتني ولم تؤامرني ، وتميتني ولا تعلمني ، وخلقت معي عدوا وجعلته يجرى مني مجرى الدم وجعلته يراني ولا أراه ، ثم قلت لي : استمسك ، إلهي كيف أستمسك إن لم تمسكني ؟ إلهي في الدنيا الهنوم والاحزان وفي الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح ؟ وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة ، قال جعفر بن محمد : لحدثت به بعض البصريين فقال . لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح ! وعن القاسم بن راشد الشيباني قال : كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب . وكان له أهل وبنات . وكان يقوم فيصلي ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون ! أفلا تقومون فترجلون ؟ فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضئ ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والامر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتا للحكمة وتوايبت للعظمة وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوم ، ثم ترجع ومعها طوائف الفوائد وما لا يمكن واصفا أن يصفه فهم في باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم الظاهر مناديل ، مبدولون لمن أرادهم تواضعا . وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكاف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بيننا أنا وأسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية ﴿ يوم تجد كل نفس ناعملت من خير محضرا ﴾ إلى قوله ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ قال جلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرمغشيا عليه ، فقلت : وا أسفاه هذا لشقائي . ثم انتظرت لإفاقة فأفاق بعد ساعة فسمعتة وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين . ثم قال : لك خشعت قلوب الخائفين وإليك

فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذات قلوب العارفين ، ثم نفخ يده فقال مالي وللدنيا ومال الدنيا ومالي ؟ عليك يادنيا بأبناء جنسك وآلاف نعمتك ا إلى محبيك فاذهبي ا وإياهم فاخذعي ا ثم قال : أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة ، في التراب يلبون ، وعلى الزمان يفنون ، فتأديته : يا عبد الله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك ا فقال : وكيف يفرغ من يبادر الاوقات وتبادره يخاف سبقتها بالموت إلى نفسه ؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه ؟ وبقيت أيامه ؟ ثم قال : أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ، ثم لها غنى ساعة وقرأ ا وبدأ لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ا ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخز مغشياً عليه ا فقلت : قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ، ما خطري ؟ هب لي إسما من فضلك ا وجللتني بسترِكَ واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك ا فقلت له : بالذي ترجوه لنفسك ا وثق به إلا كلفتني ا فقال : عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه ، إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجد عوناً على ليخرجني مما أنا فيه غيرك ؟ فأليك عني يا مخدوع فقد عطلت على لساني وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي ا وأنا أعوذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يعيذني من سخطه ويتفضل علي برحمته . قال : فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا ا فأنصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لاستريح تحتها ، فإذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لي : يا هذا قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعتة وهو يقول (كل نفس ذائقة الموت) اللهم بارك لي في الموت ، ثم فقلت : وفيما بعد الموت ، فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقر ، ثم قال : يا من لوجهه غنت الوجوه بيض وجهي بالنظر إليك واملا قلبي من المحبة لك وأجرني من ذلك التوخيخ غدا عندك فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك ، ثم قال : لولا حلمك لم يسعني أجلى ولولا عفوك لم ينبسط . فيما عندك أمل ، ثم مضى وتركني . وقد أنشدوا في هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد	تراه بقمة أو بطن وادي
ينوح على معاص فاضحات	يكتر ثقلها صفو الرقاد
فإن حاجت مخاوفه وزادت	فدعوته : أغثنى يا عمادى
فأنت بما ألقىه عليم	كثير الصفح عن زلل العباد
ألد من التلذذ بالغواني	إذا أقبلت في حال حسان
هنيئ فر من أهل ومال	يسبح إلى مكان من مكان
ليحمل ذكره ويعيش فردا	ويظهر في العبادة بالاماني
تلذذه التلاوة أين ولي	وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير	يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وما تمنى	من الراحة في غرف الجنان

وقيل أيضا :

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقيل له : قد أجهدت نفسك ا فقال : كم عمر الدنيا ؟ فقيل سبعة آلاف سنة ، فقال : كم مقدار يوم القيامة ؟ فقيل : خمسون ألف سنة ، فقال : كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ؟ يعني أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت

سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان رجلك كثيرًا وكنت بالرغبة فيه جديرًا ، فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها ؟ فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مراعاة النفس ومراقبتها . فهما تمزدت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عجز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى ، وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زميرهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحق وتفتن بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء .

فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها : يا نفس لا تستكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ، ولندكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات ؛ فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت : إلهي هذا الليل قد أدير وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت منى ليلتي فأهنا أم رددتها على فأعزى ؟ وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتني ، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك . ويروى عن عجرة أنها كانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ، ثم تحتز ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة فسكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء ، فقلت لصاحب لي : لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال : أنت وذاك ، قال فأتيناها فقلنا لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئًا فكان لك أقوى على ما تريد ؟ قال فبكيت ثم قالت والله لو ددت أنى أبكى حتى تنفد دموعي ثم أبكى دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء . فلم تزل تردد ، وأنى لي بالبكاء ، حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثني امرأة من المتعبدات قالت رأيت في منامى كأنى أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم ، فقلت ما شأن أهل الجنة قيام ؟ فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها ، فقلت ومن هذه المرأة ؟ فقيل أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة . قالت فقلت أختي والله ، قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجية تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت : يا أختي أما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك ؟ قالت فتبسمت إلى وقالت لم بأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين ألزى الحزن قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت . وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي فانتبهت فالتبسها فلم أجدها ، ففهمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبي ، فقلت لها لا تقولى بحبك لي ولكن قولى بحبى لك ، فقالت : يا مولاي بحبه لي أخرجنى من الشرك إلى الإسلام وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشى : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سريّة فنزلت في بعض

ديارنا ، قال : فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا ، فقلت يوما لخادم لي : أشرف على هذه المرأة ، ماذا تصنع قال : فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول : خلقت سرية ثم غديتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل ، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوئب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن أنك لا ترى فعلها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير وقال ذو النون المصري : خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل على وهو يقول : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ ويكي فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ويدها ركوة ، فقالت لي : من أنت ؟ غير فرعة مني ، فقلت : رجل غريب ، فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال : فبكيت لقولها فقالت : ما الذي أبكاك ؟ فقلت : قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه ، قالت : فإن كنت صادقا فلم بكيت ؟ قلت يرحمك الله والصادق لا يبكي ؟ قالت لا ، قلت ولم ذاك ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب ، فسكت متعجبا من قولها . وقال أحمد بن علي استأذنا على عفيفة لحجبتنا فلان من الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم إني أعوذ بك من جاء يشغلني عن ذكرك ، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعى لنا ، فقالت جعل الله قرامك في بيتي المغفرة ، ثم قالت لنا مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء ، لحازت منه نظرة نحر مغشيا عليه فأصابه فتق في بطنه ، فباليات عفيفة إذ ارفعت رأسها لم تعص ! وبالياتها إذا عصت لم تعد ! وقال بعض الصالحين خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية^{١٢} فاحتبستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقات لا تبرح حتى أنصرف إليك ، قال فأنصرفت فلم أجدها في الموضع ، فأنصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأته عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تعجل على إنك أجلسني في موضع لم أرفيه ذا كرا لله تعالى تخفت أن يخسف بذلك الموضع ! فعجبت أقولها وقات لها أنت حرة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران ، وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما . وقال ابن العلاء السعدي كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة ، تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف ، فكلما أنت على آية فيها ذكر النار بكيت ، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعد لها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت ! قالت أصبحت أضيفا منيخين بأرض غربة نلظن متى ندعى فنجيب ، فقلنا لها ما هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ؟ فقالت إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا ، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ؟ ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فهى والله في شيء غير مانحن فيه وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى ، فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح : وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقمت أنا إلى ناحية من البيت ، فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غدا . وكانت شعوانة تقول في دعائها إلهى ما أشوقنى إلى لقائك وأعظم رجائي لجرائك وأنت الكريم الذى لا ينحيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين ، إلهى إن كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل على ؛ فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهى قد جرت على نفسى في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها ، إلهى إنك لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي

ولقد رجوت من تولاقي في حياتي يا حسبه أن يسعفني عند مماتي بخفرانه ، إلهي كيف أياس من حسن أنظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجليل في حياتي ، إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتك لك قد أجارتني فتول من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك علي من غره جهله ، إلهي لو أردت إلهاتي لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فتعني بماله هديتني وأدم لي مابه سترتي ، إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنت فيها عمري ، إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك مارجوت ثوابك ، وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت - وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر ، قال : فشبهت ثم قالت : علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي والله لو ددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئاً مذكورا ، ثم أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويريد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك على سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر . وإن أردت مزيداً فعليك بالمراظبة على مطالعة كتاب « حلية الأولياء » ، فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين . فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت : إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعران والآل فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عمت طابت - وإياك أن تتدلى بجبل غرورها وتنخدع بتزويرها ، وقل لها : رأيت لو هجم سيل جارف يفرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال : وقدرت أنت على أن تفارقهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج في نفسك : أن المصيبة إذا عمت طابت ؟ أم تركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخذين حذرهم بمسألهك ، فإذا كنت تركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا ينهدي إلا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال ؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) فعليك إذا اشتغلت بمعاتبه نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصمت أن لا تترك معاتبها وتويعها وتعرفها سوء نظرها لنفسها فحسامها تنزجر عن طغيانها .

المراظبة السادسة : في توبيخ النفس ومعاتبها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وقد خلقت أماره بالسوء ميالة إلى الشر فزارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل الفهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبه والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغلن أولاً بوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظم نفسك فإن اتعظت فعظ الناس إلا فاستحي مني ، وقال تعالى (وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين) وسيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغياوتها وأنها أبدأت تعزير بفظتها وهدايتها ، ويشتهد أنفها واستسكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها : يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة

والذكاء والفتنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداها على القرب ؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسم وعساك اليوم تحتطفين أو غدا ، فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا ؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بآت ؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مراعاة ومواطاة وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضي إلى الموت فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ؟ أما تتدبرين قوله تعالى ﴿ اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ ويحك يانفس إن كانت جرائمك على معصية الله لا اعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ، ويحك يانفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات ! جرتي نفسك ! إن أهلك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين قدر طاقتك ؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغاثته عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا بما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ! وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . ويحك يانفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ وقال في أمر الآخرة ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتسكابين على طلبها تسكالب المدهوش المستهتر ، وוכל أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها لعراض المغرور المستحقر ! ما هذا من علامات الإيمان ؟ لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟ ويحك يانفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات ! أنحسبين أنك تتركين سدى ! ألم تكوني نطفة من منى ؟ ثم كنت علقة مخلوق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتي ؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أ كفرك وأجهلك ! أما تتفكرين أنه بما ذا خلقتك ؟ من نطفة خلقتك فقدرتك ثم السيل يسرك ثم أماتك فأفبرك أفتكذبينه في قوله . ثم إذا شاء أنشرك ؟ فإن لم تكوني مكذبة فمالك لاتأخذين حذرَكَ ولو أن يهوديا أخبركَ في ألد أطمعتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأميرا من قول يهودي يخبركَ عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ؟ والعجب أنه لو أخبركَ طفل بأن في ثوبك عقربا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ! أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة

الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ! أم صار حزن جهنم وأغلاها وأنكأها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسب بألمها إلا يوماً أو أقل منه ! ما هذه أفعال العقلاء ! بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك ؛ فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يحتطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل ؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفترظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك ! رأيت لوسافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس بما يطعم فيه بمدة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى ! ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم تشتغلين فيه بذلك ؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ أفترظنين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه ؛ فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا محال وجوده ، أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين : غدا غدا ؛ فقد جاء الغد وصار يوماً فكيف وجدته ؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمل لابل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعفاً ووهناً ، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب ، بل من العناية رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك ، فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركبين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ .

ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك ! إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكالات . وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشرية طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام ؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالته مدته . وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحق جلي . أما الكفر الخفي : فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحق الجلي : فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكروه واستدراجه واستغنائه عن عبادتك . مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من المسال أو كلمة واحدة تسمعها

من الخلق ، بل توصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل - وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : السكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، واللاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان .

ويحك يانفس لا ينبغي أن تغترك الحياة الدنيا ولا يغترنك بالله الغرور فانظري لنفسك فما أمرك بهمهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة ؛ فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك ، فاغتني الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدي الآخرة على قدر بقائك فيها ، يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ؛ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ، ولا تتكئين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك ، أفنظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم نظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة ؟ أفنظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي هيات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبرد الماء إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات ، وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه ، كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراه الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين . ويحك يانفس انزعي عن جهلك وقيسي آخرتك بدنياك ﴿ فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ و ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ و ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ وسنة الله تعالى لا تجددين لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يا نفس ما أراك إلا ألقت الدنيا وألست بها فمسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مؤدتها ، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ، أفترين أن من يدخل دار ملك لينخرج من الجانب الآخر قد بصره إلى وجه مايح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر للاحالة إلى مفارقتها فهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ؟ أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ومالك فيها لا يجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم : إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنه مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزى به وعش ما شئت فإنك ميت ^(١) . ويحك يانفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري ؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلموا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترى كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنونه ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون : يبني كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعنا . أما تستحيين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ، واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والافتداء فقيسي عقل الأنبياء والعلماء

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنه نارقه ... الحديث » تقدم في العلم وغيره .

والحكمة بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا واقتدى من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء . يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك ، عجباً لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ! ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا أحد من على وجه الأرض من عبدك وسجد لك ، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فـ (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي ؟ هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى إيدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك ؟ فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فمالك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها وتنزهاً عن كثرة عنائها وتوقياً من سرعة فنائها ؟ أم مالك لا ترهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء ! فإجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكوني في صف النعال من جملة الحق الجاهلين أياماً قلائل فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ! فبادري ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفرع الأكبر بين يديك ؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالآيمان المغلظة أنهم لا يرحلون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليستغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمانيهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بخذا فيرها لا يشتروه لو قدروا عليه وأنت تضعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟ ويحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم أفستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالردائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ؟ ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيدهم بلاء إلا بشؤمك ! ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارة لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح في يدك ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزلللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ؟ ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجراك على المماص ! ويحك كم تعقدين فتتقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعبارة دنياك كأنك غير

مرتجلة عنها ؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنيتهم قبورا وأملهم غرورا ؟ ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أنظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ! ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فأنى على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك ! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدره إليك بسواد الألوان وكلح الوجره وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء ؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك ! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ! فكم من مستقبل يوما لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرنهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك ؟ فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلا نيته فانظري يا نفس بأى بدن تقفين بين يدي الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعلمى بقية عمرك في أيام قصار لا يام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، اعملى قبل أن لا تعملى اخرجى من الدنيا اختيارا خروج الاحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا قرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر ، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويتغنى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى ، واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر . فالتعطى يا نفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعنى عليها بدوام التهجيد والقيام ، فإن لم تزل فالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللفظ بالآيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطئى نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فأنطى من نفسك - والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك - فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت - فستقى الدمع من بحر الرحمة - فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبى على النياحة والبكاء واستعنى بأرحم الراحمين واشتكى إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تملى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتصاديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك فافزعى إليه بالتضرع واخشعنى فى تضرعك على قدر عظم جهالك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب الملهف ويحيب دعوة

المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم والمستول جواد والمستغاث به بَرء وف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حلِيم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصير أنا الجرم الذي لا أفلح أنا المتباعد الذي لا أستحي هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهاالك الغريق فعجل لإغاثي وفرجني وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوة عظمتك يا أرحم الراحمين . اقتداء بأبيك آدم عليه السلام ؛ فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكسر رأسه فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك ؟ قال : يارب عظمت مصيبتى وأحاطت بى خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربى فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة وفى دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة وفى دار البلاء بعد العافية وفى دار الزوال بعد القرار وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لأبكي على خطيئتي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ألم أصطفك لنفسى وأحللتك دارى وخصصتك بكرامتى وحذرتك لسخطى ، ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي وأبجدت لك ملائكتي فعصيت أمرى ونسيت عهدي وتعرضت لسخطى فوعزنى وجلالى لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدوننى ويسبحوننى ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام . وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليله : إلهى أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيداه خطيئة لم تبلى وصاحبها فى طلب أخرى واعبيداه إن كانت النار لك مقبلا ومأوى ١ واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ ١ واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجى ربه وهو يقول يارب وعزتك ما أرد بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سؤلت لى نفسى وأعاننى على ذلك شقوتى وغرنى سترك المرخى على فعصيتك بجهلى وخالفتك بفعلى ؛ فمن عذابك الآن من يستغفرنى أو يجبل من اعتصم إن قطعت جبالك عني ؟ واسوأناه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للنفخين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع الخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ؟ وبلى كلما كبرت سننى كثرت ذنوبى وبلى كلما طال عمرى كثرت معاصى فألى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ أما أن لى أن أستحي من ربى ١ .

فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبية والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعىا ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام ثم كتاب المحاسبة والمراقبة . يتلوه كتاب التفكير إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

كتاب التفكير

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاه عزته نحوا ولا فطرا ، ولم يجعل لمراقى أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى ، بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى ، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سباحات الجلال قسرا ، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبورا صبورا ، ثم قيل لها أجيلى في ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدرى له قدرا ، وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمرا فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى ، وجتدى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا ، وتأمل في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرًا ، ونفعا وضرا ، وعسرا ويسرا ، وفوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيا ونشرا ، وإيمانا وكفرا ، وعرفانا ونكرا ، فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمرا إمرا ، وخاطرت بنفسك بمجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا ، فقد انبهرت العقول دون مبادئ إشرافه وانتكست على أعقابها اضطرابا وقهرا ، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته نفرا ، صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عذة وذخرا ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة »^(١) ، وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم ، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقةه وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيةه ، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذى يطلب به أهو مراد لعينه أم ثمرة تستفاد منه ؟ فإن كان ثمرة فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منها جميعا ؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير . ثم حقيقة التفكير وثمرته . ثم مجارى الفكر ومسارحه . إن شاء الله تعالى .

فضيلة التفكير

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « تفكروا في

كتاب الفكر

(١) حديث « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » أخرجه ابن حبان في كتاب المظنة من حديث أبي هريرة بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أس بلفظ « ثمانين سنة » وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ « خير من قيام ليلة » .

خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم إن تقدروا قدره ^(١) ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : ما لكم لا تتكلمون ؟ فقالوا : نتفكر في خلق الله عز وجل قال : فكذلك فافعلوا ، تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضا بيضاء ورها بياضها وبياضها نورها ، مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفه عين ، قالوا : يا رسول الله فأين الشيطان منهم ؟ قال : ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا : من ولد آدم ؟ قال : لا يدرون خلق آدم أم لا ^(٢) ، وعن عطاء قال : انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : زر غبا تزدد حبا ، قال ابن عمير : فأخبرتنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبكيت وقالت كل أمره كان عجبا ، أنا في ليلتي حتى لم يبق حتى مس جلده جلدي ثم قال : ذرني أتعبد لربي عز وجل ، فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكي حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى على في هذه الليلة ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ^(٣) ، فقيل للأوزاعي ما غاية التفكير فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن . وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر - بعد موت أبي ذر - فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال الفكر مرآة تربك حسناتك وسيئاتك . وقيل لإبراهيم إنك تطيل الفكرة ، فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يمثل بقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى بن مريم : يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم ، من كان منطقته ذكرا وصمته فكرا ونظره عبدة فإنه مثلي . وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لغو ، وفي قوله تعالى ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ قال أئمن قلوبهم التفكير في أمرى . وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطوا أعينكم حظها من العبادة ، فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : النظر في المصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه ^(٤) ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمر به مولاة فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو

(١) حديث ابن عباس : إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم إن تقدروا قدره ، أخرجه أبو نعيم في الحلية بالرفوع عنه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوانع بن نافع متروك . (٢) حديث : خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : ما لكم لا تتكلمون ؟ فقالوا : نتفكر في خلق الله ... الحديث . رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام . (٣) حديث عطاء : انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث ... قال ابن عمير : فأخبرتنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث في نزول ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ وقال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، تقدم في الصبر والذكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء . (٤) حديث أبي سعيد الخدري : أعطوا أعينكم حظها من العبادة ... الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف .

جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان : إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادات . وقال عبد الله بن المبارك يوما لسهل بن علي ورآه ساكنا متفكرا أين بلغت ا قال : الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله ما عضوا الله عز وجل . وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب . وبيننا أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه لجعل يكي فقيل له : ما يكيك ؟ قال : تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي . وقال أبو سليمان : عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر . وقال أبو سليمان : الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب ، وقال حاتم : من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكر في الخير يدعو إلى العمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه . ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه : إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة . وقال إسحاق بن خلف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قراء ، فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جاره ، قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف وظن أنه لص ، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال ، من ذا الذي طرحتك من السطح ؟ قال ما شعرت بذلك . وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنفسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ، ثم قال يالها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذ طوبى لمن رزقه . وقال الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر . وقال أيضا صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور ، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم : والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم . وقال أيضا الفضائل أربع (إحداها) الحكمة وقوامها الفكرة . (والثانية) العفة وقوامها في الشهوة . (والثالثة) القوة وقوامها في الغضب ، (والرابعة) العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس . فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وإراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان (أحدهما) أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا ، فيقلده ويصدق من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله ، وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . (والطريق الثاني) أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ، ثم يعرف أن الآخرة أبقى . فيحصل له من هاتين المعرفتتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين .

فإحضار المعرفتتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا

وتأمل وتدبر . أما التدبر والتأمل والتفكر : فعبارة مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة . وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر : فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحد ؛ كما أن اسم : الصارم ، والمهند ، والسيف ؛ يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة . فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع ، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد .

فكذلك الاعتبار : ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة ، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم : التذكر ، لا اسم : الاعتبار . وأما النظر والتفكر : فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة ، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا ، فكل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفكرا . وفائدة التذكر تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تمنحى عن القلب . وفائدة التفكر : تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة . فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر .

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت في القلب على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى ، فالمعرفة نتاج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتماهى النتاج وتتماهى العلوم ويتماهى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تزداد طرق زيادة المعارف بالموت . أوبالعوائق وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدانهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم ، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح ، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا ، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها .

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين - وذلك عزيز جدا - وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر . ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإرادة . فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيرادها والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين : وهو أن الآبقى أولى بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة .

وأما ثمرة الفكر : فهي العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرته الخاصة . العلم ، لا غير . نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح . فالعمل تابع الحال ، والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر . فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة . وذكر القلب خير من عمل الجوارح ، بل شرف العمل لما فيه من الذكر . فإذا ن التفكير أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، فقيل هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ، ولذلك قال تعالى ﴿ لعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾ وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة ، فإن الفكر يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار ، فإذا رستخت هذه المعرفة يقينا

فى قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا . وهذا ما عنيناه بالحال ، إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها .

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته . ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح فى اطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة . فههنا خمس درجات : (أولاها) التذكر وهو إحضار المعرفتين فى القلب . (وثانيتهما) التفكير وهو طلب المعرفة المقصودة منهما . (والثالثة) حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها . (والرابعة) تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . (والخامسة) خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال .

فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل ، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا ، فينبعث نور المعرفة كما تذبذب النار من الحديد ، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى مالم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى مالم يكن يراه . ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر مالم يكن يبصره . فإذا نمترة الفكر : العلوم والأحوال ، والعلوم لا نهاية لها ، والأحوال التى تتصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها . ولهذا لو أراد مرير أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيما ذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية . نعم نحن نجتهد فى ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التى هى مقامات السالكين ، ويكون ذلك ضبطا جمليا فإن تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها ، فإنها مشتملة على علوم ، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة . فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

بيان مجارى الفكر

اعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين ، وإلما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر . ونعنى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى ؛ لجميع أفكار العبد : إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ؛ لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين . وما يتعلق بالعبد : إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى ، أو فيما هو مكروه ، ولا حاجة إلى الفكر فى غير هذين القسمين . وما يتعلق بالرب تعالى : إما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإما أن يكون فى أفعاله وملكوته وملكوته وجميع ما فى السموات والأرض وما بينهما .

وينكشف لك انحصار الفكر فى هذه الأقسام بمثال ، وهو أن حال السائر إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه .

فإن تفكر فى معشوقه ، فإما أن يتفكر فى جماله وحسن صورته فى ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإما أن يتفكر فى أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا للذة ومقويا للحبته .

وإن تفكر في نفسه ؛ فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها ، أو في الصفات التي تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها .

فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدّ العشق ، وهو نقصان فيه ، لأن العشق التام الكامل ؛ ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعا لغيره . فحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه . ومهما كان تفكره محصورا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا . فلنبدا بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه ، فإن هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو المقصود بهذا الكتاب ، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة .

ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر ، كالطاعات والمعاصي . وإلى باطن ، كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب . وذكرنا تفصيلها في ربيع المهلكات والمنجيات .

والمعاصي : تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام . ويجب في كل واحد من المكاره التفكير في ثلاثة أمور (الأول) التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فرب شيء لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر (والثاني) التفكير في أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه ؟ (والثالث) أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه ؟ أو قاربه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه ؟ وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر في الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع : الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات . فلنذكر في كل نوع مثالا ليقيس به المرید سائرهما وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه .

(النوع الأول : المعاصي) ينبغى أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ، ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم ؟ أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها ؟

فينظر في اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتركية النفس والاستهزاء بالغير والمهارة والممازحة والخصومة فيما لا يعنى ، إلى غير ذلك من المسكاره ، فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه . ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد ، أو بأن لا يجالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له : فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز .

ويتفكر في سمعه يصغى به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة ، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو ، وأنه ينبغى أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر ؛

فهما كان ذلك فيتفكر في بطنه ؛ أنه إنما ينصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، إما بكثرة الأكل من الحلال

فإن ذلك مكروه عند الله ومقوى للشهوة التى هى سلاح الشيطان عدو الله ، وإما بأكل الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه ؟ ويتفكر في طريق الحلال ومداخله . ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائقة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها ، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام^(١) كما ورد الخبر به . فهكذا يتفكر في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء . فهما حصل بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها .

وأما النوع الثانى : وهو الطاعات فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ؟ ثم يرجع إلى عضو عضو ، فيتفكر في الأفعال التى تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً :

إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله ؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله ؟

وكذلك يقول في سمعه : إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر ، فألى أعطله وقد أنعم الله على به وأودعني لا شكره ؟ فألى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله ؟ وكذلك يتفكر في اللسان ويقول : إني قادر على أن أقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمره العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة .

وكذلك يتفكر في ماله فيقول : أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى فأنى مستغن عنه ، ومهما احتجت إليه رزقنى الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجاً الآن فأما إلى ثواب الإيثار أخرج منى إلى ذلك المال . وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله ، بل عن دوابه وغلده وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستفيظ بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات ، ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله . وقس على هذا سائر الطاعات .

(وأما النوع الثالث : فهى الصفات المهلكة التى محلها القلب) فيعرفها بما ذكرناه في ربيع المهلكات : وهى استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ، ويتفقد من قلبه هذه الصفات : فإن ظن أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه ، فإن النفس أبداً تعد بالخير من نفسها وتختلف ، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغى أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق ، كما كان الأولون يجربون به أنفسهم . وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات . وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ؟ ولذلك علامات ذكرناها

(١) حديث : إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثوبه درهم حرام ، أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم .

في ربيع المهلكات، فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبيث الدخلة .

كألو رأى في نفسه عجباً بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنما عمل يدي وجارحتي وبقدرك وإرادتي ، وكل ذلك ليس مني ولا إلى وإنما هو من . خلق الله وفضله على ، فهو الذي خلقتي وخلق جارحتي وخلق قدرك وإرادتي ، وهو الذي حرك أعضائي بقدرته وكذلك قدرك وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي ؟ فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر ؟ والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت ، وكمن كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكمن مسلم يموت شقياً بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة ؟

فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم ، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كالسكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعالم والقدرة ، ولما اتصف به البهائم ، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد . وكذلك يقتر على نفسه في الغضب ، ثم يتفكر في طريق العلاج ، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب . فنريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب .

(وأما النوع الرابع : وهو المنجيات) فهو التوبة ، والندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والشكر على النعماء ، والخوف ، والرجاء ، والزهد في الدنيا ، والإخلاص ، والصدق في الطاعات ، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له . وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته . فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى ؟ فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم ، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار . فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم : فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه . ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى ، حتى ينفث له حال الندم . وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه . على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك . وإذا أراد حال المحبة والشوق : فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه . كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر . وإذا أراد حال الخوف : فليتنظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ، ثم لينظر في الموت وسكراته ، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه وديدانه ، ثم في هول النداء عند نفخة الصور ، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثم في المناقشة في الحساب في النقيير والقطمير ، ثم في الصراط ودقته وحدته . ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار ، ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها ، وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها ، وأنهم كلما فضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها . وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وهلم جرا ، إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها . وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء : فليتنظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم ومالكها الدائم .

فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة . وقد ذكرنا فى كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر ، أما يذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكير ، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين ، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال ، وفيه ما يزرع عن سائر الصفات المذمومة ، فينبغى أن يقرأه العبد ويردد الآية التى هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولومائة مرة ! فقراءة آية بتفكير وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم ، فليتوقف فى التأمل فيها ولوليلة واحدة ، فإن تحت كل كلمة منها أسرار لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتى جوامع الكلم ^(١) وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره . وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى : أحب من أحببت فإنك مفارقة وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به » ^(٢) ، فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهى كافية للتأملين فيها طول العمر ، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغفرتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالسكينة .

فهذا هو طريق الفكر فى علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هى محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة . والمبتدئ ينبغى أن يكون مستغرق الوقت فى هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزهه بباطنه وظاهره عن المكاره ، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب ، بل المشغول به محبوب عن مطلب الصديقين وهو التمتع بالفكر فى جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه ، أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرقا لهم بالمحجوب ؛ كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر فى أحوال نفسه وأوصافها ، بل يبقى كالمهتوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق .

فأما ما ذكرناه فهو تفكير فى عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال ، فإذا ضيع جميع عمره فى إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ؟ ولذلك كان الخواص يدور فى البوادر فليقيه الحسين بن منصور وقال : فيم أنت ؟ قال : أدور فى البوادر أصلح حالى فى التوكل ، فقال الحسين : أفيت عمرك فى عمران باطنك فأين الفناء فى التوحيد ؟ فالفناء فى الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين . وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجربى مجرى الخروج عن العدة فى النكاح . وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجربى مجرى تهية المرأة وجهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها ؛ فإن استغرقت جميع عمرها ، فى تهيئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب .

فهكذا ينبغى أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة ، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا فى الأجرة فدونك وإتعب البدن بالأعمال الظاهرة ، فإن بينك وبين القلب حجابا كثيفا ، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوم آخرون . وإذا عرفت مجال الفكر فى علوم المعاملة التى بين العبد وبين ربه فينبغى أن تتخذ ذلك عادتك ودينتك صباحا ومساء ، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقترية إليه سبحانه وتعالى . بل كل مزيد فينبغى أن يكون له بجريدة يثبت فيها

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم . تقدم .

(٢) حديث : « إن روح القدس نفث فى روعى : أحب من أحببت فإنك مفارقة ... الحديث . » تقدم غير مرة .

جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم .

وبكفيه من المهلكات النظر فى عشرة - فإنه إن سلم منها سلم من غيرها - وهى : البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشربه الطعام ، وشربه الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : التدم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف الرجاء ، والزهد فى الدنيا ، والإخلاص فى الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له .

فهذه عشرون خصلة ؛ عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة فهما كنى من المذمومات واحدة فيخط عليها فى جريدته ، ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته لإياها وتنزيه قلبه عنها ، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على نحو أقل الرذائل عن نفسه ، فيقبل على التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالانصاف بالمنجيات ؛ فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والتندم مثلاً خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرید المشر .

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغى أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصى الظاهرة ؛ كأكل الشبهة ، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثاء على النفس ، والإفراط فى معاداة الأعداء وموالاتة الأولياء والمداينة مع الخلق فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصى فى جوارحه ، وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعارة القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغى أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا فى معاصهم بمزول عنها . مثاله : العالم الورع ، فإنه لا يخلو فى غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ ، ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون ، فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع فى القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع ، وذلك من المهلكات . وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره ، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره ، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستسكاف من الرد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد ، حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين ، والشيطان قد يلبس عليه ويقول : إنه حرصك على تحسين الألفاظ والتسكاف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه فى القلب إعلاء لدين الله . فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع ، وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ؛ ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون للهو له المعتقد لفضله أكثر احتراماً ويكون بقلائه أشد فرحاً واستبشاراً بمن يغلو فى موالاته غيره وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاتة ، وربما ينتهى الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء ، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه ينتفع بغيره ومستفيد منه فى دينه . وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة فى سر القلب التى قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها ، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات ، ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك ، ولا مطمع له فى سلامة العوام .

فن أحسن فى نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى .

فقد كان المسجد يحوى فى زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم جميعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون ، وكانوا يتدافعون الفتوى . وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره . وعند هذا ينبغى أن يتقى شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا ؛ فإن هذا الباب لو فتح لاندست العلوم من بين الخلق ، وليقل لهم : إن دين الإسلام مستغن عنى ، فإنه قد كان معمورا قبلى وكذلك يكون بعدى ، ولومت لا تهدم أركان الإسلام فإن الدين مستغن عنى ، وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبى . وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل ، فإن الناس لو حبسوا فى السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم . فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة ، والشيطان لا يفتقر عن عمله إلى يوم القيامة . بل ينتهز العلم أقوام لانصيب لهم فى الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » (١) ، و « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » (٢) ، فلا ينبغى أن يغتر العالم بهذه التلييسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يترتب فى قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق . قال صلى الله عليه وسلم : « حب الجاه والمال ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » (٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر إفساد فيها من حب الجاه والمال فى دين المرء المسلم » (٤) ، ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والحرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد بجاهه فى قلوبهم .

فليكن فكر العالم فى التفطن لحفايا هذه الصفات من قلبه وفى استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتقى . فأما أمثالنا فينبغى أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب ، إذ لو أننا السلف الصالحون لقالوا قطعا : إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ؟ فإن من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه : وقد علمنا أن الحرب من النار بترك الشهوات والحرام وبترك المعاصى ونحن منهمكون فيها ، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون فى الفرائض منها . فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا فى الحرص على الدنيا والتكالب عليها ، ويقال : لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا . فليتنا كنا كالعوام إذا متنا مات معنا ذنوبنا . فما أعظم الفتنة التى تعرضنا لها لو تفكرنا . فندسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا .

فهذه مجارى أفكار العلماء والصالحين فى علم المعاملة ، فإن فرغوا منها انقطع تفكيرهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكير فى جلال الله وعظمته والتعظيم بمشاهدته بعين القلب ، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع الملهات والاتصاف بجميع المنجيات ، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكذرا مقطوعا ، وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ، ويكون كالعاشق الذى خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتتغص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له فى كمال التمتع إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه . وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهى مؤذيات ومشوشات ، وفى القبر يزيد ألم لدغها على

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » تقدم . (٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » تقدم أيضا فى العلم . (٣) حديث « حب المال والجاه ينبت النفاق فى القلب » . الحديث « تقدم . (٤) حديث « ما ذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم » . الحديث « تقدم .

لدغ العقارب والحيات . فهذا القدر كاف في التشبيه على مجارى فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عنه ربه تعالى .

(القسم الثانى) الفكر فى جلال الله وعظمته وكبريائه . وفيه مقامان : المقام الاعلى الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى أسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تفكروا فى ذات الله ، وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطبق مد البصر إليه - إلا الصديقون ثم لا يطبقون دوام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس ، فإنه لا يطبقه البتة ، بل يختفى نهارا وإنما يتردد ليلا ينظر فى بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصديقين كحال الإنسان فى النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطبق دوامه ، ويخشى على بصره لو أدام النظر ، ونظيره المختطف إليها يورث العمى ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل ، فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجارى الفكر فى ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله ، بل القدر اليسير الذى يرح به بعض العلماء وهو : أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ؛ قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطبقوا سماعه ومعرفته . بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم : إنه يتعاضد ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو ، وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم . فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح فى عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمقى من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله ! اظن المسكين أن الجلالة والعظمة فى هذه الأعضاء . وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه ، فكل ما لا يساويه فى صفاته فلا يفهم العظمة فيه : نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمثلون أمره ، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك فى حق الله - تعالى وتقدس - حتى يفهم العظمة . بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالفك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال : كيف يكون خالق أنقص منى ؟ أفىكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران ؟ أو يكون لى آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالق ومصورى ؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تخبر عبادى بصفاتى فينكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون .

ولما كان النظر فى ذات الله تعالى وصفاته خطرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرخ وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجارى الفكر فيه ، لكننا نعدل إلى المقام الثانى وهو النظر فى أفعاله ومجارى قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره فى خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته . فينظر إلى صفاته من آثار صفاته ، فإننا لا نطبق النظر إلى صفاته كما أننا نطبق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس . ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب ، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر فى الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر فى نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته ، بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود . ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته - تعالى وتقدس - إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه ، كما أن قوام

نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى نرى الشمس فيه ويمكن النظر إليها ، فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها . فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال . فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى » .

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقته ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وعفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته ، وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشره . ولكننا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالتمثال لما عداه .

فقول : الموجودات المخلوقة منقسمة إلى (ما لا يعرف أصلها) فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ . سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ وقال ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ وإلى (ما يعرف أصلها وجلتها ، ولا يعرف تفصيلها) فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها . وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر . فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك . ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق وينمض . فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر : وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طوعها وغروبها ، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعداها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها .

فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف . ولانهاية لانشعب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياتته ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر . فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه ، وهي الآيات الدالة عليه .

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الألباب ﴾ وكما قال تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ من أول القرآن إلى آخره . فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات .

(فن آياته) الإنسان المخلوق من النطفة - وأقرب شيء إليك نفسك - وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وأنت غافل عنه . فيأمن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه ﴾ من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ﴿ وقال تعالى ﴾ (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) وقال تعالى

﴿ ألم يك نطفة من منى ينى ثم كان علقه نخلق فسوى ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم ﴾ وقال ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ ثم ذكر : كيف جعل النطفة علقه ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما ، فقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ﴾ الآية .

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس لسمع لفظه ويترك التفكير في معناه ، فانظر الآن إلى النطفة - وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضر بها الهواء فسدت وأتنت - كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والبرائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والبشوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ؟ .

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقه حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ؟ ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق : الأعضاء الظاهرة ، فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مذي اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالانامل ؟ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ؟ ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ؟ فركب العين من سبع طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص ومهمة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى أن نصف مافي آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضى فيه الأعمار .

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيصة رقيقة ، ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق . ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وبيعض أعضائه ، مفتقرا للتردد في حاجاته ، لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة ، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم والصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس - كما تراه - فمنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر للحى الأعلى ، واثنان للحى الأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا : ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريكات

وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض - ويطول ذكر وجه الحكمة فيها .

ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا تطول بذكر عدد ذلك . وبمجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيصة رقيقة .

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، إنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقذارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلعه ، ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره ، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها ، فشتان بين النظرين .

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات تخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة - والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية - وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها . فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص . وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله - وشرحه يطول - فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثم في جملة البدن فشكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب ، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قدرة ، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ما اكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقتها ومغايرها ؟ فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنذك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ﴿ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ .

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصبيا أو جلدا أو شعرا هل يقدر على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأتى النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها : كأنه إنسان ! عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك حله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة ، وشيء من ذلك ليس من

فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره ، وإنما انتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه .

وأنت ترى النطفة القادرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب ، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها . وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليسكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سمیعة بصيرة عالمة ناطقة . وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ، ثم حماها بالاجفان لتسترها وتحفظها وتقبلها وتدفع الأقداء عنها ، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها . ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بديب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريكات وأعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصد دابة في حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه . وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعبداً في القلب . وزين الفم بالأسنان لتسكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رموسها وبيض لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم . وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكلماتها . ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة . ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل . وزين العينين بالأمهات .

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص . فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكلى لخدمة الكبد . فالطحال يخدمها يجذب السوداء عنها . والمرارة تخدمها يجذب الصفراء عنها . والكلى تخدمها يجذب المائية عنها . والمثانة تخدم الكلى بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه في طريق الإحليل ؛ والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن . ثم خلق اليدين وطولها لتمتد إلى المقاصد ، وعرض الكف ، وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع . ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه ؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها ضمما غير تام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له . ثم خلق الأظفار على رموسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي

لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذى هو أخس الأعضاء لوعدمه الإنسان وظهر به حكمة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ، ولم يقم أحد مقامه فى حرك بدنه . ثم هدى اليد إلى موضع الحرك حتى تمتد إليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحرك إلا بعد تعب طويل . ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ولا يرى المصور ولا آله ، فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آله ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه ؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه .

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه .

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ؟ ثم لما كان بدنه سخيلا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن ، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح فى حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً ، فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ؟ .

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه فى الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثة اللينة ؟ ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزاً عن تدبير نفسه . فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه .

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل ، فصار مرافقاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ؛ إما كفوراً أو شكوراً مطيعاً أو عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تهريك عجائب الحضرة الربانية .

والعجب كل العجب ممن يرى خطأ حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همه إلى التفكير فى النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ! ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ! ثم ينظر إلى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته ؟ فهذه نبذة من عجائب بدئك التى لا يمكن استقصاؤها ، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطئك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فينام ، وتشتهي فتجتمع ، وتغضب فتقاتل . والبهايم كلها تشاركك فى معرفة ذلك ، وإنما خاصية الإنسان التى حجب البهايم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وعجائب الأفاق والآنفس ؛ إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقرباً من حضرة رب العالمين . وليست هذه المنزلة للبهايم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهايم فإنه شر من البهايم بكثير ،

إذ لا قدرة للهيمية على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطاها وكفر نعمة الله فيها ، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرّك ، ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات ، أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاءا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها ، وجعلها قارة لا تتحرك ، وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد . ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالأت أعمارهم وكثر تطوافهم ، فقال تعالى ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها ﴾ وقال تعالى ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشا ﴾ وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقرّ للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض كفافا تاحيا وأمواتا ﴾ .

فانظر إلى الأرض وهي مئة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبئت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات . ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشواخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسأل الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا ، وجعل به كل شيء حي ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وغن وقضب وزيتون ونخل ورمان ، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح ، يفضل بعضها على بعض في الأكل ، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة .

فإن قلت : إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها ؟ فمخى كان في النواة نخلة مطوقة لعنقيد الرطب ؟ ومتى كان في حبة واحدة سمع سنابل في كل سنبلة مائة . ثم انظر إلى أرض البوادي وفقش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابهة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج الوانا مختلفة ونباتا متشابهة وغير متشابهة ، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة ؟ فهذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحمي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يجمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليهما وهذا يصني الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلم تثبت من الأرض ورقة ولا تينة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها . وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص ؛ فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض وبعضه بغرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر . ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك ؛ فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات .

(ومن آياته) الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض : ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة ، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والغير وزج واللعل وغيرها ، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وبعضها لا ينطبع كالغير وزوج واللعل ؟

وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتقييمها واتخاذ الآواني والآلات والنقود والحلى منها . ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والفار وغيرها ، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطيب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ! فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضى سبخة بجورها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر ، فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ، ليكون ذلك تطيبا لطعامك إذا أكلته فيتنأ عيشك . وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس . ما خلق شيء منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذى ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ .

(ومن آياته) أصناف الحيوانات : وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى . وانقسام ما يمشى : إلى ما يمشى على رجلين ، وإلى ما يمشى على أربع ، وعلى عشر ، وعلى مائة ، كما يشاهد في بعض الحشرات . ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع . فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ولا تشك معه في عظمة خالقها وقدره مقدرها وحكمة مصورها ، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقرة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت - وهى من صغار الحيوانات - في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك . فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيوط بين طرفيه ، ثم يبتدئ ويلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا ، حتى إذا أحكم معاهد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ، ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ، ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة ، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكسا في الهواء ينتظر ذبابة تطير ؛ فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله . وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادى له ولا معلم ؟ أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز ؟ بل الفيل العظيم شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف ؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الأبواب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات . وهذا الباب أيضا لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسا بكثرة المشاهدة . نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال : سبحان الله ما أعجبه ! والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التى ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخالقه وأكانا لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لاشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لأفئادهم وجعل

ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للوادي والمفازات البعيدة لاكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها ، فإنه ما خلقها إلا لعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وندبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ، فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه ، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته ففسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته .

(ومن آياته) البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء بجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء قال النبي صلى الله عليه وسلم : الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض ^(١) ، فانسب اصطبلًا إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله .

وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضاعف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضاعف سعة الأرض ، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان . وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه ، وفيه أجناس لا يجهل لها نظير في البر : وقد ذكرت أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه .

ثم انظر كيف خلق الله الأواو ودوره في صدفه تحت الماء . وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصنخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر . ثم تأمل ما عدا من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه ! ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، ويختر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عرّف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها . ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات . وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر ! وهو كيفية قطره الماء : وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف ، متصل الاجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها ! فالعجب من الأدبى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها ! فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال . وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بأسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنجاتها قائلة لكل ذى لب : أما تراني وترى صورتي وتركيبى

(١) حديث : الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض ، تقدم ولم أجده .

وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي ؟ أتظن أني كُنت نفسي أو خلقتني أحد من جنسي ؟ أو ما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط . ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه .

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون : توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي ، فينفش النقاش حدقتي وأجفاني وجهتي وخدي وشفتي ، فترى التقويس يظهر شيئاً فشيئاً على التدرج ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها ، ولا داخل الرحم ولا خارجة ، ولا خبر منها للآم ولا للآب ولا للنطفة ولا للرحم ! فما هذا النقاش بأعجب مما نشاهده بنقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته ، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لامن داخل ولا من خارج ؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذي صور ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور ، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع - فبين الفاعلين من المباشرة والتباعد ما بين الفاعلين - فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب ؟ فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبيين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه ، فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه ، فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللفظ والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه .

(ومن آياته) الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض : يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ، ولا يرى بالعين شخصه ، وجلته مثل البحر الواحد والطيور معلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر ، فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابة فإن شاء جعله نشرابين يدي رحمة كما قال سبحانه ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فستعذ للنباء ، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال تعالى ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ ثم انظر إلى لطف الهواء ، ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء ، فالزق المنفوخ يتحمل عليه الرجل القوى لينغمسه في الماء فيعجز عنه ، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه . فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته ؟ وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء ، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء لأن الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا يتفصل عن السطح الداخل من السفينة ، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف ، كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوى تمتنع عن الهوى في البئر . فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوى حتى تمتنع من الهوى والغوص في الماء ! فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد .

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من النجوم والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق ؛ فهي عجائب ما بين السماء والأرض ، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض

وما بينهما لا عين) وهذا هو الذى بينهما . وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر ، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالهيمه تشاركك في هذه المعرفة . فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها ، فغمض عينك الظاهرة وانظر بصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه إذ لا مطلق في استقصائه . فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جوصاف لاكدورة فيه وكيف يخلق الله تعالى إذا شاء ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جو السماء إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القشرات كل قطرة بالقدرة الذى أراده الله تعالى وعلى الشكل الذى شاءه فتري السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة . فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عددا ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك ، فلا يعلم عددها إلا الذى أوجدها . ثم كل قطرة منها عيذت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب ، ومكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التى في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقف الفلاني . هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التى لا تحصى . كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لا أحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للتؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته ، فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ، ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ، ولو قيل له : ما معنى الطبع وما الذى خلقه ؟ ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقيل ؟ وما الذى رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئا فشيئا بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق ، فيغذى كل جزء من كل ورقة ، ويجرى إليها في تجاويف عروق شعرية صغائر يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير المندود في طول الورقة عروق صغار . فكان الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة . فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينمىها ويزينها ويبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه . فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك يجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملوك فلم لا يحال عليه من أول الأمر ؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل .

(ومن آياته) ملكوت السموات والأرض وما فيها من السكواكب : وهو الأمر كله ، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا . فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر . ثم انظر كيف عظم الله أمم السموات والنجوم في كتابه ، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع ، وكفى من قسم في القرآن بها كقوله تعالى (والسماء ذات البروج - والسماء والطارق - والسماء

ذات الحُبك - والسماء وما بناها ﴿ وكقوله تعالى ﴿ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ﴾ وكقرله تعالى ﴿ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ﴾ وقوله تعالى ﴿ والتجم إذا هوى - فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ فقد علمت أن عجائب النطفة القدرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون - وما أقسم الله بها - فإظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وأثنى على المفكرين فيه فقال ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبيلته ^(١) ، أى تجاوزها من غير فكر . وذم المعرضين عنها فقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾ فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهى متغيرات على القرب ، والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ وقال سبحانه ﴿ وبينا فوقكم سبعا شدادا ﴾ وقال ﴿ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفعا سمكها فسواها ﴾ فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت . ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر . فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة ، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من عليه إلا بما شاء ، وهو ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ﴾ .

فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال : رأى قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الأرض التى هى مقرك ، ثم الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسي ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما . فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهى معرفة ظاهر نفسك ، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفة ربك وتقول : قد عرفته وعرفت خلقه ففياذا أتفكر إلى ماذا أنطلق ؟

فأرفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الدوام - من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير فى سيرها ، بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطوبها الله تعالى طي السجل للكتاب - وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى . ثم انظر كيفية أشكالها : فبعضها على صورة المقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان ، وما من صورة فى الأرض إلا ولها مثال فى السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ، ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب

(١) حديث « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبيلته » أى قوله تعالى ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ تقدم .

بسير آخر سخرها له خالقها ولو لاطلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولا طبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا ، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إمالة مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان . وعجائب السموات لا مطلق في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها ، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر ، واعتقد على طريق الجلالة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ، ثم في شكله ، ثم في لونه ثم في وضعه من السماء ، وقربه من وسط السماء وبعده ، وقربه من الكواكب التي بحنبه وبعده . وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك ، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة ، وأمر السماء أعظم ، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه . وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض ، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها ، وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، وفي الأخبار ما يدل على عظمتها ^(١) ثم الكواكب التي تراها أصغرها مثل الأرض ثمان مرات ، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض . وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها ؛ إذ للبعد صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال (رفع سمكها فسواها) .

وفي الأخبار : أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام ^(٢) فإذا كان مقدرا كوكب واحد مثل الأرض أضعافا فانظر إلى كثرة الكواكب . ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمتها . ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها ، لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب ، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة ، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه . وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هل زالت الشمس ؟ » فقال : لا ... نعم ، فقال « كيف تقول لا ... نعم ، فقال : من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام ^(٣) فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتسع أكتافها في حدة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فتري جميعها . فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارتها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم

(١) الحديث الدال على عظم الشمس رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال « في نار الله الحامية لولا ما نزعها من أمر الله لأهلك ما على الأرض » ولطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة « وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالنلج كل يوم لولا ذلك ما أنت على شيء إلا أحرقته » .

(٢) حديث « بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام » أخرجه الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب ، قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ، ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصره عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصره سماع من أبي ذر . (٣) حديث : أنه قال لجبريل « هل زالت الشمس ؟ » فقال : لا ... نعم ، فقال : كيف تقول لا ... نعم ؟ فقال : من حين قلت : لا ، إلى أن قلت : نعم ، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام ، لم أجده أصلا .

كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقاً بالصبغ موزها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ! وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه إنما هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض التى هى أخس أجزاء هذا البيت ! ومع هذا فلا تنظر إليه ؛ ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ؛ ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك . وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات . وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فيناققون بالسذم بين يديك ، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك فى مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يريد جاهه على جاهك ، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والمالك . وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجوارى والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس ، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تتحدث لو قدرت على التطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها ، فأما حال القصر والمالك الذى فى القصر فهى بمعزل عنه وعن التفكير فيه ، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره . وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضاً عن سكانه ، فأنت أيضاً غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته ، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك . نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه ، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه . ولتقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته ، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفة العلماء والأولياء ، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون بإسرائيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علماً ، بل هو إلى أن يسمى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً أقرب . فسبحان من عترف عباده ما عترف ثم خاطب جميعهم فقال ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

فهذا بيان معاهد الجمل التى تجول فيها فسكر المتفكرين فى خلق الله تعالى وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى ، ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته ، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم . وهذا كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطلع على غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً ، حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيدك محلاً من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك . فهكذا تأمل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما فى الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبداً ، وإنما لكل عبد

منهما بقدر ما رزق . فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضيف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر ، فإننا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا . وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط ، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ، ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شق وارتدى فنعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن ينجبنا منزلة أقدام الجبال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

تم الكتاب التاسع من ربح المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه ، يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده ، وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه .

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربح المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب إلى التمزغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴾ فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصا للأنقياء وموعدا في حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنًا للأشقياء وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد . لجدير بمن الموت مضرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقرة وبطن الأرض مستقره والقيامة موعده ، واللجنة أو النار مورد أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وترقب إلا له ، وحقيق بأن يعتد نفسه من الموتى ويراهما في أصحاب القبور ، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل

لما بعد الموت ^(١) ، وإن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه . ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحثاً على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون ﴿ اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

الشرط الأول

في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب

(الباب الأول) في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . (الباب الثاني) في ذكر طول الأمل وقصره . (الباب الثالث) في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت . (الباب الرابع) في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . (الباب الخامس) في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . (الباب السادس) في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور . (الباب السابع) في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور (الباب الثامن) فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .

الباب الأول : في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره . وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ثم الناس : إما منهمك ، وإما تائب مبتدئ ، أو عارف منته . أما المنهمك : فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشغل بمذمته ، وهذا يزيد ذكر الموت من الله بعدا . وأما التائب : فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فينبئ بتبام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم « من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه » ^(٢) ، فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغلا بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقاءه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا ، وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعده لقاءه لحبيبه ، والمحبة لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا في غالب الأمر يستبطن بحب الموت ويحب مجيئه الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين . كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ؛ اللهم إن كنت تعلم

كتاب ذكر الموت وما بعده

(١) حديث « السكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » تقدم غير مرة .

الباب الأول : في ذكر الموت والترغيب فيه

(٢) حديث « من كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه » متعلق عليه من حديث أبي هريرة .

أنَّ الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك فإذا التائب معذور في كراهة الموت ، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه ، وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه . فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى . وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت النجاة عن الدنيا إذ ينقص عليه نعيمه ويكدر عليه صفولته . وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكثروا من ذكر هاذم اللذات ^(١) ، ومعناه نفصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم : لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا ^(٢) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : نعم من يذكر الموت في اليوم واليلة عشرين مرة ^(٣) ، وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجاني عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم : تحفة المؤمن الموت ^(٤) ، وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومداومة شيطانه ، فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة في حقه . وقال صلى الله عليه وسلم : الموت كفارة لكل مسلم ^(٥) ، وأراد بهذا : المسلم حقاً المؤمن صدقاً الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم والصغائر ، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابها الكبار وإقامته الفرائض : قال عطاء الخراساني : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال : شؤوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات ، قالوا : وما مكدر اللذات ؟ قال : الموت ^(٦) ، وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : كفى بالموت مفرقا ^(٨) ، وقال عليه السلام : كفى بالموت واعظا ^(٩) ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون ، فقال : اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون

(١) حديث « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم . (٢) حديث « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنمية وقد تقدم . (٣) حديث . قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : نعم من ذكر الموت في اليوم واليلة عشرين مرة ، تقدم . (٤) حديث « تحفة المؤمن الموت » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والعباد والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلًا بسند حسن .

(٥) حديث « الموت كفارة لكل مسلم » أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين أنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء . (٦) حديث عطاء الخراساني : مر النبي صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال : شؤوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات ... الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مرسلًا ورويناه في أمالي الجلال من حديث أنس ولا يصح . (٧) حديث أنس « أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف جدا . (٨) حديث « كفى بالموت مفرقا » أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مستدركه من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ، ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلوة من رواية أبي عبد الرحمن الحبلي مرسلًا . (٩) حديث « كفى بالموت واعظا » أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار ابن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض روى البيهقي في الزهد .

ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا^(١) ، وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال : كيف ذكر صاحبكم للموت ؟ قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت ! قال : فإن صاحبكم ليس هنالك^(٢) ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال : أكثرهم ذكرا للموت وأشدّهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة^(٣) .

أما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحا . وقال الربيع بن خثيم . ما غائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت ، وكان يقول : لا تشعروا بي أحدا وسلوني إلى ربّي سلا . وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه . وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبسكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي : شيطان قطعا عنى لذة الدنيا ؛ ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهومها . وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول - في وسط مسجد البصرة - قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين . وقال أشعث : كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضي الله تعالى عنها : إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت : أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت فرق قلبها لجأته تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظمي ؛ فقال : لست أول خليفة تموت ؟ قال : زدني ، قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك ، فبكي عمر لذلك . وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرا في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إن هذا الموت قد نفص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيمًا لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لغنيسة : أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبو سليمان الناراني : قلت لأم هرون ، أتجنين الموت ؟ قالت : لا ، قلت : لم ؟ قالت : لو عصيت آدميا ما اشتفيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته .

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجح ذكر الموت في قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل

(١) حديث : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال : اذكروا الموت ... الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف . (١) حديث : ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال : كيف كان ذكر صاحبكم للموت ... الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أسد بن ضيف وابن المبارك في الزهد قال أخبرنا مالك بن منول فذكره بلاغا بزيادة فيه . (٣) حديث ابن عمر : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم - عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس ... الحديث ، أخرجه ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكامله بإسناد جيد .

شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه ، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه . وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف يحا التراب الآن حسن صورهم . وكيف تبددت أجزاءهم في قبورهم وكيف أرموا نساءهم وأيتمو أولادهم وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، فهما تذكر رجل رجلا وفصل في قلبه حاله ، وكيفية موته وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت وانخداعه بموادة الأسباب ، وركونه إلى القوة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع . وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهتت رجلاه ومفاصله . وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه . وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه . وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه - إلى عشر سنين - في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به ، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه ، فأنكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار ، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كما قبتم .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فمعد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غدياً أو رائحاً إلى الله عز وجل تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب .

فلازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يحدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعده ويتجافى عن دار الغرور ، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال ، أنه لا بد له من مفارقتها . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتها ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته .

الباب الثاني

في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل ، وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر : إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غدا (١) ، وروى علي كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان . اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصدر عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ، ثم قال : ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبغض ، وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ، ألا إن الدين أبناء والدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا

الباب الثاني في طول الأمل

(١) حديث : قال لعبد الله بن عمر : « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ... الحديث » أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث « كن في الدنيا كأنك غريب » .

من أبناء الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل ^(١) ، وقالت أم المنذر : اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : أيها الناس أما تستحون من الله ، قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : تجمعون مالا تأكلون وتأملون مالا تدركون وتبنون مالا تسكنون ^(٢) ، وقال أبو سعيد الخدري : اشترى أسامة بن زيد من زيد ابن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسى بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أفيض ، ولا لفت لقمه إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت ، ثم قال : يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعقدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسى بيده (إن ماتوا وعدون لآت وما أنتم بمعجزين) ^(٣) ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج بهريق الماء فيتمسح بالتراب ، فأقول له : يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول : ما يدرينى لعلى لا أبلغه ^(٤) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد ففرز عوداً بين يديه ، والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده ، فقال : هل تدرون ما هذا ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا الإنسان وهذا الأجل وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل ^(٥) ، وقال عليه السلام : مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنيا وقع في الهرم ^(٦) ، قال ابن مسعود : هذا الهرم وهذه الختوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الختوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الختوف شوارع إليه فأبها أمر به أخذه فإن أخطأته الختوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل . قال عبد الله خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً ، وخط وسطه خطاً ، وخط خطوطاً إلى جنب الخط ، وخط خطاً خارجاً وقال : أتدرون ما هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : هذا الإنسان - للخط الذى فى الوسط - وهذا الأجل يحيط به ، وهذه الأعراض - للخطوط التى حوله - تنهشه إن أخطأه هذا نهشه هذا ، وذاك الأمل - يعنى الخط الخط الخارج ^(٧) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل ^(٨) ، وفى رواية : وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث على : إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل ... الحديث . بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب قصر الأمل ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف . (٢) حديث أم المنذر : أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى ، قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : تجمعون مالا تأكلون ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم . (٣) حديث أبي سعيد : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا تعجبون من أسامة ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا فى قصر الأمل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو داود فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف . (٤) حديث ابن عباس : كان يخرج بهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول الماء منك قريب فيقول : ما يدرينى لعلى لا أبلغه . أخرجه ابن المبارك فى الزهد وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل والبرار بسند ضعيف .

(٥) حديث : أنه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عوداً بين يديه ... الحديث . أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له والرامهرمزي فى الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجى عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبي الدنيا أيضاً من رواية أبي المتوكل مرسلاً . (٦) حديث : مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية ... الحديث . أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن الشيخير وقال حسن . (٧) حديث ابن مسعود : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً وخط وسطه خطاً ... الحديث . رواه البخارى . (٨) حديث أنس : يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان : الحرص والأمل . وفى رواية : وتشب معه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر . ورواه مسلم بلفظ آتاني وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح .

« نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل »^(١) ، وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض ، فقال عيسى : اللهم ازرع منه الأمل ، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة ، فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل ، فقام لجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال : بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ؟ فالتفت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي : والله لا بد لك من عيش مابقيت ، فمضت إلى مسحاتي . وقال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله قال : « قصرُوا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء »^(٢) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل »^(٣)

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلى لحشيت على ذهاب عقلي ؟ ولكن الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ماتوا أو بعيش ولا قامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق وقال الثوري بلغني أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهناه العيش : وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها ، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : ثلاث أعجزني حتى أضحكنتي ، مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك مل فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض ، وثلاث أحزنني حتى أبكتني ، فراق الأحبة - محمد وحزبه - وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت : أي الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال : التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة . وسأل الفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عن شهوة الطعام والشراب ، ثم دعا ربه فرد عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب ، وقيل للحسن : يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك ؟ فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيتكم والدنيا تطوى من وراءكم . وقال بعضهم أنا كرجل ماد عنقه والسيوف عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي : لو أملت أن أعيش شهرا لرأيتني قد أتيت عظيما ، وكيف أوصل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار ؟ وحكى أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني - وفي طرف كسائه شيء مصرور - فقال له أستاذة : إيش هذا معك ؟ فقال : لوزات دفنها إلى أخ لي وقال : أحب أن تفرط عليها ، فقال ياشقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمتك أبدا ، قال : فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن لكل سفر زادا لا محالة فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاب ما عده الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يظوان عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتتقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا ، وكما رأيت ورأيت من كان بالدنيا مغترا ، وإنما تقر عين من

(١) حديث « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) حديث الحسن « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله قال « قصرُوا من الأمل . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسل . (٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضعف وجهالة ولا أدري من حوشب .

وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوى كلها إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما لا ينهي عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيبتى وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازن فيه منصوبة ، لقد غنيتم بأمر لو غنيت به النجوم لانكدرت ولو غنيت به الجبال لثابت ولو غنيت به الأرض لتشققت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما . وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد ؛ فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام . وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الإنسان قريب وللنقص فى كل يوم منه نصيب ، وللبلاء فى جسمه ديب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن : كان آدم عليه السلام - قبل أن يخطئ - أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حوّل لجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سميطة : سمعت أبى يقول ، أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم ، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير عتة ، إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك بالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون ، أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك ، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ، ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت ، رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت ، وقال أبو بكر بن التيمى : بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه فإذا فيه : ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك ولرغبت فى الزيادة من عمالك ولقصرت من حرصك وحيالك ، وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورقضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا فى حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة ، فبكى سليمان بكاء شديدا ، وقال بعضهم : رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف ، سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو أما بعد فإنى أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير فى قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكرو ونكير فيقعدانك وينهرانك فإن يكن الله معك فلا يأس ولا وحشة ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذنى الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ، ثم تباعك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسماوات من سكانها فباحث الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجرى بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ، فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم ، فيأليت شعرى ما حالى وحالك يومئذ فى هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين ، أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبى وقلبك موقعهما من قلوب المتقين ، وإنما نحن به وله والسلام وخطب عمر بن عبد العزيز ، حمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم ، فغاب وشقى غدا عبدا أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شيء وجنته التى عرضها السماوات والأرض ، وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وفانيا بياق وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبنا وانقطع أمله فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موصد ولا ممد ،

قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب ، وإيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر بما أعلم من نفسي ، ولكننا سنن من الله عادلة أمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله . ووضع كفه على وجهه وجعل يبكي حتى بات دموعه لحيته وماعاد إلى مجلسه حتى مات . وقال القعقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أثنى ما أحببت وأخير شيء عن شيء . وقال الثوري : رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول : أثنى هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ، ولو أثنى ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء ، ولألى على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء . وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار . وقال أبو محمد بن علي الزاهد : خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فالتبذفقعد ناحية وهي تدفن ، لجئت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أمه ضعف عمله وكل ما هو آت قريب واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشغوم ، واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخافون ويفرحون بما يقدمون ، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون ، وروى أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة ، قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم ، فقلت : إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل . وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظعن عنها ، فكم من عاصر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضر لكم من النقلة وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كنف ظلال فلو قص فذهب ، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حنقه فسلبه آثاره ودينه ، وصير لقرم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر لأنها تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول في خطبته : أين الوضاء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصروها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الوجا الواح ثم النجا النجا !

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان ، أحدهما : الجهل ، والآخر : حب الدنيا .

أما حب الدنيا : فهو أنه إذا أنس بها وبشهراتها ولذاتها وعلاقاتها ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه . والإنسان مشغوف بالآمان الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه ، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعد نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك . فلا يزال يستوف ويؤخر ، ولا يخوض في شغل إلا ويتعاني بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال آخر ، وهكذا على التدريج

يؤخر يوما بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تحتطفه المنية في وقت لا يحتسب ، فتطول عند ذلك حسرته . وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون : واحزننا من سوف . والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائف في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيئات فما يفرغ منها إلا من طرحها .
فما قضى أحد منها لباتته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والآنس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أحب من أحببت فإنك مفارقة (١) » .

وأما الجهل : فهو أن الإنسان قد يقول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت لجأة ، ولا يدري أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيدا فإمرض لجأة غير بعيد ، وكل مرض فإنما يقع لجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا . ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار اعظم استشهاده واشتغل بالاستعداد له ، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه ، وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فإنه لم يقع ، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأول وهو الآخر . وسيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لابد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ، ولعل اللبن الذي يغطي به لحدده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض .

وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه .

(أما الجهل) فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .

(وأما حب الدنيا) فالعلاج في إخراجها من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .
علاجه : ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير هو الذي يحو عن القلب حب الحقير . فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص ، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده . ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا . أما من كان مستعنا فقد فاز فوزا عظيما ، وأما من كان مغرورا بطول الأمل فقد خسر خسرانا ميئنا . فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لآحالة ؟ وكيف تنفتت عظامها ؟ وليتفكر أن الدود يبدأ بحرقته اليني أولا أو اليسرى ؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى

(١) حديث « أحب من أحببت فإنك مفارقة ... الحديث » تقدم غير مرة .

وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأحوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون ؛ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدا قال الله تعالى ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم ^(١) » ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجودا في عام قابل ، ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف ، فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره وأما للغد فلا . قال عيسى عليه السلام : لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأني فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم . ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تذكر نفسك بالصباح ، ومنهم من لا يقدر البقاء أيضا ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ويقول « لعل لا أبلغه » ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو يفتقره ، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال : ما خطوات خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى ^(٢) وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أنه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل : ما هذا ؟ قال : أنظر ملك الموت من أي جهة يأتي .

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله ، فـ ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة - ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل ، وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب ، إنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة ، فيدل ذلك على طول أمله . وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة ، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت ، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ، ثم يستأنف مثله إلى الصباح ؛ وهكذا إذا أصبح . ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه . فثل هذا إذا مات سعد وغم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة ؛ فالموت له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت على بالك يامسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتاما لكل نفس أمهلت فيه .

(١) حديث « الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم » لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « قلب الشيخ شاب على حب اثنين طول الحياة وحب المال » . (٢) حديث سؤاله لما ذ عن حقيقة إيمانه فقال : ما خطوات خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى « أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أس وهو ضعف .

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد ويلمّظ قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد الذي يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غد . فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار . فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكاملها لا ينقص منها اليوم الذي مضى ، وذلك يمنع من مبادرة العمل أبدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطعيا أو فقرا مذميا أو مرضا مفسدا أو هرما مقيدا أو موتا مجهزا أو الدجال ، فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر ^(١) » ، وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه « اغتتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ ^(٣) . أى أنه لا يغتمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما ، وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل . إلا إن سلعة الله غالية ألا أن سلعة الله الجنة ^(٤) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها وجاء الموت بمافيها ^(٥) » ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة ^(٦) » ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا النذير ، والموت المغير ، والساعة الموعدة ^(٧) » ، وقال ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال « ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقى متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع ^(٩) » وقال جابر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول . صبحتكم ومسيّتكم « بعثت أنا والساعة كهاتين - وقرن بين أصبعيه ^(١٠) » ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقال « إن النور إذا دخل الصدر انفسح » فقليل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟

(١) حديث « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطعيا أو فقرا مذميا ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة بلفظ « هل ينتظرون إلا غناء ... الحديث » وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصحف وفيه من لم يسم . (٢) حديث ابن عباس « اغتتم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدى مرسل . (٣) حديث « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » أخرجه البخارى من حديث ابن عباس وقد تقدم . (٤) حديث « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حسن . (٥) حديث « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث أبي بن كعب . (٦) حديث « كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسل . (٧) حديث أبي هريرة « أنا النذير ، والموت المغير ، والساعة الموعدة » أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوى بإسناد فيه لين .

(٨) حديث ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال « ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن والترمذى نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٩) حديث « مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح (١٠) حديث جابر : كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه ... الحديث » أخرجه مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له .

قال : نعم التجاني عن دار الغرور والإبابة إلى دار الخلود والاستعداد للبوت قبل نزوله ^(١) ، وقال السدي (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أي أيكم أكثر للبوت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا . وقال حذيفة : ما من صباح ولا مساء إلا ومنادى ينادي : أيها الناس الرحيل الرحيل . وتصديق ذلك قوله تعالى (إنما لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) في الموت . وقال سحيم - مولى بني تميم - جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل على فقال : أرخني بحاجتك فإني أبادر ، قلت : وما تبادر ؟ قال : ملك الموت رحلك الله ، قال : فقامت عنه وقام إلى صلاته . ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال : دعني إنما أبادر خروج نفسي : قال عمر رضي الله عنه : التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للأخرة . وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه : ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ؛ ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعته ولا يراني . وكان الحسن يقول في موعظته : المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل ، رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ! ثم قرأ هذه الآية (إنما نعد لهم عدا) يعني الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك في قبرك . واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهدا شديدا ، فقيل له : لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق ؟ فقال : إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلى أقل من ذلك ! قال : فلم يزل على ذلك حتى مات . وكان يقول لامراته : شدي رحلك فليس على جهنم معبرة . وقال بعض الحكماء على منبره : عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيحين بهم فانتبهوا وعلووا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستعدوا للبوت فقد أظلمكم وترحلوا فقد جد بكم ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة ، وإن غائبا يجذب به الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له ، والشيطان موكل به يئمه التوبة ليسوقها ويزين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها ، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيا لها حسرة على ذى غفلة أو يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة ، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تنقصه عنه طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء وإنه بيده الخير دائما فعال لما يشاء .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى (فتنتم أنفسكم) قال بالشهوات واللذات (وتربصتم) قال بالتوبة (وارتبتم) قال شككنكم (حتى جاء أمر الله) قال الموت (وغركم بالله الغرور) قال الشيطان . وقال الحسن : تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل وإنما أتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم . وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة . وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال : رحبا بكم وأهلا حياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام ، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن ، فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا

(١) حديث ابن مسعود : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فقال : « لن النور إذا دخل القاب انفسح ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرک وقد تقدم .

ورائها لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبه على قصبه ولكن رفع له علم فشمروا إليه الوحا النجا النجا علام تخرجون أتيتهم ورب الكعبة كأنهم والأمر معا ، رحم الله عبدا جعل العيش عيشاً واحداً فأكل كسرة ولبس خلقاً ولزق بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك (١) . وقال عاصم الأحول : قال لي فضيل الرقاشي - وأنا سائله - يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخص إليك دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار في لا شيء ، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنوب قديم .

الباب الثالث : في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرد ما ، لكان جديراً بأن يتنقص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداد ، لاسيما وهو في كل نفس بصده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك . وقال لقمان لابنه . يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعداد له قبل أن يفجأك . والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه ، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزوع وعنه غافل ، فلهذا سبب الإلجاء والغرور واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذوقها فإنما يعرفها إلا بالقياس إلى الآلام التي أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزوع على شدة ما هم فيه . فأما القياس الذي يشهد له : فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم ، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح ، فهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم ، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاق غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده !

والنزوع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشرة في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحسسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم .

وأما الجراحة : فإنما تصيب الموضع الذي منه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فألم النزوع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفصلات ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم ، فلا تسأل عن كربته وألمه ؛ حتى قالوا : إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وقصاعد على قلبه ، وبلغ كل

(١) حديث أبي عبيدة الجليلي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحباً بكم . أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

موضع منه فهذه كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك له قوة الاستغانة .

أما العقل فقد غشيه وشوشه . وأما اللسان فقد أبكمه ، وأما الأطراف فقد ضعفها . ويود لو قدر على الاستراحة بالانين والصياح والاستغانة ولكنه لا يقدر على ذلك ، فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وارتد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله ، فالألم منتشر في داخله وخارجه ، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه ، وتتقلص الشفتان ، ويتقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما ، وتختصر أنامله .

فلا تسلم عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ! ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذه ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقبل توبة العبد ما لم يغرغر »^(١) ، وقال بجاهد في قوله تعالى ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ قال : إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ! ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم هون على محمد سكرات الموت »^(٢) ، والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهون على هذه السكرة - يعنى الموت - فقد خفت الموت مخافة أوقفنى خوفا من الموت على الموت ، وروى أن نفرا من إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض : لودعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه ؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم رجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال : يا قوم ما أردتم منى لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي . وقالت عائشة رضى الله عنها : لا أغبط أحد يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أنه عليه السلام كان يقول « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل . اللهم فأعنى على الموت وهونه على »^(٣) ، وعن الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال « هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف »^(٤) ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدة فقال « إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف »^(٥) ، ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال « إني أعلم ما يلقى مامنه عرق إلا وبألم للموت على حدته »^(٦) ، وكان على كثرم الله وجهه يحض على القتال ويقول :

(١) حديث « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر .
(٢) حديث كان يقول « اللهم هون على محمد سكرات الموت » تقدم . (٣) حديث كان يقول « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث سمعة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والمتابعي . (٤) حديث الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال « هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف » أخرجه ابن أبي الدنيا في مكدنا مرسل ورجاله ثقات . (٥) حديث : سئل عن الموت وشدة فقال « إن أهون الموت بمنزلة حسكة .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في من رواية شهر بن حوشب مرسل . (٦) حديث : دخل على مريض فقال « إني أعلم ما يلقى مامنه عرق إلا وبألم للموت على حدته » أخرجه ابن أبي الدنيا في من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسل مع اختلاف ورجاله ثقات .

إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسى بيده لآلف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش . وقال الأوزاعي : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبحث من قبره . وقال شتاد بن أوس : الموت أفضح هول في الدنيا والآخرة على المؤمن ، وهو أشد من نشر بالمنشير وقرض بالمقاريض وغلى في القدور ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكرهه درجته في الجنة ، وإذا كان للكافر معزوف لم يحز به هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم : أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف يجدون الموت ؟ فلما مرض قيل له : فأنت كيف تجده ؟ فقال : كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى يخرج من ثقب إبرة . وقال صلى الله عليه وسلم « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر »^(١) ، وروى عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا بإذن الله تعالى لأن في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات^(٢) ، ويروى : لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت^(٣) ، وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له : كيف وجدت الموت يا خليلي قال : كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب . فقال : أما إنا قد هونا عليك . وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : يا موسى كيف وجدت الموت ، قال : وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقل لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير ، وروى عنه أنه قال : وجدت نفسى كشاة حية تسليخ بيد القصاب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول « اللهم هون على سكرات الموت »^(٤) ، وفاطمة رضى الله عنها تقول : واكره لكرهك يا ابتاه وهو يقول « لا كرب على أبيك بعد اليوم »^(٥) ، وقال عمر رضى الله عنه لكعب الأحبار يا كعب حدثنا عن الموت ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كفصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقي وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة »^(٦) .

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه . فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاث :

(الأولى) شدة النزاع كما ذكرناه .

(١) حديث « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر » أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناده صحيح قال « وأخذت أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمي « موت الفجأة أخذت أسف » (٢) حديث مكحول « لو أن شعرة من شعرايت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفته وفيه « لو أن ألم شعرة وزاد » وأن في يوم القيامة لتسمين هولا أدناها هولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف « وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإسناد (٣) حديث « لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت » لم أجده أصلا ولعل المصنف لم يورده حديثا فإنه قال : ويروى : (٤) حديث : أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول « اللهم هون على سكرات الموت » متفق عليه من حديث عائشة . (٥) حديث : لئن فاطمة قالت واكره لكرهك يا ابتاه ... الحديث . أخرجه البخاري من حديث أس بن قنينة : واكره ابتاه ، وفي رواية لابن خزيمة : واكره . (٦) حديث « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض » . الحديث « رويناه في الأربعين لأبي عبد الله إبراهيم بن هديبة عن أس وأبو هديبة هالي .

(الدمية الثانية) مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القلب ؛ فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته . فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطيق ذلك ، قال : بلى ، قال : فأعرض عني فأعرض عنه . ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان ؛ فغشى على إبراهيم عليه السلام . ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه : وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب ، فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار فقالت : من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقي منه غناء ؟ فجاء داود فرآه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنع مني الحجاب ، فقال : فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه ^(١) ، وروى أن عيسى عليه السلام مر بمجمجمة فضربها برجله فقال : تكلمي يا ابن الله فقالت : يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا ، بينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمتي على سرير ملكي ، إذ بد لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله ، ثم خرجت نفسي إليه ، فبالي ما كان من تلك الجموع كان فرقة ؛ وبالي ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ؛ فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفهاها المطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجزء سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ، ولو رآها في منامه ليلة لتفص عليه بقية عمره ؛ فكيف برؤيته في مثل تلك الحال ؟ .

وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه ، فإذا خرج أغلقه ، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال : من أدخلك داري ؟ فقال : أدخلنيها ربه ؛ فقال : أنا ربه ، فقال : أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك ، فقال : من أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت ، قال : هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم ، فأعرض عني ، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه ، فقال : ياملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه .

ومنها مشاهدة المسكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يترأى له ملكاه الكاتبان عمله ، فإن كان مطيعا قالاه : جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرنا ، وإن كان فاجرا قالاه : لاجزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح أحضرنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا . فذلك شئخص بصير الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا .

(الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة ؛ فإنهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نعمة ملك الموت بأحد البشريين : إما أبشر يا عدو الله بالنار ، أو أبشر يا ولي الله بالجنة . ومن هذا كان خوف أرباب الالباب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي هريرة : أن داود كان رجلا غيورا . . الحديث ، أخرجه أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بانفذه

(٢) حديث : لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ، أخرجه ابن أبي الدنيا

في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفا : لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار ، وفي

« من أحب لقاء الله أحب لقاء الله ومن كره لقاء الله كره لقاء الله لقاءه ، فقالوا : كلنا نكره الموت قال : ليس ذلك بذلك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب لقاءه ^(١) ، وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود - وهو لمسا به من آخر الليل : قم فانظر أى ساعة هي ؟ فقال ابن مسعود ثم جاءه فقال : قد طلعت الحمراء فقال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبي هريرة ، فقال مروان : اللهم خفف عنه ، فقال أبو هريرة : اللهم اشدد ! ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار . وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله إذا رضى عن عبد قال : يا مالك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه ، حسبى من عمله ، قد بلوته فوجدته حيث أحب ؛ فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه ، معهم الريحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ ، قال فيقول له جنوده : مالك ياسيدنا فيقول : أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا ؟ قالوا : قد جهدنا به فكان معصوما ^(٢) ، وقال الحسن : لاراحة للمؤمن إلا في لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . وقيل لجابر بن زيد - عند الموت : ما تشتهي ؟ قال : نظرة إلى الحسن ، فلما دخل عليه الحسن قيل له : هذا الحسن ارفع طرفه إليه ثم قال : يا إخواناه الساعة والله أفارقكم إلى البار أو إلى الجنة . وقال محمد بن واسع - عند الموت : يا إخواناه عليكم السلام إلى النار أو يعفو الله وتبني بعضهم أن يبقى في النزع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب . تخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت . وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع . ولكننا لا نطول بذكره وإعادته .

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ، ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى .

(أما الصورة) فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ارقبوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جبينه ودمعت عيناه ولبست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به ، وإذا غط غطيظ الخنوق واحتر لونه وأربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به ^(٣) » .

(وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة) فهي علامة الخير . قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه

رواية « حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار » وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يمهّد لذلك « إن المؤمن إذا حضره الموت يمر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ... الحديث » . (١) حديث « من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه ... الحديث » متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت . (٢) حديث « إن الله إذا رضى عن عبد قال : يا مالك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره بمادل على أنه مرفوع ولانسانى من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح « إذا حضر الميت أته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجى راضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان .. الحديث » . (٣) حديث « ارقبوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جبينه وذرفت عيناه ... الحديث » أخرجه الترمذى الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح .

وسلم « لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله »^(١) ، وفي رواية حذيفة « فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا »^(٢) ، وقال عثمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة »^(٣) ، وقال عبيد الله « وهو يشهد ، وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه « لا إله إلا الله » ، فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضي الله عنه : احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوههم : لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ، ففك لحييه فوجد طرف لسانه لا صقا بحنكته يقول : لا إله إلا الله ، فغفر له بكلمة الإخلاص »^(٤) .

وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ولكن يتلطف ، وربما لا ينطق لسان المريض فيشوق عليه ذلك ويؤدي إلى استئقاله التلقين وكراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة .

ولأنها معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله ، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه . وإن كان القلب مشغوبا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقتها ، وقع الأمر في خطر المشيئة ، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول .

(وأما حسن الظن) فهو مستحب في هذا الوقت - وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء - وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله . دخل وائلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ قال : أغرقتني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكنني أرجو رحمة ربي . فكبر وائلة وكبر أهل البيت بتسكيره وقال : الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أما عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال « كيف تجدك » قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف »^(٥) ، وقال ثابت البناني . كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له . يا بني إن لك يوما فاذا ذكر يومك ، فلما نزل به أمر الله تعالى أكتب عليه أمه وجعلت تقول له : يا بني قد كنت أحذرك مصرك هذا وأقول إن لك يوما ، فقال : يا أمه إن لي ربا كثيرا المعروف وإنني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه ، قال ثابت : فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة : كان شاب به رهق فاحتضر ، فقالت له أمه : يا بني توصي بشيء ؟ قال : نعم ، خاتمي لا تسليبيه فإن فيه ذكر الله تعالى فاعل الله يرحمني ، فلما دفن رؤى في المنام فقال : أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعني وأزال الله قد غفرت لي . ومرض أعرابي فقيل له إنك تموت ، فقال : أين يذهب بي ؟ قالوا : إلى الله ، قال : فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه . وقال أبو المعتمر بن سليمان : قال أبي لما حضرته الوفاة : يا معتمر حدثني بالرخص لعلني ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به . وكانوا يستحجون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه .

(١) حديث « لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله » تقدم . (٢) حديث حذيفة : فإنها تهدم ما قبلها : تقدم . (٣) حديث : من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة . تقدم . (٤) حديث أبي هريرة : حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا . الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب ولأسنده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وسمى في رواية الطبراني إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف . (٥) حديث : دخل وائلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ وفيه « يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » أخرجه ابن حبان بالرفع عنه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جيما . (٦) حديث : دخل على شاب وهو يموت فقال « كيف تجدك ؟ » فقال : أرجو الله وأخاف ذنوبي . الحديث « تقدم .

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت - واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه - فقال : يا ملك الموت ما تصنع . إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال : أدعوا الأرواح يا ذن الله فتكون بين أصبعي هاتين ، وقال : قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء ، قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالي لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال ما أنا بذلك بأعلم منك ! إنما هي صحف أو كتب تلقى إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه - بعد مرات - وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه ، حتى أتى بدواب فركب أحسنها ؛ فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة ففلاه كبيرا . ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبيرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام ، فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمر عظيم ! قال إن لي إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن ، فقهره على لجام دابته فقال اذكرها ! قال ، هو سر ، فأدنى له رأسه فسار ، وقال ، أنا ملك الموت ! فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم ، قال لا والله لا نرى أهلك وثقلك أبدا ! فقبض روحه فخر كأنه خشبة ، ثم معنى فلفى عبدا مؤمنا في تلك الحال فسلم عليه فرد السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فسار وقال أنا ملك الموت ! فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته على فؤاده ما كان في الأرض غائب أحب إلى أن ألقاه منك ! فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها ، فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى ! قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك ؟ فقال تقدر على ذلك ؟ قال نعم إنى أمرت بذلك ، قال فدعني حتى أنوضأ وأصلي ثم أقبض روحي وأنا ساجد ، فقبض روحه وهو ساجد وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالى ؟ فأتى بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرا عليه ، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك ؟ فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفترق بين روحك وبدنك ! قال فالمهلة حتى أوترقه قال هيئات انقطعت عنك المهلة ! فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ؟ فقبض روحه . وروى أن رجلا جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفا من المال إلا اتخذ ، وابنى قصرا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسا من غلمان ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما وقعد على سريرته ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال يا نفس ألعمى لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك ؟ فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه مخللة يتشبه بالمساكين ، ففرع الباب بشدة عظيمة فرعا أفزعوه وهو على فراشه ، فوثب إليه الغلمان وقالوا ما شأنك ؟ فقال ادعوا إلى مولاكم فقالوا وإلى ملك يخرج مولانا ؟ قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فعلتم به وفعلتم ، ففرع الباب قرعة أشد من الأولى ، فوثب إليه الحرس فقال أخبروه أنى ملك الموت ، فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخضع ، فقال قولوا له قولنا قولوا له تأخذ به أحدا ؟ فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صانع ، فإنني لست بخارج منها حتى أخرج روحك ، فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال ! أنت شغلتنى عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلى لربي ، فأطلق

الله المال فقال لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد المتقى عن بابهم وكنت تفكح المتنعات بي ،
ونجلس مجالس الملوك بي وتنقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير ففعلت ؟ خلقت يا بن آدم
من تراب فنطلق ببر ومنطلق يا ثم ، ثم قبض ملك الموت روحه فسقط . وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت
روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ! ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة بمن قبضت
روحه ؟ قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيها وقد ولدت مولودا فرحمها لغربتها ورحمت ولدها
لصغره وكونه في فلاة لا متمدن له بها . فقالت الملائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذاك المولود الذي رحمته
فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء ! قال عطاء بن يسار إذا كانت ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت
صحيفة فيقال قبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فإن العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبني البنيان
وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري . وقال الحسن ما من يوم إلا وملك اليوم يتصفح كل بيت ثلاث مرات
فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه ، فإذا قبض روحه أقبل أهله برثه وبكاء ، فيأخذ ملك
الموت بمضادتي الباب فيقول والله ما أكلت له رزقا ولا أفنيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا ، وإن لي فيكم
لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحدا . قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم
ولبسكو على أنفسهم ، وقال يزيد الرقائشي بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض
أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فنار إليه فرعا مغضبا فقال له من أنت ومن أدخلك على داري ؟
فقال أما الذي أدخلني الدار فربها ، وأما أنا فالذي لا يمنع من الحجاب ولا أستاذن على الملوك ولا أخاف صولة
المتسلطين ولا يتمتع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مرید ؟ قال فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على
وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له فقال له أنت إذن ملك الموت ! قال أما هو ، قال فهل أنت مهمل
حتى أحدث عهدا ؟ قال هيهات ! انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل !
قال فألى أين تذهب بي ؟ قال إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته ، قال فألى لم أقدم عملا صالحا ولم
أمهد بيتا حسنا ، قال فألى لظى نزاعة للشوى ، ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله ، فمن بين صارخ وبكاء . قال
يزيد الرقائشي لو يعلمون سوء المقلب كان العويل على ذلك أكثر . وعن الأعمش عن خيشمة قال دخل ملك الموت
على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلما خرج قال الرجل من
هذا ؟ قال هذا ملك الموت ، قال لقد رأيته ينظر إلى كأنه يريدني قال فماذا تريد ؟ قال أريد أن تخلصني منه
فتأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك ، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا رأيتك
تديم النظر إلى واحد من جلسائي ، قال نعم كنت أتعجب منه لأنني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة
قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك !

الباب الرابع

في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة - حيا وميتا وفعلًا وقولًا - وجميع أحواله عبرة للناظرين

وتبصرة المستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيه ونبيه ، وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لا يل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجذوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك في النزاع كربه وظهر أنيه ، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره ، فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا ؟ وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا ؟ وهل ساعه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا ، هيات ابل امثل ما كان به مأمورا واتباع ما وجدته في اللوح مسطورا . فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود ، وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض ، فالعجب أنا لانعبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصي والسيئات . فما بالناس لا تتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين ، لعنا نطن أننا نخلدون ، أو نتوهم أننا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيات امهيات ابل نتيقن أنا جميعا على النار واردون ، ثم لا ينجو منها إلا المتقون ، فنحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنها متوهمون ، لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين ، وقد قال الله رب العالمين (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين ؟ فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كانوا مع ما رفقوا له من الخائفين . ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين ، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال : مرحبا بكم حياكم الله ، آواكم الله ، نصركم الله ، وأوصيكم بتقوى الله ، وأوصي بكم الله ، إني لكم نذير مبين ، ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل ، والمقلب إلى الله وإلى سدة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الآوفي ، فأنتموا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدى مني السلام ورحمة الله (١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته : من لأمي بعدى ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل : أن بشر حبيبي أني لأأخذله في أمته ، وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال : الآن قرت عيني (٢) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : أمرنا

الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ابن مسعود : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق ... الحديث « رواه البزار وقال : هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة » ، قال : وعبد الرحمن الأصبهاني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عن أخيه عن مرة ، قال : ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت : وقد روى من غير ماوجه . رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود . وروناه في مذيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنها منقطعة وضعيفان ، والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط . (٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته : من لأمي بعدى ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لأأخذله في أمته ... الحديث « أخرجه الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه « من لأمي المصطفاة من بعدى » قال : أبشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال : « الآن طابت نفسي » واستاده ضعيف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نفسه بسبع قرب من سبعة آبار ، ففعلنا ذلك فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ودعا لهم وأوصى بالانصار فقال : أما بعد : يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الانصار لا تزيد على التي هي عليها اليوم ، وإن الانصار عيني التي أدبت إليها فأكرموا كريمهم - يعني محسنهم - وتجاوزوا عن مسيئتهم ، ثم قال : إن عبدا خيرا بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله ، فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : علي رسلك يا أبا بكر ستدوا هذه الابواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فإن لا أعلم امرأ أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر ^(١) ، قالت عائشة رضي الله عنها : فقبض صلى الله عليه وسلم في بيته وفي يومى وبين سحري ونحرى وجمع الله بين ريقى وريقه عند الموت ، فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك لجعل بنظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك ، فقلت له : آخذه لك ، فأومأ برأسه أن : نعم ، فنارلته إياه فأدخله فيه فاشتد عليه فقلت : أليته لك ؟ فأومأ برأسه أن نعم ، فليته وكان بين يديه ركوة ماء لجعل يدخل فيها يده ويقول : لا إله إلا الله إن للوت لسكرات ، ثم نصب يده يقول : الرفيق الأعلى . . الرفيق الأعلى ، فقلت : إذن والله لا يختارنا ^(٢) وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الانصار أن النبي صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه به كأنهم وإشفاقهم ، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضي الله عنه فأعلمه بمثله ، فمد يده وقال : ها ، فتناولوه ، فقال : ماتقولون ، قالوا : نقول : نخشى أن تموت ، وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ ، فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئا على علي والفضل ، والعباس أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للوت ، وما تسكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعي إليكم أنفسكم ؟ هل خلدني قبلي فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون به وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصي المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال ﴿ والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا ﴾ - إلى آخرها - وإن الأمور تجري بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ وأوصيكم بالانصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ألا وإني فرط لكم وأتم لاحقون بي ، ألا وإن موعدكم الحوض ، حوضي أعرض عما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن ، يصب فيه ميزاب الكوثر ، ماؤه أشد بياضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد ، من شرب منه لم يظم أبدا ، حصباؤه اللواؤ وبطحائه المسك ، من حرمه في الموقف غدا حرم الخير كله ، ألا فن أحب أن يرده على غدا فليكفف لسانه ويده إلا بما ينبغي ، فقال العباس : يا نبي الله أوص بقريش فقال : إنما أوصي بهذا الأمر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم ، فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا ، يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم ، فإذا بر الناس برهم أمتهم وإذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى ﴿ وكذلك نولي

(١) حديث عائشة : أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ..

الحديث : أخرجه الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم بن الخثار يختلف فيه عن محمد بن إسحق وهو مدلس وقد رواه بالتحفة .

(٢) حديث عائشة : قبض في بيته وفي يومى وبين سحري ونحرى وجمع الله بين ريقى وريقه عند الموت .. الحديث : متفق عليه

بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) ^(١) ، وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضى الله عنه « سل يا أبا بكر ، فقال يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قد دنا الأجل وتدلى ، فقال ليحك يا نبي الله ما عند الله ! فليت شعري عن منقلبنا ، فقال « إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الآوى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنا ، فقال يا نبي الله من يلى غسلك ؟ قال « رجال من أهل بيتي الآدنى فالآدنى ، قال فقيم نفسك ؟ فقال « فى ثيابي هذه وفى حلة يمانية وفى بياض مصر ، فقال كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكيننا وبكى ثم قال « مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا ، إذا غسلتموني وكفتموني فضعوني على سريري فى بيتي هذا على شفيرى قبري ، ثم أخرجوا عنى ساعة ، فإن أول من يصلى على الله عز وجل » (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) ثم يأذن للملائكة فى الصلاة على ، فأول من يدخل على من خاف الله ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ، ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين ، ثم أنتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلوا تسليما ، ولا تؤذوني بنزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الآدنى فالآدنى ، ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان ، قال فمن يدخلك القبر ؟ قال « زمر من أهل بيتي الآدنى فالآدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فأدوا عنى إلى من بعدى ^(٢) ، وقال عبد الله بن زمرة جاء بلال فى أول شهر ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مروا بأبى بكر يصلى بالناس ، فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر ، فقلت قم يا عمر فصل بالناس ، فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صديقا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال « أين أبو بكر ؟ يابى الله ذلك والمسلمون ، قالها ثلاث مرات « مروا بأبى بكر فليصل بالناس ، فقالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله إن أبى بكر رجل رقيق القلب إذا قام فى مقامك غلبه البكاء ! فقال « إنك صويحبات يوسف مروا بأبى بكر فليصل بالناس ، قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التى صلى عمر ، فكان عمر يقول لعبد الله بن زمرة - بعد ذلك - ويحك ماذا صنعت بى ! والله لولا أنى ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت . فيقول عبد الله لى لم أر أحدا أولى بذلك منك ! قالت عائشة رضى الله عنها وما قلت ذاك ولا صرفته عن أبى بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما فى الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله ، وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حى أبدا إلا أن يشاء الله ، فيحسدونه ويبخون عليه ويتشائمون به فأذن الأمر أمر الله والقضاء قضاءه ، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين ^(٣) وقالت عائشة رضى الله عنها فلما

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزاد ثقلأ أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فذكر ... الحديث فى خروجه متوكئا مصوبا الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل رفاعة من المنبر . فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه تكرار ولم أجده أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور قاضى . روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفى أبيه سعيد ليس بالقوى . (٢) حديث ابن مسعود : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر « سل يا أبا بكر » فقال . يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قد دنا الأجل ... الحديث » فى سؤالهم له : من يلى غسلك وفيه تكلفك ؟ وكيف الصلاة عليه ؟ روى ابن سعد فى الطبقات عن محمد بن عمر وهو الواقدي بأسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم .

(٣) حديث عبد الله بن زمرة : جاء بلال فى أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مروا بأبى بكر فليصل بالناس » فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر ... الحديث ، أخرجه أبو داود بأسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله « فقالت عائشة إن أبى بكر رجل رقيق ... إلى آخره » ولم يقل : فى أول ربيع الأول ، وقال « مروا من يصلى بالناس » وقال « يابى الله ذلك والمؤمنون » مرتين وفى رواية له فقال « لا لا لا ... لصل الناس ابن أبى قحافة » يقول ذلك

كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ، فتنفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوادثهم مستبشرين ، وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء ، فبينما نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخرجني عن هذا الملك يستأذن على ، فخرج من في البيت غيرى ورأسه في حجرى لجلس وتنحيت في جانب البيت فنادى الملك طويلا ، ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجرى وقال للنسوة : ادخلن ، فقلت : ما هذا بحس جبريل عليه السلام ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال : إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بإذن ، فإن لم تأذن لي أرجع وإن أذنت لي دخلت ، وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فاذا أمرك ؟ فقلت : اكفف عني حتى يأتي جبريل عليه السلام ، فهذه ساعة جبريل ، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى ، فوجعنا وكأنا ضربنا بصخرة ما نحير إليه شيئا وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا ، قالت ، وجاء جبريل في ساعته فلم فمرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : كيف تجددك وهو أعلم بالذي تجدد منك ، ولكن أراد أن يربدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمتك فقال : أجدني وجعا ، فقال : أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال : يا جبريل إن ملك الموت استأذن على ، وأخبره الخبر فقال جبريل : يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذى يريد بك ؟ لا والله تعالى ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا ، إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق ، قال : فلا تبرح إذن حتى يحىء ، وأذن للنساء فقال : يا فاطمة ادنى ، فأكبت عليه فنادى فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ، ثم قال : ادنى مني رأسك ، فأكبت عليه فنادى فرفعت رأسها وهى تضحك وما تطيق الكلام ، فكان الذى رأينا منها عجبا ، فسألنا بعد ذلك فقالت : أخبرني وقال : إني ميت اليوم ، فبكيت ثم قال : إني دعوت الله أن يلحقك بي في أول أهلي وأن يجعلك معي ، فضحكت ، وأذنت ابنيها منه فشمهما قالت : وجاء ملك الموت واستأذن فأذن له فقال الملك : ما تأمرنا يا محمد ؟ قال : القني برى الآن ، فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد ترده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا : طوى الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ، ومالي فيها حاجة إلا حضورك ، ثم لزوم موقفي لا والذى بعث محمدا بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله ، لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا ، قالت : فقامت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدري ، وجعل يغمرني عليه حتى يغلب وجهته ترشح رشحا ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أسلمت ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكذبت أقول له - إذا أفاق - بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى حبهتك من الرشح ؟ فقال : يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شذيقه كنفس الحمار ، فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا ، فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخى ، بعثه إلى أبي ، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يحىء أحد ، وإنما صدم الله عنه لأنه ولده جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أغمرني عليه قال : بل الرفيق الأعلى ، كأن الخيرة تعاد عليه ، فإذا أطاق الكلام قال : الصلاة الصلاة إنكم لاتزالون متماسكين ماصليتم جميعا ، الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو

= منفضا ، وأما ما في آخره من قول عائشة في الصحيحين من حديثها فقالت عائشة : يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء ! فقال : لمنكن صواجبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس .

يقول : الصلاة الصلاة ^(١) ، قالت عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين ^(٢) قالت فاطمة رضي الله عنها : ما لقيت من يوم الاثنين ، والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم - يوم أصيب على كثرم الله وجهه بالكوفة - مثلها : ما لقيت من يوم الاثنين ، مات فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه قتل علي ؛ وفيه قتل أبي ، ما لقيت من يوم الاثنين . وقالت عائشة رضي الله عنها : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس - حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الملائكة بثوبه - فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخط آخرون فلأثوا الكلام بغير بيان ، وبقي آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وليرجعنه الله عز وجل ، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموت ، إنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم ^(٣) وفي رواية أنه قال : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت ، والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيفي هذا . وأما علي فإنه أقعد فلا يبرح البيت . وأما عثمان فجعل لا يسكلم أحدا - يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به - ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد ، وإن كان الناس لم يرفعوا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال : والله لئذ لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم ﴿ إنك ميت ولأنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ .

وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه

(١) حديث عائشة : لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحواسنهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اخرجن عني ، هذا ملك يستأذن علي ... الحديث » بطوله في بحره ملك الموت ثم ذهابه ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم ، أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه : فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اعبط إلى حبيبي وصفي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه . وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال « يا ملك الموت أين خلقت حبيبي جبريل » قال خلفته في سماء الدنيا والملائكة يزورنه فيك ، فساكر بأسرع أن أتاه جبريل فقعده عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له ، وفيه ادن يملك الموت فأنته إلى ما أمرت به ... الحديث . وفيه : فدنا ملك الموت بمال قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه فقال ، إلى أن قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منسك ، وفيه عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحد : كان يكذب على وهب بن منبه ، وأبوه إدريس أيضاً متروك قاله الدارقطني ، ورواه الطبراني أيضاً من حديث المدين بن علي : أن جبريل جاءه أولاً فقال له عن ربك كيف تمهدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث معه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولاً فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله « افض لما أمرت به » وهو منسك أيضاً فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضاً من حديث ابن عباس في مجيء ملك الموت أولاً واستئذانه وقوله . لأرريك يقرئك السلام فقال « أين جبريل » فقال هو قريب مني الآن يأتي يخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل . الحديث وفيه المختار بن نافع منسك الحديث .

(٢) حديث عائشة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين . رواه ابن عبد البر

(٣) حديث عائشة : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اتهم الناس - حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه - فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون . وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ... الحديث إلى قوله (عند ربكم تختصمون) لم أجده أصلاً وهو منسك .

ثم أكب عليه فقبله ثم قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله تعالى ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رب محمداً فإنه حتى لا يموت قال الله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . . الآية ﴾ ^(١) ، فكان الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . وفي رواية : أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يصلي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة ، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال - فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ، فعظمت عن الصفة وجلالت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجلدنا لحزنك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لانفدنا عليك ماء العيون ، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمدوا ذكرا محالمان لا يبرحان ، اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ، ولنكن من باللك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقيم أحد لما خلف . من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا ^(٢) . وعن ابن عمر : أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عجب أهل البيت عجيجا سمعه أهل المصلى ، كلها ذكر شيئا ازدادوا ، فلما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال : السلام عليكم يا أهل البيت ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ الآية إن في الله خلفا من كل أسد ، ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة ، فآله تعالى فارجوا وبه فتقوا . فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء ، فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطاع أحدهم فلم ير أحدا ، ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته : يا أهل البيت اذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إن في الله عزاء من كل مصيبة ودعوا من كل رغبة ، فآله فاطيعوا وبأمره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) واستوفى الققعاق بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال : قام أبو بكر في الناس

(١) حديث : بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج لجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين . . . الحديث . إلى آخر قوله : وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة : أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسج حتى نزل ودخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مقبى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها . ولها من حديث ابن عباس : أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس . . . الحديث . وفيه : والله لسكان الناس لم يلهوا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . لفظ البخاري فيهما .

(٢) حديث : إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال - فأكب عليه فكشف عن وجهه . . . الحديث ، إلى قوله : واحفظه فينا ، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الغزاة من حديث ابن عمر بإسناد ضيف : جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه . . . الحديث إلى آخره . (٣) حديث ابن عمر في سماع التمزبة به صلى الله عليه وسلم : إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فآله فارجوا وبه فتقوا . ثم سمعوا آخر بده : إن في الله عزاء من كل مصيبة ودعوا من كل رغبة فآله فاطيعوا وبأمره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع . لم أجد فيه ذكر « اليسع » وأما ذكر « الخضر » في التمزبة فأنكر النووي وحده في كتب الحديث وقال : إنما ذكره الأصحاب . قلت : بل قد رواه الحاكم في المستدرك في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الغزاة من حديث أنس أيضاً قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله ليكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنسكين في أزار ورداء ، يتخطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذ بيضاً من باب البيت فبكي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل =

خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جالها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كاشع وأن الدين كاشع وأن الحديث كاشع وأن القول كاشع وأن الله هو الحق المبين ، اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك برصفتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك ، اللهم واجعل صلواتك ومعافاةك ورحمتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المنقنين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة . اللهم قرب زلفته وعظم رهاه وكرم مقامه وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة ، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم لإناك حميد مجيد ، أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت ، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعا ، فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ما عده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم .

وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم ؟ أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا : كذا وكذا ويوم كذا : كذا وكذا وقال تعالى في كتابه ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ فقال : والله لكأنى لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا ، أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ وصلوات الله على رسوله وعند الله نحسب رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس إلى أبي بكر .

وقالت عائشة رضي الله عنها : لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ما ندري كيف نغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله في ثيابه ؟ قالت : فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقى منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائما ثم قال قائل - لا يدري من هو - غسلا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثيابه ، فأنفذوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه . حتى إذا فرغوا من غسله كفن . وقال على كرم الله وجهه : أردنا خلع قميصه فنودينا لا نخلموا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه . فأقررناه فغسلناه في قميصه كما نغسل موتانا مستلقيا ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرع منه ، وإن معنا لحفيفا في البيت كالريح الرحاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ستكفون . فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك

= على أصحابه فقال : إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فإلى الله تعالى فأثبيرا ونظره إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يحبره الثواب . ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر : على الرجل ، فنظروا يمينا وشمالا فلم يروا أحدا ، فقال أبو بكر : لعل هذا الخضر أخو نينا عليه السلام جاء يعزينا . ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث علي بن أبي طالب : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت لسمع حسه ولا يرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم . فقال علي : تدرون من هذا ؟ هو الخضر . وفيه محمد بن جعفر الصادق تسلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي والمعروف عن علي بن الحسين مرسلان غير ذكر علي كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر الخضر .

سبدا ولابد لا لادفن معه . قال أبو جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة ^(١) ففي وفاته عبرة نامة للمسلمين به أسوة حسنة .

وفاة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

لما احتضر أبو بكر رضى الله تعالى عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :
لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرت يوما وضاق بها الصدر
فكشف عن وجهه وقال : ليس كذا ولكن قولى (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) انظروا
ثوبى هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فإن الحى إلى الجديد أخرج من الميت . وقالت عائشة رضى الله عنها -
عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه رييع يتسامى عصمة الأراذل
فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخلوا عليه فقالوا : ألا ندعوك طيبنا ينظر إليك؟ قال قد نظر
إلى طيبي وقال : إني فعال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسي رضى الله تعالى عنه يعوده فقال : يا أبا بكر
أوصنا فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك ، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله
فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك .

ولما اقل أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر رضى الله عنه ، فقال الناس
له : استخلفت عينا فظا غليظا فاذا تقول لربك ؟ فقال : أقول استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر
رضى الله عنه فجاء فقال : إني موصلك بوصية ؛ اعلم أن الله حقا في النهار لا يقبله في الليل وأن الله حقا في الليل لا يقبله
في النهار ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في
الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع
الباطل وتخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف ، وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز
عن سيئاتهم ، فيقول القائل : أنا أدون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء ؛ فإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم
صالح الذى عملوا ، فيقول القائل : أنا أفضل من هؤلاء ، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا
راهما ولا يلقى يديه إلى الهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب
إليك من الموت ولا بذلك منه ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بذلك منه ،
ولست بمعجزة .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا : يا خليفة رسول الله
صلى الله عليه وسلم زودنا فإننا نراك لما بك . فقالوا أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في
الافق المبين ، قالوا : وما الافق المبين ؟ قال : قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار ، يغشاه كل يوم مائة

(١) حديث أبي جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته ، وفيه : فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة
على قصبة . أما وضع المفرشة والقطيفة فالذى وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط
كتابنا ، وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته فتقدم أيضا .

رحمة ، فن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان ، اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلنى للنعيم ولا تجعلى للسعير ، اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيذا ، فلا تشقنى بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا يحص لها ما علمت ، فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك اللهم إن أحد الأيضاء حتى تشاء ، فاجعل شيتك أن أشاء ما يقربنى إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شئ إلا بإذنك ، فاجعل حركاتى فى تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به ، فاجعلنى من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا ، فاجعلنى من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيق به صدورهم ، فأشرح صدرى للإيمان وزينه فى قلبى ، اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك ، فأحبنى بعد الموت حياة طيبة وفتربنى إليك زلنى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك ، فأنت تفتى ورجاؤى ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال أبو بكر : هذا كله فى كتاب الله عز وجل :

وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون : كنت قائما غداة أصيب عمر ، ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس ، وكان إذا مر بين الصنفين قام بينهما ، فإذا رأى خلافا قال : استؤوا ، حتى إذا لم ير فيهم خلافا تقدم فكبر . قال : وربما قرأ سورة يوسف أو النحل - أو نحو ذلك - فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن أكبر فسمعته يقول : قتلنى - أو أكلنى - الكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة ، وطار العليج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميننا أو شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، فمات منهم تسعة - وفى رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا ، فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمر رضى الله تعالى عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فأما من كان يلى عمر فقد رأى ما رأيت ، وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر ؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله ! فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس انظر من قتلنى ! قال : فغاب ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة بن شعبه ، فقال عمر رضى الله عنه : قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا . ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة ! وكان العباس أكثرهم رقيقا فقال ابن عباس : إن شئت فعلت ؛ أى إن شئت قتلناهم ، قال : بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم ! فاحتمل إلى بيته فأنزلنا معه قال : وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ! قال : فقائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لا بأس . فأتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت . قال : فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بأشرفى من الله عز وجل ؛ قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وامت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال : وددت أن ذلك كان كفافا لأعلى ولالى . فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض ، فقال : ردوا على الغلام ، فقال : يا ابن أخى ارفع ثوبك فإنه أتى لثوبك وأتى لربك . ثم قال : يا عبد الله انظر ما على من الدين ؟ لحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه ، فقال : إن وفى به مال آل عمر فأداه من أموالهم ؛ وإلا فسل فى بنى عدى بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدم إلى غيرهم ، وأدعنى هذا المال وانطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقفل :

عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تغفل أمير المؤمنين فإنني لست اليوم للمؤمنين أميرا ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله وسلم واستأذن ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكي ، فقال : يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ولا وثرنه اليوم على نفسى ! فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال : ارفعوني ، فأسنده رجل إليه فقال : مالديك ؟ قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال : الحمد لله ما كان شيء أهم إلي من ذلك ! فإذا أنا قبضت فأحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر ! فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين .

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قنا فوجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فوجت داخلا فسمعنا بكاءها من داخل . فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين واستخلف ، فقال : ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له ، فإن أصابت الإمامة سعدا فذاك وإلا فليستعن به أيكم أمر ، فإنني لم أعزله من عجز ولا خيانة . وقال أوصي الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضاهم ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالانصار خيرا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئتهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم رده الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضاهم عن رضا منهم ، وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من وراءهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم . قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي ، فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب ، فقالت أدخلوه ، فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه ... الحديث .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال لي جبريل عليه السلام ليبيك الإسلام على موت عمر (١) ، وعن ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكفنه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم علي عمر وقال ما خافت أحد أحب إلي أن ألقي الله بمثل عمله منك ! وايم الله إن كنت لأظن لي جعلتك الله مع صاحبيك وذلك أني كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر (٢) ، فإنني كنت - لأرجو أن لأظن - أن يجعلك الله معهما .

وفاة عثمان رضي الله عنه

الحديث في قتله مشهور . وقد قال عبد الله بن سلام : أثبت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور ، فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى ! رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة - وهي خوخة في البيت - فقال : يا عثمان حصروك ؟ قلت نعم ، قال : عطشوك ، قلت نعم ، فأدلى إل دلو فيه ماء فشربت حتى رويت - حتى

(١) حديث : قال لي جبريل عليه السلام ليبيك الإسلام على موت عمر ، أخرجه أبو بكر الأجرى في كتاب المريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جداً وذكره ابن الجوزى في الموضوعات .

(٢) حديث ابن عباس قال : وضع عمر على سريره فتكفنه الناس يدعون ويصلون ، فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيراً أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر .. الحديث ، معني عليه .

إني لأجد برده بين يدي وبين كتفي - وقال لي : إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا ، فاخترت أن أفطر عنده ، فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا سمعناه يقول ، اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم - ثلاثا - قال والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة . وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال اثنوني بصاحبيكم الذين ألباكم على ، قال فجئ بهما كأنهما هما حملان أو حماران ، فأشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشتري رومة ، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين ، بخير له منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالي ، فأنتم اليوم تمنعونني أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم ، قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي ؟ قالوا نعم ، أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعونني أن أصلي فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم ، قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثياب بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرك الجبل حتى تساقط حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال : اسكن ثيابي فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم ، قال الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد (١) .

وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) اللهم إني أستعديك عايهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتني .

وفاة على كرم الله وجهه

قال الأصمغ الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها على كرم الله وجهه ، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متناقل ، فماد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام على شيء وهو يقول
أشدد حيازيمك للو ت فإن الموت لا فيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديسكا

فلما بلغ الباب الصغير شدد عليه ابن ملجم فضربه . فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضى الله عنه فجعلت تقول مالي وإصلاة الغداة ، قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة ؛ وقتل أبي صلاة الغداة . وعن شيخ من قريش أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال : فزت ورب الكعبة . وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله ، حتى قبض .

ولما ثقل الحسن بن علي رضى الله عنهما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال يا أخى لاى شيء تجزع ؟ تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى علي بن أبي طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك ، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك ، قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله .

وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيبا الحمد لله وأثنى عليه ثم قال : قد نزل من الأمر ما ترون ، وإن الدنيا قد تغيرت وتسكرت وأدبر

(١) حديث ثمامة بن حزن القشيري : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ، ، الحديث أخرجه الترمذى وقال حسن والبخارى

معروفها ، والنشمرت حتى لم يبق منها إلا كصباية الإناء ، الأحسبي من عيش كالمرعى الوبيل ، الاترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ، لا يرغب المؤمن في لقاء الله تعالى ، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرما .

الباب الخامس : في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال : أقعدوني ، فأقعد لجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال : تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ! ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان ، وبكى حتى علا بكأوه وقال : يا رب أرحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بمهلك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش : أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فرأوا في جلده غصونا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا وباستلذاذنا بعيشنا ، فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة ، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من دار ، ثم أف لها من دار . ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إنى من زرع قد استحصد وإنى وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى ، كما كان من قبلى خيرا منى ! ويا يزيد إذا وفى أجلى فول غسلى رجلا ليلىا ، فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعن الغسل وليجهر بالتكبير ، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفى وفى وأذنى وعينى ، واجعل الثوب على جلدنى دون أكفانى ، ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين ، فإذا أدرجتمونى فى جديدى ووضعتونى فى حفرتى فخلوا معاوية وأرحم الراحمين : وقال محمد بن عقبة : لما نزل بمعاوية الموت قال يا ليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى وإنى لم أَل من هذا الأمر شيئا .

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك : ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدي يوما بيوم ، لم أَل من أمر الدنيا شيئا ، فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم تتمن ما هم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه : كيف نجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدنى كما قال الله تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ الآية ومات .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان - امرأة عمر بن عبد العزيز - كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولوساعة من نهار . فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده فجاءت فى بيت آخر - بين وبينه باب وهو فى قبة له - فسمعتة يقول ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ ثم هدا فجعلت لا أسمع حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له : انظر أنا هم هو ؟ فلما دخل صاح ، فوثبت فإذا هو ميت . وقيل له لما حضره الموت : أعهد يا أمير المؤمنين ! قال : أحذركم مثل مصرعى هذا فإنه لا بد لكم منه . وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم ! قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال : فتعالج يا أمير المؤمنين فإنى أخاف أن تذهب نفسك ، قال : ربي بخير مذهوب إليه ، والله لو علمت أن شغائى عند شجرة أدنى

مارفعت يدي إلى أذني فتناولته . اللهم خراعمر في لقائك ؛ فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل : لما حضرته الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال : أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق ، فوالله لو عدلت فيهم لحقت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقنها الله حجتها ؛ فكيف بكثير مما ضيعنا ؟ وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات ؛ ولما قرب وقت موته قال : أجلسوني فأجلسوه فقال : أنا الذي أمرتني فتصرت ونهيتني فعدصيت - ثلاث مرات - ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحد النظر فقيل له في ذلك فقال : إني لأرى خضرة ؛ ما هم يأنس ولا جن ثم قبض رحمه الله .

وحكى عن هرون الرشيد أنه انتقى أكفاه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول (ما أغنى عنى ماله هلك عنى سلطانيه) .

وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه وكان يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه . وكان المتعصم يقول عند موته : لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له : لا بأس عليك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ليس إلا هذا ؛ لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة .

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة - وقد نظر إلى صناديق لبنيه : من يأخذها بما فيها ليته كان بهرا . وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لي فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لي . فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ، ولما حكى ذلك للحسن قال : أقالها ؟ قيل : نعم ، قال : عسى .

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين

ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذ رضى الله عنه الوفاة قال : اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظم الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر . ولما اشتد به النزاع ونزع نزعا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتوح طرفه ثم قال رب ما أخنقني خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك .

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى جزعا على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلاغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب ^(١) فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما .

ولما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته : واحزنه فقال : بل واطرباه أغدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه . وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال (لمثل هذا فليعمل العاملون) .

ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال : أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أو بالنار ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ فقال ، والله ما أبكى لذنب أعلم أني أتيته ؛ ولكن

(١) حديث : لما حضرت سلمان الوفاة بكى ، وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يكون بلاغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب ، أخرجه أحمد والحاكم وصححه ، وقد تقدم .

أخاف أني أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم .

ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيلاً له ما يبكيك ؟ قال ما أبكى جزعا من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكن أبكى على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء .

ولما حضرت فضيلاً الوفاة غشى عليه ، ثم فتح عينيه وقال : وابعده سفراه واقلة زاده

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه . اجعل رأسي على التراب ، فبكى نصر فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً ! قال : اسكت ! فإنني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء ، ثم قال له لقني ولا تعد علي ما لم أتكلم بكلام ثان .

وقال عطاء بن يسار : تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له : نجوت ! فقال : ما آمنك بعد . وبكى بعضهم عند الموت فقيلاً له : ما يبكيك ؟ . آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يحجود بنفسه فقال : إن أمراً هذا أوله لجدير أن يتقى آخره ، وإن أمراً هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله . وقال الجريري : كنت عند الجنيد في حال نزعه . وكان يوم الجمعة ويوم النيروز . وهو يقرأ القرآن فحتم ، فقلت له : في هذه الحالة يا أبا القاسم ؟ فقال : ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صيفتي ؟ وقال رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخزاز وهو يقول :

حنين قلب العارفين إلى الذكر	وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤوس للنساياء عليهم	فأغفوا عن الدنيا كما غفاه ذى الشكر
همومهم جسوة بمعسكر	به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه	وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسرى
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم	وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد : إن أبا سعيد الخزاز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال : لم يكن يعجب أن تطير روحه اشتياقاً . وقيل لذي النون - عند موته ، ما تشتهي ؟ قال : أن أعرفه قبل موتى بلحظة . وقيل لبعضهم وهو في النزاع ! قل الله فقال : إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله . وقال بعضهم : كنت عند بمشاد الدينوري فقدم فقيراً وقال : السلام عليكم ؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال : فأشاروا إليه بمكان - وكان ثم عين ماء - لجدد الفقير الضوء وركع ماشاء الله ، ومضى إلى ذلك المكان ومدّ رجله ومات . وكان أبو عباس الدينوري يتكلم في مجلسه ، فصاحت امرأة تواجدت فقال لها : موتى ، فقامت المرأة ، فلما بلغت الدار التفتت إليه وقالت : قد مت ووقعت ميتة . ويحكى عن فاطمة - أخت أبي علي الروذباري - قالت : لما قرب أجل أبي علي الروذباري - وكان رأسه في حجرى - فتش عينيه وقال : هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تزد ما ثم أنشأ يقول :

وحقك لا نظرت إلى سواك بعين مودة حتى أراك
أراك معذبى بفتور لحظ وبالحد المورد من حياك

وقيل للجنيد : قل لا إله إلا الله ، فقال : مانسيته فأذكره . وسأل جعفر بن نصير بكر بن الدينوري - خادم السبلي - ما الذي رأيت منه ؟ فقال : قال علي درهم مظلمة ، وتصدقته عن صاحبه بألف فما على قلبي شغل أعظم منه ! ثم

قال : وضئى للصلاة ، ففعلت فذسيت تحليل لحيته - وقد أمسك على لسانه - فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال : ماتقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة ؟ وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر - وكان يشق عليه - كأنك تحب الحياة ؟ فقال : القدوم على الله شديد . وقيل لصالح بن مسمار : ألا توصي بابنك وعمالك ؟ فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره . ولما احتضر أبو سليمان الداراني أنابه أصحابه فقالوا أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم ، فقال لهم ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ؟ ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم واحتضر بعضهم فبكى بكاء شديدا فقال لها ما يبكيك ؟ فقالت عليك أبكى . فقال إن كنت بأية فابكى على نفسك . فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة . وقال الجنيد دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تجدك ؟ فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طيبي ما بي والذي بي أصابي من طيبي

فأخذت المروحة لأروحه فقال ، كيف يجدر بريح المروحة من جوفه يحترق ؟ ثم أنشأ يقول :

القلب يحترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له بما جناه الهوى والشوق والقلق

يارب إن يك شيء فيه لي فرج فامنن علي به ما دام بي رمق

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلى دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله ، فأنشأ يقول :

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

لا أتاح الله لي فرجا يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزع فسلم عليه فلم يجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرني فإنني كنت في وردي . ثم ولي وجهه إلى القبلة وكبر ومات . وقيل للكناني لما حضرته الوفاة ما كان عملك ؟ فقال لو لم يقرب أجلى ما أخبرتكم به . وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبت عنه . وحكى عن المعتز قال : كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فإنه كان وكان - فذكرت محاسنه - فأفاق فقال من المتكلم ؟ فقلت أنا . فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لي : إني بسكل سخى رفيق ، ثم طفى . ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهدته حذيفة فوجدته قلما فقال : يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ؟ فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أنى صدقت الله في شيء من عملي . فقال حذيفة وأعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله . وعن المغازلي قال دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة - وهو عليل - وهو يقول يمكئك أن تعمل ما تريد فارفق بي ، ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوري في وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع - من باب الدعاء - فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي . وقيل لرويم عند الموت : قل لا إله إلا الله ، فقال : لا أحسن غيره . ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال أليس ثم أمر ؟ ودخل المزني على الشافعي رحمه الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له كيف أصبحت

يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدنيا راحلا والإخوان مفارقا واسوء عملي ملاقيا ولكأس المنية شاربا وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ؟ ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضائق مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرتني بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكترما
ولولاك لم يغوى إبليس عابدا فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضرت أحمد بن خضروية الوفاة سئل عن مسألة قدمعت عيناه وقال يابني باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هر ذا يفتح الساعة لي ، لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة ؟ فآن لي أو ان الجواب .

فهذه أقاويلهم ، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله ، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم .

الباب السادس : في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر ، وحكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا فساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون ، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدررون ، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسابهم وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها ، على القرب وكان قد ، ولعله في غد أو بعد غد . ويروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال امضوا فإننا على الأثر . وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال اغدوا فإننا رائحون . موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لاعقل له . وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة لحدثني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه . ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول والله لا أقر عينى حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولا أعلم مادمت حيا . وقال الأعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزى ؟ لحزن الجميع . وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعا باكيا .

فهكذا كان خوفهم من الموت . والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأنهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ، ولا يتفكر أفراده وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ، ولا يتفكر واحد منهم - إلا ما شاء الله - في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها . ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بآثمة المعاصي والذنوب ، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنيننا . فنبسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لاعلى الميت . نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم ، إنه نجا من أهوال ثلاثة وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الخاتمة وقد أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء جلست إلى جرير وهو يهلى على كانه شعرا فأطلعت جنازة فأمسكت وقال شيتنى والله هذه الجنائز . وأنشأ يقول :

تروينا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مديرات

كروعة ثلة لغار ذئب فلساغاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز : التفكير والتنبه والاستعداد والمشى أمامها على هيئة التواضع - كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه - ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الحاتمة مخطرة لا تدرى حقيقتها . ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، لحضرها هو وصلى عليها ، فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال : یرحمک الله یا أبا فلان فلقد صحبت عمرک بالتوحيد وعفرت وجهک بالسجود ، وإن قالوا مذنب وذو خطايا ؟ فمن منا غير مذنب وغير ذی خطايا ؟ وبجی أن رجلا من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه ، فاستأجرت حمالين وحماتها إلى المصلى فاصلى عليه أحد ، فحمتها إلى الصحراء للدفن ؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها ، فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان ، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال : قيل لي في المنام انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليه فإنه مغفور له ، فزاد تعجب الناس ؛ فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته ؟ قالت : كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولا بشرب الخمر ؛ فقال : انظري هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير ؟ قالت : نعم ؛ ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح في جماعه ثم يعود إلى الماخور ويشغل بالفسق (والثاني) أنه كان أبدا لا يخالو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده ، وكان شديد التفقد لهم . (والثالث) أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول : يارب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث ؟ يعني نفسه . فأنصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره . وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فإن تنج منها تنج من ذی عظيمة وإلا فإنی لا إخالک ناجيا

بيان حال القبر وأقاربهم عند القبور

قال الضحاک : قال رجل يارسول الله من أزهّد الناس ؟ قال : من لم ينس القبر والى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعدّ غدا من أيامه وعدّ نفسه من أهل القبور ^(١) ، وقيل ادعى كرم الله وجهه : ما شأنك جاورت المقبرة ؟ قال : إني أجدهم خير جيران أجدهم جيران صدق يكفون الالسة ويذكرون الآخرة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه ^(٢) ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه . فبكي وبكيت وبكوا فقل : ما يبكيكم ؟ ، قلنا : بكينا لبكائك ؛ قال : هذا قبر أمي آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي ، فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى علي ، فأدركني ما يدرك الولد من الرقة ^(٣) ، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته ،

(١) حديث الضحاک : قال رجل يارسول الله من أزهّد الناس ؟ قال : من لم ينس القبور والى .. الحديث « تقدم .

(٢) حديث « ما رأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه » تقدم في الباب الثالث من آداب الصعبة .

(٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم ... الحديث « وفيه » هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي ... « وتقدم في آداب الصعبة أيضا ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب ، وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه أيوب بن هاني ضعه ابن معين وقال أبو حاتم صالح .

فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ وَقِيلَ لَهُ : تَذَكَّرِ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فَلَا تَبْكِي ! وَتَبْكِي إِذَا وَقَفْتَ عَلَى قَبْرِ ؟ فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِنْ الْقَبْرَ أَوَّلَ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبُهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ » (١) ، وَقِيلَ إِنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ نَظَرَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَتَزَلَّ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، فَقِيلَ لَهُ هَذَا شَيْءٌ لَمْ تَكُنْ تَصْنَعُهُ ؟ فَقَالَ ذَكَرْتُ أَهْلَ الْقُبُورِ وَمَاحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِهِمَا . وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَوَّلَ مَا يَكَلِّمُ ابْنُ آدَمَ حَفْرَتَهُ فَتَقُولُ أَنَا بَيْتُ الدُّودِ وَبَيْتُ الْوَحْدَةِ وَبَيْتُ الْغُرْبَةِ وَبَيْتُ الظُّلْمَةِ ، هَذَا مَا أَعَدَدْتُ لَكَ فَمَا أَعَدَدْتُ لِي ؟ وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ الْأَخْبَرُكُمْ بَيَّوْمَ فَقَرَى ، يَوْمَ أَوْضَعَ فِي قَبْرِى . وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقْعُدُ إِلَى الْقُبُورِ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : أَجْلِسْ إِلَى قَوْمٍ يَذْكُرُونَ مَعَادِي وَإِذَا قُمْتَ لَمْ يَغْتَابُونِي . وَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ يَأْتِي الْقُبُورَ لَيْلًا وَيَقُولُ : يَا أَهْلَ الْقُبُورِ مَا لِي إِذَا دَعَوْتُكُمْ لَا تَجِيبُونِي ! ثُمَّ يَقُولُ : حَيْلُ اللَّهِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جَوَابِي وَكَأَنِّي بِي أَكُونُ مِثْلَهُمْ ثُمَّ يَسْتَقْبِلُ الصَّلَاةَ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِبَعْضِ جُلَسَائِهِ : يَا فُلَانُ لَقَدْ أَرَقْتَ اللَّيْلَةَ أَتَفَكَّرُ فِي الْقَبْرِ وَسَاكِنِهِ ، وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ الْمَيِّتَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ فِي قَبْرِهِ لَأَسْتَوْحَشْتُ مِنْ قُرْبِهِ بَعْدَ طَوْلِ الْإِنْسِ مِنْكَ بِهِ ! وَلَرَأَيْتَ يَبْتَاحُجُولَ فِيهِ الْهُوَامُ وَيَجْرِي فِيهِ الصَّدِيدُ وَتَخْتَرِقُهُ الدِّيدَانُ مَعَ تَغْيِيرِ الرِّيحِ وَبَلْبِلِ الْإِكْفَانِ ، بَعْدَ حَسَنِ الْهَيْئَةِ وَطَيِّبِ الرِّيحِ وَنَقَاءِ الثَّوْبِ ، قَالَ : ثُمَّ شَهَقَ شَهَقَةً خَرَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ . وَكَانَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ يَقُولُ : أَيُّهَا الْمَقْبُورُ فِي حَفْرَتِهِ وَالْمَتَخَلِّي فِي الْقَبْرِ بِوَحْدَتِهِ الْمُسْتَأْنَسُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ بِأَعْمَالِهِ لَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ أَعْمَالِكَ اسْتَبْشَرْتَ وَبَأَيِّ إِخْوَانِكَ اغْتَبَطْتَ ؟ ثُمَّ يَبْكِي حَتَّى يَبِيلَ عِمَامَتَهُ ثُمَّ يَقُولُ : اسْتَبْشِرْ بِاللَّهِ بِأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ وَارْتَبِطْ بِاللَّهِ بِإِخْوَانِهِ الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَانَ إِذَا نَظَرَ إِلَى الْقُبُورِ خَارِجًا يَخُورُ الثُّورُ . وَقَالَ حَاتِمُ الْأَصَمِ مِنْ مَرِّهِ بِالْمَقَابِرِ فَلَمْ يَتَفَكَّرْ لِنَفْسِهِ وَلَمْ يَدْعُ لَهُمْ فَقَدْ خَانَ نَفْسَهُ وَخَانَهُمْ . وَكَانَ بَكْرُ الْعَابِدِ يَقُولُ يَا أُمَامَةَ لَيْتَكَ كُنْتَ بِي عَقِيمًا إِنْ لَابَنُكَ فِي الْقَبْرِ حَبَسَا طَوِيلًا وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مِنْهُ رَحِيلًا . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَنْ مَعَاذٍ : يَا ابْنَ آدَمَ دَعَاكَ رَبُّكَ إِلَى دَارِ السَّلَامِ فَانْظُرْ مِنْ أَيْنَ تُجِيبُهُ ؟ إِنْ أُجِيبْتَهُ مِنْ دُنْيَاكَ وَاسْتَفْغَلْتَ بِالرَّحَلَةِ إِلَيْهِ دَخَلَتْهَا ، وَإِنْ أُجِيبْتَهُ مِنْ قَبْرِكَ مَنَعَتْهَا . وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْمَقَابِرِ يَقُولُ مَا أَحْسَنَ ظَوَاهِرَكَ إِنَّمَا الدَّوَاهِي فِي بَوَاطِنِكَ ! وَكَانَ عَطَاءُ السُّلَمِيِّ إِذَا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ خَرَجَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ ثُمَّ يَقُولُ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ مَتَمُّ فَوَامُوتَاهُ ! وَعَايِزَتُمْ أَعْمَالَكُمْ فَوَاعْمَلَاهُ ! ثُمَّ يَقُولُ غَدَا عَطَاءُ فِي الْقُبُورِ غَدَا عَطَاءُ فِي الْقَبْرِ ، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ دَأْبَهُ حَتَّى يَصْبَحَ وَقَالَ سَفْيَانُ مِنْ أَكْثَرِ مَنْ ذَكَرَ الْقَبْرَ وَجَدَهُ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ وَجَدَهُ حَفْرَةً مِنْ حَفْرِ النَّارِ . وَكَانَ الرَّبِيعُ بْنُ خَشِيمٍ قَدْ حَفَرَ فِي دَارِهِ قَبْرًا ، فَسَكَنَ إِذَا وَجَدَ فِي قَلْبِهِ قَسَاوَةً دَخَلَ فِيهِ فَاضْطَجَعَ وَمَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يَقُولُ ﴿ رَبِّ ارْجِعْنِي لَعَلِّي أَعْمَلُ ضَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ يَرُدُّهَا ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَى نَفْسِهِ يَارَبِيعُ قَدْ رَجَعْتَكَ فَاْعْمَلْ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَرْبٍ تَتَعَجَّبُ الْأَرْضُ مِنْ رَجُلٍ يَمُودُ مَضْجَعَهُ وَيَسْوِي فِرَاشَهُ لِلنَّوْمِ ، فَتَقُولُ يَا ابْنَ آدَمَ لَمْ لَا تَذْكُرْ طَوْلَ بِلَاكِ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَيْءٌ ! وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ خَرَجَتْ مَعَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الْقُبُورِ بَكَى ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى فَقَالَ يَا مَيْمُونُ هَذِهِ قُبُورُ آبَائِي بَنِي أُمِيَةِ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي لَذَاتِهِمْ وَعَيْشِهِمْ ! أَمَا تَرَاهُمْ صَرَعِي قَدْ حَلَّتْ بِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَاسْتَحْكَمَ فِيهِمُ الْبَلَى وَأَصَابَتْ الْهُوَامُ مَقِيلًا فِي أَبْدَانِهِمْ ؟ ثُمَّ بَكَى وَقَالَ وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَنْعَمَ مِنْ صَارَ إِلَى هَذِهِ الْقُبُورِ وَقَدْ أَمِنَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَقَالَ ثَابِتُ الْبُنَاتِيِّ دَخَلْتُ الْمَقَابِرَ فَلَمَّا قَصَدْتُ الْخُرُوجَ مِنْهَا فَإِذَا بِصَوْتِ قَائِلٍ يَقُولُ يَا ثَابِتُ لَا يَغْنَرُنَاكَ صَمُوتُ أَهْلِهَا فَكَمْ مِنْ نَفْسٍ مَغْمُومَةٍ فِيهَا . وَيُرْوَى أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ نَظَرَتْ إِلَى جَنَازَةِ زَوْجِهَا الْحُسَيْنِ بْنِ الْحُسَيْنِ فَغَضَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ :

(١) حَدَّثَ عُثْمَانُ : كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرِ بَكِي حَتَّى يَبْلُغَ لِحْيَتَهُ وَفِيهِ : إِنْ الْقَبْرَ أَوَّلَ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ . أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ وَابْنُ مَاجَهٍ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَتَقَدَّمَ فِي آدَابِ الصَّحْبَةِ .

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة فلعوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا
صوتا من جانب البقيع : هل وجدوا ما فقدوا ؟ فسمعوا من الجانب الآخر : بل يتسوا فانقلبوا . وقال أبو موسى
التميمي : توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة - وفيهم الحسن - فقال له الحسن : يا أبا فراس
ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافى أشد من القبر النهابا وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها من منكم المغمور في ظلماتها
ومن المكثرم منكم في قعرها قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جابجوك لأخبروك بالسن تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل في روضة يفضى إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب في حفرة يأوى إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد ألدوكا
فكيف أذوق لطمع الكرى وأنت يمينك قد وسدوكا

ثم قالت : يا ابنه بأى خديك بدأ الدود ؟ فصعق داود مكانه وخز مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار : مررت
بالمقبرة فأنشأت أقول :

أتيت القبور فناديتها فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه وأين المزكى إذا ما افتخر

قال : فنوديت من بينها ، أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفسانوا جميعا فما خبير وماتوا جميعا ومات الخبير
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما ترى معتبر

قال : فرجعت وأنا باك

آيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تتاجيك أجداث وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت تموت
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهدم
وقال ابن السماك : مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربي جنات قبري كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي وما يألون أن يجحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيالله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب محتلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يا من يعتد عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا في النقص منغمسا وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغزته ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به عن الجواب لسانا ما به خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأجرة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعى رأيت عيناي بينهم مسكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لي قائل صار لقمان إلى رمسه
فأين ما يوصف من طبعه وحذقه في الماء مع جسسه
هيات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لي أمل قصر بي عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى كل إلى مثله سينقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت . والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم ، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بخذا فيرها ، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور ، فأنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب ، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب ، فإيهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت

قادر على تلك الساعة ، ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيق لها ، فوطن نفسك على التحسر على تضيقهما عند خروج الأمر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار . فقد قال بعض الصالحين : رأيت أخا لي في الله - فيما يرى النائم - فقلت : يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال : لأن أقدر على أن أقولها - يعني الحمد لله رب العالمين - أحب إلى من الدنيا وما فيها ، ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونني فإن فلانا قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها

بيان أقاوليهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت - منزلة مالهو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه ، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعله أنه لاحق به على اقرب ، وليس بينهما إلا تقدم وتأخر . وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر ، وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه ، لاسيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله »^(١) ، وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب . وقال زيد بن أبل : توفي ابن لداود عليك السلام لحزن عليه حزنا شديدا ف قيل له : ما تان عدله عندك ؟ قال ملء الأرض ذهابا قيل له : فإن لك من الاجر في الآخرة مثل ذلك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له الجنة من النار » فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو اثنان ؟ قال : « أو اثنان »^(٢) ، وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقرب إلى الإجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال : اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه لحق رجائي وآمن خوفي . ووقف أبو سنان على قبر ولده فقال : اللهم إني قد غفرت له ماوجب لي عليه فاغفر له ماوجب لك عليه فإنك أجود وأكرم . ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال : اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر نام أبوه عمر بن ذر - بعد ما وضعه في لحده - فقال : يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك ؟ ثم قال : اللهم إن هذا ذر متعتني به مامتعنتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه ، اللهم وقد كنت ألزمتك وطاعتي ، اللهم ما وعدتني عليه من الاجر في مصيبتى فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه . فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه : ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا وتركناك ولو أقنما نفعناك ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : ما رأيت مثل هذه البضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن افعلت : يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد ، قال : فكيف ؟ قالت : إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الاضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر : أترى أن أريك كيف ذبح أبي الشاة ؟ قال : نعم ، فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا متشحطا في دمه ، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله ، فخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر ، قالت : فأرداني الدهر كما ترى . فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع ، فما من مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

(١) حديث « لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله » لم أجده فيه ذكر « مائة فارس » وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة « سقط أقدامه بين يدي أحب إلى من فارس أخلفه خافي » .

(٢) حديث « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم ... الحديث » تقدم في الزكاح .

بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار ، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد (١) ، .
 روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا (٢) ، وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم ير بأكيا أكثر من يومئذ (٣) ، وفي هذا اليوم قال : أذن لي في الزيارة دون الاستغفار (٤) ، كما أوردنا من قبل . وقال ابن أبي مليكة : أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت : يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبر أخى عبد الرحمن ، فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت نعم ، ثم أمر بها (٥) ، ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر ، فإنهن يكثرن الهجر على رموس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها ، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظام ، والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها . نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاختصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر . وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زر القبور تذكروا بها الآخرة ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة ، وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين في ظل الله (٦) ، وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زروا موتاكم وسلوا عليهم فإن لكم فيهم عبرة (٧) ، وعن نافع أن ابن عمر كان لا ير بقر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام ، فتصلي وتبكي عنده . وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : من زار قبر والديه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا (٨) ، وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارئين (٩) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من زار قبري فقد

- (١) حديث : نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك . أخرجه مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .
 (٢) حديث على : كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا ، رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى : غير أن لا تقولوا هجرا ، وفيه على بن زيد بن جده عن ربيعة بن النابغة قال البخاري لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات (٣) حديث : زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم ير بأكيا أكثر من يومئذ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخرس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها
 (٤) حديث : وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار ، تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة : استأذنت ربي أن أستغفر لأبي فلم يأذن لي ، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي .
 (٥) حديث ابن أبي مليكة : أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت : يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت : من قبر أخى عبد الرحمن قلت : أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت : نعم ثم أمر بها . أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد
 (٦) حديث أبي ذر : زر القبور تذكروا الآخرة واغسل الموتى ، فإن جملة جسد خاو موعظة بليغة . الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد (٧) حديث ابن أبي مليكة : زروا موتاكم وسلوا عليهم وسلوا عليهم ، الحديث ، أخرجه ابن أبي الدنيا فيه حكاه مسندا وإسناده حسن . (٨) حديث : من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا ، أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك (٩) حديث ابن سيرين : إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارئين ، أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عقبه أمي العيزار عن محمد بن جحادة عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبه والعمات بن الحجاج كلاهما ضعيف .

وجبت له شفاعتي ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من زارني بالمدينة محسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة ^(٢) ، وقال كعب الأحبار : ما من لجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه .

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً بوجهه الميت ، وأن يسلم ولا يمسه ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى . قال نافع : كان ابن عمر رأيت مائة مرة أو أكثر يحجى إلى القبر فيقول : السلام على النبي ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي ، وينصرف . وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم ^(٣) ، وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقهم سلامهم ؟ قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر لرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام . وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصماً في منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت ؟ قال بلى ، فقلت أين أنت ؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى أبي بكر ابن عبد الله المزني فتتلاقى أخباركم ، قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيأت ألبيت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال نعم نعم فسلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين ؟ قال بلغني أن المرقى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده . وقال الضحاك من زار قبراً قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته ، قيل وكيف ذلك ؟ قال لمساكن يوم الجمعة . وقال بشر ابن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال آلس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأمسيت ذات ليلة فأنصرفت إلى أهلي ولم آت إلى المقابر فأدعوا كما كنت أدعو ، فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءوني فقلت ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم ؟ قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت وما هي ؟ قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها ، قلت فإني أعود لذلك ، فما تركتها بعد ذلك . وقال بشار بن غالب النجرائي رأيت رابعة العدوية العابدة في منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على طبق من نور بخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذلك ؟ قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للبرق فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق من نور وخمر مناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الميت في قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه

(١) حديث « من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي » تقدم في أسرار الحج (٢) حديث « من زارني بالمدينة محسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة » تقدم فيه (٣) حديث عائشة « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن سمان ولم ألف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشبيلي .

من أبيه أو أخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كان أحب إليه من الدنيا وما فيها ، وإن مدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار ^(١) وقال بعضهم مات أخ لي فرأيت في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك ؟ قال أتاني آت بشهاب من نار فقلوا أن داعيا دعالي لرأيت أنه سيضربني به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال يا سعيد إذا مات فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ، ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعدا ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له اذكر ماخرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنتك رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن إماماً ، فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ، ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما ، فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال : فلينسبه إلى حواء ^(٢) ،

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور . روى عن علي بن موسى الحداد قال كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحديا هذا إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر بن اسماعيل الحلبي ؟ قال ثقة : قال هل كتبت عنه شيئا ؟ قال نعم ، قال أخبرني مبشر بن اسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك ، فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ . وقال محمد بن أحمد المروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقروا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد ، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم . وقال أبو قلابة : أقبلت من الشام إلى البصرة فنزات الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسي على قبر فتمت ثم تذهبت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول لند أذيتني منذ الليلة ، ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا أقرتهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نورا مثل الجبال

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها ، وللزور الانتفاع بدعائه . فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به . وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزائه وكيف يبعث من قبره ؟ وأنه على القرب سيلحق به كما روى عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب ، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني أنها عوتبت ، في كثرة إتيانها المقابر فقالت إن القلب القاسي إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى ، وإنى لآتي القبور فسكأنى

(١) حديث « ما الميت في قبره إلا كالنريق المتنوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له .. الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي قال : شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال : يا سعيد إذا مات فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة ... الحديث ، في تلقين الميت في قبره أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف .

انظر وقد خرجوا من بين أطباؤها ، وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعففة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدسمة ، فيا لها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشد تلفها للأبدان ، بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبدالعزيز ؛ حيث دخل عليه ففتنه جب من تغير صورته لكثرة الجهاد والعبادة فقال له : يا فلان لو رأيتى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحذقتان فسالنا على الحدين وتخلصت الشفتان عن الأسنان ، وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ، وتأت البطن فملا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن .

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقموا فيه »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تذكروا موتاكم إلا بخير فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار لحسبهم ما هم فيه »^(٣) ، وقال أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليها شراً فقال عليه السلام « وجبت » ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وجبت » فسأله عمر عن ذلك فقال « إن هذا أثنيتم عليه خيراً فوجب له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجب له النار » وأنتم شهداء الله في الأرض »^(٤) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد لموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى للملائكة أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبادى وتجاوزت عن عيسى بن عيسى »^(٥) .

الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور بيان حقيقة الموت

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنوناً كاذبة قد أخطأوا فيها . فظن بعضهم : أن الموت هو العدم ، وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر ، وأن موت الإنسان كوت الحيوانات وجفاف النبات . وهذا رأى الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر . وظن قوم : أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر . وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد ، وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً .

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذى تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد

(١) حديث « إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقموا فيه » أخرجه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد
(٢) حديث « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » أخرجه البخارى من حديث عائشة أيضاً
(٣) حديث « لا تذكروا موتاكم إلا بخير » الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة بإسناد جيد متصراً على ما ذكر منه هنا بلفظ « ملكاكم » وذكر الزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة الذاتى والعلبرانى (٤) حديث أنس : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليها شراً فقال « وجبت » الحديث ، تنق عليه (٥) حديث أبى هريرة : إن العبد لموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك . الحديث أخرجه أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل « ما من عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث آيات من جيرانه الأديين بخير إلا قال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادى على ما عملوا وغفرت لهم ما أعمل »

واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمه تهجم عليه قبل الدفن .

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعنى عنه ، ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتمادا على أن الملك يتساهل في أمره ، أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دوت فيها جميع فواحشه وجنائياته ذرة ذره وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والحجلة والحياء والنحسر والندم . فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نعوذ بالله منه ، فإن الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما . فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدا أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين ، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة .

نعم لا يمكن كشف الخطاء من كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها ، ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ، ولا أن يزيد على أن يقول : الروح من أمر ربي ^(١) ، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ،

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة (أما الآيات) فأورد في الشهداء إذ نال آمالى (ولا نحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين) ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فقبل يارسول الله أتأديهم وهم أموات ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسى بيده إنهم لا يسمعون لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرُونَ على الجواب ^(٢) ، فهذا نص في روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفة نفسها والآية نص أرواح في الشهداء . ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة . وقال صلى الله عليه وسلم : القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ^(٣) ، وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخير ، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله .

وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة ^(٥) ، وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال : كنا مع علقمة في جنازة فقال : أما هذا فقد قامت قيامته وقال على كرم الله وجهه :

(١) حديث : إنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح ونزول قوله آمالي (وبسئلوكم عن الروح) وقد تقدم . (٢) حديث : ناداه من قتل من صناديد قريش يوم بدر : يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا ... أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب . (٣) حديث : القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة . أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف . (٤) حديث أنس : الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته . أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف وقد تقدم . (٥) حديث : إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالمعدة والعشي . الحديث . متفق عليه من حديث ابن عمر .

حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانات القبر وغدى ورج عليه برزقه من الجنة ^(١) ، وقال مسروق : ما غبطت مؤمنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوائيد : كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب؟ قال : الموت ، قلت : فإن لم يموت؟ قال : يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن ، والموت إطلاق المؤمن من السجن . وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب الانس بالدنيا ، والانس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء . فكل ماسوى الله وذكره والانس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة . ولهذا قال عبد الله بن عمرو . إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفصح في الأرض ويتقلب فيها . وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه ؛ فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير طائق ولا دافع .

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ؛ لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته ، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع ، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها ، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه ؛ وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدرك الموت عليه فيتغير . والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة . فلهذا عظم النعيم ، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريد قال الله تعالى ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم . وهذا النعيم يدركه الشهيد - كما انقطع نفسه - من غير تأخير . وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين . وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع لجميع أحاديث الشهداء تدل عليه ، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى ، فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر : ألا أبشرك يا جابر ، وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال : بلى بشرك الله بالخير فقال : إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعدته بين يديه وقال تمن على يا عبدى ما شئت أعطيكه فقال : يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع ^(٢) ، وقال كعب : يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له : لم تبكي وأنت في الجنة؟ قال : أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة ؛ فكنت أشتى أن أرد فأقتل فيه قتلات .

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ،

(١) حديث أبي هريرة : من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتاني القبر . أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنه القبر وقال ابن أبي الدنيا : فتان . (٢) حديث عائشة : ألا أبشرك يا جابر ... الحديث ، وفيه : إن الله أحيا أباك فأقعدته بين يديه . الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد فيه ضعف وللمزمذ وحسنه وابن ماجه من حديث جابر . ألا أبشرك بما أتى الله به أباك . قال : بل يا رسول الله ... الحديث ، وفيه فقال : يا عبدى تمن على أعمالك قال يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه لأنه سبق مني أنهم لا يرجعون .

ويكون مثاله كالحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الاكتاف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات « أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه »^(١) ، فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم . وقال صلى الله عليه وسلم « إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجها حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فلاناً قد مات فقال مستريح أو مستراح منه »^(٢) ، أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه . وقال أبو عمر صاحب السقيا : مر بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئاً وإنما الأرواح التي تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة . وعن عمرو بن دينار قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإنهم لينسلونهم ويكفنونهم وإنه لينظر إليهم . وقال مالك بن أنس : بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلات تذهب حيث شاءت . وقال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول « ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوفها فأن الله في إخوانكم من أهل القور وإن أعمالكم تعرض عليهم »^(٣) ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور »^(٤) ، ولذلك قال أبو الدرداء : اللهم زني أعوذ بك أن أعمل عملاً آخرى به عند عبد الله بن رواحة . وكان قد مات وهو خاله . وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال : في حواصل طير بيض في ظل العرش ، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة . وقال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الميت يعرف من يفسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره »^(٥) وقال صالح المري بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم : كيف كان ماواك ربي أي الجسد كنت في طيب أو خبيث ؟ وقال عبيد بن عمير : أهل القبور يترقبون الأخبار ، فإذا أتتهم الميت قالوا ، ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم ياتكم . . . أو

(١) حديث : قال لرجل مات « أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلًا ورجاله ثقات .

(٢) حديث « إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجها حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه » أخرجه ابن أبي الدنيا في رواية بقية عن جابر بن عاصم السافى عن سليم بن عامر الجنازى مرسلًا هكذا

(٣) حديث : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلاناً مات فقال « مستريح أو مستراح منه » متفق عليه من حديث أبي قتادة بلطف : مر عليه بمجازة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ نقي أو رده المصنف

(٤) حديث النعمان بن بشير : ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوفها فأن الله في إخوانكم من أهل القبور ، فإن أعمالكم تعرض عليهم » أخرجه ابن أبي الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدى عن النعمان من قوله « الله الله » ورواه بكهله الأزدي في الضعفاء وقال لا يصح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكامله في ترجمة أبي اسماعيل السكوني رواية عن مالك بن أدى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول ، قال الأزدي لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدى

(٥) حديث أبي هريرة « لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور » أخرجه ابن أبي الدنيا والحاملي بإسناد ضعيف ولأحمد مزور رواية من سمع انساناً عن أنس « إن أعمالكم تعرض على أماربكم وعشائركم من الأموات . . . الحديث »

(٦) حديث أبي سعيد الخدري « إن الميت يعرف من يفسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره » رواه أحمد عن رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسبه عبد الملك بن حسن .

ما قدم عليكم ؟ فيقولون ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ سلك به غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال : إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال مجاهد : إن الرجل ليبشر بإصلاح ولده في قبره . وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح ، فإنه كان في كرب شديد فيسألونه : ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوجت فلانة فإذا سأله عن رجل مات قبله وقال : مات قبلي قالوا ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ذهب به إلى أمه الهاوية (١) .

بيان كلام القبر للبيت

وكلام الموقى إما بلسان المقال أو بلسان الحال ، التي هي أفصح في تفهيم الموقى من لسان المقال في تفهيم الأحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول القبر للبيت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ؟ ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك بي إذ كنت تمر بي فذاذا ؟ فإن كان مصلحا أجاب عنه بحسب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر : إني إذا انحول عليه خضرنا ويعود جسده نورا وتصعد روحه إلى الله تعالى (٢) ، والفذاذ هو الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسرہ الراوى . وقال عبيد بن عمير اللبثي : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها : أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فإن كنت في حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا الذي من دخلني مطيعا خرج مسرورا ، ومن دخلني عاصيا خرج مشورا . وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموقى : أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك في متقدمنا إياك ففكرة ، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهلا استدركت ما فات إخوانك ؟ وتناديه بقاع الأرض : أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض بمن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولا نهاده أحبته إلى المنزل الذي لا بد له منه ؟ وقال يزيد الرقاشي : بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أطقها الله فقالت : أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الإغلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا . وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ، قال : فتجئ ملائكة المذاب من قبل رجله فتقول الصلاة إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطلال في القيام لله عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطلال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه . قال : فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه . قال فيقال له : هنيئا طبت حيا وطبت ميتا . قال : وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له في قبره مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة

(١) حديث أبي أيوب : « إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف ، ورواه ابن المبارك في الزهد ، ووافقه على أبي أيوب بإسناد جيد ، ورفع ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه ، من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٢) حديث : « يقول القبر للبيت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ؟ ألم تعلم أني بيت الفتنة ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في السكفي من حديث أبي المجاج النخعي بإسناد ضعيف .

فبستغنى بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره ويقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيقى ونلقى وهولى ودودى فإذا أعددت لى ، (١) .

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ثلاثا ثم قال : إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم خنوطه وكفنه فيجلسون مدبصره ، فإذا خرجت روحه صلى الله عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه قيل أى رب عبدك فلان فيقول أرجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك وما نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد ، صلى الله عليه وسلم قال : فينظر أنه انتهارا شديدا وهى آخر فرصة تعرض على الميت ، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول : أبشر برحمة ربك وجنت فيها نعيم مقيم ، فيقول : وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الصالح والله ما علمت أن كنت لسريما إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجراك الله خيرا ، قال : ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى ، قال : وأما الكافر فإنه إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسراويل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه نبذ وقيل أى رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل أرجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إني وعدته (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وأنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له يا هذا من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فيقول : لا أدري فيقال : لا دريت ، ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول : أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول : بشرك الله شرا من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الخبيث ، والله إن كنت لسريما في معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجراك الله شرا فيقول وأنت فجراك الله شرا ، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم معه مرزبة من حديد لواء اجتماع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا ، لو ضرب بها جبل صار ترابا ، فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ، ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ، ليس الثقلين ، قال : ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار (١) ، وقال محمد بن على مامن ميت يموت إلا مثل له

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ... أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور مكذبا رسلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه . (٢) حديث البراء : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر .. الحديث ، بطوله =

عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة فان فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضباطر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال : أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية ومَرْضِيَا عَنْكَ إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين . وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جرة فتزع روحه انتزاعا شديدا ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوط عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجرة وأن لها نثيشا ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين^(١) ، وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ قال أى شيء تريد فى أى شيء ترغب أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبنى البنيان وتثقف الأنهار ؟ قال : لا ، لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، قال : فيقول الجبار ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ أى ليقولنها عند الموت . وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ويضىء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، هل تدرون فيما إذا أنزلت ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تقينا هل تدرون ما التين ، تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة رهوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون^(٢) ، ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص ، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحق وسائر الصفات ، فإن لها أصولا معدودة ، ثم تتشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام : وتلك الصفات بأعيانها هى المهلكات وهى بأعيانها تنقلب عقارب وحيات ، فالقوى منها يلدغ لدغ التين والضعيف يلدغ لدغ العقرب ، وما بينهما يؤذى لبذاء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة . فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة ، فمن لم تتكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها ، بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم .

فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر فى قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات فى التصديق بأمثال هذا

(أحدهما) وهو الأظهر والأسح والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهى تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك ، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور المملوكية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم المملوكات . أما ترى الصحابة رضى الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه . ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحى أم عليك ، وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا فى الميت ؟ وكأن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التى تلدغ فى القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هى جنس آخر وتدرى بحاسة أخرى .

= أخرجه أبو داود والحاكم بكاه وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا .

(١) حديث أبي هريرة « إن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضباطر الريحان .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبخاري بإفظ المصنف . (٢) حديث أبي هريرة « المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا .. الحديث » ورواه ابن حبان ..

(المقام الثاني) أن تتذكر أمر النائم وأنه قد برى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصبح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه ، كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان ، وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية ، والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقه غير مشاهد . وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد .

(المقام الثالث) أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها وهو السم ، ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم ، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يقضى إليه في العادة ، فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون بالإضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب ، والسبب يراد لثمرته لا لذاته .

وهذه الصفات الملهكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات . وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق ، فإنه كان لذيذا فطرات حالة صار اللذيد بنفسه مؤلما ، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتعنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ، ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله ؟ أليس بعظم شقاؤه ويشتد عذابه ويتمنى ويقول ليت لم يكن لي مال قط ولا جاء قط فكنت لا تأذى بفراقه ؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة :

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ؟ ثم يضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به ، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرتها ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى ، وذلك هو العذاب الذي يعذب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴿ وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبة وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون .

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب أثر الصبر على لدغ العقرب . فإذا لم فراق الفرس عنده أعظم من العقرب ، وحب الفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه . فليستعد لهذه اللدغات ؛ فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ، ويأخذ منه جاهه وقبوله ، بل يأخذ منه سمه وبصره وأعضاءه ، ويأس من رجوع جميع ذلك إليه . فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات ، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه فكذلك إذا مات ، لانا قد بينا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذاب بعد الموت أشد . لأنه في الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحاذاة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة

بعد الموت ، إذ قد انسَد عليه طرق التسلي وحصل اليأس . فإذا كل قيص له ومندبل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به ، فإن كان مخفا في الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم : نجا المخفون ، وإن كان مثقلا عظم عذابه . وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم : صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين ^(١) ، وما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت ، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقل ، فإن استكثر فليست بمستكثر إلا من الحسرة ، وإن استقلت فليست تخفف إلا عن ظهرك .

وإنما تكثر الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها . فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر وعقاربها وفي سائر أنواع عذابه .

رأى أبو سعيد الخدري أبنا له قد مات في المنام فقال له : يا بني عظمي ، قال : لا تخالف الله تعالى فيما يريد ، قال : يا بني زدني ، قال : يا أبت لا تطيق أقل : قل ، قال : لا تجعل بينك وبين الله قيصا . فما لبس قيصا ثلاثين سنة .

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فأعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده . ومنهم من أنكر الأول وأثبت الثاني . ومنهم من لم يثبت إلا الثالث . وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك في حيز الإمكان . وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره ، فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور . بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب . ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع ، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره .

هذا هو الحق فصدق به تقليدا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا ، والذي أوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشغل بعرفته ، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان . فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذ سلطان وحبسه ليقطع يده ويحصد أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى ؟ وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل ، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب فمفضول وتضييع زمان .

بيان سؤال منكر ونكير وصورتهم وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر

قال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير ، فيقولان له ما كنت تقول في النبي ، فإن كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك . ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينور له في قبره . ثم يقال له نعم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقال له نعم فينام كرامة العروس الذي لا يوفظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقا قال لا أدري

(١) حديث « صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين » لم أجده أصلا .

كنت أسمع الناس يقولون شيئاً وكنت أقوله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التشمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ^(١) ، وعن عطاء بن يسار قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقا سوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ، ثم احتملوك حتى يصدوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك ، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكرو ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يحزان أشعارهما ويبحثان القبر بأنبياهما فتلتلاك وترتراك ، كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ » فقال عمر : ويكون معي مثل عقلي الآن ؟ قال « نعم » قال « إذن أكيفيهما ^(٢) » ، وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء . فيكون الميت عافلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذات كما كان ، لا يتغير من عقله شيء . وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء . ولو تأثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكامله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم وقال محمد بن المنكدر : بلغني أن الكافر يسقط عليه في قبره دابة عمية صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة ، لآتراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحه . وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته ، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قرأته القرآن . وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه ، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان : والله لقد كان يبسط للصدقة والدعاء لاسبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خلا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان : تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك في مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك . وعن حذيفة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة لجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله ^(٣) » ، وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجما منها أحد لنجا سعد بن معاذ ^(٤) » ، وعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا : يا رسول الله رأينا منك شأناً فم ذلك ؟ قال « ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأثيت فأخبرت أن الله قد خفف عنها وقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين ^(٥) » .

(١) حديث أبي هريرة « إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر ولآخر نكير ... الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف . (٢) حديث عطاء بن يسار : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقا سوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد ، روينا من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلًا قلت : ووصله ابن بطلة في الإبانة من حديث ابن عباس ، ورواه البيهقي في الانتقاد من حديث عمرو قال فريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل والأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر : قال عمر : أبرد ألبا عقولاً ؟ فقال « نعم كهيئتكم اليوم » فقال عمر : وفيه الحرج . (٣) حديث حذيفة : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة لجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ... الحديث رواه أحمد بسند ضعيف . (٤) حديث عائشة « أن القبر ضغطة لو سلم أو نجما منها أحد لنجا سعد بن معاذ » رواه أحمد بإسناد جيد (٥) حديث أنس : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ... الحديث « وفيه » لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه .

الباب الثامن : فيما عرف من أحوال الموقى بالمكاشفة في المنام

اعلم أن أنوار البصائر - المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار - تعرفنا أحوال الموقى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء . ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا يتكشف أصلاً ، فإننا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له ؟ وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره ؟ فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه ، وإذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والمكوت فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهوانه وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ، ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم المكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه .

ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى المكوت وشاهدوا عجائبه ، والموقى في عالم المكوت فشاهدوهم وأخبروا . ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد ابن معاذ وفي حق زينب ابنته ^(١) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر . ومثل هذه المشاهدات لا مطلق فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجاتهم منهم .

إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعني بها المشاهدات في المنام وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ^(٢) ، وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب ، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً ^(٣) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهواً يصل وطهارة الظاهر بنزلة التتمة والتكملة لها . ومهما صفنا الباطن انكشف في حدة القلب ما سيكون في المستقبل ، كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ ^(٤) ولما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة ، والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرته الأدنى وهو . أوضح الأدلة على عالم المكوت ، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة .

ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال ينهك المقصود ، وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تراهي فيها الصور وحقائق الأمور ، وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين ؛ كما ورد في القرآن . لجميع

(١) حديث : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة قبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبل . (٢) حديث : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » تقدم . (٣) حديث : أمره بالطهارة عند النوم . متفق عليه . من حديث البراء : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ... الحديث » . (٤) حديث : انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم . أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسلاً .

ما جرى في العالم وما سيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين . ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم ، وأن الكتاب من كاغد أو ورق ، بل ينبغي أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم . بل إن كنت تطلب له مثالا يقرّبه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وخروفيه في دماغ حافظ القرآن وقلبه ، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو قدشت دماغه جزءا جزءا لم تشاهد من ذلك الخط حرفا . وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا الخط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه . واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تترامى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت ، فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تلالا في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، وقد يثبت ويدوم ، وقد لا يدوم وهو الغالب . وبإدام متيقظا فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت .

ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب ، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما ، إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه ، فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه ، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني المناسبة التي بين المتخيل والمعاني . وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير . وبكفيك مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين : رأيت كأن بيدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال : أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان ، قال : صدقت ! فانظر أن روح الختم هو المنع ولاجله يراد الختم . وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية .

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تنحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب ، حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية : حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالانسكال والمخازي والفضائح - نعوذ بالله من ذلك - وإما مكشوفة بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) ويقال (أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون أصلوها فاصبروا ولا تعصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) وإليهم الإشارة بقوله تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره . فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذي ينكشف عنه الغطاء من

شقاوة لازمة أم سعادة دائمة ؟ لكان ذلك كافيا في استغراق جميع العمر .

والعجب من غفلتنا وهذه العظام بين أيدينا ! وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا ! مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ، ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين ، أحب من أحببت فإنك مفارقة وعش ماشئت فإنك ميت واعمل ماشئت فإنك جزى به ^(١) ، فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ^(٢) ولم يخلف ديناراً ولا درهما ^(٣) ولم يتخذ حبيباً ولا خليلاً نعم قال : لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن ^(٤) ، فينبغي أن خلة الرحمن تخلت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبه قلبه فلم يترك فيه متسعاً لخليل ولا حبيب ! وقد قال لامته (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله) فإنما أمته من اتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه ما عا إلا إلى الله والي يوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة ، فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته ، وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته ، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعتها والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى) فلو خرجت من مكن الغرور وأنصفت نفسك يا رجل - وكذا ذلك الرجل - لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تسمى لا تسمى إلا في الحظوظ العاجلة ، ولا تتحرك ولا تسكن إلا لما جل الدنيا ثم تطمع أن تكون غداً من أمته وأتباعه ! وما أبعد ظنك وما أبرد طمعك (أفجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) .

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ، ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال المرقى ما يهظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات .

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة

فن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام : من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي ^(١) ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فرأيت أنه لا ينظر إلى فقلت : يا رسول الله ما شأنى ؟ فالتفت إلى وقال : ألسنت المقبل وأنت صائم ؟ ، قال : والذي نفسى بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبداً . وقال العباس رضي الله عنه : كنت ودا لعمر فاشتيت أن أراه في المنام ، فسا رأيت أنه لا عند رأس الحول فرأيت أنه يمسح العرق عن جبينه وهو يقول : هذا أوان فراغى إن كان عرشى ليهت لولا أنى لقيته رموفاً رحيماً . وقال الحسن بن علي : قال لي علي رضي الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنع لي الليلة في منامى فقلت : يا رسول الله ما لقيت من أمته ؟ قال : ادع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني ! فخرج فضر به ابن ملجم . وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله استغفر لي ، فأعرض عني فقلت : يا رسول الله إن سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر

(١) حديث : « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك مفارقة ... الحديث » تقدم . (٢) حديث : لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة . تقدم أيضاً . (٣) حديث : لم يخلف ديناراً ولا درهما . تقدم أيضاً . (٤) حديث : لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن . تقدم أيضاً . (٥) حديث : « من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

عن جابر بن عبد الله : أنك لم تسأل شيئا قط فقلت : لا ، فأقبل على فقال : « غفر الله لك (١) » ، وروى عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخيا لأبي لهب مصاحبا له ، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزننت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولا أن يريني إياه في المنام قال : فرأيت يلهب ناراً فسألته عن جاله فقال : صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي ! قلت : وكيف ذلك ؟ قال : ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحاً به ، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين .

وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك ؛ خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبي ، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل ؛ فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمت الله أباك وسود وجهه ! قال : فقممت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه ، فداخني من ذلك رعب ، فبينما أنا في ذلك الغم إذ غلبتني عيني فنمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم : تنحوا ، فمسح وجهه بيده ثم أتاني فقال : قم فقد بيض الله وجه أبيك ! فقلت له : من أنت بأبي أنت وأمي ؟ فقال : أما محمد ، قال : فقممت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض ! فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده - فسلمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتى بعلي ومعاوية فأدخلا بيئاً وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج علي رضي الله عنه وهو يقول : قضى لي ورب الكعبة ، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول : غفر لي ورب الكعبة .

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله ! - وكان ذلك قبل قتله - فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال : ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدى ؟ قتلوا بني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه .

وروى الصديق رضي الله عنه فقيل له : إنك كنت تقول أبداً في لسانك : هذا أوردني الموارد ، فإذا فعل الله بك ؟ قال : قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت متمماً الدورق في المنام فقلت : ياسيدي ما فعل الله بك ؟ فقال : دبرني في الجنان فقيل لي : يا متمم هل استحسنت فيها شيئاً ؟ قلت : لا ياسيدي ، فقال : لو استحسنت منها شيئاً لو كنتك إليه ولم أوصلك إلى . وروى يوسف بن الحسين في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ؛ قيل : بماذا ؟ قال : ما خلطت جداً بهزل . وعن منصور بن إسماعيل قال : رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنباً واحداً فإني استحييت أن أقر به ، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت .

(١) حديث ابن عبيدة عن محمد بن المنكدر عن جابر : ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا . رواه مسلم وقد تقدم .

ما كان ذلك الذنب ؟ قال : نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره . وقال أبو جعفر الصيدلاني : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقراء ، فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما : بيده طشت ، ويده الآخر : إبريق ، فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يدي فقال أحدهما الآخر : لا تصب على يده فإنه ليس منهم ! فقلت : يا رسول الله أليس قد روى عنك أنك قلت : المرء مع من أحب ، ؟ قال : بلى ، قلت : يا رسول الله فإني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء ! فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فإنه منهم . وقال الجنيد : رأيت في المنام كأنني أتكلم على الناس فوق علي ، لك فقال : أقرب ما تتقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت : عمل خفي بميزان وفي فولي الملك وهو يقول : كلام موفق والله . ورؤي يجمع في النوم فقليل له : كيف رأيت الأمر ؟ فقال : رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد : رأيتك في النوم كأنك في الجنة ! فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال . لعل الشيطان أراد أمرا فعصمت منه فأشخص رجلا يقتلني ! وقال محمد بن واسع : الرؤيا تسر المؤمن ولا تنفره . وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلي في النوم فقلت له : رحمة الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا ، قال : أما والله لقد أعقبت ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً ، فقلت : في أي الدرجات أنت ؟ فقال (مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) وسئل زرار بن أبي أوفى في المنام : أي الأعمال أفضل عندهم ؟ فقال : الرضا وقصر الأمل . وقال يزيد بن مذعور : رأيت الأوزاعي في المنام فقلت : يا أبا عمرو دلتني على عمل أقرب به إلى الله تعالى ! قال : ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين . قال : وكان يزيد شيخنا كبيرا ، فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه . وقال ابن عيينة : رأيت أخى في المنام فقلت : يا أخى ما فعل الله بك ؟ فقال : كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي . وقال علي الطلحي : رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت : من أنت ؟ فقالت : حوراء ، فقلت زوجيني نفسك ، قالت : اخطبني إلى سيدي وأمهري ، قلت : وما مهرك ؟ قالت : حبس نفسك عن آفاتهما . وقال إبراهيم بن اسحق الحربي : رأيت زبيدة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لي ، فقلت لها : بما أنفقت في طريق مكة ؟ قالت : أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها ، وغفر لي بئتي . ولما مات سفيان الثوري روى في المنام فقليل له : ما فعل بك ؟ قال : وضعت أول قدمي على الصراط والثاني في الجنة . وقال أحمد بن أبي الخوارى : رأيت فيما يرى النائم جارية - ما رأيت أحسن منها وكان يتلأل وجهها نورا - فقلت لها : لماذا ضوء وجهك ؟ قالت : تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها ؟ قلت : نعم ، قالت : أخذت دمعك فمسحت به وجهي ، فمن ثم ضوء وجهي كما ترى . وقال الكتاني : رأيت الجنيد في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل . ورؤيت زبيدة في المنام فقليل لها : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لي هذه الكلمات الأربع : لا إله إلا الله أفنى بها عمري ، لا إله إلا الله أدخل بها قبري ، لا إله إلا الله أخلو بها وحدي ، لا إله إلا الله ألقى بها ربي . ورؤي بشر في المنام فقليل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني ربي عز وجل وقال يابشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف . ورؤي أبو سليمان في النوم فقليل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني وما كان شيء أضمر على من إشارات القوم إلي . وقال أبو بكر الكتاني : رأيت في النوم شابا لم أر أحسن منه فقلت له : من أنت ؟ قال : التقوى ! قلت : فأين تسكن ؟ قال : كل قلب حزين ! ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت : من أنت ؟ قالت : أنا السقم ! قلت : فأين

تسكين ؟ قالت : كل قلب فرح مرح ! قال : فانتبهت وتماهدت أن لا أضحك إلا غلبة . وقال أبو سعيد الخزاز : رأيت في المنام كأن إبليس وثب على ، فأخذت العصا لأضربه فلم يفرع منها ، فهتف بي هاتف : إن هذا لا يخاف من هذه ، وإنما يخاف من نور يكون في القلب . وقال المسوحى : رأيت إبليس في النوم يمشى عريانا فقلت : ألا تستحي من الناس ! فقال : بالله هؤلاء ناس ! لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة ! بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي ، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية . وقال أبو سعيد الخزاز : كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي صلى الله عليه وسلم جاء في متسكنا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فجاء فوقف على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدري ، فقال : شر هذا أكثر من خيره . وعن ابن عيينة قال : رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول (لمثل هذا فليعمل العاملون) فقلت له : أوصني ، قال : أقل من معرفة الناس ، وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثوري فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما إذا أظلم الدجى بعبرة مشتاق وقلب عبيد
فدونك فاختر أي قصر أردته وزرني فإني منك غير بعيد

وروى الشبلي بعد موته بثلاثة أيام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : ناقشني حتى أيسر ، فلما رأى يأسى تغمدني برحمته . وروى مجنون بن عامر بعد موته في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وجعلني حجة على المحبين . وروى الثوري في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني ، فقيل له : ما حال عبد الله بن المبارك ؟ فقال : هو بمن يلج على ربه في كل يوم مرتين . وروى بعضهم فسئل عن حاله فقال : حاسبونا فدققوا . ثم منوا فأعتقوا . وروى مالك بن أنس فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة سبحانه الحي الذي لا يموت . وروى في الليلة التي مات فيها الحسن البصري كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن مناديا ينادي ألا إن الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض . وروى الجاحظ فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال :

ولا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانا فقال ألا تستحي من الناس ؟ فقال وهؤلاء ناس ! الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدي وأحرقوا كبدي ! قال الجنيد فلما انتهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رموسهم على ركبهم يتفكرون ، فلما رأوني قالوا لا يغرنك حديث الخبيث . وروى النصر أباذى بمكة - بعد وفاته - في النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعده الاتصال انفصال ؟ فقلت لا يا ذا الجلال ، فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي . ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أما لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئا فيحال بيني وبينك ، فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لي عليها حتى ألقاك . وقيل رأى أيوب السخيتاني جنازة عاص ، فدخل الدهليز كيلا يصلي عليها . فرأى الميت بعضهم في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وقال قل لا يوب (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لامسكم خشية الإنفاق) وقال بعضهم رأيت في الليلة التي مات فيها

داود الطائي نورا ، وملائكة نزولا وملائكة صعودا ، فقلت : أى ليلة هذه ؟ فقالوا : ليلة مات فيها داود الطائي وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه . وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصعلوكي في المنام فقلت : أيها الشيخ ! قال : دع الشيخ ، قلت : تلك الأحوال التي شاهدتها ، فقال : لم تكن عنا ! فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجز . وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمدا الطوسي المعلم - في النوم - فقال لي : قل لأبي سعيد الصفار المؤدب :

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد - وحياة الحب - حلمت وما حلنا

قال : فأنتهت فذكرت ذلك له فقال : كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة . وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت : أليس قد مات ؟ قال : بلى ، قلت : فما صنع الله بك ؟ قال : غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب ، قلت : فسفيان الثوري ؟ قال : بئح بئح ذاك ﴿ من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ﴾ الآية وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعي رحمه الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت : يا أبا عبد الله ما صنع الله بك ؟ قال : أجلسني على كرسي من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب . ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادى - إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه . وقال أبو يعقوب القماري الدبقي رأيت في منامى رجلا آدم طويلا والناس يتبعونه فقلت : من هذا ؟ قالوا : أويس القرني ، فأتيته فقلت أوصني رحمك الله فكلمني في وجهي فقلت مسترشدا فأرشدني أرشدك الله ، فأقبل على وقال ابسح رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ، ثم ولى وتركني . وقال أبو بكر بن أبي مريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمي فقلت ما فعلت يا ورقاء ؟ قال البكاء من خشية الله . وقال يزيد بن نعامه هلكت جارية في الطاعون الجارف فرآها أبوها في المنام فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة ؟ قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم ، نعم ، لا نعمل وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إلي من الدنيا وما فيها . وقال بعض أصحاب عتبة الغلام : رأيت عتبة في المنام فقلت ، ما صنع الله بك ؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك ! قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت (يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين) وقال موسى بن حماد رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت ، يا أبا عبد الله بم نلت هذا ؟ فقال بالورع ، قلت فما بال علي بن عاصم ؟ قال ذاك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب . ورأى رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال يا رسول الله عظمي ، قال نعم من لم ينفد نقصان فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له . وقال الشافعي رحمه الله عليه ذهني في هذه الأيام أمر أمضى وآلني ولم يطلع عليه غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتاني آت في منامى فقال لي يا محمد بن إدريس قل اللهم إني لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتق إلا ما وقيتني اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية ؛ فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترجل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي وسهل لي الخلاص بما كنت فيه ، فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها . فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقربة إلى

الله زلنى ، فلنذكر بعدها ما بين يدي الموقى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما في الجنة أوفى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

الشرط الثاني

من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أوفى النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار .

وفيه بيان نفخة الصور . وصفة أرض المحشر وأهله . وصفة طول يوم القيامة . وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساليبها . وصفة المساءلة عن الذنوب . وصفة الميزان ، وصفة الخصماء ورد المظالم ، وصفة الصراط . وصفة الشفاعة . وصفة الخوض . وصفة جهنم وأهوالها وأنكالتها وحياتها وعقاربها . وصفة الجنة وأصناف نعمتها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم . وصفة الحور العين والولدان . وصفة النظر إلى وجه الله تعالى . وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

صفة نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت في سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ، ثم لمنكر ونكير وسؤالها ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه . وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء . فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها ، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها ، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويدها أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكنته من المصائب والأهوال ، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه - الذي أخبر - صدقت ، ثم مدت يديه لتناوله ؛ كان صدقا بلسانه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني ، وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني ، أما شتمه إياي فيقول إن لي ولدا وأما تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بداني (١) ، وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ؛ ولولم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له : إن صانعا يصنع من النطفة القدرة مثل هذا الأدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ يحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمى ثم كان علقة مخلوق فسوى لجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ فني خلق الأدمي - مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه - أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد

(١) حديث : قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني ... الحديث ، أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

ذلك في صنعته وقدرته ؟ فإن كان في إيمانك ضعف ففقر الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها ، وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والاختار وأكثر فيها التفكير والاعتبار ، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار ، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار ، وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور ، فإنها صيحة واحدة تنفجر بها القبور عن رموس الموق فيثورون دفعة واحدة . فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء ، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم ؛ وقد أزجهم الفرع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر ، كما قال تعالى ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وقال تعالى ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ وقال تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ فلو لم يكن بين يدي الموق إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرا بأن يتقى فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض - يعنى يموتون بها - إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ (١) .

قال مقاتل : الصور هو القرن ؛ وذلك أن إسرائيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كمرص السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى ، فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض أى مات كل حيوان من شدة الفرع إلا من شاء الله ، وهو جبريل وميكائيل وإسراييل وملك الموت . ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرائيل ، ثم يأمر ملك الموت فيموت . ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيي الله تعالى إسرائيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فانتقوا النفخة (٢) ، فتفكر في الخلائق وذلم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة ، وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم . بل إن كنت في الدنيا من المترفين والأغنياء المتعتمدين فلوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقهم يوطئون بالأقدام مثل الذرة ، وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رموسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم

(١) حديث : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة . . . الحديث ، أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ : أن صاحب القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران ، وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه . (٢) حديث : حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى الحديث ، لم أجده هكذا بل قد ورد : أن إسرائيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبى هريرة : أن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرائيل فهو واضع على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر ، قال البخارى ولم يصح وفي رواية لأبى الشيخ : ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش غفافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن هذيه كوكبان دريان ، وإسنادهما جيد ،

النشور من غير خطيئة تدينست بها ، ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمزدها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى ﴿ فوريك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾ فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك .

صفة أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، ولا ترى عليها ربوة يخفى الإنسان وراها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها . بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرا ، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة ، والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية ، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد »^(١) .

قال الراوى : والعفرة : بياض ليس بالناصع ، والنقي : هو النقي عن القشر والنخالة . ومعلم : أى لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر .

ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لاتساويها إلا في الاسم قال تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمتد مد الأديم العكاظي ، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة ، والسماوات تذهب شمسها وقرها ونجومها . فالنظر يامسكين في هول ذلك اليوم وشدة ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تشارت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخود سراجها . فبينما هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم وانشقت مع غلاظها وشدتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيأهول صوت انشقاقها في سمعك وبها هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كاللؤلؤ وصارت الجبال كالعهن ، واشتبك الناس كالفراس المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان ، قالت سودة - زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم راوية الحديث - قلت يا رسول الله واسوأناه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال « شغل الناس عن ذلك بهم ﴾ (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)^(٢) ، فأعظم يوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ، فقال رجل : يا رسول الله وكيف يمشون على

(١) حديث « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد » متفق عليه من حديث سهل ابن سعد وفصل البخارى قوله « ليس فيها معلم لأحد » لجمعها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه .

(٢) حديث « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » قالت سودة راوية الحديث : واسوأناه ... الحديث « أخرجه التعلبي والبغوي وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهى الفائلة « واسوأناه » ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهى الفائلة « واسوأناه » .

وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ^(١) ، فى طبع الآدمى إنكار كل مالم يأنس به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشى على غير رجل ، والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . فإياك أن تسكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما فى الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها . فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوفًا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة .

صفة العرق

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل رب العالمين . ولم يمكن من الاستئصال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرهما واشتد كربه وغمه من وهجها ، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاع عند العرض على جبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحترق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة . ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى يغيب أحدهم فى رشحته إلى أنصاف أذنيه » ^(٢) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ أذقنهم » ^(٣) ، كذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح . وفى حديث آخر : قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب ^(٤) ، وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه - وأشار بيده فألمحها فاه - ومنهم من يغطي العرق - وضرب بيده على رأسه هكذا » ^(٥) ، فتأمل يامسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فإنك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق ؟

(١) حديث أبى هريرة « يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ... الحديث » رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس : أن رجلا قال : يا نبي الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال « أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » . (٢) حديث ابن عمر « يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحته إلى أنصاف أذنيه » متفق عليه . (٣) حديث أبى هريرة « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ... الحديث » أخرجه فى الصحيحين كما ذكره المصنف . (٤) حديث « قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب » أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو مليحة عيسى بن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لأظن أنه كان يتعمد الكذب لسكن لعله تشبه عليه . (٥) حديث عقبة بن عامر « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عنقه ... الحديث » رواه أحمد وفيه ابن لمبة .

واعلم أن كل عرق لم يخرج منه التعب في سبيل الله - من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر - فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

صفة طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم ، يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجردون فيه روح نسيم . قال كعب وقتادة (يوم يقوم الناس لرب العالمين) قال : يقومون مقدار ثلثمائة عام . بل قال عبدالله بن عمرو ، تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال : كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع التبل في الكنانة خمسين ألف سنة ولا ينظر إليكم ^(١) ، وقال الحسن : ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لفحها ، فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يسكنهم على مولاه ليشفع في حقهم ، فلم يتعلقوا بنبي لإدفعهم وقال : دعوني ! نفسي نفسي ؟ شغلني أمرى عن أمر غيري . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال : قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه (لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) فتأمل في طول هذا اليوم وشدته الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر .

واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للبوت لشدته مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال : والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا ^(٢) ، فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيدك ، فاعمل في أيام قصار لا أيام طوال ترجح رجحا لا تنتهي لسروره ، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإذا لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان رجلك كثيرا وتعبك يسيرا .

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هولاء قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد

(١) حديث ابن عمر . تلا هذه الآية (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ثم قال : كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع التبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم ، قلت : إنما هو عبدالله بن عمر ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راويا غير ابن وهب ولم يرو عنه عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم . مصرى والثلاثة الآخرون شاميون .
(٢) حديث : سئل عن طول ذلك اليوم فقال : والذي نفسي بيده أنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا ، أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وقدره ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد . يهون ذلك على المؤمن كتدليل الشمس للغروب إلى أن تغرب ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ : لا والله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة .

سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سحرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلقت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت ، يوم ترى الأرض قدزلزلت فيه زلازلها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والمالك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فترك قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمز مر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ، ولا يسئل فيه عن الأجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدمت وأخرت يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضى الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال ، شيبتنى هود وأخواتها ^(١) ، وهى الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت ، فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءة تلك أن تجميع القرآن وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكرا فيما تقرأه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك بما شاب منه شعر سيد المرسلين ، وإذا فنت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن ، فالقيامة أحد ما ذكر فيه . وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أسماها بالنقف بكثرة أسماها على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الاسماى تكرير الاسماى والالقاب بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوتها معنى ، فاحرص على معرفه معانيها .

ونحن الآن نجتمع لك أسماها . وهى : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المسائلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الناشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المسآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزي ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجة ويوم السكرة ويوم الفرع ويوم المنتهى ويوم الجزع ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم الساعة ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى فيه السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم

(١) حديث « شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

لا يغنى مول عن مول شيئا ويوم لا تلك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون في النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم في النار ويوم لا يحزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مرد له من الله يوم هم بارزون ويوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . يوم ترد فيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار . يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات ، يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد ، ويشيب الصغير ويكبر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين ، وبرزت الجحيم وأعلى الجحيم ، وزفرت النار ويئس الكفار ، وسعرت النيران وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان .

فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب وأرخت الستور ، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور ، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك ؟ قالويل كل الويل لنا معشر الغافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعزفنا غفلتنا ويقول ﴿ اقرب الناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ ثم يعزفنا قرب القيامة فيقول ﴿ اقربت الساعة وانشق القمر - إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه . فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

صفة المساءلة

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان ، فتسئل عن القليل والكثير والنقيير والقطمير . فيينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظامها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام ^(١) ، فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلا هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض ، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين بما بدا من غضب الجبار على عباده . وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذنانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذون . فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين ؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم لإجلال الخالقهم عن أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم منزهين للملكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا : سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد ! وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم .

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله ﴿ فلننسلن الذين أرسل إليهم ولننسلن المرسلين فله نصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ وقوله ﴿ فوربك لننسلنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ فيبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول

(١) حديث « إن لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام » لم أره بهذا اللفظ .

ماذا أجبتهم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴿ فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة ؛ إذ يقال لهم : ما أجبتهم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة . لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب . وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت عنهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقوهم الله تعالى ، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له : هل بلغت ، فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له ﴿ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ فيبقى متشجعا تحت هيبة هذا السؤال سنين ، فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال . ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض . وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار . ولا يكشف سترهم على ملا الخلائق .

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ وأيقن كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد ، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه المأخوذ بالمأخذ والسؤال دون من عداه ، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : يا جبريل ائتني بالنار ، فيجىء بها جبريل ويقول : يا جهنم أجبني خالك ومليكك ، فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوتبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره ، فأخطربياك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعاور عبا فتساقطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين يوم ﴿ ترى كل أمة جاثية ﴾ وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون نفسى . فبينهم كذلك إذ زفرت الناس زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع ، وانهمضت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين .

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتهم ، فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة ، ففرّ الوالد من ولده والآخر من أخيه والزوج من زوجته ، وبقي كل واحد منتظرا لأمره . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلايته وعن جميع جوارحه وأعضائه ، قال أبو هريرة قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة ؟ فقال ﴿ هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب ، قالوا لا ، قال ﴿ فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، قالوا لا ، قال ﴿ فوالذى نفسى بيده لا تضارون في رؤية ربكم ؛ فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع ، فيقول العبد بلى ؛ فيقول أظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتنى (١) ، فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعصديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها ، فيقول لك . ألم أنعم عليك بالشباب ففياذا أبليته ، ألم أمهل لك في العمر ففياذا أفنيته ، ألم أرزقك المال فن أن اكتسبته وفياذا أنفقته ، ألم أكرمك بالعلم فاذا عملت فيما علمت . فكيف ترى حياك وخجلتك وهو يعدّ عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك قال أنس رضى الله عنه كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي هريرة : هل ترى ربنا يوم القيامة ؟ قال ﴿ هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب ... الحديث ، متفق عليه دون قوله ﴿ فيلقى العبد ... الخ ﴾ فانفرد بها مسلم .

فضحك ثم قال « أتدرون مم أضحك » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال « من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم ، قال « يقول بلى » قال « فيقول فإني لأجيز على نفسي إلا شاهدا مني فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا » قال « فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي » قال « فتتطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعدا لكن وسخا فتمكن كنت أناضل ^(١) » فنعوذ بالله من الافتضاح على ملا الخلق بشهادة الأعضاء ، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ^(٢) » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة ^(٣) » فهذا إنما يرجي لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه ، فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة ، وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض ؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدة الهول مظلم ، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كاتقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم ، فتوهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه : يا ابن آدم ادن مني ، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر ، وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسيتهما فتذكرتها ؟ وكم من طاعة غفلت عن آفاتنا فأنكشف لك عن مساوئها ؟ فكم لك من خجل وجبن ؟ وكم لك من حصر وعجز ؟ فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول ؟ ثم تفكر في عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاها إذ يقول : يا عبدي ؟ أما استحييت مني فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل ، أكنت أهون عليك من سائر عبادي ، استخففت بنظري إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيري ، ألم أنعم عليك : فإذا غرتك بي أظننت أني لا أراك وأنت لا تلقاني . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان ^(٤) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتيتك ما لا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فليتنق أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة ^(٥) » وقاله ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثم يقول يا ابن آدم ما غرتك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل

(١) حديث أنس « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال « من مخاطبة العبد ربه ... الحديث » رواه مسلم

(٢) حديث : سأل ابن عمر رجل فقال : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ... الحديث » رواه

مسلم . (٣) حديث « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة » تقدم .

(٤) حديث « ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عدي عن أبي حاتم بإلفظ

« إلا سيكلمه » الحديث . (٥) حديث « ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان ... الحديث » أخرجه البخاري

من حديث عدي بن حاتم .

لك ألم أكن رقيقاً على أذنيك ، وهكذا حتى عد سائر أعضائه ، وقال مجاهد : لا نزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما عمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفق ؟ فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك بخطرك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم - فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويعبطك الأؤلون والآخرين - وإما أن يقال للبلائكة خذوا هذا العبد السوء فنلوه ثم الجحيم صلوه - وعند ذلك لو بكيت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديراً بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بيعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك ١ .

صفة الميزان

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطائر الكتب إلى الإيمان والشئائل ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق (فرقة) ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم في النار ، فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لاسعادة بعدما (وقسم آخر) لاسيئة لهم فينادى مناد ليقيم الحمادون لله على كل حال ؛ فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى . وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدما (ويبقى قسم ثالث) وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعده عند العقاب ، فتطائر الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أنقع في اليمين أو في الشمال ؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فنعس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال « ما يبكيك يا عائشة ؟ » قالت : ذكرت الآخرة هل تذكر أوليكم يوم القيامة ؟ قال « والذي نفسي بيده في ثلاث مواطن فإن أحدا لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل . وعند الصحف حتى ينظر أيمينه يأخذ كتابه أو بشماله ، وعند الصراط (١) ، وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك . فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً . وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ما أوضخوا بضاحكة ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال « اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من بني آدم وبني إبليس ، قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال « يا جوج وما جوج » قال : فسرى عن القوم فقال « اعملوا وأبشروا فوالذي نفس

(١) حديث الحسن : أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت ... الحديث « وفيه : فقال « ما يبكيك يا عائشة » قالت : ذكرت الآخرة هل تذكر أوليكم يوم القيامة ... الحديث » أخرجه أبو داود من رواية الحسن : أنها ذكرت النار فبكت فقال « ما يبكيك » دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه لعن واستاده جيد .

محمد بيده ما أنتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الدابة ^(١) ،

صفة الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الاعين شاخصة إلى لسان الميزان ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية ﴾ واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنها قبل توزنوا . وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا . ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة بعد حبة ، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ، وبطييب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلة ولا فريضة . فهذا يدخل الجنة بغير حساب ، وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه ، فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على ناصيته ، وهذا يتعاق بلبيه ، هذا يقول ظلمتني ، وهذا يقول شتمتني ، وهذا يقول استهزأت بي ، وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني ، وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتني فغششتني ، وهذا يقول بايعتني فغبننتني وأخفيت عني عيب سلعتك ، وهذا يقول كذبت في سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا فأطعمتني ، وهذا يقول وجدتني مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عني فداهنت الظالم ومارعتني . فيينا أنت كذلك وقد انشب الخصماء فيك مغالبيهم وأحكوا في تلايبك أيديهم وأنت مهتوت متحير من كثرتهم - حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار ، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم - إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ﴾ فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبور ، وتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس ﴾ الآية

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أمواهم ! وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرا ؟ فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم . قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تدرون من المفلس ، قلنا : المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع ، قال : المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ^(٢) ، فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكاييد الشيطان ، فإن سلبت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ، وإلّا لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ، لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجرى

(١) حديث « يقول الله يا آدم قم فابست بئس النار فيقول : وم بئس النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون ... »

الحديث « مثق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم . »

(٢) حديث أبي هريرة « هل تدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع ... الحديث . »

على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات ؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتصر فيه للجاء من القرناء ؟ فقد روى أبو ذر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال ، يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان ؟ ، قلت : لا ، قال : ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة (١) .

وقال أبو هريرة في قوله عز وجل (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) أنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة - البهائم والدواب والطيور وكل شيء - فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجاء من القرناء ، ثم يقول كوني ترابا ، فذلك حين يقول الكافر ياليتني كنت ترابا . فكنت أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول : أين حسناتي ؟ فيقال : نقلت إلى صحيفة خصمائك . وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصيبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول : يارب هذه سيئات ما قارفها قط . فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المباينة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة .

قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات ، فاتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد ليحجى يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجيهن فما يزال عبد يحجى فيقول رب إن فلانا ظلمني بمظلمة فيقول ارح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء ، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بغلاة من الأرض ليس معهم حطب ففترق القوم فطابروا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا (٢) ، وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) قال الزبير : يارسول الله أيسكر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه (٣) ، قال الزبير : والله إن الأمر لشديد ، فأعظم بشدة يوم لا يسأح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لظمة ولا عن كلمة حتى ينتقم المظلوم من الظالم ؟ قال أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر الله العباد عراة غبرا بهما ، قال : قلنا : ما بهما ؟ قال ليس معهم شيء ، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان لا يذنبني لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه ؛ حتى اللظمة ، قلنا : وكيف وإنما نأى الله عز وجل عراة غبرا بهما ؟ فقال ، بالحسنات والسيئات (٤) ، فاتقوا الله عباد الله ، ومظالم العباد بأخذ أموالهم

(١) حديث : يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان ؟ قلت : لا ، قال : ولكن ربك يدرى وسيقضى بينهما ، أخرجه أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر .

(٢) حديث ابن مسعود : إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات ... الحديث ، وفي آخره : وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بغلاة ... الحديث ، رواه أحمد والبيهقي في الشعب مقتصرين على آخره : إياكم ومحقرات الذنوب فإنهم يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لمن مثلاً ... الحديث . وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصراً من حديث جابر : إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم . (٣) حديث : لما نزل قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) قال الزبير : يارسول الله أيسكر علينا ما كان بيننا ... الحديث . أخرجه أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح . (٤) حديث أنس : يحشر العباد عراة غبرا بهما ، قلنا : ما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء ... الحديث ، قلت : ليس من حديث أنس وإنما هو عنيد الله بن أبي نعيم . رواه أحمد بإسناد حسن وقال : غرلاً ، مكان : غبرا .

والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم ، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله ، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذي أخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم ، كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيته يضحك حتى بدت ثيابه فقال عمر : ما يضحك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ قال : رجلان من أمي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يارب خذني مظلمتي من أخى ، فقال الله تعالى : أعط أخاك مظلمته قال : يارب لم يبق من حسناته شيء فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال : يارب يتحمل عني من أوزاري ، قال : وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم ، قال : فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال : يارب أرى مدائن من فضة مرتفعة وقصورا من ذهب مكدلة باللؤلؤ لآي في هذا أو لآي صديق هذا ؟ أو لآي شهيد هذا ؟ قال لمن أعطاني الثمن ، قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت تملكه ، قال : وما هو ؟ قال عفوك عن أخيك ، قال : يارب إنني قد عفوت عنه ، قال الله تعالى : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين ^(١) ، وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق .

فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد ؛ كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل النضاء وقد خلعت عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء ؟ وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وابتض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرك ، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك ، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك وينبطونك في حسنك وجمالك ، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رموس الأشهاد : هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد بسعادة لا يشقى بعدها أبدا ! أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المسكنة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك ؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة له إليه فتوصل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فإن تدرك ذلك إلا به .

وإن تسكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة ففتلك لأجلها فقال : عليك لعنتي يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسرد وجهك ، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون : عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ، وعند ذلك تنال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظها وزعارتها وصورها المنكرة ، فأخذوا بناصيتك بسحبونك على وجهك على ملائكة الخلق وهم ينظرون إلى أسوداد وجهك وإلى ظهور خزيتك ، وأنت تنادى بالويل والثبور ، وهم يقولون لك : لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى للملائكة ويقولون : هذا فلان بن فلان

(١) حديث أنس : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيته يضحك حتى بدت ثيابه فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ قال : رجلان من أمي جثيا بين يدي رب العالمين ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرک وقد تقدم .

كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للدكأة في قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عندهم ، فما أعظم جهلك إذ تحتجز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملاء العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الآليم والسياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم ، فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأحوال في قول الله تعالى ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ فامدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ فالتاس من بعد هذه الأحوال يساقون إلى الصراط - وهو جسر ممدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر - فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر في أول قدم من الصراط وتردى . فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدته ، واضطرت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزولون ويتعثرون ، وتتنازلهم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب ، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتسفل إلى جهة النار ره وسهم وتعلوا أرجلهم ، فياله من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه وبجاز ما أضيقه ! فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك ، تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهافون في النار والرسول عليه السلام يقول : يا رب سلم سلم ، والزحقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم الكثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك ؟ فناديت بالويل والثبور وقلت : هذا ما كنت أخافه فيا ليتني قدمت لحياقي يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا يا ليتني كنت ترابا يا ليتني كنت نسيا منسيا يا ليت أمي لم تلدني ! وعند ذلك تختطفك النيران - والعياذ بالله - وينادي المنادي ﴿ اخشوا فيها ولا تكلمون ﴾ فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة ، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الاخطار بين يديك ؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم ! وإن كنت به مؤمنا وعنه غافلا وبلا استعداد له متهاونا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعى في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه افل ولم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياح قلبك من خطر الجواز عليه - وإن سلمت - فناهيك به هولا وفزعا ورعبا ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من ينجو بأمته من الرسل ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم اللهم سلم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تحتطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو ^(١) ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله

(١) حديث « ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من ينجو » متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طويل

صلى الله عليه وسلم ، يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجرى ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشى مشيا ومنهم من يجوب جوبا ومنهم من يرحف زحفا ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون ، وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون لحما ثم يؤذن في الشفاعة ^(١) ، وذكر إلى آخر الحديث : وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قيا ما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال : « ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضي مرة ويخبو مرة فإذا أضاء قدمه فشى وإذا أظلم قام ، ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم ، فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كأنه قضاض الكواكب ومنهم من يمر كشدة الفرس ومنهم من يمر كشدة الرجل حتى يمر الذى أعطى نوره على إبهام قدمه يجبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار ، قال : « فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلاص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله مالم يعط أحدا إذ نجاني منها بعد إذ رأيته فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل ^(٢) » وقال أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه السلام لاخذ بحجزتي وإني لأقول يارب سلم سلم فالزالون والزالات يومئذ كثير ^(٣) » .

فهذه أهوال الصراط وعظائمه ، فطول فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة . ولست أعنى بالخوف رقة كركة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك ؟ فإذا من الخوف في شيء ؟ بل من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طابه . فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته . وابتعد من رقة النساء خوف الحق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى استغاثتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم . فالشيطان يضحك من استعاذتهم . كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصوله من بعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه ؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغنى عنه ذلك من السبع . وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول : لا إله إلا الله ، صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره . ومن اتخذ إلهه هواه فهو

(١) حديث أبي سعيد « يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب وخطاطيف . . . الحديث » متفق عليه مع اختلاف ألفاظ
(٢) حديث ابن مسعود « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قيا ما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء » قال : وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدى والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا .
(٣) حديث أنس « الصراط كحد السيف - أو كحد الشعرة . . . الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب وقال هذا استناد ضيف قال وروى عن زياد النميري عن أنس مرفوعا « الصراط كحد الشعرة - أو كحد السيف » قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

بعباده من الصدق في توحيده وأمره مخاطر في نفسه ، فإن عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سننه ومشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجر بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

صفة الشفاعة

أعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين ، بل شفاعة العلماء والصالحين ، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه ، فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عند مرتبة الشفاعة ، وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا فإن الله تعالى خبا ولايته في عباده فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله ، ولا تستصغر معصية أصلا فإن الله تعالى خبا غصبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه ، ولا تستحقر أصلا طاعة فإن الله تعالى خبا رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه . ولو الكلمة الطيبة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراه .

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ روى عمرو ابن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ ثم رفع يديه وقال : أمي أمي ، ثم بكى فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك ، فاتاه جبريل فسأله فأخبره - والله أعلم به - فقال : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له : إننا نرضيك في أمتك ولا نسوءك ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجدا وترابها طهورا فأيمس رجل من أمي أدركته الصلاة فليصل وأعطيت الشفاعة ، وكل نبي بعث إلى قومه خاصه وبعثت إلى الناس عامة ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير نحر ، وقال صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم ولا نخر وأنا أول من تلتقى الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ^(٤) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ، ويبقى منبري لا أجلس عليه قائما بين يدي ربي منتصبا مخافة أن يبعثني إلى الجنة وتبقى أمتي بعدى ، فأقول : يارب أمتي فيقول الله عز وجل : يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول : يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صككا كبرجال قد بعث بهم

(١) حديث عمرو بن العاص : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ ثم رفع يديه ، ثم قال : أمي أمي ، ثم بكى ... الحديث . وفيه : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إننا نرضيك ولا نسوءك في أمتك ، قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النسخ . (٢) حديث : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ... الحديث . وفيه : وأعطيت الشفاعة . متفق عليه من حديث جابر . إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير نحر . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح . (٣) حديث : أنا سيد ولد آدم ولا نخر ... الحديث . أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري . (٤) حديث : لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة .

إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول : يا محمد ما تركت للنار لغضب ربك في أمتك من بقية (١) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر » (٢) ، وقال أبو هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فتش منها نهشة ثم قال : أنا سيد المرسلين يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم النداء وينفذهم البصر وتدنو الشمس فبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض : ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله تعالى بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم آدم عليه السلام : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته ؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون : يانوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي ؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله . فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون : أنت نبي الله و خليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرهما ؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى . فيأتون موسى عليه السلام فيقولون : ياموسى أنت رسول الله فضلك برسالتك وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وإن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفسا أوامر بقتلها ؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى عليه السلام . فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلت الناس في المهدي اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول عيسى عليه السلام : إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وإن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ؛ نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم . فيأتون فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ؟ فأطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربي ، ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحني على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : أمي أمي يارب ؛ فقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الايمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذي نفسي بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحير أو كما بين مكة وبصرى (٣) ، وفي حديث آخر . هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم ؛ وهو قوله في الكواكب هذا ربي ، وقوله لأهلهم بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله

(١) حديث ابن عباس « ينصب الأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبنى منبري لأجاس عليه فأما بين يدي ربي متعصبا ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت والبناني ضعيف . (٢) حديث « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر » أخرجه أحمد والطبراني من حديث بريرة بسند حسن . (٣) حديث أبي هريرة : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فتش منها نهشة ثم قال : أنا سيد الناس ... الحديث بطوله في الشفاعة ، قال وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم ، تنق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجهما مسلم .

إني سقيم . فهذه شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأحد أمته من العلماء والصالحين شفاعته أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمي أكثر من ربيعة ومضر ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله ^(٢) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديهم رجل من أهل النار ويقول : يا فلان هل تعرفني ؟ فيقول : لا والله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني شربة ماء فسقيتك ، قال : قد عرفت ، قال : فاشفع لي بها عند ربك ! فيسأل الله تعالى ذكره ويقول : إني أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال : هل تعرفني ؟ فقلت : لا من أنت ؟ فقال : أنا الذي استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه ، فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار ^(٣) ، وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يتسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا نحر ^(٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسي حلة من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري ^(٥) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم : عجبا إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما ! وقال آخر : فعيسى كلمه الله وروحه ! وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال : قد سمعت كلامكم وتعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجى الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا نحر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا نحر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا نحر وأنا أول من يحرك خلق الجنة فيفتح الله لي فأدخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا نحر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا نحر ^(٦) .

صفة الحوض

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن

- (١) حديث : يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمي أكثر من ربيعة ومضر ، رويناه في جزءه أبي عمر بن السهاك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال : مثل أجسد الحيين ربيعة ومضر ، وفيه : فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان واسناده حسن والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجذعا : يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمي أكثر من بني تميم قالوا : سواك قال : سواي قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .
- (٢) حديث : يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله ، أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد : أن من أمي من يشفع للقبائل ومنهم من يشفع للقبيلة ... الحديث ، وقال حسن والبزار من حديث أنس أن الرجل يشفع للرجلين والثلاثة . (٣) حديث أنس : أن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديهم رجل من أهل النار ويقول : يا فلان هل تعرفني ؟ فيقول : لا والله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذي مررت بي في الدنيا يوما فاستسقيتني شربة فسقيتك ، ... الحديث ، في شفاعته فيه وإخراجه من النار ، أخرجه أبو منصور الديلمي في مستند الفردوس بسند ضعيف . (٤) حديث أنس : أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ... الحديث ، أخرجه الترمذي . وقال حسن غريب .
- (٥) حديث : فأكسي حلة من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ... الحديث ، أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح . (٦) حديث ابن عباس : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا : إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا ... الحديث . رواه الترمذي وقال غريب .

نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا عليه وفي الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبدا . قال أنس : أغنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له : يا رسول الله لم ضحكت ؟ فقال : آية أنزلت على أنفاسي ، وقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر) حتى ختمها ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء ^(١) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر ^(٢) ، وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء - أو مثل ما بين المدينة وعمان - ^(٣) ، وروى ابن عمر : أنه لما نزل قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب ، شرابه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجري على جنادل اللؤلؤ والمرجان ^(٤) ، وقال ثوبان - مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقان مأؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، أول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين ، فقال عمر بن الخطاب : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : هم الأشعث وموسى الدنس ثيابا الذين لا ينكحون المتعلمات ولا تفتح لهم أبواب السدد ^(٥) ، فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد نكحت المتعلمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله ، لا جرم لا أدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ . وعن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المضحية ، من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طول ما بين عمان وأيلة ، مأؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ^(٦) ، وعن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة ^(٧) ، فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متمنيا ومغتريا وهو يظن أنه راج ، فإن الراجي للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوران الحصاد ، فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن

(١) حديث أنس . أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يا رسول الله لم ضحكت ؟ فقال : آية نزلت على أنفاسي ، وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم (إنا أعطيناك الكوثر) رواه مسلم . (٢) حديث أنس : بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ... الحديث . أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ورواه البخاري من قول أنس : لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء . . . الحديث . وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم . (٣) حديث أنس : ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة ما بين المدينة وعمان . رواه مسلم . (٤) حديث ابن عمر : لما نزل قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب ... الحديث . أخرجه الترمذي مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف . (٥) حديث ثوبان : أن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء ... الحديث أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه . (٦) حديث أبي ذر : قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء ... الحديث . رواه مسلم . (٧) حديث سمرة : أن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة ... الحديث . أخرجه الترمذي وقال غريب قال روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح .

وليس من الراجين في شيء ، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحق . نعوذ بالله من الغرور والغفلة فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالتها

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرقة على الانقضاء والروال ؛ دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك ، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه ، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا ، فبينما هم في كربها وأهوالها وقروفا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيغ شفعاتها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لب ، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجئت الاعمى على الركب حتى أشفق البرءاء من سوء المنقلب . وخرج المنادى من الزبانية قائلا : أين فلان بن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ فأسكنوا دارا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك ، يخادفها الأسير ويوقد فيها السعير ، شراهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم ، أمازيهم فيها الهلاك وما لهم منها فسك ، قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك قد حق علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد يا مالك فد لضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فإننا لا نعود . فتقول الزبانية : هيات لات حين أمانا ولا خروج لكم من دار الهوان فاحسبوا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتهم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيانهم والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى في النار طعامهم نار وشراهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران وسراييل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون في مضايقتها ويتحطمون في درزاتها ويضطربون بين غواشيتها ، تغلى بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل . ومهما دعوا بالبور صب من فوق ره وسهم الحميم يصهر به ماني بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فينفجر الصديد من أفواههم وتقطع من البطش أكبادهم ، وتسيل على الحدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها ، وكلما لضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، قد عزيت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفتح تلك النيران ، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم ، وأعميت أبصارهم ، وابكت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعناقهم ، وجم بين نواصيهم وأقدامهم . وهم يمشون على النار بوجوههم ويطأون حشك الحديد بأحداقهم ، فلهيب النار سار في بواطن أجزائها وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم . هذا بعض جملة أحوالهم . وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم

« إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعين ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يوقع ذلك كله » (١) ، وقال على كرم الله وجهه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جب الحزن - أو وادى الحزن ، قيل يا رسول الله وما وادى - أو جب - الحزن قال : واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعدّه الله تعالى للقراء المرائين » (٢) ، فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها . وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ، الأعلى : جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا ، فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعظم منها . قال أبو هريرة : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها » (٣) .

ثم انظر إلى تفاوت الدرجات وأكبر تفضيلا ، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ، ومن غائص فيها إلى حد محدود ، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة . فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان ، بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه ، إلا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بخدافير لا فتدى بها من شدة ما هو فيه ما هو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه » (٤) ، فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه . ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به . ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهباتها لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاصوها طائعين هربا عما هم فيه . وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا » (٥) بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احترت ثم أوقد عليه ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة » (٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها في نفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما يجدونه في الصيف من حرها وأشد ما يجدونه في الشتاء من زهريرها » (٧) ،

(١) حديث « إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يوقع ذلك كله » لم أجده هكذا بجملة وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب .
(٢) حديث علي : تعوذوا بالله من جب الحزن - أو وادى الحزن . . . الحديث « رواه ابن عدى بلفظ « وادى الحزن » وقال باطل وأبو نعيم والأسبغاني بسند ضعيف ورواه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « جب الحزن » وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء . (٣) حديث أبي هريرة : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة . . . الحديث « وفيه « هذا حجر أرسل في جهنم . . . الحديث » رواه مسلم . (٤) حديث « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار . . . الحديث » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير . (٥) حديث « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا » ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس « وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد » ولابزار من حديث أنس وهو ضعيف « وما وصلت إليكم » حتى أحسبه قال « اضحت بالماء فتضيء عليكم » . (٦) حديث « أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احترت . . . الحديث » تقدم . (٧) حديث « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا ، فأذن لها بنفسين . . . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

وقال أنس بن مالك : يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمساً ثم يقال له هل رأيت نعيماً قط فيقال : لا ، ويؤتى بأشد الناس ضراً في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمساً ثم يقال له : هل رأيت ضراً قط؟ فيقول : لا وقال أبو هريرة : لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا . وقد قال بعض العلماء في قوله (تلفح وجوههم النار) إنها لفحمتهم لفحة واحدة فما أبقت لحماً على عظم إلا ألقته عند أعقابهم .

ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق : قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن دلوا من غساق جهنم ألقى في الدنيا لانتن أهل الأرض (١) « فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحرقهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا .

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى (ثم إنكم إليها الضالون المكذبون لا تكون من شجر من زقوم فالثون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الحميم) وقال تعالى (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلوعها كأنه رهوس الشياطين فإنها لا تكون منها فالثون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) وقال تعالى (تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية) وقال تعالى (إن لدينا أنسكالا وجحيميا وطعاما ذا غصة وعذابه أليما) وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم (٢) ، فكيف من يكون طعامه ذلك ؟ وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إرغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم ، فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيثتها عليكم (٣) ، وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني عن جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون كما كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم ، قال : فيدعون خزنة جهنم (أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تلك تأتكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) قال : فيقولون ادعوا مالكم فيدعون فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك ، قال : فيجيئهم إنكم ما كنون (٤) ، قال الأعشى : أنبت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال : فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) قال : فيجيئهم (اخسثوا فيها ولا تكلمون) قال :

(١) حديث أبي سعيد الخدري « لو أن دلوا من غساق ألقى في الدنيا لانتن أهل الأرض » أخرجه الترمذي وقال لما نعرفه من حديث رشيد بن سعد وفيه ضعف .
(٢) حديث ابن عباس « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه . (٣) حديث أنس « ارغبوا فيما رغبتكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم الله به من عذابه وعقابه من جهنم ... الحديث » لم أجده مستادا .
(٤) حديث أبي الدرداء « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام . الحديث » أخرجه الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء ، قال الدارمي : والناس لا يعرفون هذا الحديث ، وإنما روى عن الأعشى عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله .

فمعد ذلك يؤسوا من كل خير ، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل . وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يسكاد سيفه ﴾ قال : يقرب إليه فيسكره فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه . فإذا شربه قطع أمعاه حتى يخرج من دبره ، يقول الله تعالى ﴿ وسقوا ماء حيا فقطع أمعاهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ فهذه طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم (١)

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم ، فهي لا تفتر عن النش والدغ ساعة واحدة قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيمه - يعني أشداه - فيقول أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين يدخلون بها آثام الله من فضله ... الآية ﴾ (٢) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلعسن اللسعة فيجد حوتها أربعين خريفا ، وإن فيها لعقارب كالبعال الموكفة يلعسن اللسعة فيجد حوتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل له (٣) ، ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي ، قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث (٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شفته السفلى سافطة على صدره والعليا فاصدة قد غطت وجهه (٥) ، وقال عليه السلام : إن الكافر ليحترق لسانه في سبعين يوم القيامة يتواطؤه الناس (٦) ، ومع عذاب الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم . قال الحسن في قوله تعالى ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيه وودون كما كانوا .

ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور ، فإن ذلك يسلط عليهم في أول إلقائهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك (٧) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك (٨) ، قال محمد بن

(١) حديث أبي أمامة في قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يسكاد سيفه ﴾ قال يقرب إليه ... الحديث أخرجه

الترمذي وقال غريب . (٢) حديث أبي هريرة : من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع ...

الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه . (٣) حديث : إن في النار لحيات مثل أعناق

البخت يلعسن اللسعة .. الحديث . أخرجه أحمد من رواية ابن أبي عمير عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزة .

(٤) حديث أبي هريرة : ضرس الكافر في النار مثل أحد ... الحديث . رواه مسلم . (٥) حديث : شفته السفلى

سافطة على صدره والعليا فاصدة قد غطت وجهه . أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب .

(٦) حديث : إن الكافر ليحترق لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس . أخرجه الترمذي من رواية أبي الخارق عن

ابن عمر وقال غريب وأبو الخارق لا يعرف . (٧) حديث : يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ... الحديث . أخرجه

مسلم من حديث عبد الله بن مسعود . (٨) حديث أنس : يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع ...

الحديث . أخرجه ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف .

كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ فيقول الله تعالى مجيبا لهم ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ﴾ ثم يقولون ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجيب دعوتك وتبغ الرسل ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ فيقولون ﴿ ربنا أخرنا لنعمل صالحا غير الذى كنا نعمل به ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ أو لم نعلمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فساد الظالمين من نصير ﴾ ثم يقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس رضى الله عنه : قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت ^(١) ، وعن الحسن قال : يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتى كنت ذلك الرجل . ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا فى زاوية وهو يبكى ف قيل له : لم تبكى ؟ فقال : أخشى أن يطرحنى فى النار ولا يبالي . فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة ، وتفصيل عمومها وأجزائها ومحنتها وحسرتها لانهاية له ، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه ، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة ؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة فى الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية ، بل كانت مكسرة منغصة فيقولون فى أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعضيان ربنا ! وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ولو صبرنا لكأن قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن فى جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان ؟ فى الحسرة هؤلاء وقد فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شئ من نعيم الدنيا ولذاتها ، ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتها لكنها تعرض عليهم . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة مارجع الأولون والآخرون بمثلها ، فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أرينا من ثوابك وما أعددت فيها لأولائك كان أهون علينا ، فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظام وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم تجلوني وتركنتم للناس ولم تتركوا لى فالיום أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم ^(٢) ، وقال أحمد بن حنبل : إن أحدا لا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ووجه صحيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود : إلهى لا صبر لى على حر شمسك فكيف صبرى على حر نارك ؟ ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك ؟ .

فانظر بامسكين فى هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خالق النار بأهوالها وخلق أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾

(١) حديث « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح » أخرجه البخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد وقد تقدم . (٢) حديث « يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ... الحديث » رويناه فى الأربعين لأبى هدية عن أنس وأبو هدية لإبراهيم بن هدية مالك .

ولعمري الإشارة به يوم القيامة ، بل في أزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء ، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك !

فإن قلت : فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء في حقى ؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كلا هيسر لما خلق له ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعث عن النار ، وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار . فقد قال الله تعالى ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾ فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم .

القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التى عرفت همومها وغموها تقابلها دار أخرى ، فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة فى الأخرى . فاستشر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم واستشر الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تتال الملك العظيم وتسلم من العذاب الآليم ، فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبرى الأخضر ، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالخور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان ، يمشين فى درجات الجنان إذا اختالت إحداهن فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان ، عليها من طرائف الخزير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار ، مكلمات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات غنجات عطرآت آمناآت من الهرم والبؤس مقصورات فى الخيام فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ، فى مقام أمين فى جنات وعيون فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم ، لا يرهقهم فتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون ، وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا فى أنهار أراضيها من فضة وحسباؤها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ، ويمطرون من سحب فيها من ماء النسرین على كشبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأى أكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم مزوج به السلسيل العذب ، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحرته ، لم يصنعه آدمى فيقصر فى تسوية صنعته وتحسين صناعته ، فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى إشراقها ، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه . فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها ويتهنأ بعيش دونها ؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن

من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدّثان لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها ، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرير ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون ، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينادى ناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تتعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ﴿ ونودوا أن تأسوا الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ » (١) .

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فأقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان ، وأقرأ من قوله تعالى ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان ﴾ إلى آخر سورة الرحمن ، وأقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور . وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها ، وتأمل أولا عدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال « جنتان من فضة آيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم لإلراء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (٢) ، ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي . قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد » فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » (٣) ، وعن عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرها لأحفظه ثم قال ﴿ وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾ حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداها كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت مافي بطونهم من أذى أو بؤس ، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فخرجت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ولا تشعث رءوسهم كأنما دهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها ﴿ سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين ﴾ ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة ، يقولون له : أبشرا عذ الله لك من الكرامة كذا ، قال : فينطق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الخور العين فيقول : قد جاء فلان - باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا - فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثرى ، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لآلم أن يذهب بصره ، ثم يطأ طيء رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ونبارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ﴿ ثم اتكأ فقال ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى

(١) حديث أبي هريرة « ينادى ناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد . (٢) حديث « جنتان من فضة آيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آيتهما وما فيهما ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي موسى . (٣) حديث أبي هريرة « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة ... الحديث » متفق عليه .

لولا أن هدانا الله) ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظعنون أبدا وأصحوون فلا تمرضون أبدا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ^(١) .

ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، وكأن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطالب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك ، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بطائف لا توازيها الدنيا بجدافيرها ، فقد قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فرقههم كما تراءون الكوكب الغائر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ^(٢) ، وقال أيضاً : إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنبأ ^(٣) ، وقال جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أحذركم بغرف الجنة ، قال : قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبينا أنت وأمننا قال : إن في الجنة غرفاً من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال : قلت يا رسول الله ولما هذه الغرف ؟ قال : لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام ، قال : قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال : أمتي تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك ، من لقي أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفشى السلام ، ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ، ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ، ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام ^(٤) ، يعني اليهود والنصارى والمجوس . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ قال : قصور من لؤلؤ ، في كل قصر سبعون داراً من ياقوت أحمر ، في كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر ، في كل بيت سرير ، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة . على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن في كل غداة - يعني من القوة - ما يأتي على ذلك أجمع ^(٥) .

(١) حديث : « آتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أنس .

(٢) حديث أبي سعيد : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تراءون الكوكب . . . الحديث » متفق عليه وقد تقدم ، (٣) حديث : « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع » رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد . (٤) حديث جابر : « ألا أحذركم بغرف الجنة » قلت : بلى يا رسول الله بأبينا أنت وأمننا قال : « إن في الجنة هرماً من أصناف الجوهر . . . الحديث » أخرجه أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر . (٥) حديث : سئل عن قوله تعالى ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ قال : « قصور من لؤلؤ . . . الحديث » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب المظنة والآجرى في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال : سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن ابن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم ، والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور .

صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعتته بالدنيا عوضا عنها فقد قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب تراها زعفران وطينها مسك »^(١) ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال « درمكة بيضاء مسك خالص »^(٢) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ، ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا »^(٣) ، وقال « أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال - أو تحت جبال - المسك »^(٤) ، ولو كان أدنى أهل الجنة خلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها »^(٥) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها أقرموا إن شئتم » (وظل ممدود)^(٦) ، وقال أبو أمامة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؛ أقبل أعرابي فقال : يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما هي ؟ » قال : السدر فإن لها شوكا ، فقال « قد قال الله تعالى (في سدر مخضود) يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكه ثمرة ثم تنفتح الثمرة منها عن الثين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر »^(٧) ، وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه ، فقلت للغلام : انطلق بهذا النطع فأظله فأطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال : يا جرير تواضع لله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت : لا أدري قال : ظلم الناس بعضهم بعضا ، ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من صغره فقال : يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده ، قلت : يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر ؟ قال : أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر .

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب واولوا ولباسهم فيها حرير ﴾ والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار ؛ فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى

(١) حديث أبي هريرة « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب تراها زعفران وطينها مسك » أخرجه الترمذي بإفظ « وملاطها المسك » وقال ليس اسناده بذلك القوي وليس عندي بمتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقفا عليه بإسناد صحيح ، (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال « درمكة بيضاء مسك خالص » أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره . (٣) حديث أبي هريرة « من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركها في الدنيا » أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة » .

(٤) حديث « أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال - أو تحت جبال - المسك » أخرجه العقيلي في الأضواء من حديث أبي هريرة (٥) حديث « لو كان أدنى أهل الجنة خلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن . (٦) حديث « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها . » الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة . » (٧) حديث أبي أمامة : أقبل أعرابي فقال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال « ما هي » قال : السدر . الحديث « أخرجه ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسل من غير ذكر لأبي أمامة .

ثيابه ولا يفتى شبابه ، في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر عن قلب بشر ^(١) ، وقال رجل : يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك بعض القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جاهل سأل عالما » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين ^(٢) » ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون أنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك ، لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية ، وفي رواية : « على كل زوجة سبعون حلة ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ قال : « إن عليهم التيجان أدنى أدنى لؤلؤة فيها قضى ما بين المشرق والمغرب ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للثمن أهل لا يراهم الآخرون ^(٥) » ، رواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس : الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض ^(٦) .

صفة طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى ، قال الله تعالى ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ﴾ وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ، وقد قال ثوبان - مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاء جبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال : فمن أول إجازة - يعني على الصراط - ؟ فقال : فقراء المهاجرين ، قال اليهودي : فما تحفهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : زيادة كبد الحوت ، قال : فما غداؤهم على أرضها ؟ قال : ينجر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل في أطرافها ، قال : فما شرايبهم عليه ؟ قال : « من عين فيها تسمى سلسبيلا » فقال : صدقت ^(١) وقال زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا أبا القاسم ألسنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ وقال لأصحابه : « إن أقرئ بها خصمته » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بلى والذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم

- (١) حديث أبي هريرة « من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه .. الحديث » رواه مسلم دون قوله « في الجنة مالا عين رأت .. الخ » فانفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة « قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت .. الحديث » .
- (٢) حديث : قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم تنسج تنسج ؟ .. الحديث أخرجه الذهبي من حديث عبد الله بن عمرو . (٣) حديث أبي هريرة « أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر .. الحديث » .
- (٤) حديث : في قوله تعالى ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ قال : « إن عليهم التيجان أدنى أدنى لؤلؤة فيها قضى ما بين المشرق والمغرب » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا يعرفه إلا من حديث رشيد بن سعد .
- (٥) حديث « الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا .. الحديث » عزاه المصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري . (٦) حديث أبي سعيد في قوله تعالى ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال « ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض » أخرجه الترمذي باللفظ « ارتفاعها لسما بين السماء والأرض » وقال غريب لا يعرفه إلا من حديث رشيد بن سعد .
- (٧) حديث ثوبان : جاء جبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال : فمن أول الناس إجازة ؟ يعني على الصراط فقال « فقراء المهاجرين » قال اليهودي : فما تحفهم حين يدخلون الجنة ؟ قال « زيادة كبد النون .. الحديث » رواه مسلم بزيادة في أوله وآخره .

والمشرب والجماع ، فقال اليهودي : فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضمير ^(١) ، وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتتظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيختر بين يديك مشويا ^(٢) ، وقال حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة طيرا مثل البخاتي . قال أبو بكر رضي الله عنه : إنها لناعمة يا رسول الله ؟ قال : نعم منها من يأكلها وأنت بمن يأكلها يا أبا بكر ^(٣) ، وقال عبد الله بن عمر في قوله تعالى ﴿ يطاف عليهم بصحاف ﴾ قال : يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿ ومزاجه من تسليم ﴾ قال : يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا . وقال لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها .

صفة الحور العين والولدان

قد تكرر في القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها وأقرب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاعت وللمات ما بينهما رائحة وانصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها ^(٤) ، يعني الخمار ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرأة وإن أدنى أو أوة عليها لنعى ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ^(٥) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى البديخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن : السلام عليك يا رسول الله : فقلت : يا جبريل ما هذا النداء قال : هؤلاء المقصورات في الخيام استأذنن ربهن في السلام عليك فأذن لهن ، فطفقن يقطن نحن الراضيات فلا نستخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظعن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ حور مقصورات في الخيام ^(٦) ﴾ ،

- (١) حديث زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود فقال : يا أبا القاسم أنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ... الحديث . وفيه : حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك » أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد صحيح .
- (٢) حديث ابن مسعود : إنك لتتظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيختر بين يديك مشويا » أخرجه البزار بإسناد صحيح .
- (٣) حديث حذيفة : إن في الجنة طيرا أمثال البخاتي ... الحديث » غريب من حديث حذيفة ولا أحد من حديث أنس بإسناد صحيح » إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة » قال أبو بكر : يا رسول الله إن هذه الطير ناعمة قال : أكلتها ألعم منها » قالها ثلاثا » وإنى أرجو أن تكون بمن يأكل منها » وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال : فيه طير أعناقها الجزر » قال عمر : إن هذه لناعمة ... الحديث . وإيس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن .
- (٤) حديث : غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث أنس .
- (٥) حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالى ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرأة ... الحديث » أخرجه أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي صلى الله عليه وسلم مهملادون ذكر أبي سعيد والترمذي من حديث ابن مسعود : إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى يباس مخ ساقها من وراء سبعين حلة ... الحديث » ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : لسكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللهم .
- (٦) حديث أنس : لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر ... الحديث » وفيه : أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام » وفيه : فطفقن يقطن نحن الراضيات فلا نستخط » لم أجده مكذبا

وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ قال : من الحيض والغائط والبول والبصاق والذخامة والمني والولد . وقال الأوزاعي ﴿ في شغل فاكهون ﴾ قال : شغلهم افتضاض الأيسكار . وقال رجل : يا رسول الله أيباض أهل الجنة ؟ قال : يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم ^(١) ، وقال عبد الله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى له ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا ^(٢) وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها ، وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلهما يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا لسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له ^(٣) ، وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الحور العين في الجنة يتغنين : نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام ^(٤) ، وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى ﴿ في روضة يجرن ﴾ قال السماع في الجنة . وقال أبو أمامة الباهلي : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثلثان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحמיד الله وتقديسه ^(٥) .

بيان جل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه : ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب السكبة نور يتلأل ولا وريحانة تهز ووقصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة فضيحة وزوجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبدا ونضرة في دار عالية بهية سليمة ، قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله قال : قولوا إن شاء الله تعالى ، ثم ذكر الجهاد وحض عليه ^(٦) . وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : هل في الجنة خيل فإنها تعجبني ؟ قال : إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت ، وقال له رجل : إن الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل ؟ فقال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتئت نفسك ولذت

بتجارتهم والترمذي من حديث علي « أن في الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلهما يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا لسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له » وقال غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف « فيجتمعن في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات ... الحديث » . (١) حديث : قال رجل يا رسول الله أيباض أهل الجنة ؟ قال : يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم » أخرجه الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع » فويل أو يطبق ذلك ؟ قال : يعطى قوة مائة . (٢) حديث : « إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا » أخرجه أبو الشيخ في طبقات الحديث وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال : « مائة حوراء » ولم يذكر فيه عناقته لهن ، وإسناده ضعيف ، وتقدم قبله بحديث . (٣) حديث : « إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ... الحديث » أخرجه الترمذي فرقه في موضعين من حديث علي وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين .

(٤) حديث أنس « أن الحور في الجنة يتغنين فيقلن : نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام » أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنكدر قال البخاري يتكلمون فيه وقال ابن عدى أرجو أنه لا بأس به . (٥) حديث أبي أمامة « ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثلثان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحמיד الله وتقديسه » أخرجه الطبراني بإسناد حسن . (٦) حديث أسامة بن زيد « ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها ... الحديث » أخرجه ابن ماجه وابن حبان .

غيناك^(١) ، وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ، يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة^(٢) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتهان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخى تذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة جرد مرد جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع^(٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدنى أهل الجنة الذى له ثمانون ألف خادم وثلثان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب^(٥) . وقال صلى الله عليه وسلم : نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها بكلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبحر ، وإذا فيها جارية فقلت يا جارية لمن أنت ؟ فقالت لزيد بن حارثة ، وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر^(٦) ، وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الجنة بيده ثم قال لها تسكمنى فقالت (قد أفلاح المؤمنون) فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلاً .

وقد ذكر الحسن البصرى رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء ، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنها من خمر لذة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرموس ، وإن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر : ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثون في سن واحد طولهم ستون ذراعاً في السماء ، كل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأننت بهم الدار ، وإن أنهارها لتجرى على رضراض من ياقوت وزبرجد ، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم عليها إلا الله تعالى ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة ، وإن لهم فيها خيلاً وإبلًا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاوون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون ، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى

(١) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فإنها لمجبنى ... الحديث أخرجه الترمذى من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسمودى مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلًا قال الترمذى وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى المدينى عبد الرحمن بن سابط في ذيله على ابن منده في الصحابة ولا يصح له صحة . (٢) حديث أبي سعيد : إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ، ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب ، قال : وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم : في الجنة جامع ولا يكون ولد ، انتهى . ولأحمد من حديث أبي رزين : ولد ويلى مثل لئائكم في الدنيا ويتلدن بكم غير أن لا تولد ، (٣) حديث : إذا استقر أهل الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا أخرجه البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال : لا يلهى بروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس انتهى . والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب مرسلًا دون ذكر أنس . (٤) حديث : أهل الجنة جرد مرد بيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين ... الحديث أخرجه الترمذى من حديث ماوذ وحسنه دون قوله : بيض جماد ، ودون قوله : على خلق آدم ، إلى آخره ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا : أهل الجنة جرد مرد كل وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً (٥) حديث : أدنى أهل الجنة منزلة الذى له ثمانون ألف خادم ... الحديث أخرجه الترمذى من حديث أبي سعيد مائة طاء من أوله إلى قوله : وإن عليهم التيجان ومن هنا يسناده أيضا وقال لا يعرفه إلا من حديث رشد بن سعد : (٦) حديث : نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها بكلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبحر ... الحديث رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هرون العبدى عن أبي سعيد وأبو هرون اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : يقول الله أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

مخسافها من وراء تلك السنعين حلة ، قد ظهر الله الاخلاق من السوء والاجساد من الموت ، لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك ، لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، أما إنه ليس ليل يكثر الغدق على الرواح والرواح على الغدق ، وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمتدله في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه ، يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها ، في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثله ، ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوله ، وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب . وقال مجاهد . إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ؛ وأرفعهم الذي ينظر إلى ربه بالغداة والعشي . وقال سعيد ابن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة ؛ سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إن في الجنة حوراء يقال لها العينا إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول : أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟ وقال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهر الآخرة . وقال أيضا في طلب الدنيا ذل النفوس ، وفي طلب الآخرة عز النفوس ، فيا عجباً لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى !

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك تعالى

قال الله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى ، وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة . وقد ذكرناه حقيقتها في كتاب المحبة . وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة . قال جرير بن عبد الله البجلي : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال « إنكم ترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ ^(١) وهو مخرج في الصحيحين وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال ، إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا : ما هذا الموعد ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجزنا من النار ؟ ، قال ، فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه ^(٢) ، وقد روى حديث الرؤية جماعة من الصحابة ، وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى ، وكل ما فصلناه من التمتع عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لانسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء : وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى . وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى .

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال « إنكم ترون ربكم » الحديث « هو في الصحيحين كما ذكر المصنف . (٢) حديث صهيب في قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ رواه مسلم كما ذكره المصنف .

نختم الكتاب بياب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يحب الفأل ^(١) وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في التفاؤل ، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى ﴿ إن لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ .

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازات به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ، ونستغفره عما ادعينا به وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدهنا به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره من كل خطرة دعنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولما طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا فإن الكرم عيم الرحمة واسعه والجلود على أصناف الخلائق فائض . ونحن خالق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه . فقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطيور والبهائم والحوام فيها يتعاطفون وبها يتراحون وآخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ^(٢) ، ويروى أنه كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا ^(٤) ، وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف ^(٥) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم ؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي ^(٦) ، وقال

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحب التفاؤل . متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث « ومحبتي للفأل الصالح والكلمة الحسنة » ولما من حديث أبي هريرة « وخيرها الفأل ؟ قال « الكلمة الصالحة يسئرها أحكم » .

(٢) حديث « أن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان .

(٣) حديث « إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي . » الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي » لفظ البخاري وقال مسلم « كتب في كتابه على نفسه إن رحمتي تلب غضبي » .

(٤) حديث « يتجلى الله لي يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا » أخرجه مسلم من حديث أبي موسى « إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا لداؤك من النار » ولأبي داود « أمي أمة مرحومة لأعذاب عليها في الآخرة ... الحديث » وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضا « يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رؤوسكم فليس هذا يوم عبادة » وفيه علي بن زيد بن جدعان .

(٥) حديث « يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف » أخرجه الطبراني من حديث أس بن ساد ضعيف .

(٦) حديث « أن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم ... الحديث » أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بن سند ضعيف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام ^(١) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجنا » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ^(٢) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها ^(٣) » ، وقال جابر بن عبد الله : من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره .

ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام : يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعضوت عنه . وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى : ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيعدو أحدهما في سلسله حتى يقتحمها ويتلصقا الآخر ويأمر بردهما ويسألها عن فعلهما ، فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأعرض لسخطك ثانية ويقول الذي تلتكأ حسن ظني بك كان يشعري أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها ، فيأمر بهما إلى الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي ^(٤) » ، ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ فقال الأعرابي : فوالله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها ، فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه . وقال الصنابحي : دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال : مهلا ... لم تبكي ؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله النار عليه ^(٥) » ، وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مذابح صبر ، ثم يقول أتكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا يارب . فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك

(١) حديث « يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام » أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب . (٢) حديث « إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار » الحديث . في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ أخرجه النسائي في الكبرى من حديث جابر بن عمرو بإسناد صحيح (٣) حديث « الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله : قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته يبطنها فأرضعته . (٤) حديث « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرت له لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتي » رويناه في سباعات أبي الأسعد التميمي من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب ليس بثقة . (٥) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار » أخرجه مسلم من هذا الوجه وانفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر .

اليوم ، فيخرج بطاقة فيها « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » ، فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول إنك لا تعلم ، قال « فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة » ، قال « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء »^(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط « إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذرفها أحدا من أمرتنا » ، ثم يقول أرجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذرفها أحدا من أمرتنا » ، يقول أرجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذرفها أحدا من أمرتنا » ، فكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن لك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر ، وما يكون منها إلى الظل أبيض ، قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال « فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه » ، ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين ، فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون ياربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا^(٢) ، رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما . وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « عرضت على الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط » ، فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمي فقيل لي هذا موسى وقومه ، ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق ، فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا ، فقيل لي هؤلاء أملاك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، فتفرق التباس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فتمالوا . أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمننا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هم الذين لا يكتبون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال « أنت منهم » ، ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « سبقك بها عكاشة »^(٣) ، وعن عمر بن حزم الانصاري قال : تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع ، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا : يا رسول الله اجتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال « لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل الجنة من أمي سبعين ألفا لا حساب عليهم وإن سألني ربي في هذه الثلاثة أيام المزيد فرجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من

(١) حديث عبد الله بن عمرو « إن الله يستخلص رجلا من أمي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينتدبر له تسعة وتسعون سجلا » فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب . (٢) حديث « إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا » في إخراج الموحدين وقوله تعالى لأهل الجنة « فلا أسخط عليكم بعده أبدا » أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد . (٣) حديث ابن عباس « عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي ليس معه أحد » الحديث « لم يقل » سبقك بها عكاشة » رواه البخاري .

(١) حديث عمرو بن حزم الأضاري : أنفب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه « إن ربى وعدنى أن يدخل من أمتى الجنة سبعين ألفا لأحساب عليهم » وفيه « أعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا » أخرجه البيهقى فى البعث والنشور ولأحمد وأبى يعلى من حديث أبى بكر « فزادنى مع كل واحد سبعين ألفا » وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبرانى فى الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر فقال عمر : فهلا استزدته ؟ فقال « قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا » قال عمر : فهلا استزدته ؟ قال « قد استزدته فأعطانى هكذا » وفرج عبد الله بن أبى بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعية وحشى عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندى ضعيف . (٢) حديث أبى ذر « عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال : بصر أمتك بأنه من مات لا يفرك بالله شيئا دخل الجنة ... الحديث » متفق عليه بافظ « أنا نى جبريل فبشرنى » وفى رواية لهما « أنا نى آت من ربى » . (٣) حديث أبى الدرداء : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولمن خاف مقام ربه جنتان » فقلت « وإن زنى وإن سرق ... الحديث » رواه أحمد بإسناد صحيح . (٤) حديث « إذا كان يوم القيامة دفع الى كل مؤمن رجل من أهل الملل قليل له هذا فداؤك من النار » رواه مسلم من حديث أبى موسى نحوه وقد تقدم . (٥) حديث أبى بردة . أن حدث عمر بن عبد العزيز عن أمية أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يموت رجل مسلم الا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا » عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك . (٦) حديث : وقف صبي فى بعض المنازل ، ينادى عليه فيمن يزيد ، فى يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة ... الحديث . وفيه « الله أرحم بكم جميعا من هذه بابنها » متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسى فإذا امرأة من السبي تسمى اذ وجدت صبيا فى السبي ، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا : لا والله وهى تندب على أن لا تطرحه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أرحم بعباده من هذه بولدها » لفظ مسلم وقال البخارى : فإذا امرأة من السبي قد تخلب ثديها تسعى اذ وجدت صبيا ... الحديث . والحمد لله تعالى عودا على بدء والصلاة والتسليم على سيدنا محمد فى كل حركة وهذه .

يقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقي: اننى أكلت مسودة هذا التأليف فى سنة ٧٦١ ، وأكملت تبويض هذا المختصر منها فى يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ انتهى

فهرس الجزء الرابع

من إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي

صحيفة	صحيفة
٦٩ بيان مظان الحاجة إلى الصبر ... الخ	٢ كتاب التوبة
٧٥ بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه	٣ الركن الأول في نفس التوبة ... الخ
٨٠ الشطر الثاني من الكتاب في الشكر	بيان حقيقة التوبة وحدها
الركن الأول في نفس الشكر	٤ بيان وجوب التوبة وفضائلها
بيان فضيلة الشكر	٧ بيان أن وجوب التوبة على الفور
٨١ بيان حد الشكر وحقيقته	٩ بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص
٨٥ بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى	والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة
٩٠ بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه	١٣ بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها
٩٩ الركن الثاني من أركان الشكر ... الخ	فهى مقبولة لا محالة
بيان حقيقة النعمة وأقسامها	١٦ الركن الثاني فيما عنه التوبة وهى الذنوب
١٠٩ بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله تعالى	بيار أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات
وتسلسلها وخروجها عن الحصر	العبد
الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق	٢٣ بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات
أسباب الإدراك	في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا
١١١ الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق	٣٢ بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب
الإرادات	٣٤ الركن الثالث في تمام التوبة ... الخ
١١٢ الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق	٤٣ بيان أقسام العباد في درام التوبة
القدرة وآلات الحركة	٤٦ بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب ... الخ
١١٦ الطرف الرابع في نعم الله تعالى في	٤٩ الركن الرابع في دواء التوبة ... الخ
الأصول التي يحصل فيها الأظعمة ... الخ	٦٠ كتاب الصبر والشكر
١١٨ الطرف الخامس في نعم الله تعالى في	الشطر الأول في الصبر
الأسباب الموصلة للأظعمة لإيك	٦١ بيان فضيلة الصبر
الطرف السادس في إصلاح الأظعمة	٦٢ بيان حقيقة الصبر ومعناه
١١٩ الطرف السابع في إصلاح المصلحين	٦٦ بيان كون الصبر نصف الإيمان
١٢٠ الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في	بيان الأسامي التي تتجدد للصبر ... الخ
خلق الملائكة عليهم السلام	٦٧ بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة
١٢٣ بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر	والضعف

صحيفة	صحيفة
١٩٩ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين	١٢٧ الركن الثالث من كتاب الصبر
٢٠١ بيان فضيلة الفقر على الغنى	بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شىء واحد
٢٠٦ بيان آداب الفقير في فقره	١٣٤ بيان فضل النعمة على البلاء
٢٠٧ بيان آداب الفقير في قبول العطاء الخ	١٣٥ بيان الأفضل من الصبر والشكر
٢١٠ بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه	١٤٢ كتاب الخوف والرجاء ويشتمل على شطرين
٢١٤ بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال	الشرط الأول
٢١٥ بيان أحوال السائلين	بيان حقيقة الرجاء
٢١٦ الشرط الثاني من الكتاب في الزهد	١٤٤ بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه
بيان حقيقة الزهد	١٤٦ بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب
٢١٩ بيان فضيلة الزهد	١٥٥ الشرط الثاني من الكتاب
٢٢٥ بيان درجات الزهد وأقسامه الخ	بيان حقيقة الخوف
٢٣٠ بيان تفصيل الزهد فيها هو من ضروريات الحياة	١٥٧ بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف
٢٤١ بيان علامات الزهد	١٥٨ بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه
٢٤٣ كتاب التوحيد والتوكل	١٦٠ بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
بيان فضيلة التوكل	١٦٤ بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالها
٢٤٥ بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل وهو الشرط الأول من الكتاب	١٦٧ بيان الدواء الذي يستجاب حال الخوف
٢٥٩ الشرط الثاني من الكتاب	١٧٣ بيان معنى سوء الخاتمة
بيان حال التوكل	١٨٠ بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف
٢٦٤ بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل	١٨٣ بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف
٢٦٥ بيان أعمال المتوكلين	١٨٩ كتاب الفقر والزهد
٢٧٢ بيان توكل المعيل	١٩٠ الشرط الأول من الكتاب في الفقر
٢٧٥ بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال	بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه
٢٨١ بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم	١٩٣ بيان فضيلة الفقر مطلقا
٢٨٦ بيان أن ترك التداوى قد يحمى في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل الخ	
٢٩٠ بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال	

صحيفة	صحيفة
٣٦١ كتاب النية والإخلاص والصدق	٢٩٢ بيان أحوال المتركلين في إظهار المرض
٣٦٢ الباب الأول في النية	وكنهه
بيان فضيلة النية	٢٩٣ كتاب المحبة والشوق
٣٦٥ بيان حقيقة النية	والأنس والرضا
٣٦٦ بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية	بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى
المؤمن خير من عمله	٢٩٦ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق
٣٦٨ بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية	معنى محبة العبد لله تعالى
٣٧٣ بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار	٣٠٠ بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده
٣٧٦ الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته	٣٠٧ بيان أن أجل اللذات وأعلها معرفة
ودرجاته وحقيقته	الله تعالى الخ
فضيلة الإخلاص	٣١٢ بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة
٣٧٩ بيان حقيقة الإخلاص	على المعرفة في الدنيا
٣٨١ بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص	٣١٥ بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى
٣٨٢ بيان درجات الشوائب والآفات المكدره	٣١٩ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
الإخلاص	٣٢٠ بيان السبب قصور أفهام الخلق عن
٣٨٤ بيان حكم العمل المشوب واستحقاق	معرفة الله سبحانه وتعالى
الشراب به	٣٢٢ بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
٣٧٦ الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته	٣٢٧ بيان محبة الله للعبد ومعناها
فضيلة الصدق	٣٢٩ القول في علامات محبة العبد لله تعالى
٣٨٧ بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه	بيان معنى الأنس بالله تعالى
٣٩٣ كتاب المراقبة والمحاسبة	٣٤١ بيان معنى الانبساط والإدلال الذي
المقام الأول من المراقبة المشارطة	تثمره غلبة الأنس
٣٩٦ المراقبة الثانية المراقبة	٣٤٣ القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ
٣٩٨ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها	٣٤٤ بيان فضيلة الرضا
٤٠٤ المراقبة الثالثة محاسبة النفس الخ	٣٤٧ بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف
فضيلة المحاسبة	الهمى
٤٠٥ بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل	٣٥١ بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا
٤٠٦ المراقبة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها	٣٥٤ بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان
٤٠٨ المراقبة الخامسة المجاهدة	المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا
٤١٦ المراقبة السادسة في توبيخ النفس ومعاقبتها	٣٥٥ بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم
٤٢٣ كتاب الفسك	ومكاشفاتهم
فضيلة التفكير	٣٦٠ خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق
	بالمحبة يلتفت بها

صحيفة	صحيفة
٤٨٤ (الباب السادس) في أقاويل العارفين	٤٢٥ بيان حقيقة التفكير وثمرته
على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور	٤٢٧ بيان مجارى الفكر
٤٨٥ بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور	٤٣٥ بيان كيفية التفكير في خالق الله تعالى
٤٨٩ بيان أقاويلهم عند موت الولد	٤٤٨ كتاب ذكر الموت وما بعده
٤٩٠ بيان زيارة القبور والدعاء للبيت... الخ	٤٤٩ الشطر الأول في مقدماته وتوابعه الخ
٤٩٣ (الباب السابع) في حقيقة الموت وما يلقاه	الباب الأول في ذكر الموت الخ
الميت في القبر إلى نفخة الصور	بيان فضل ذكر الموت كيفما كان
بيان حقيقة الموت	٤٥١ بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب
٤٩٨ بيان كلام القبر للبيت وكلام المرقى إما	٤٥٢ الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر
بلسان المقال أو بلسان الحال	الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته
٤٩٩ بيان عذاب القبر وسؤال منكر ومنكر	فضيلة قصر الأمل
٥٠٢ بيان سؤال منكر ومنكر وصورتهما	٤٥٦ بيان السبب في طول الأمل وعلاجه
وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر	٤٥٨ بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره
٥٠٤ (الباب الثامن) فيما عرف من أحوال	٤٥٩ بيان المبادرة إلى العمل وحذرافة التأخير
الموقى بالمكاشفة في المنام	٤٦١ الباب الثالث في سكرات الموت وشده
٥٠٦ بيان منامات تكشف عن أحوال المرقى	وما يستحب من الأحوال عنده
والأعمال النافعة في الآخرة	٤٦٥ بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند
٥٠٧ بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم	الموت
أجمعين	٤٦٧ بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت
٥١١ (الشطر الثاني) من كتاب ذكر الموت	بمحكايات يعرب لسان الحال عنها
في أحوال الميت من وقت نفخة الصور	٤٦٨ (الباب الرابع) في وفاة رسول الله
إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار	صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من
وتفصيل ما بين يديه من الأحوال	بعده وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
والأخطار وفيه بيان نفخة الصور... الخ	٤٧٦ وفاة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه
صفة نفخة الصور	٤٧٧ وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه
٥١٣ صفة أرض المحشر وأهله	٤٧٨ وفاة عثمان رضى الله تعالى عنه
٥١٤ صفة العرق	٤٧٩ وفاة على كرم الله وجهه
٥١٥ صفة طول يوم القيامة	٤٨٠ (الباب الخامس) في كلام المحتضرين
صفة يوم القيامة ودواهيته وأساميته	من الخلفاء والأمراء والصالحين
٥١٧ صفة المسألة	٤٨١ بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين
٥٢٠ صفة الميزان	من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من
٥٢١ صفة الخصماء	أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين

صفحة	صفحة
٥٣٨ صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسرورهم وأراكهم وخيامهم	٥٢٤ صفة الصراط
٥٣٩ صفة طعام أهل الجنة	٥٢٦ صفة الشفاعة
٥٤٠ صفة الحور العين والولدان	٥٢٨ صفة الحوض
٥٤١ بيان جبل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار	٥٣٠ القول في صفة جهنم وأهلها وأنسكالها
٥٤٣ صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تعالى	٥٣٥ القول في صفة الجنة وأوصاف نعيمها
٥٤٤ نختم الكتاب بباب في سعة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك	٥٣٨ صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تم الفهرس وبه تم الكتاب

